THOUGHTS ABOUT DEATH AND IMMORTALITY

لودفيغ فويَرباخ

أفكار حول الموت والأزلية

فلسفة
PHILOSOPHY

ترجمة وشرح وتقديم
د.نبيل فيّاض

مساعدة أ. جورج برشين



أفكار حول الموت والأزلية

أفكار حول الموت والأزلية

Thoughts about death and immortality

لودفيغ فويَرباخ

ترجمة وشرح وتقديم: د.نبيل فيّاض

مساعدة: أ. جورج برشين

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017
First Edition: Beirut - Lebanon, 2017

لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain1
DAR ALRAFIDAIN@maassourati

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 143 - 4

لودفيغ فويَرباخ

أفكار حول الموت والأزلية

من أوراق مفكّر،
إضافة لملحق من حكم لاهوتية ساخرة،
حرّرها أحد أصدقائه

ترجمة وشرح وتقديم

د.نبيل فيّاض

مساعدة أ. جورج برشين

www.darabaflidain.com

إهداء المترجم العربي:

إلى سهام باز ـ الأقوى من الموت!

الشكر لكل من ساعد في تقديم هذا الكتاب باللغة العربية؛ ومنهم:

الدكتور فؤاد خير بيك الذي ساعد لوجستياً في تقديم كل وسائل العون؛

الأستاذ الباحث هشام نزيه فياض الذي عمل كل ما في وسعه على تغطية النقص في بعض النصوص الإنكليزية؛

السيّد طارق عزت الذي وفّر الجو النفسي - العملي من أجل التفرّغ لعمل رائع صعب كهذا العمل.

نبيل فيّاض

تنويعة على «أفكار حول الموت والأزلية»!

في نهاية الجزء النثري من هذا العمل ـ التحفة، يقول فويرباخ ـ جدول النار: «اللّه هو الحياة، الحب، الوعي، الروح، الطبيعة، الزمان، المكان، كلّ شيء، في كلّ من وحدته وتمايزه. ككينونة حية، أنت موجود في حب اللّه؛ ككينونة واعية، أنت موجود في وعي اللّه؛ ككينونة مفكّرة، أنت موجود في روح اللّه؛ ككينونة حية، أنت موجود في الحياة اللانهائية ذاتها؛ في الزمان، أنت موجود بمعزل عن كلّ زمان؛ في المكان، أنت موجود خارج كلّ مكان. اللّه أزلي؛ فقط ذلك الذي هو أزلي يتواجد في الأزلي. ومن أجل فهم الحقيقة والتعبير عنها في الحقيقة وكحقيقة، ليس في التعارض وكتعارض، أنت تتواجد في اللّه، ونتيجة لذلك مع الأزلية. اللّه هو الوعي، الحياة، الجوهر، لكنه الحب بوصفه حباً لا متناهياً، أبدياً للكينونة الواعية، بوصفه حبّاً أبدياً للجوهر ولذلك الذي يعيش بلا نهاية. فما هو أبدي إنما هو فقط موضوع للأبدي». ـ هل هذا يعني أن فويرباخ، كما أشار غير مرجع، كان يؤمن بوجود إله، أم أنّ المرحلة التي قدّم فيها «*أفكار حول الموت والأزلية*» كانت مجرّد خطوة تمهيدية لمسيرة ختمها بالعملين الأزليين، *جوهر الدين وجوهر المسيحية*؟

الحقيقة التي لا لبس فيها أن العمل الذي بين أيدينا الآن، *أفكار حول الموت والأزلية*، صدر عام 1830، في حين صدر عمله الإلحادي ـ برأينا على الأقل ـ الصريح، *جوهر المسيحية*، الذي نشرناه ضمن هذه السلسلة الفويرباخية، عام 1841. إذن، إن العمل الأول، الذي ركّز فيه الفيلسوف جلّ اهتمامه على انتقاد الأتقياء، صدر قبل العمل الثاني الذي هدّم فيه الفيلسوف ذاته بمعول لا يكلّ الأسس المعرفية للمفهوم «إله»، بأحد عشر عاماً. من هنا يمكننا القول، ليس دون

ثقة غير مصطنعة، إن فويرباخ بدأ بنفي الأزلية وانتهى بنفي الإله: صيرورة أكثر من منطقية. لكن عملنا الحالي يربط دون لبس بين الموت والأزلية ـ فهل ثمة رابط إبستمولوجي بين الاثنين؟ الحقيقة، باستخدام تعابير نيتشه، أن الموت حقيقة، في حين أن الأزلية «تصوّر» حقيقة، كي لا نقول وهم حقيقة. والفارق الصريح بين ما هو حقيقي وما أتصوّر أنه حقيقي يمكن أن يصل إلى حدود التناقض بين الأمرين.

الموت حقيقة ملموسة يعيها كل فرد عاقل. قد يكون ثمة وعي ـ موت عند الحيوانات من غير بني البشر؛ لكنه على الأرجح وعي ـ موت غرائزي، لا إدراكي، فالإدراك صفة يمتاز بها بنو البشر عن غيرهم من الحيوانات. الكينونة تعي موت الآخر لا موتها هي، فالكينونة البشرية، لأسباب إدراكية، لا تستطيع أن تدرك موتها هي، لا تستطيع أن تعيش موتها هي، لأن الموت موت، والعيش عيش؛ لأن الكينونة البشرية لا تدرك إلا ما تمرّ به من تجارب معاشة والموت تجربة منقطعة، تتوقف فيها الكينونة البشرية عن العيش بعده. ليس خوف الإنسان غير المبرّر من الموت قائماً على تجربة معاشة لشخص عانى الموت وتغلّب عليه: في الموت ثمة منتصر أزلي هو الموت، وخاسر أزلي هو الإنسان؛ في الموت ثمة توقف أزلي عن التواجد، عن العيش؛ لذلك لا يمكن أن يكون الموت تجربة معاشة ـ ببساطة، لأنه موت، والموت نقيض الحياة. لا أدرك في موت الآخر موت هذا الآخر فحسب، بل أدرك موتي أنا بالذات. وربما يكون الحزن المرافق للموت، كأساس، هو حزن الإنسان المُسبق على موته اللاحق؛ بمعنى، «أنا أنعي أناي، أنتحب على أناي، في موت الآخر». ويزداد هذا الشعور عمقاً مع ازدياد وشائج الترابط بين الطرف الميت والطرف الحي. ـ في موت من أحب، من أعطاني بعداً وجودياً بحبه، من أشعرني بنوع من انصهار الحدود بيني وبينه، يجتاحني ألم الافتراق عن قطعة من أناي بافتراقي عنه. فكيف إذا ما فكّرت بانتقال كل قطعي إلى مكان لا أعرفه؟

مؤلم الموت، بل هو الأكثر إيلاماً، لأني لا أعرف إلى أين أذهب. معضلة الموت الوحيدة تكمن في «لا أعرف إلى أين أذهب». ولأن أحداً لم يعد من الموت كي

يُخبر عن تفاصيل تلك التجربة الأهم في حياة البشر لأنها نهايتها، ولأن كلّ من أخبر عن تفاصيل لا حصر لها عمّا يمكن أن يحصل بعد الموت لا يمكن أن يندرج إلا تحت شعار «تصوّر لحقيقة» الذي قد يكون مناقضاً لـ«حقيقة»، فإن كلّ ما يقال عن ما بعد الموت لا يعدو كونه تفسيرية مطمئنة بهدف التخفيف من جزع مواجهة الموت ما أمكن. الإنسان، كما هو معروف، يميل عموماً إلى التفسيرية أو السببية المطمئنة. وبسبب نفور الكينونة البشرية الغرائزي ـ قبل الإدراكي ـ من الخوف، فالكينونة البشريّة تلجأ إلى السببية المطمئنة كي لا ترمي بذاتها في بحر القلق. وهكذا، عبر صيرورة تلك التصوّرات المتعلّقة بالموت، وصلنا إلى مرحلة، خاصة مع ظهور ما يسمّى بالأديان، تم استخدام تصوّر ما بعد الموت فيها بطريقة تكفل لمن يستخدم تلك التصوّرات سلطة مطلقة على من يصدّقها أو يتبناها. وهكذا، صار تصوّر ما بعد الموت الوسيلة الأبرز لابتزاز أتباع الأديان، على اختلاف توجهاتهم، بهدف الوصول إلى استسلامهم المطلق لمن يستخدم تلك التصوّرات خدمة لمصالح بعينها. وانقسم أتباع الأديان بين من يحظى بتصّور مغوٍ، ومن يحظى بتصوّر مرعب، وذلك وفق الالتزام ما قبل الموت من قبل الفرد الذي سيموت لوصايا مؤسس الدين أو القائمين ـ والمستفيدين ـ منه.

بعود على بدء، الموت حقيقة! الموت هو اللحظة التي يتوقف فيها وجودي عن تواجده. الموت هو اللحظة التي أنتقل فيها من كينونة إلى لا ـ كينونة، إلى عدم. لكن ما هو تعريف حقيقة الموت؟ هل هو التوقف النهائي لوظائف الجسد الحيوية عن العمل كما يقول الطب؟ هل هو الانفصال النهائي بين الروح والجسد وارتقاء الأولى إلى مكان متخيّل لتعيش إلى الأبد، وبقاء الثاني في مكان ما من هذه الأرض ليكون موضوعاً لصيرورة تفسّخ زمنية ينتهي معها الجسد إلى جزء من تراب هذه الأرض؟ أم أنه النهاية الحقيقة لوجود فعلي دون اهتمام بمسألة الثنوية الكينونية، تقسيم الذات البشرية إلى روح وجسد، كما يرى الملحدون؟ ثلاثة أسئلة من عدد لا يحصى من أسئلة تتعلّق بالموت لا يمكن الإجابة عليها إطلاقاً، لا اليوم ولا غداً، لأنه لن يكون ثمة وجود لما يمكن تسميته «تجربة ـ ما ـ بعد ـ الموت».

وبغض النظر عن وجود إله أم عدم وجوده، تصوّر ما بعد الموت مسألة لا يمكن إثباتها أو تقديم أدلة عليها تصوّر لا أكثر ولا أقل!

دون أدنى شك، العلاقة الدياليكتيكية بين الموت والأزلية مسألة لا يمكن تجاهلها. وإذا كان الموت حقيقة، فالأزلية تصوّر لحقيقة، وهم حقيقة، رغبة استحواذية في مواجهة حقيقة الموت. إذن، ما هي الأزليّة؟ ما هو الأساس المنطقي للأزليّة؟ الزمان! هل ثمة شيء غيره؟ لكن هل الزمان منفصل عن المكان؟ بمعنى أني إذا سافرت بسرعة الضوء من مكان إلى آخر في هذا الكون غير المحدّد، هل يبقى الزمان هو ذاته بالنسبة لي؟ الزمان نسبي؛ وبما أنه نسبي، يمكن أن كون موئلاً للشك. هل الزمان حقيقة أم تصوّر لحقيقة تم اختراعه من قبل البشر في مرحلة ما؟ ماذا كان قبل الزمان إن كان للزمان بداية وماذا سيكون بعد الزمان إن كان للزمان نهاية؟ الأزلية تعني، دون أدنى لبس، أن حياتنا ما بعد الموت، كحياة الآلهة تماماً، لن تكون لها بداية ولا نهاية ـ أزليّة! لكن الواقع أنها حياة ـ كما يُفترض ـ لها بداية هي تلك التي يتمّ تخيّل قيامة فيها للفرد الميت للعيش قرب الإله إلى الأزل! إذن؛ كما تقول تلك الآراء التي عممت مفهوم الأزل، فنحن سنبدأ حياة أخرى في زمن غير معروف وبهيئة غير معروفة وفي مكان غير معروف، لكن القاسم المشترك بينها هو أن حياتنا تلك ستكون أزليّة! بمعنى أننا سنكون أنصاف أزمنة أنصاف آلهة: الزمان والإله مفتوحان من طرفي البداية والنهاية، في حين أننا مفتوحون فقط من طرف النهاية، لأن لنا بداية!

هل الزمن حقيقة؟ هذا هو جوهر السؤال! الزمن من ثم هو جوهر الأزلية والألوهة، فبدونه لا توجد الاثنتان! هل إحساسنا بالزمن حقيقي أم متخيّل؟ وهل تتبدّل مفاهيم الزمن بتبدّل الأزمنة والعصور؟ من جهتنا على الأقل، فنحن نؤمن، ضمن فلسفة منهجية تتعلّق بالزمن من هايدغر إلى مايستر إيكارت، أن الحاضر، أي صيغة الحاضر الزمنية، ليست إلا من نسج المخيلة البشريّة. في وجودنا المرحلي القصير لا مكان لغير المستقبل والماضي. ونحن لا نشبه غير جهاز استقبال يتلقف

أحداث المستقبل ليحيلها إلى الماضي، حتى ونحن نكتب هذه الكلمات، فنحن نتلقف عبر فعل الكتابة الأحرف من المستقبل ونحيلها مباشرة إلى الماضي، دون أدنى إمكانية لاعتقالها في لحظة حاضرة. وكلّ ما بناه النحويون الألمان ـ وغيرهم ـ من صيغ أزمنة تتعلق بالحاضر ليس إلا من نسج خيال بشري لا علاقة له بالحقيقة. إذن، فنحن نشطب الآن من الزمن صيغة زمنية منتشرة للغاية اسمها الحاضر بتفرعاتها الكثيرة. وأعود لأكرر، الماضي والمستقبل نسبيان. وإذا افترضنا أن أشخاصاً على المريخ ينظرون إلى الأرض عبر تلسكوب هائل، هل سيرون ما نراه نحن، أم أن البعد المكاني له دوره في المسألة؟ ما هو ماض بالنسبة لي، ماض سحيق، قد يكون مستقبلاً بالنسبة لشخص مفترض على كوكب بعيد آخر؛ أي، الزمان نسبي، ليس مطلقاً؛ بل يمكن أن نجرؤ على القول إن الزمان مجرّد تصوّر بشري لا علاقة له بالحقيقة، بسبب كثرة الآراء فيه وتناقضها. وهو ما يجرّ إلى أسئلة وجودية في غاية الأهمية: هل توصل البشر إلى مفهوم الإله قبل توصلهم إلى مفهوم الزمان أم بعده؟ لكن متى اخترعت البشرية المفهوم «زمان»؟ متى شعرت بالزمان؟ متى قسمت الحياة الآنية إلى ماض وحاضر ومستقبل؟ الأزلية، كمفهوم، جاءت قطعاً بعد مفهوم الزمان لأنها قائمة عليه منطقياً؛ لكن هل الأزلية،كمفهوم مخترع، قبل الإله أم بعده؟ الموت، باعتقادنا، هو الأصل. أرعب وعي الموت الإنسان؛ ونكرّر، ليس موته هو لأنه لا يدركه بسبب غياب الإدراك عنده ساعة الموت ـ يمكنه إدراك اقتراب الموت ـ بل موت من يحب أو يشعر معه وبه بالأمان. وكي يتغلّب على هذا الرعب الوجودي القاتل، تصوّر الإنسان أن هذا الآخر الميت سيرجع إلى حياة أخرى جديدة مشروطة بأن تكون مختلفة جوهرياً عن حياته الأرضية الأولى كي لا يعاوده شعور الرعب القاتل مرّة أخرى. وهنا جاءت فكرة القيامة والحياة الثانية، التي كان شرطها، كما أسلفنا، التحرّر من قيود الزمان، وإن ليس المكان. ـ فجاءت فكرة الأزلية البشريّة في الحياة الأخرى وإن كانت بنهاية مفتوحة واحدة، بعكس الإله. وكي تكتمل القصة، كان لا بدّ من إيجاد كائن يمكنه القيام بكل تلك العملية المعقدة ـ القيامة، إضفاء الطابع الأزلي على حياة ما بعد الموت ـ ومن هنا جاءت

فكرة الإله. صار الإله المدير العام لتلك المؤسسة التي قامت على حقيقة الموت وتصورات الزمن والأزلية والقيامة.

قد تكون فكرة الإله الفكرة الأهم التي اخترعتها البشرية في صيرورة تكون وعيها على مرّ العصور؛ ولأنها الفكرة الأهم، كان لا بدّ أن تكون الفكرة الأجمل. ـ وكانت بالفعل جميلة. فالإله، في اللاوعي الجمعي البشري، ارتبط كمفهوم بمفهوم آخر لا يقل عنه جمالاً اسمه الأمل. ونحن نرى في الأمل القوة المحرّكة الأهم في الإنسان. لكن الإله أُفسد على أيدي البشر أنفسهم؛ خاصة مع ظهور من ادعى أنه يتواصل مع هذا الإله، ومن ثم ادعى زوراً أنه عبر تواصله معه كان يتلقى وصايا وأفكاراً وآراءً قضى بها، دون أدنى ريب، على العنصر الفعال في الإله، الأمل، وأحاله من ثم إلى مصدر رعب كابوسي أكثر إخافة من الموت ذاته، الذي كان ذات مرّة علّة هذا الإله بالذات.

قد يكون ثمة إله؛ وقد لا يكون! لكنه، إذا كان، لا بدّ أن يكون كينونة تبعث فينا الأمل، لا الإحساس الطاغي بالموت، الذي هو باعتقادنا، كما أشرنا كثيراً، علّة الإله وأساسه الفعلي. لذلك، على البشرية أن تنهي آلهة الموت، إن أرادت أن تتساوق مع ذاتها أخلاقياً.

نبيل فياض

دمشق

2016\11\17

شكر وتقدير

لقد أكملت هذا الكتاب حين كنت زميلاً زائراً رئيساً في جامعة دوك؛ وبالنسبة لميزات المكتبة فإنّ هذا يستتبع، الامتنان لقسم الدين. كما أنني مدين للأستاذ جيمس رولستون قسم اللغات والأدب الجرمانيين في الجامعة لمساعدتي في ربط أنواع شعر فويرباخ بتقاليد الشعر الألماني للقرن التاسع عشر وللأستاذ راؤول تايسون من قسم الدين في جامعة نورث كارولينا في تشابل هيل لمساعدتي في توضيح أشكال مختلفة من خطاب فويرباخ. وبأكثر ما يمكن، أود أن أعرب عن امتناني، إعجابي، وحبي للمساعدة التي قدمتها لي زوجتي، الدكتور مارلين شابين ماسي، التي هي واحدة من أبرز الباحثين في هذا المجال.

مقدّمة

أفكار حول الموت والأزليّة هو إنكار صريح للاعتقاد المسيحي بالخلود الشخصي، نداء من أجل الإقرار بالنوعية التي لا تنضب للحياة الوحيدة التي لدينا، وهجوم ساخر على مواقف ونفاقيات اللاهوتيين المحترفين في ألمانيا القرن التاسع عشر. لقد زعم محرر العمل أنه أمضى وقتاً صعباً لإقناع المؤلف بالسماح له بنشره؛ وكان لتحفّظ المؤلف مبرراته أيضاً، لأنه بسبب الغضب الذي تسبب به، أصبح هذا الكتاب عقبة رئيسة أمام محاولات لودفيغ فويرباخ للحصول على الأستاذية من إحدى الجامعات الألمانية. وعلى الرغم من ذلك، لم يجد أنّ هذا الاستبعاد مأساوياً على نحو خاص. كان قد مضى عليه يدرّس كمحاضر لمدة سنتين في جامعة إيرلنغن في الوقت الذي ظهر فيه الكتاب، وأثناءها كان احتقاره موجهاً إلى عالم الباحث المحترف بقدر ما هو موجّه إلى عالم اللاهوتي: «ثلاثة أشياء لا أحب أن أكونها: عرّاف عجوز، كاتب هزيل/ في الأكاديمية، وأخيراً تقي»(ص 205)[1].

(1) العنوان الأصلي حمل عنوان، *أفكار حول الموت والأزلية، من أوراق مفكّر، إضافة لملحق من حكم لاهوتية ساخرة، حرّرها أحد أصدقائه*، هذا العمل حُرّر ونُشر في نورمبرغ على يد يوهان آدم شتاين عام 1830، وكان مؤلّفه يأمل عبثاً في أن يبقى المؤلّف مجهول الاسم. وعندما شرع فويرباخ يعيد النظر فيه من أجل طبعة مجموعة أعماله، كان قد ابتعد كثيراً عن نزعته التأملية والميتافيزيقية الأولى بحيث أنه أعاد ترتيب النثر كلّه، تاركاً ما يقارب النصف في العملية، ولم يُدخل إلا ثلث الحكم. وتحت عنوان *أفكار حول الموت والأزلية*، ظهرت هذه النسخة المنقحة عام 1847 في المجلّد الثالث من *أعماله الكاملة Sämtliche Werke* المكونة من عشر مجلدات (لايبتسغ: أو. فيغانت، 1846 ـ 1866). وكانت هذه الطبعة الثانية التي نشرها فلهلم بولين وفريدريش يودل في المجلّد الأول من طبعتهما لأعماله الكاملة (1903 ـ 1911)؛ وبدورهما، فقد تركا أيضاً كمية أكبر من الحِكَم ومجمل الشعر الموزون الذي كان في الطبعة الأصليّة، في حين بدّلا بعض المصطلحات الفلسفيّة كي تصل إلى جمهور أوسع. (لم يقولا شيئاً عن الوجود أو الطبيعة المذكورين في طبعة 1830). وبسبب عدم إمكانية الوصول إلى النسخة الأصلية، فقد تم تضمين إعادة طباعة لنسخة طبق الأصل في المجلّدات الإضافية الثلاثة (المجلدات 11 ـ 13) إلى إعادة الطباعة التي قام بها بولين ويودل

مع ذلك، فهذا الكتاب أكثر بكثير من إنكار لاعتقاد مسيحي بعينه، اعتقاد هاجمه التنوير الفرنسي لتوه خلال القرن الذي سبق. ومنشوراً عام 1830، فقد كان أول نتيجة تُطرح على الملأ لحوار داخلي كان على فويرباخ القيام به من خلال كثير من حياته المهنية مع ممثلين كبار لتقليد الفلسفة الغربية. والشغل الشاغل الذي دفع بهذا الحوار إلى الأمام كان سيبقى ثابتاً: استرداد سلطة الفكر الفلسفي لاستخدامها في العالم الملموس لواقع بخبرة مباشرة. كان فويرباخ مقتنعاً بأن العقبة الرئيسة أمام سعادة الإنسان كانت الوعي المقسّم، الميل بأنه على البشر تجزئة حياتهم الداخلية، بحيث يبقون عمياناً حيال علاقاتهم الحقيقية ببيئتهم ومن ثم بقواهم الكامنة الكاملة. ووصل إلى رؤية الطروحات العقائدية للاهوت المسيحي والنظم التجريدية للمثالية الميتافيزيقية من ديكارت إلى هيغل باعتبارها الأمثلة الرئيسة على هذا التقسيم؛ وقد ظلّت هذه الطروحات ونظم الفكر بعيدة عن الواقع التجريبي، في حين ظلّ الواقع التجريبي «بلا فكر».[1] وعلى الرغم من حساسيته لظلم شعبه والإغراء المتكرر لدخول الساحة السياسيّة، كان سيختار دائماً وسائل التفكير لعلاج مرض الوعي المقسّم؛ وكان عمله السياسي سيتجسّد في تحويل

Ludwig Feuerbach، *Sämtliche Werk*، ed. Wilhelm Bolin and Friedrich Jodl، 2nd ed.) Stuttgart| 13 vols. in 12 ،Unrew. _ 1959 ،Friedrich Formmann Verlag :Cannstat _ 1960]، XI .Vols _ Hans .ed XIII _ Martin Sass)؛ هذه الطبعة المعادة كانت المصدر للترجمة التي هي بين أيديكم الآن. الإشارات إلى *أفكار حول الموت والأزلية* (العنوان المختصر الذي أستخدمه من هنا ولاحقاً) موجودة في كافة أرجاء المقدمة وسوف أشير إلى ترقيم الصفحات للنسخة الألمانية الأصلية ـ ملاحظة من المترجم العربي: الترقيم الأصلي تم حذفه من النص العربي ـ الموجود على الهوامش الخارجية لهذه الترجمة. يحتوي المجلّدان XII ـ XIII (مجلّد مزدوج) مراسلات فويرباخ؛ وهذه سيشار إليها باسم Sass. (مع ذلك فإن نسخة أخرى من طبعة 1830 تمت جدولتها لتظهر في المجلّد الأول من *Gesammelte Weke* بإشراف تحريري عام من فيرنر شوفنهاور، التي نشرت في جمهورية ألمانيا الديمقراطية من قبل Akademi _ Verlag of Berlin).

(1) أنظر: Ludwig Feuerbach، «An Carl Riedel: Zur Berichtigung seiner Skizze،» *Kleinere Schriften II (1839 _ 1846)*، in Ludwig Feuerbach، *Gesammelte Weke*، ed. Werner Schuffenhauer and Wolfgang Harich، ed. Werner Schuffenhauer، 16 vols. (Berlin: Akademie _ Verlg، 1967 _) 12 ،XI، (من الآن فصاعداً يستشهد بالعمل باسم GW)، حيث يناقش فويرباخ، رغم تحفظه على تجريدية الفلسفة التأملية، طريقة التغلّب على هذا الانقسام.

وعي الشعب الألماني نحو ذواتهم واحتياجاتهم. وكانت المشكلة هي إيجاد أدوات فلسفية مناسبة لهذا التحول. ونقد فويرباخ المتنامي للفلسفات المتاحة له والنمو الناجم عن ذلك في وعي مضامين أفكاره غالباً ما أجبراه على مراجعة موقفه؛ وربما على الأرجح أن السفسطة الغنية لحواره الداخلي والتبصّرات التي اكتسبها وهو يصوغ نتائجه هي أكثر أهمية من النتائج ذاتها.(1)

في الواقع، فإن طريقة التعبير التي اختارها فويرباخ للعديد من هذه النتائج كانت عقبة رئيسة أمام فهمنا لأهميته وتقديرنا لها. ومن أجل استدعاء نوع من التفكير بأنّ نظماً متعارضة من التفكير والتي بالغت في التأكيد على معيار الاتساق المنطقي الداخلي، استخدم على نحو فضفاض حكماً ذات صلة، مثل «إنسانية الله هي الإنسانية» و«الإنسانية هي ما تأكل». وقد ربطه المفسّرون اللاحقون بهذه الحكم ومن ثم فهم إما فهموها سطحياً فقط، فحكموا عليها على أنها تجريريدية للغاية، أو قلّلوا من شأنها باعتبارها شعارات أيديولوجية. وفي الوقت نفسه، فإنّ خصوبة التبصّرات التي قدّمت تلك الحكم ألهمت مفكرين مثل كارل ماركس، سيغموند فرويد، فريدريك نيتشه، كارل بارث، مارتن بوبر، وإرنست بلوخ على استخلاص نتائج أصبحت جزءا لا يتجزأ من عالمنا الفكري المعاصر. مع ذلك، أعتقد أن الجهود المبذولة لفهم فويرباخ بشروطه سوف تُكافأ بالاكتشاف المتضمَن أنّ لديه كثير ليقوله لنا بصوته هو وكذلك من خلال أصوات المفكرين العظماء الذين تناولهم. على الرغم من انه قاربها من اتجاه معاكس لاتجاهنا، فقد هاجم على الدوام مشكلة ملحة تواجه مجتمعنا المعاصر: في رفضه اللاهوت والميتافيزيقيا لفشلهما في الحفاظ على أقدامهم في العالم الحقيقي، فقد حاول أن يصوغ تجريبية ظلت مفتوحة على التفكير، تجريبية كان باستطاعتها توجيه البيانات العلمية المباشرة

(1) هذه نتيجة لماركس فارتوفسكي في كتاب تجاوز حتى الآن، من أجل فهم فويرباخ وتقويم ما أنجز، أكثر من مئة عام من البحث: *Feuerbach* (New York: Cambridge University Press, 1977), p. 48.
ورغم أن غياب شرح أفكار حول الموت يترك فجوة خطيرة، فإن متابعة فارتوفسكي التي لا تلين للتطور الفكري عند فويرباخ يلقي بضوء جديد ومذهل على معنى معظم أعماله الناضجة.

نحو الاحتمالات البشريّة. ومشكلتنا أقل من مشكلة رفض التفكير المجرد مما هي مشكلة إعطاء العلم توجيهاً بشرياً.

أفكار حول الموت هو مقدمة ممتازة لفويرباخ، ليس فقط لأنه كان واحدة من أولى محاولاته لتطبيق فلسفة على الواقع الملموس بل أيضاً لأنه هجوم مفتوح على القوة الثقافية التي كانت ستبقى بالنسبة له المثال الرئيس على الوعي المنقسم، ومن ثم الأرضية الاختبارية الرئيسة لمفاهيمه حول إعادة الإدماج البشري. لقد قصد من تفنيد الخلود أن يكون وسيلة للإشارة إلى أن التركيز المسيحي الحديث على الذات المنقسمة إنما ينمّ عن الاستمرارية الأساسية بين البشر وبيئتهم الأرضية ويعمي من ثم المسيحيين عن قيمة الحياة. لذلك *فأفكار حول الموت* هو أساسي لفهم الانتقادات الكاملة للمسيحية في *جوهر المسيحية* (1841)، العمل الذي أسهم في بناء معظم شهرته ـ واختلاسها.[1] لكن ربما أن *أفكار حول الموت* يقول أكثر من هذا. هل يمكن لفويرباخ المساهمة في محاولاتنا المعاصرة لمواجهة واقع الكينونة ـ نحو ـ الموت؟ بعد رواية وجيزة لحياته وفكره في سياق مشاكل عصره، سوف تشير هذه المقدّمة إلى السمات الهامة لحجج *أفكار حول الموت* وسوف نقدّم بعض الأفكار حول المغزى المحتمل لموقف فويرباخ حول الموت الشخصي.

ردة فعل فويرباخ حيال تحديات عصره

نشرت معظم كتابات فويرباخ بين طرد نابليون من الأراضي الألمانية عام 1813 وثورة آذار ـ مارس عام 1848.[2] وخلال هذه الفترة، لم تكن فقط توقعات النهوض لإصلاح ثلاث دزينات من الولايات المتحدة على نحو فضفاض والعديد من

(1) لقد حاولت تفسير بعض العلاقات بين هذين العملين في «فويرباخ والفردية الدينية»، *Journal of Religion 56, 4 (October, 1976): 366 ـ 381*.

(2) مقدّمة ممتازة لتاريخ ألمانيا الحديثة يقدّمها لنا عمل Hajo Holborn، *A History of Modern Germany, 3 vols. (New York: Alfred A. Knof, 1959 ـ 1969)*: يعالج المجلدان الثاني والثالث حقبة ما قبل الثورة.

مناطق أصغر منها ما تزال تُحكم ببنىً سياسية ومجتمعية من القرون الوسطى، بل كان الليبراليون والمحافظون أيضاً على حد سواء، من المثقفين إلى طبقة النبلاء الحاكمة، متيقنين إلى حد ما، عاجلاً أم آجلاً، أن شيئاً يشبه الثورات التي حصلت في فرنسا، لن يمرّ مرور الكرام. وقد ساهم نابليون ذاته بالقناعة القائلة إنه من المستحيل إعادة عقارب الساعة الوراء: لقد أدى حكمه إلى انهيار كثير من إمارات الراينلاند الصغيرة لتتشكل من ثمّ بضع كيانات أكبر منها بكثير إضافة إلى استيراده لإصلاحات إدارية والتي حال ثقل ماضي الألمان بينهم وبين تحقيقها. ففي جنوب ألمانيا، بما في ذلك موطن فويرباخ، بافاريا، في العقد من السنوات بعد هزيمة نابليون تم تقديم دساتير والتي هي في بعض النواحي كبحت ظلم الأبوية المطلقة. وخلال الحرب للتخلص منه بالذات نشأ لأوّل مرة الاستخدام الفاعل لأيديولوجيا الوحدة الألمانية الحديثة، على الأقل بالنسبة لبعض الوطنيين الذين اعتقدوا أنّه وحدها أمة واحدة تحت السلاح كان يمكنها صد الجيش القومي لفرنسا. ومع ذلك، لم تكن وحدها الفرص الجديدة في إدارات نابليون الإصلاحيّة والأثر الموازي للحرب هو ما أدى إلى خلخلة إلى حدّ ما البنيان الطبقي الصارم وأعطى أملاً جديداً بتقدّم الطبقات الوسطى والضعيفة. فمنذ ثمانينيات القرن الثامن عشر، اختبر الألمان واحدة من أعظم الثورات الأدبية والثقافية التي عرفتها الحضارة الغربية حتى ذلك الحين. لقد تبنى الكلاسيكيون، الرومانسيون المثل الإنسانية الحديثة حول الإنجاز الشخصي، كما أعطى بعض الفلاسفة المثاليين قوة دفع لإصلاحات تعليمية ولهيبة معينة لأي شخص استفاد من نتائج هذه الإصلاحات في المدارس والجامعات المحسّنة. وربما بالقدر الهام ذاته، اكتسب هؤلاء المثقفون والكتّاب الحرية للقيام بإنجازاتهم وإن بقليل من مزايا الثروات أو الإرث الأميري؛ ومن ضمن أمور أخرى، كان ليسينغ، هردر، شيلر، وغوته موظفين ثانويين في ولايات ألمانية صغيرة. (من أجل تلك المسألة، لم يخف على أحد أن الإمبراطور الفرنسي ذاته كان من أصل وضيع). وربما حملت الثقافة وكذلك الدم، المال، أو الإنجاز العسكري مفتاحاً نحو التقدم وتحقيق الذات.

ومع ذلك، ففي نهاية المطاف، فإن الحاجة إلى الإصلاح الاقتصادي هو ما دفع بالألمان إلى عالم ولايات ـ الأمة العصرية أكثر بكثير من المثل الإنسانية العصرية أو المشاعر التحررية. وبسبب طفرة مفاجئة في عدد سكان أوروبا التي كانت قد بدأت تماماً قبل مطلع القرن، كان هنالك من الأفواه التي بحاجة لأن تطعم أكثر مما باستطاعة الإنتاج الألماني أن يتحّمل. ومستنزفة لتوها جراء الحرب، وعت الولايات الزراعية على وجه الحصر تقريباً على التفوق التجاري زمن السلم لإنكلترا، التي كانت تسبق بعقدين على الأقل وسط أوروبا في التصنيع. إن الافتقار إلى وحدة سياسية ومن ثم اقتصادية لتفعيل التنافس مع انكلترا كان عقبة خطيرة أمام الإصلاح اللازم. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أن الاقتصاد الألماني حقّق معدّل نمو ثابتاً عموماً، وقوياً أحياناً حتى نهاية القرن التاسع عشر، فإنه كلّما ازداد البلد تصنيعاً، كلما كثر تعرّض الطبقات الأدنى لتقلبات الرأسمالية الدولية الجديدة، حيث أجبرت تدريجياً على التخلي عن الأرض للتنافس من أجل البقاء في الآفة المنتشرة للمدن الصناعية الجديدة.

من كان سيقدر على التعامل مع هذه المشاكل؟ أين كانت القيادة التي من شأنها أن توفر نقطة محورية للسلطة والتبصر الضرورين للتغلب على قرون من الركود والانقسام السياسيين؟ وهل ينبغي أن تستخدم هذه السلطة لإعطاء الألمان الحقوق القانونية والمشاركة في شؤون الحكم، أو ينبغي أن تستخدم لتعزيز أواصر النظم القديمة التي لا تُمَس إلى حد كبير؟ لقد شعر كثير من السكان الكاثوليك في جنوب ألمانيا بأنهم أقرب نوعاً ما إلى النمسا، لكن قليلين فقط كان بإمكانهم أن يحلموا بأن النمسا ستكون يوماً أحد عناصر الإصلاح. كان واضحاً أن بروسيا كانت الدولة الأخرى الأقوى والدولة الأكثر جديّة بشأن الإصلاح، لكن بعد الحرب، فإنّ محاولات الوزيرين هاينريش فريدريش كارل فوم اوند تسوم شتاين (1757 ـ 1831) وكارل اوغست فون هاندربرغ(1750 ـ 1822) لتحديث الإجراءات الحكومية بما يتناسب مع التحديدات الفرنسية والإنكليزية أحبطت على يد الجماعة الأكثر محافظة وعسكرية التي تنافس على السلطة، وهم ملاك الأراضي الإقطاعيين الكبار

في أقاليم بروسيا الشرقية. ولم تفد الروح المعنوية للجماعات الطامحة لتغيير تحديثي حين مات بين عامي 1825 و1835 آخر الممثلين للحركة الثقافية، المصدر الوحيد العظيم للفخار والهوية الذاتية الألمانيين ـ الناقد يان باول عام 1825؛ المؤلّف الموسيقي كارل ماريا فون فيبر عام 1826؛ الرومانسي الرائد فريدريش شليغل عام 1829؛ هيغل، شتاين، والمؤرخ برتهولد غورغ نيبور عام 1831؛ غوته عام 1832؛ اللاهوتي فريدريش شلايرماخر عام 1834؛ عالم الطبيعة فيلهلم فون هومبولت عام 1835. وفي السنوات التي تلت، كان السؤال الأساسي كم كان المرء على استعداد لأن يضحي في سبيل وجود زعيم قوي.

مع الاستفادة من التجربة السابقة المكتسبة من منظور ستينيات القرن التاسع عشر، التي قُبل فيها حكم أوتو فون بسمارك (1815 ـ 1898) على حساب معظم أهداف الليبرالية، من الصعب علينا أن نفهم كيف كان باستطاعة قوى ديمقراطية عكس مدّ رد فعل المحافظين. كان لطبقة النبلاء أفضل رجالات الدولة؛ وكان باستطاعتها استخدام المنظمات العسكرية، التي كانت لا تزال سليمة بعد الحرب، لقمع المعارضة؛ كانت قادرة، بالنسبة للجزء الأكبر، أن تحافظ على ولاء الغالبية الفلاحية من السكان؛ وكانت تضع على خاصرتها اللجوء إلى صور السلام والهدوء في الماضي الألماني في حقبة أعقبت الاضطرابات الكبرى. مع ذلك، فربما أنه ما من أحد من هذه القوى كان يكفي لشد الغطاء بإحكام لولا تديّن الشعب العميق والثابت. لقد شهدت سنوات ما بعد الحرب فورة دينية قويّة، عاطفية في جميع أنحاء الولايات الألمانية؛ وعززت نغمتها المحافظة من سلطة القادة الدينيين المعترف بهم رسمياً، ومعظم هؤلاء، سواء البروتستانت أم الكاثوليك، عملوا جاهدين لاستعادة الإيمانات القديمة جنباً إلى جنب مع العروش الألمانية «الشرعية». وهكذا فإن الناس الذين دعوا للمزيد من الحقوق الفردية، لحكومة دستورية، ولوحدة ألمانية كانوا مجبرين أن يشهدوا بنوع من الإحباط مترنيخ، مع بروسيا مؤيدة بطواعية، وقد أسّس الاتحاد الفيدرالي الألماني، الذي جاء بوحدة أقل بكثير مما كان موجوداً في عهد الإمبراطورية

الألمانية القديمة والذي كان يُنظر إليه للتو كناد للمناظرات الدبلوماسية للحفاظ على الوضع الراهن. وكان التعبير الأكثر وضوحاً عن هذا الإحباط هو الجمعيات التي شكّلها طلاب الجامعات، الذين خاطر كثير من منهم بحياتهم في الحرب من أجل المثل الأعلى لألمانيا متحدة. ورغم أن هذه المنظمات لم تكن إصلاحية بشكل موحد ـ اشترك بعضها بميول عسكرية ومعادية للسامية ـ فقد رأى مترنيخ فيها نوعاً من التهديد، وكان قليل من المظاهرات غير المؤذية كافياً لتمكينه، في عام 1819، من إقناع الولايات الألمانية بمراقبة النقاشات السياسيّة العلنية وبتشكيل مجالس تحقيق لمحاكمة أي شخص يشتبه في علاقته «بالديماغوجية المثيرة للفتنة» من الطلاب.

وحتى عندما بدأت قوى الإصلاح، بمساعدة ثورة تموز ـ يوليو في فرنسا عام 1830 (السنة التي نُشر فيها *أفكار حول الموت*)، باكتساب المزيد من الزخم وتحدي لجان التحقيق التي أعيدت إلى أمكنتها السابقة، لم يكن ثمة شيء مثل منتدى النقاش الشعبي الذي سبق اندلاع الثورة الفرنسية الأولى أن يوجد في ألمانيا، باستثناءات وحيدة هي الكتابات الصحفية لهاينريش هاينه (1799 ـ 1856) ولودفيغ بويرنه (1786 ـ 1837). لقد تجنّب هذان الرجلان التحرش عبر الهجرة إلى باريس، وكانت كتاباتهما الساخرة بمنأى عن الرقابة طالما أنهما يبقيان الانتقادات غير مباشرة، إما عن طريق الكتابة عن الأحداث التي وقعت في فرنسا وترك قرائهم يصلون إلى استنتاجاتهم الخاصة من خلال المقارنة مع الشؤون الألمانية أو باستخدام لغة علم الجمال. هذا العوز للنقاش السياسي إضافة إلى السذاجة السياسية التي رعته ساهم في فشل ثورة آذار ـ مارس لعام 1848، لأنه كان على المشاركين في المجلس الوطني في فرانكفورت صرف كمية هائلة من الطاقة في اختيار وتوضيح الخيارات المفتوحة أمامهم على كل سؤال تقريباً، وفي الوقت الذي انتهوا فيه أخيراً من وضع دستور، استعادت الحكومات المهددة سلطتها.

من الممكن ربما أن تبالغ في الخوف على موقعها المركزي الحساس في القارة

باعتبارها عاملاً يسهم في التركيز على الدور العسكري في توحيد ألمانيا في نهاية المطاف؛ ومن المستحيل قياس التأثير على التاريخ الألماني اللاحق للشعور الخطير بالدونية والعزلة الذي انبثقت عن المقارنة بين نتائج محاولات الإصلاح الألمانية والنجاحات السياسية المقابلة في أوروبا الغربية وأمريكا. ومع ذلك، فشلل الخوف يبدو وكأنه قد كان واحدة من أقوى القوى في هذه الفترة. فالثورة لم تكن لتحصل قط بقدر الذي كانت عليه لو أن النبلاء لم يشعروا مسبقاً أن الاضطرابات وشيكة؛ فالعديد منهم وقفوا جانباً شاعرين بالذنب والخوف القاتل مما يمكن للفلاحين، الذين استخدموهم بنجاح، أن يعملوا. من ناحية أخرى، فالإصلاحيون الاقتصاديون الذين قادوا الاختراق كانوا خائفين جداً من الاضطرابات الاجتماعية التي كان يمكن أن تحصل إذا قامت الطبقات الفقيرة التي جعلوها بسرعة من حصتهم مع الطبقات العليا، فيعزلون من ثم أنفسهم عن ما قد أصبح أقوى قاعدة لدعمهم. وفي الوقت نفسه، كان الخوف من القمع السياسي قد دفع ببعض قادة المنظمات الطلابية إلى الهجرة في عشرينيات القرن التاسع عشر، حتى إلى أميركا ـ فيويرباخ ذاته فكّر بهذا بجدية هذا بعد فشل ثورة آذار ـ مارس عام 1848 ـ فنمت خلايا من المهاجرين الليبراليين في سويسرا وفرنسا.

جعلت التجربة الشخصية فويرباخ على بينة من المخاطر الكامنة في المواظبة على الدعوة الليبرالية للإصلاح. ووالده، بول يوهان أنسلم فويرباخ (1775 ـ 1833)، وهو مصلح بارز لمنظومة قانون العقوبات، اضطر للانتقال بالأسرة مرتين بسبب صراحته السياسية، وكانت المرة الثانية من ميونخ إلى بامبرغ عندما كان فويرباخ في العاشرة من العمر. وفي السادسة عشرة من العمر كتب فويرباخ لوالدته، فلهمينه فويرباخ نئي تروستر، أنه بينما كان في جولة عبر بافاريا توقف في مانهايم لزيارة قبر كارل لودفيغ ساند، وهو زعيم طلابي أعدم بتهمة قتل ي. أ كوتسهبويه، المسرحي الذي اشتبه به الطلاب بالتجسس لصالح روسيا. وأسرة فويرباخ، مثل أسر كثيرة أخرى من الطبقة الوسطى، لا بدّ أنها كانت متعاطفة مع الجمعيات الطلابية، لأنه في الرسالة وضع

لودفيغ بعض شفرات العشب من قبر ساند، وهو ما يفسّر أنه كان يعرف كم كانت تحب الزعيم الطلابي.[1] وفي عام 1824، كان قد حط رحاله للتو كي يبدأ الدراسة في جامعة برلين حين أصبح هدفاً للمراقبة اليومية من قبل الشرطة التابعة للجنة التي تحقق بمسألة المنظمات الطلابيّة؛ وبناء على «تقرير سري» بأنه هو وإخوته الأربعة كانوا متآمرين، استجوبته اللجنة مرتين قبل السماح له بأن يسجّل في الجامعة. وسرعان ما تبين السبب لهذا التحرش: أحد أخوته، كارل، وهو أستاذ رياضيات في غمنازيوم في إيرلنغن، كان قد تمّ سجنه ضمن مجموعة من الناس سُجنوا لانتقادهم علنياً الأوضاع الألمانية. وعلى الرغم من أن الشرطة لم تتمكن من إلصاق التهم بهم، فقد اعتقل كارل لمدة أربعة عشر شهراً، حيث حاول الانتحار مرتين؛ ولم يتعافَ بالكامل قط من التجربة. وبعد ست سنوات، تعلم فويرباخ أن محاولات الإصلاح الديني لم تكن معفاة من القمع، لأن سلطات الرقابة صادرت *أفكار حول الموت* بعد ظهوره في المكتبات مباشرة.

في وقت لاحق، وفي ذروة شهرته، كان على فويرباخ الرد على تهمة بقائه معزولاً عن الحركة الثورية التي أسهمت فيها كتاباته، لأنه، بصفته مندوباً لبرلمان فرانكفورت، كان يلتزم الصمت التام تقريباً خلال مداولاته. وقد وجّه شيء مثل هذا الاتهام إلى الاستنتاجات النظرية لكتاباته. وفي بداية أربعينيات القرن التاسع عشر، امتنع عن المشاركة في المجلات الراديكالية لكارل ماركس، فريدريك إنغلس، وأرنولد روغه (1802 ـ 1880)، المحرر السياسي الرائدة في عصره؛ وبدورهما، انتقد كلّ من ماركس وإنغلس كتاباته باعتبارها تجريدية إلى درجة أنها ليست مفيدة لتحليل الظروف الملموسة للقمع.

إلى أي مدى كانت هذه الهجمات مبررة؟ يبدو لي أن معاصريه كان لديهم الانطباع بأن فويرباخ كان سيكون زعيماً سياسياً بسبب المباشرية العاطفية لكثير من كتاباته ولأن بعض نتائجه ـ على سبيل المثال، أن المعتقد الديني هو في الواقع

(1) لودفيغ فويرباخ لفلهمينه فويرباخ، تشرين أول ـ أكتوبر 22، 1820، ساس، 215 ،XII.

تعبير عن احتياجات اجتماعية بشرية ـ تمتلك تداعيات سياسية عملية. ومع ذلك، ففويرباخ كان يعرف أن هنالك فرقاً بين التعبير عن فكرة ووضعها موضع التنفيذ، فظلّ يشكك بالقدرات السياسية لشعبه ـ قال ذات مرة إنّ الألمان ليسوا غير كتب حيّة ـ ومن ثمّ بنجاح أية ثورة سياسية ألمانية خلال حياته. ومن المؤكد أن الخوف من المضايقات لعب دوراً كبيراً في تردده بدخول مجال الشؤون العامة؛ وعلى الرغم من أنه كان حساساً حيال استبعاده من صفوف الأساتذة فقد كان يأمل بعمق أن يصنع اسماً لنفسه، فقد نشر *أفكار حول الموت* دون أن يضع عليه اسم المؤلّف وفكّر بالقيام بذلك مع بعض من أعماله اللاحقة. مع ذلك، فالواقع يقول إنّ هذا التثقيف للعزلة نشأ عن رغبته في أن يُترك وشأنه، في أن يبقى مستقلاً عن التحالفات الدينية، السياسية، والأكاديمية كي يحصل على الموضوعية في تفكيره، بالقدر ذاته الذي نشأ فيه عن الحذر. علاوة على ذلك، فقد كان على علم بأن غوته وغيره من المؤلفين المتميزين نشروا دون اسم المؤلّف كي لا يصرفوا القرّاء عن مضامين كتبهم. فقد ظلّ هذا المحتوى، «الفكرة الموضوعية»، الحقيقة الفكرية للمشكلة، الشغل الشاغل لفويرباخ في المقام الأول. إن استسلام الفرد للبحث عن الحقيقة، الإثارة التي يحصل عليها من الاكتشاف في هذا البحث، والنضال من أجل شكل للتعبير والذي من شأنه إيصال الحقيقة مباشرة إلى أوسع نطاق ممكن من الجمهور إنما يفسّر الشغف الذي في كتاباته. ومهما كان تقويم أفكاره، فقد صمّم كتاباته من أجل تغيير في الرأي لا استنهاض للفعل.

ملاحظات بيوغرافية

ولد فويرباخ في لاندشوت، بافاريا، يوم 28 تموز ـ يوليو، عام 1804، لأبوين عقدا العزم على حمايته من الكاثوليكية التقليدية، القوية في جنوب ألمانيا بتنشئته وفق تربية لوثرية صلبة. وخلال السنوات التي قضاها في الدراسة في غمنازيوم في أنسباخ، كانت لديه تقوى عميقة، موجهة للكتاب المقدس، حيث كان يأخذ دروساً خصوصية باللغة العبرية القديمة لتكملة دراسته للكتاب المقدس. مع

ذلك، حين أزف الوقت الذي اختاره لدخول جامعة هايدلبرغ للتحضير للعمل الرعوي، حدث شيء هزّ أركان إيمانه في دراسته البحثيّة للكتاب المقدّس. وربما كان مردّ الأمر معلّمه في الأمور الدينية، تيودور ليموس (1777ـ1837)، الذي كان في تلك الآونة تلميذاً للاهوتي هايدلبرغ، كارل داوب (1765ـ1836)، الذي كان يشرح العقيدة المسيحية مستخدماً الأصناف الفلسفية لهيغيل لمعارضة كلّ من الكتابية السائدة وعقلانية تلك الأيام. إضافة إلى ذلك، ففي حين كان يمضي بضعة أشهر في دراسة تحضيرية، راح فويرباخ يقرأ ويوجز عمل هردر *رسائل تتعلّق بدراسة اللاهوت* (1780 ـ 1781)، الذي قد يكون غرس عدم الثقة بكلّ من المذهب الأرثوذكسي حول الوحي اللفظي وبالتفسير النقدي ـ البحثي على حدّ سواء، فبرأي هردر كان الكتاب المقدس نتيجة لانبجاسات شعرية مباشرة عن الديانة البسيطة التي تخصّ الشعب والتي أمكن فهمهما فقط عن طريق افتراض خيالي لهذه البساطة. على أية حال، فبعد وقت قصير من بدء الدراسة في هايدلبرغ، شعر فويرباخ بنفور شديد من «شبكة عنكبوت المغالطات»[1] للأستاذ هـ إي. غ. باولوس (1761 ـ 1851)، والذي هو واحد من رواد أنصار التفسير العقلاني النقدي في القرن التاسع عشر، بينما وجد أن داوب هو الأستاذ الوحيد للاهوت الذي يستأهل أن يصغى له. ولأن ما كان يحبه فويرباخ في داوب هو تصنيفاته الهيغلية، فإنه لم يمض وقت طويل قبل أن تهبط عليه فكرة تعلّم هذه التصنيفات على نحو مباشر.

على الرغم من إقناعه لوالده بدعمه في مواصلة دراسته من أجل العمل الرعوي في برلين بسبب اللاهوتيين الكبار الذين يقيمون هناك، فعندما وصل إلى المدينة، في ربيع عام 1824، لم يعد فويرباخ واثقاً من أنه يريد أن يصبح راعياً دينياً. كان منجذباً في الأصل إلى الفلسفة باعتبارها وسيلة للتعبير عن المعتقد الديني، لكنه توقف عن النظر إلى الفلسفة واللاهوت على أنهما متوافقان، وهو ما يتناقض

(1) لودفيغ فويرباخ لباول يوهان أنسلم فويرباخ، 1823، السابق، ص 223.

على ما يبدو مع فرضية هيغل بأن مضمون العقيدة، إذا فُهم كما ينبغي، كان ممكناً له أن يُصاغ فلسفياً دون أن يُدمَّر. ولم يمض وقت طويل حتى جاء قراره النهائي: خلال الفصل الدراسي لشتاء 1824 ـ 1825، وجد فويرباخ نفسه غير قادر على إكمال دورات دراسية لاثنين من الأكاديميين المسيحيين الرائدين في أيامه، وهما المؤرخ الكنسي يوهان أوغست فيلهلم نيندر(1789 ـ 1850) واللاهوتي شلايرماخر، لأنه «بالنسبة لروحي التي طلبت الحقيقة، أي، *الوحدة، الحزم، غياب المؤهلات*، فإن الخليط اللاهوتي للحرية والاتكالية، العقل والإيمان كان بغيضاً حتى نقطة الموت»،[1] في حين أن فلسفة هيغل كانت «بيت لحم عالم جديد».[2] من هذه النقطة على الفلسفة كنا سنشهد على حد سواء أداته لتوضيح العلاقة بين الإنسان والعالم وسلاحاً لانتقاده «خليط» اللاهوت.

بعد أن منعته الأمور المالية من أن ينهي دراسته في برلين، عاد فويرباخ إلى بافاريا لإكمال الدكتوراه في الفلسفة في جامعة إيرلنغن والبدء بمسيرة مهنية قصيرة الأجل ـ من 1829 إلى 1835 ـ كمحاضر في تاريخ الفلسفة الحديثة. أما أطروحته التي تحمل عنوان، *العقل: وحدته، شموليته، ولا نهائيته* (1828)، وعمله *أفكار حول الموت* فهما إبداعان لأحد أتباع هيغيل الرائعين الذي يبدأ بالعمل على مضامين لبعض أفكار المعلّم. مع ذلك، ففي هذه الأثناء، أثارت محاضراته في الفلسفة مزيداً من المواجهة مع ممثلي الفكر الحديث، وعلى وجه الخصوص بيكون، ديكارت، لايبنتس، والتي كان سيخرج منها بنتيجتين طالبتا ببداية جديدة للفلسفة: اللاهوت المسيحي قنّع الأصل الإنساني الحقيقي وطبيعة المعتقد

---

(1) الشاهد من أحد مقاطع السيرة الذاتية المكتوب عام 1846، كما أورده كارل غروين، محرّر، في عمله *Ludwig Feuerbach in seinem Briefwechsel und Nachlass sowie in seiner philosophischen Charakterentwicklung*، 2 vols. (Leipzig and Heidelberg: C. F. Winter .sche Verlagshandlung، 1874)، I، 16

(2) لودفيغ فويرباخ لكارل داوب، آب ـ أغسطس، 1824، في Uwe Schott، *Die Jungendentwicklung Ludwig Feuerbachs bis zum Facultätswechsel 1825*، Studien zur Theologie und Geistesgeschichte des Neuzehenten Jahrhunderts (Göttingen: Vanderhoeck & Ruprecht، 1973)، 10: 120. هذه المعالجة لحياة فويرباخ حتى قراره بتكريس حياته للفلسفة تؤدّي عملاً لا بأس به لتصنيف وتخمين قيمة المادة المقطعية القادمة من سنواته المبكّرة.

الديني، وفلسفة هيغل، تتويج التقليد المثالي، كانت تأليه الفكر على حساب الإنسانية.[1] وبطرق مختلفة، فإنّ التقليدين على حد سواء كان مقيداً بأسلوب تفكير خان الإنسانية العينية التي كان عليهما خدمتها. فقد برهن *جوهر المسيحية*، وهو أول الاستنتاجين، أن المذاهب الدينية التقليدية، بدلاً من امتلاكها لمرجعية إلهية، كانت أقنمات hypostatizations لأكثر الحاجات الإنسانية أساسيّة، التي كان الإيمان الديني، إذا فهمت كما يجب، تعبيراً موثوقاً عنها. أما العملان اللذان يجسّدان دعوته لإصلاح الفلسفة، *مقولات أولية حول إصلاح الفلسفة* (1843) و*مبادئ فلسفة المستقبل* (1843)، فكانا أولى محاولتيه لصياغة معايير لطريقة تفكير اخترقت العالم التجريبي، العيني وظلت لصيقة به.

على الرغم من أن فكر فويرباخ واصل تطوره، إلا أنها ظل قريباً من التأكيدين البنيويين لهذه الأعمال الثلاثة ـ توضيح أصل الدين في الإنسانية وعلاقته بالبيئة الطبيعية، ومحاولات توضيح تجريبية إنسانية. مع ذلك، فقد تمّ تجاهل مؤلفاته بعد عام 1848 إلى حد كبير، ربما بسبب قبول انتقادات ماركس وإنغلس من قبل الراديكاليين، أو ربما لأن نمطه الخاص بالتفكير ظلّ قريباً من التقليد الأدبي والفلسفي الذي افترق عنه، في حين أن العديد القادة الألمان الآخرين بدأوا الصراع بالمشاغل الاقتصادية، السياسية، والاجتماعية الضاغطة.[2] وفي الوقت نفسه، زادت المشاكل المالية من عزلته. ففي عام 1837 كان قد تزوج بيرتا لويف وانتقل معها إلى بروكبرغ، بالقرب من أنسباخ، حيث يوجد مصنع للخزف كانت هي مالكة لجزء منه والذي كان مصدرها الرئيس للدعم. وفي عام 1860 أفلس المصنع، فاستقرت الأسرة في منزل متواضع جداً قرب نورمبرغ بلا دخل تقريباً. وعلى الرغم من حرمانه من عمل أدبي جدّي بسبب تدهور حالته الصحية، فقد واصل فويرباخ

(1) الكتابات التي نجمت عن هذه المواجهة كانت *A History of Modern Philosophy from Bacon von Verulam to Benedict Spinoza* (1833). *A History of Modern Philosophy: Presentation, Development, and Critique of the Philosophy of Leibnitz* (1837), and *Pierre Bayle, Presented and Evaluated according to His Most Important Moments for the History of Philosophy and Humanity* (1838).

(2) قائمة كرونولوجية لأعمال فويرباخ يمكن أن نجدها في Sass. XI, 341 ـ 346.

مواكبته للشؤون السياسية، مصفقاً بحماس لحركة تحرر المرأة ولنشر كتاب *رأس المال* لماركس (1867). وفي عام 1870، انضم إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني، الذي أشاد بإنسانيته عبر موكب ضخم حضر دفنه في يوهانسفريدهوف في نورمبرغ بعد يومين من وفاته في 13 أيلول ـ سبتمبر عام 1872.

الغرض من *أفكار حول الموت* ونمطه

في عام 1828 أرسل فويرباخ أطروحته إلى هيغل كشاهد على تتلمذه على يده. مع ذلك، فبدلاً من وصف محتويات الأطروحة والدفاع عنها، فقد اقترح في رسالته المرفقة بالأطروحة أنه من الضروري لفلسفة معلّمه أن تأخذ اتجاهاً جديداً في المستقبل! ومن الواضح أن فويرباخ يعتبر نفسه على أنه قادر على العمل في هذا الاتجاه الجديد، لأن *أفكار حول الموت* يجسّد اقتراح الرسالة. وللسبب نفسه، فإن الأفكار في الرسالة سوف تعمل على شرح المواضيع الكبرى لهذا العمل.

كان فويرباخ على يقين أن فلسفة هيغل تحتوي على ما هو ليس أقل من بذور لحقبة جديدة في تاريخ العالم لأنه للمرة الأولى تقوم منظومة مفاهيمية بتفسير العلاقة بين الأفكار الشمولية والواقع الملموس، بين الله، الإنسانية، والعالم. ومع ذلك، فحتى الآن، فإنّ هذه الحقبة العالمي الجديدة تم وضعها على أسس نظرية فحسب، فقط ضمن ساحة النقاش الفلسفي المهنية، في حين أن الثقافة لا تبني حياتها على العقل؛ وأشكال التصوّر التي تُقارب بها الإنسانية الواقع في الوقت الحاضر تفترض انقساماً بين الشيء ومفهومه وبين الله والعالم، وهذه الأنماط من التصوّر هي الآن جزء من لحم ودم الثقافة، بعد أن تم تمثلها لأكثر من ألف سنة. لذلك فالحقبة الجديدة يمكن تأسيسها فقط من خلال هجوم مباشر؛ فمن أجل أن تكون فعالاً بما فيه الكفاية لاقتلاع الافتراضات القديمة ولأن تصبح شكل تصوّر جديد للبشرية، لا بد من رفع أفكار هيغل خارج علاقاتها الداخلية في إطار منظومته ويجب أن يؤتى بها لتُحمل على «لا فكرية» الثقافة؛ يجب أن تصبح «مجسدة»، يجب أن تُعطى شكلاً ملموساً يمكن لأي شخص أن يفهمه.

لكن ما هو شكل المنظور إلى الواقع الذي لا بد من خلعه عن عرشه؟ بالنسبة لفويرباخ، المذنب هو الأنانية النظرية. فعملياً منذ بداية التاريخ الغربي، فهم الناس الشخص الفردي، النفس، وحتى شخصية الله على أنها المصدر المطلق الوحيد والمعيار لكل الوقائع. وبدا الأمر كما لو أن الانشغال بالذات امتص كل معنى من العالم غير البشري الذي الإنسان جزء منه أيضاً. الناس لا يفهمون أن الله هو أيضاً «طبيعة»، هو المصدر للواقع غير الشخصي الذي ترتبط به أيضاً مقدراتنا المخلوقة. علاوة على ذلك، لا يفهم الناس وحدة الشخصية مع العالم الطبيعي من خلال «العالم الطبيعي» لأجسادهم. وهكذا يفهم الناس الموت على أنه ليس سوى عملية انتقال للنفس المنفصلة، غير المحدودة إلى عالم أعلى، غير مدركين أن الموت هو التعبير النهائي عن وحدتهم مع *هذا* العالم.

نقول الآن إن المسيحية، التي يدعوها فويرباخ ديانة النفس الصرفة وديانة النفس الصرفة بوصفها الله، هي التي فتحت الطريق أمام المحافظة على قوة هذه الأنانية النظرية. وسوف يكون دحض الاعتقاد بالنفس ـ دون ـ نهاية في *الأفكار حول الموت* فعالاً فقط حين يكشف سوء الفهم المتمترس خلف هذا الاعتقاد: المسيحية تسيء فهم محدودية الإنسان وتعرب عن خطأها من خلال تخيلها لعالم أعلى من العالم الحقيقي. وهكذا فإن إنكار الأزلية سوف يكون أيضاً وسيلة «لإنكار الأشكال السابقة التي تؤرّخ ـ للعالم والتي تصوّر الزمن، الموت، الحياة هنا، الحياة الأخرى، الأنا، الفرد، الشخص، والشخص على أنها ما فوق المحدودية وعلى أنها مطلق، أي الله، الخ، والتي فيها يُحتوى أساس التاريخ حتى الآن، والتي هي المصدر لمنظومة التمثيلات المسيحية الأرثوذكسية والعقلانية على حدّ سواء».[1]

مع ذلك، مرة أخرى، كما تقول الرسالة إلى هيغل، فإنه لا يكفي فقط وضع حجج فلسفية من أجل جعل الإنسان العادي يدرك حماقة افتراضاته أو افتراضاتها

(1) Ludwig Feuerbach, *Briefwechsel*, ed. Werner Schuffenhauer (Leipzig: Philip Reclam, 1963), pp. 53 60 ـ.

المسبقة المغروسة ومن ثم يكون أو تكون على استعداد لتغييرها. فالأفكار يجب أن تتجسد بطريقة ملفتة للنظر، والعديد من الأصوات التي يفترضها فويرباخ في طول *أفكار حول الموت* وعرضه تظهر صراعه من أجل طريقة تعبير والتي من شأنها أن تجعل تأكيداته واضحة على الفور لأي شخص لديه عقل. معظم النثر يجمع بين الحجج المنطقية، وحتى السكولاستية مع توسلات إلى «أنت»، وهي الصيغة المألوفة لضمير المخاطب المفرد باللغة الألمانية. ومن ثم، فقط قبل اختتام النثر، يدرج فويرباخ شعراً والذي يلخّص موضوعات الحجج. وتبدأ هذه الخاتمة بالصلاة إلى الروح الإلهية، المعنونة أيضاً باسم «أنت»، والتي تذكرنا بالمزامير أو بتأملات أوغسطينوس في *الاعترافات*. وينتهي العمل بسلسلة طويلة من الحكم التي تسخر من كل المدارس الألمانية المعاصرة للاهوت الأكاديمي، ليس فقط لأنها حافظت على الاعتقاد بالأزلية، بل بسبب الغباء المفرط لمواقفها وأفكارها. وأقترح أن خلف هذه الأشكال للتعبير تكمن قراءة فويرباخ لمزاج ثقافته ونظريته حول كيفية ربط هذه الثقافة مع الكلمة المكتوبة.

إنّ نبرة حجج فويرباخ في كافة أنحاء العمل هي نبرة القناعة التامة، والخطوات المنطقية تُقدّم مثل مطرقة والتي هي لسحق المعارضة؛ وفي الواقع، فإنّ طريقة الجدل المفضلة هي أن يشير إلى العبث المطلق لمضامين الموقف الذي سيُدحض. وبصرف النظر عن قناعة فويرباخ الخاصة بحقيقة ما كان يقول، فمن المفترض أنّ *أفكار حول الموت* هو إعلان لبداية عصر جديد، وبيان ثوري يجب أن يعبّر عنه، ليس في الصنوف الباردة للفلسفة، بل بشغف واقتناع دينيين. وحده الشغف يصنع التاريخ؛ أي، فقط حين تُحضر الحتمية المطلقة لتُحمل ضد الحتميات الدينية الراسخة يمكن لها أن تأمل بإخراجها.[1] إن التوسّل لـ«أنت، عزيزي القارئ»، قد يبدو في البداية يتناقض مع هذه النبرة الدينية العالية؛ مع ذلك، فإنه مقصود كتجسيد للحجة، لإحداث علاقة بين

(1) Grün, *Nachlass, I, 29.*

النتائج الفكريّة والجمهور، علاقة لم تكن لغة المهنة قادرة عليها. وفي الواقع، فإنها تتضمن ملاحظة دعابة تهدف إلى إبعاد المؤلف عن قرّائه، وكذلك وضعه في اتصال معهم: الخطاب الشخصي يقلّد الشخصانية التي يهاجمها، والخطاب إلى اللّه في الصلاة يشهد على ذلك الذي هو قادر على ترتيل ترتيلة في مديح إله الذي يخلقنا لهذه الأرض ـ وليس لمكان آخر. وكان فويرباخ سيلحظ لاحقاً أنّ الدعابة الساخرة هي طريقة لا مثيل لها لتوحيد المجرد مع العيني، لأنها تثبت حريّة المفكّر ووضوحه والذي هو قادر على الحفاظ على السيطرة على الحقيقة الفكرية في حين لا يسمح لأحد بأن يخطئ في فحواها العينية.[1]

مع ذلك، فبالنسبة لفويرباخ الشباب، تظلّ لغة النثر غير مباشرة بما فيه الكفاية. فقد ورث نظرية هردر والرومانسيين القائلة إن الشعر هو اللغة الأكثر «مباشرية»؛ فهو يعبّر بسذاجة بسيطة عن أعمق الرغبات ليس فقط عند الفرد بل للثقافة بأكملها. ولأن الشعر هو لغة القلب، وليس اللاهوت، فهو يعبّر عن المعتقدات الدينية التي يجب على العقل أن يجد لها الأسباب.[2] مع ذلك، كان عليه أن يعترف أيضاً أنه قد عكس الطريقة التي يولد فيها الشعر: «لتجسيد» الأفكار الفلسفية، فقد بلورها بلغة الخيال ـ طريقة يصعب أن تضمن نجاحاً فنياً. وتتفاقم مشاكل الشعر بالتناقض بين شكل القصيدة التي استخدمها والنبرة التي حاول تحقيقها. فقد كتب مقاطع إيقاعية عالية الإيقاع ـ سوف ندعو ذلك بالشعر الركيك ـ والتي تبدو في الإنكليزية مثل إيقاعات الأطفال؛ ولا تستطيع هذه تحمل ثقل رصانة تلك الأسطر مثل، «آه أيتها الحياة القاسية، أيتها الكينونة المريرة!/آه أيتها الكينونة الممتلئة بالنضال والألم النقيين». والتأثير الكلي هو تأثير لطالب جامعي يملأ وقت الفراغ أكثر منه لاحتفال بالموت موصوف بشعر رومانسي عظيم والذي كان ربما يدور في خلد فويرباخ (مثل عمل نوفاليس *ترانيم لليل*). ومع ذلك، فقد كان

(1) Feuerbach, «An Carl Riedel,» GW, IX, 10 12 ـ

(2) Ludwig Feuerbach, «Vorwort,» *Kleinere Schriften III (1846 1850 ـ), ed. Wolfgang Harich, in GW, X, 183.*

غوته يولي الاحترام لهذا الشكل الشعري الشعبي. علاوة على ذلك، فإن حقيقة أن فويرباخ استخدم الشعر هي أكثر أهمية من مزايا الشعر الفنية الفعلية؛ فقد كانت الفكرة مواجهة الأمل بالخلود الذي يُشعر به عميقاً بلغة والتي من شأنها أن تستثير تجربة ـ الموت ـ في الحياة.[1]

تختلف معضلة شرح الوظيفة اللغوية *للحِكَم* عن معضلة تفسير الشعر لأنّ المقطع الرثائي كان مناسباً تماماً لعرض نكات فويرباخ اللاذعة. وكان أتباع المذهب الإنساني الألمان قد استنبطوا لتوهم تقليد هجاء حِكَمي؛ وفي زمن فويرباخ، أضحى طريقة مقبولة لإعلان حرب أدبية على المعارضين. وكل شخصية تقريباً من المدارس الكلاسيكية والرومانسية كان قد كتبت حِكما؛ وفي عام 1796، كان غوته وشيلر ينشران مقاطعهما «الساخرة ـ الهجائية»، والتي تركت دون أذية بضع أعضاء من الدوائر المعاصرة الأدبية والفلسفية الألمانية. ومرة أخرى، في عام 1827، نشر غوته حكماً، والتي كان قد كتبها خلال العقد الذي سبق، تحت عنوان *Tame Xenin* (استخدم فويرباخ الكلمة الأخيرة ـ التي هي يونانية ـ كلقب خاص به)؛ ومع أن هؤلاء هاجموا كلاً من الأدب والأعراف الاجتماعية للتجديد الألماني، فربما كان فويرباخ يفكّر بغوته حين انتقد زميلاً من الساخرين الألمان لكونه لطيفاً جدّاً، وذلك في مقدمته التمهيدية «ديباجة نصائح وردود».

السؤال هو، كيف يمكن لمثل هذا التعبير عن السخرية والازدراء «أن يجسّد فكرة» ويغيّر العقول؟ وعلى الرغم من أن فويرباخ الناضج كان محرجاً نوعاً ما من *الحكم* ـ جزئياً لأن محرّراً متحمساً أضاف عشرات منها من تلقاء ذاته ـ ففي عام 1830 لا بدّ أنه أراد أن يراها وقد نشرت، على الرغم من التخمين الواقعي إلى حد ما لخطر انتقاد القوى التي في السلطة. ولا بد أنه يعرف أنه كان يرتكب خطيئة لا تغتفر ضد طبقة الأساتذة، هجوم واضح أظهر انعداماً تاماً لاحترام السمعة الأكاديمية الرفيعة. مع أنه، من ناحية أخرى، الغضب يخفض الموانع. وقادر تماماً

(1) Grün, *Nachlass, I, 29.*

على كتابة هذه الهجمات كان الشاب الذي كان باستطاعته أيضاً أن يكتب إلى والده، وهو شخصية سلطوية للغاية في حياته، أنه «عندما أريد أن أتعلم تبصّرات باولوس» ـ كان باولوس البروفسور الذي أراد والده أن يسمع منه فويرباخ على نحو خاص في هايدلبرغ ـ «فأنا لا أحتاج إلى حضور محاضراته، بل فقط للذهاب إلى أفضل حانة في الحي».[1] لكن حتى هجوم فويرباخ الخطير الشامل على الأكاديميين كان المقصود منه تعزيز حجته. فحين يكون المرء مقتنعاً من حقيقة ما، وحين تضعه هذه القناعة ضدّ كلّ رجحان الوضع الراهن، فالتعبير عن هذه الحقيقة يجب أن يتضمن إذاً بياناً معارضاً قوياً بقدر ما يمكن. فقد بدا لفويرباخ أن «النفي» القوي للغة كان باستطاعته فعلياً إسكات المعارضين.

لعل أفضل طريقة لتوضيح الشخصيّة الأدبية الغريبة لهذا العمل هو شرح أنه، على الرغم عاطفته وعلى الرغم من التسلل للمصمم الأدبي الواعي ـ ذاتياً ـ أو، بالأحرى، عن طريق شغفه وأسلوبه ـ كان مؤلّفه يحاول أن يثبت نوعاً معيناً من الموضوعية. لم يكن فويرباخ يعني بالموضوعية الإيمان المنفصل للبيانات الخارجية للعالِم المعاصر، على الرغم من انه كان يريد بالتأكيد إعلان انفصاله عن أي وكل مدرسة لاهوتية. كانت حقائقه، «موضوعاته» أفكاراً، ومفهومه عن الموضوعية كان لا بدّ أن يكون مخلصاً لحقيقة مسألة على الرغم ما يمكن للآخرين أن يرغبوا للحقيقة بأن تكون. لقد كان يفترض سلفاً أن جمهوره يرغب في أن يكون أزلياً، وأنه هو كان يتعاطف مع هذا الأمل، معترفا أنّ مصدره كان «ألماً حيّاً»، حقيقياً؛ لكن العمل من هذا الافتراض المسبق إنما كان يعني التأكيد على الحقيقة الموضوعية لموت الإنسان بأشدّ ما يمكن، لإثبات «الشغف لأجل الموضوع» من أجل التغلب على القوة المسيطرة القديمة لهذه الرغبة.

الحجة: نفي المفاهيم التقليدية المسيحية

إنّ المقدمة التاريخية *لأفكار حول الموت* تستلزم تأكيداً برسالة إلى هيغل؛

(1) لودفيغ فويرباخ لباول يوهان أنسلم فويرباخ، 1823، Sass, XII, 223.

فمسيحية النفس النقية ليست المسيحية كما تجلّت على مر التاريخ بل المسيحية في شكلها الحديث، في التَقَويّة، العقلانية، والأخلاقية التي هي ذاتها النتيجة المنطقية للإصلاح. هذه الحركات هي موضوعات لمعظم هجمات *الحِكَم*. وعلى النقيض من الإيمان القديم والأصيل للكاثوليكية ولصوفيي القرون الوسطى، تُتهم التقوى الجديد، التدين العاطفي الذي كان سمة من سمات «الصحوة» الدينية في حقبة ما بعد نابليون، بالحط من مكانة الطبيعة البشرية عبر «وعيه للخطيئة» وتأكيده على ضرورة المساعدة الإلهية وعلى قيادة انسحاب الدين إلى الاستراحات المظلمة للشعور الغامض، في حين أُفردت العقلانية بشكل رئيس بسبب تفسيرها الكتابي المماحك في أتفه الأمور وافتقارها للوعي التاريخي. مع ذلك، فالحجة الفلسفية للنثر تركّز على الخطأ القائل إن الحركات الحديثة تتشارك في التالي: النظر إلى الذات الفرديّة على أنها الشكل الوحيد للكمال، على أنها المصدر الوحيد للمعنى والإنجاز. وهذا التركيز على النفس هو نتيجة لانسلاخ الحداثة عن معنى الجماعة، عن الاعتقاد بأن هوية البشر ومن ثم قيمة الحياة إنما تُعطى من قبل عامة الناس الذين يعيش المرء بينهم. بل لقد اعتمدت حتى الكاثوليكية الثنوية، الأخروية، القرون ـ وسطية على معنى الجماعة لأنها كانت تؤمن أنّ الكنيسة جسّدت على الأرض الاتحاد ما فوق الطبيعي لأعضائها. فقط مع الاتكال البروتستانتي على الاعتقاد بالفرد أُمكن لعقيدة الأزلية الشخصية أن تكتسب أهمية قصوى، لأن النفس المعزولة الآن مقيدة بواقعها الخاص في بحثها عن مُثُل الكمال. مع ذلك، فأمثولة الذات الكاملة يجب أن تبقى أمثولة فحسب، نيّة داخليّة فحسب؛ يجب أن تُحبط دائماً على الأرض بسبب قيود القوانين الخام للواقع المادي التي لم تعد تفهمها أو تقدّرها. وللخروج من هذا الإحباط، يخترع المذهب الفردي الديني عالماً أكثر كمالاً، عالم يوجد بعد هذه الحياة «التي لا معنى لها»، وذلك بوصفه التكملة الوحيدة المناسبة لمثله.

من أجل إبطال مفعول هذا الخطأ، تحاول الحجة بمجملها العودة بالذات إلى الحدود الحقيقية، التي انتُهِكت من قبل الاختراع الخيالي لحياة أخرى. وهي

تتقدّم خطوة فخطوة نحو تفاصيل الصفات التي تثبت محدودية، ومن ثم موت الكينونة الفردية البشريّة. أن توجد يعني أن توجد بشكل عيني، بصفات عينية؛ وكلّ مجموعة من الصفات، في تجسيد الوجود، إنما تحدّده؛ وحين أكون أنا إنساناً، فأنا لا أكون كلباً، ومن ثم فذاتويتي ليست كل الحقيقة. وهكذا فالوجود الفردي محدّد بلانهائية الخالق، بخضوعه لقوانين الزمان والمكان، بعلاقته الجوهرية بجسد عضوي، مائت، وبقدرته المحدودة فحسب على ممارسة صلاحيات لا محدودة والتي تميّزه على أنه بشر، وذلك مثل الوعي الذاتي، العقل، والإرادة. وفي حين أن منطق المحدودية هذا يأمر بالتسليم بحتمية الموت ونهائيته، تقول الخاتمة إن السمة التي لا تنضب للزمن المحدود التي بحوزتنا إنما تفوق للغاية حياة والتي كانت ستُحدّد أولاً بدواميتها الأزلية.

تتضمن صيرورة إعادة النفس إلى حدودها فويرباخ في نقده الاستخدامات المقبولة للفئات الفلسفية التي تعتبر أساسية للاعتقاد المسيحي. والأهم في هذه هو رفضه قياس إلهي - بشري والذي يبني قضيته حصرياً على سمات حب شخص - لـ - شخص. فالإله المتصوّر كشخص غير محدود ليس غير تعبير عن الأنانية، لأن الذاتوية غير المحدودة هي المرآة اللانهائية ومن ثم التوكيد والضامن اللانهائيان للدوامية الأزلية للذاتوية الفردية. والتشبيه خطأ لأنه يترك العلاقة الحميمة بين اللّه والكينونة ماوراء الشخصية extrapersonal ومن ثم يعزل الذات البشريّة عن بيئتها ماوراء الشخصيّة extrapersonal. ويفهم فويرباخ الشخصية، أو الذات، على أنها تفرّد لواقع، الذي به لا تكون [الذات] أي شيء أو أي أحد آخر، الذي به يستبعد الواقع العلاقة. إذا كان اللّه مجرد شخص، فهو إذاً ليس طبيعة؛ وحين لا يكون طبيعة، فهو لا يكون كل شيء ومن ثم ليس لا متناه. يجب أن يتمّ تخيّل الإله بالأحرى كمصدر للطبيعة وكذلك للشخصية، كمصدر للكينونة ما وراء الشخصية extrapersonal. يجب أن يُفهم على أنه مصدر لتلك الحقائق التي للكون والتي تحدّد كينونتنا، التي تحبط رغبتنا في أن نكون لانهائيين. وعلى سبيل المثال، كأزلي، هو مصدر للقوة التي تستهلك الزمن، والتي هي، كتعابير وجوده الأزلي،

تعبير أيضاً عن المراحل الانتقالية للواقع كلّه في مواجهة اللانهائي. وبلغة فويرباخ، هناك جانب مبهم أو مظلم للّه والذي يستهلك الواقع الفردي وكذلك يؤكده. وأن تعبد هذا اللّه يعني أن يستسلم المرء لشخصيته بقدر ما يختبر توكيدها، وواقعة الاستسلام النهائي للموت تحمي من أنانية الأمل بجائزة أزلية.

يثبّت فويرباخ هذا التأكيد على الجانب اللاشخصي للّه، على حبّ اللّه كنار تستهلك الفردية، من خلال العمل على مضامين الاستسلام ـ الذاتي للحب البشري. وتجربة الحب تعبّر عن مجتمية الكينونة؛ وهكذا فالحاجة إلى الحب تعبّر عن حاجة كينونات متمايزة للوحدة. ومع ذلك، فالحب، كان سيبدو مستحيلاً إذا كنا مجرّد أشخاص، لأن الشخصية هي مبدأ الاستبعاد. وبتعابير أكثر عصريّة، فإنّ أساس الحب ليس جذب إحدى التفردات لتفرّد آخر، بل جاذبية ما نشترك به، ما يوحدنا. فحبنا لبعضنا بعضاً يعبّر عن رغبتنا بالوحدة مع الواقع الإنساني اللانهائي الذي نتشارك به كلانا. لذلك فشرط إمكانية الحب البشري هو القدرة على تسليم ذاتية لهذا الواقع الأعلى.

نحن بحاجة في هذه النقطة إلى الاستطراد من أجل شرح الموقف الفلسفي خلف كلام كهذا. وقد أثبت فويرباخ الشاب التقليد الفلسفي الذي كان ملتزماً برؤية الوحدة النهائية للواقع والذي عبّر عن هذا الالتزام من خلال شرح كيف أنّ واقعاً خارجياً، ملموساً، فردياً هو مظهر لواقع غير مرئي، روحاني، وشامل. لقد فسّرت فلسفة هيغل وحدة اللّه مع العالم بما يرضي فويرباخ لأنها، عن طريق تطوير مجموعة من المقولات الديناميكية التي أدخلت الكون في عملية الإفصاح ـ الذاتي للّه، فقد تغلبت على الثنوية روح ـ مادة الثابتة. كان شكل الدينامية لهذه المقولات عضوياً: تم النظر إلى الوقائع الفردية على أنها القمم المرئية لجبال جليد النظم الروحية للنمو الحيوي. وهذه الوضعية تفسّر، على سبيل المثال، إصرار فويرباخ على الرابط الداخلي بين الجسد البشري الفردي و«المنظومة العضوية الكونية» للطبيعة الأرضية. ومع ذلك، فالواقع الشامل في مصدر الفردية الإنسانية هو «أكثر واقعية» من الفرد البشري، لأنّ البشر تعبيرات محدودة عن «الإنسانية

نفسها»، مثل الكمال للبشرية الذي يتم تحقيقه في الأفراد لكنه لا يستنفذ أبداً. (وهكذا، أيضاً، يكون الجسد البشري الفردي تعبيراً غير كامل عن «الجسد العضوي ذاته»؛ ووفاة الفرد، بدلاً من أن يسببها جرح مميت، إنما ترجع في نهاية الأمر إلى واقعة أن الجسد المتناهي يستهلك قبل الجسد اللامتناهي الذي يشارك فيه).

هذه هي إذن الرؤية الفلسفية التي تخبرنا عن تأكيد فويرباخ على جماعية الكينونة على حساب الفردية. فالحب يعبّر عن قمة الانسانية لأنّ موضوعه هو الوحدة الشاملة التي تجعلنا على ما نحن عليه تجسيدات متناهية لقوى شاملة. وكما يشرح فويرباخ فقوى الوعي ـ الذاتي، العقل، والإرادة، الحجج لأجل الموت البشرية تتبع هذا المسار نفسه: لسنا الوعي ـ الذاتي (أو العقل، أو الإرادة) ذاته، بل مظاهر محدودة مجردة مفردة للوعي ـ الذاتي الشامل.

هذا الوصف للحب بوصفه تعبيراً عن الصفات المشتركة للكينونة هو محاولة لجعل البشر يفتحون حدود الوعي الذاتي، ينظرون إلى الإنسانية على أنها معنية جوهرياً حتى مع عالم يحتوي على براهين على المحدودية البشرية. وكون الترابطية هي هيكلية الواقع، خاصة الواقع الإنساني، إنما يُبرهن من خلال وصف لواقعة أنه حتى هويتنا الذاتية الداخلية مُشارك بها دائماً. تنشأ حياتنا من اللاوعي، وليس فقط من ظلمة الرحم أو السواد الكامل قبل الحمل. وقبل أن نكتسب النضج الكافي لإثبات أنفسنا ككينونات مستقلة، فالوعي الوحيد الذي لدينا هو ذلك المنقول إلينا من قبل مربينا. وحتى بعد أن نأخذ مواقفنا المستقلة، لا نكون مستقلين بالكامل أبداً؛ فقصة حياتنا تتقدّم عبر صيرورتها متشابكة مع الوعي الذي يمتلكه الآخرون عنّا. وفي الواقع، حين يكون الموضوع الرئيس لقصة الحياة نمواً في القدرة على الحب، تكون حياتنا قصة تَشَارك لوعينا أكثر بكثير من اكتسابنا لوعينا الخاص، لأنه حين نقارب شفق الحياة، يكتسب الوعي المشترك، في ذاكرتنا وذاكرة الآخرين، أرضية مقابل وعي أنفسنا الذي يبقى. وهكذا، فإن حدث الموت المادي، يكون تعبيراً عن فعل المشاركة النهائي، عن منح الذات، لأن الحدّ بين ذواتنا والآخرين

يُطمس تماماً، يستسلم تماماً لوعي الآخرين بنا. وهنا يقدّم فويرباخ لموضوعة قديمة لمسة عصرية: الحب الذي هو التجسيد والتحقيق للحياة البشرية بالذات يُعبّر عنه في نهاية المطاف بالموت.

يصل فويرباخ إلى نقطة حاسمة للتغلب على ثنوية الروح ـ المادّة في محاولته لوصف الوحدة الجوهرية بين النفس البشرية الفردية وجسدها دون تدمير التمييز بين الواقع الشامل، الروحاني ومظهره الخارجي. (ويسبق هذه الحجة نقاش غائي طويل لإظهار أن النجوم لم يكن باستطاعتها دعم الحياة لأن غرض الكون وتحقيقه هو الأرض، التي هي من ثم الجرم السماوي الوحيد الذي يحتوي على الشروط لأجل الحياة. يجب أن لا يُلهي الجمال الأخاذ لفلسفة الطبيعة هذه عن بؤرة الحجة: تعتمد الحياة على وجود شروط معينة؛ وهذه الشروط تحدّد الحياة وكذلك تعزّزها؛ وفقاً لذلك، فالمنظومة التي تولّد حياة الإنسان الفردية تضع حدّاً لها أيضاً). إنه يأخذ موقفاً داعماً لوحدة النفس ـ الجسد بناء على مبدأين: (1) جسم الإنسان هو وحدة ديناميكية، حيّة وهكذا فهو غير محدّد في المقام الأول بالصفات «الميتة» كالمادية، الوزن، وقابلية القسمة، والتي هي بأفضل ما يمكن تصف الحجر؛ إنه «المادّة غير الماديّة»؛ و(2) ثمة تمايز بين النفس كمبدأ حياة معين لجسد معين، والتي تذهب مع الجسد التي هي مقدّرة له، والنفس التي توجد «في ذاتها»، التي هي النفس الروحية، الشاملة ومن ثم فهي ما فوق شروط الفردانية.

مهما كانت مزايا هذه الحجج، فالافتراض الكامن خلفها هو أن التفسيرات المسيحية لأبدية النفس بعد موت الجسد تُجعل ممكنة بسبب الحط من قيمة الجسد البشري؛ فالمسيحية التقليدية تُعامل الجسد كمادة غير حية، كجلد للنفس يمكن انتزاعه وليس بوصفه أحد الأمكنة في الطبيعة حيث الوجود الجسدي «يُبْعث»، يُقام إلى وجود جسدي واع ـ ذاتياً. وهكذا فمنطق الحجج ينتقل من التأكيد على الوحدة الديناميكية للفرد البشري إلى إنكار الوجود ما بعد الموت لأي شخص فرد بشري. مع ذلك، فبالنسبة لفويرباخ، فإنّ قرار الفصل

بين النفس والجسد هو أكثر أهمية من إفادة هذا القرار بالنسبة لحجة أخرى ضد الأزلية. وقد أكدت رسالته لهيغل أن المسيحية تسيء فهم المحدودية، الحد البشري، وتعبّر عن سوء الفهم هذا في صورة لعالم مفترض أعلى من هذا العالم علاوة على ذلك، فإن الصورة الأقوى التي اعتادت المسيحية استخدامها لوصف الخلود ليست صورة نفس أثيرية، بل صورة لوجود فردي في السماء، صورة لجسد سماوي. وهكذا فعند هذه النقطة يقطع فويرباخ حجته في محاولة لأن يظهر بالضبط كيف يؤدّي التقليل من قيمة الجسد البشري الحقيقي إلى صورة الجسد السماوي الأبدي.

يؤدّي التأكيد على أولوية الذات بالمسيحي لأن ينظر إلى الفردانية على أنها كينونة متمايزة حتى عن ذات واحدنا المتجسدة الخاصة، عن جسد واحدنا. ولأن الذات المعزولة ـ الآن لم يعد تعترف بحدود الجسد على أنها حدودها هي الخاصة، فهي حرّة في تصوّر إنجاز مفاده أنها غير ملزمة بهذه القيود. ويقول فويرباخ إنّ الذات بهذه الوضعية تتواجد كما لو أنها في حلم، والذي تُطلق فيه ضوابط التفكير وفقاً للقانون من عقالها باتجاه قوى الخيال. وبسبب إطلاق العنان للمخيلة، فالرغبة بأن يكون أزلياً تجسّد موضوع رغبتها، وتعطيها وجوداً عينياً، موضوعياً ظاهرياً ـ فها هو الجسد السماوي الممجد! وبعبارة أخرى، فإن صورة الجسد السماوي هي مثل الهلوسة التي تنجم عن رغبة شديدة ما إن لم تعد تلك الرغبة غير مقيدة بحدود الواقع. وفي حين أن الجسد السماوي الحقيقي هو الجسد الأرضي، فالبخس المسيحي لقيمته يؤدي إلى فجوة، حفرة، في العالم الحقيقي؛ لكن المسيحية تعرف عن هذه الفجوة ما يكفي لأن تشعر بالحاجة إلى ملئها، لذلك فهي تستبدل الجسد الذي تسيء فهمه بصورة لجسد في عالم أعلى. إنّ هذا الوصف للعملية والتي يأخذ فيها شيء مرغوب بعمق واقعاً مستقلاً هي خطوة فويرباخ التجريبية الأولى في علم النفس الديني. فبدلاً من حجة لإثبات حدود فردانية الإنسان من قوانين هذا العالم، فهي محاولة للكشف عن أصل صورة لإظهار أن السماء ليست هناك.

خواطر

لدينا من توقعية العمر ما هو أطول من أية توقعية لعصر بشري آخر، ومع ذلك يبدو أن لدينا «توقعية موت» أعظم ـ أي، يبدو أن ثقافتنا الغربية، التي لا تشبه ثقافة قبلها أو بجانبها، مسكونة بهاجس معنى الموت، الاحتضار، والحياة الذي خصصناه لذواتنا. لكن ربما أنّ هذه ليست مفارقة؛ وربما أن انشغالنا هو في واقع الأمر نتيجة لآمالنا بحياة أطول؛ ففرص أن نُبتر قبل أواننا تزداد كلما توقعنا أن نعيش أكثر، وهكذا يزداد قلقنا على نحو متناسب. من ناحية أخرى، لا يمكن لهذا أن يكون المصدر الوحيد لانشغالنا؛ فالشعب في أيام فويرباخ لم يكن لديهم توقعية الحياة التي لدينا، ومع ذلك، وفقاً له، كانوا مسكونين بهاجس الهروب الموت. وربما أنّ فويرباخ صمد في عصرنا الحديث بما يكفي لأن يكون قادراً على التفكير بالاتجاه الذي لمسناه ينمو فينا. وربما، على الرغم من لغته الغريبة، لديه شيء ليقوله عن انشغالنا بالموت. وسوف أتأمّل بثلاث مراحل من حججه: نظريته بوصفها المصدر لتركيز الحداثة على الأزلية الشخصية، حججه من أجل عودة الذات إلى مكانها «الطبيعي»، ومحاولته لاستبدال عقيدة الخلود بمثل عليا مرتبطة بقابليتنا للموت.

يربط فويرباخ التركيز الحديث على خلود النفس بتغيّر ثقافتنا في المنظور للمصدر الأهم للمعنى الإنساني: إنه الآن الفرد، فلم يعد المجتمع، الذي هو مطلق. وهو يعتقد أن هذا التغيير شمل خسارة، خسارة الإحساس أن كلّ واحد معنا يُعطى هويتنا، ومن ثم أهميتنا، من قبل مجموعة بشرية أكثر حقيقية من مجموع أعضائه وأنه من ثم فإن المعايير النهائية لقيمة حياتنا هي قيم هذا المجتمع. هذه الخسارة مدمرة لأنها تعني الاستسلام لمُثُل واقعية؛ فالروماني، الذي اكتسب هوية شخصية من خدمة الإمبراطورية، اليوناني، الذي كان مكرساً لأمثولة عليا مشتركة لتجسيد الجمال، حتى المسيحي في القرون الوسطى، والذي كان يعتقد أن الكنيسة كانت المظهر الأرضي للعالم ما فوق الطبيعي ـ كلّ هذه عملت

لتحقيق أهداف بأن البشر قادرون على الإنجاز. وما أن رُفض هذا الشعور بالهوية الجماعية، حتى قُطِعت الفردية عن النظر إلى القيمة في أية حقيقة غير الذات المعزولة، ومن ثم فقد ركّزت الثقافة الجديدة على هدف غير واقعي، الفرد الأزلي للحياة الأخرى، كي تستبدل الأهداف التي تتناسب مع القدرة البشرية، أهداف جماعات الأرض البشرية العابرة للأفراد.

هذا بيان عن الأصول التاريخية. فعلى افتراض مسبقاً أن البشر ميتون، فهو يجيب على السؤال القائل، كيف استولت أمثولة الأزليّة الشخصيّة، هذه المحاولة لتجنب الموت، على ثقافتنا؟ مع ذلك، فمن أجل أن نفهم ماذا كان فويرباخ يعني، يجب أن نسأل عن معنى افتراض آخر خلف هذا المخطط التاريخي: بأية طريقة يمنع الإحساس بالجماعة البشر من محاولة الهرب من الموت؟

من السهل أن نتصوّر إجابة ممكنة. فلعلّ الإنسان لا يمكنه أن يتحمل الوقوف وحيداً أمام الموت. قد يكون من المستحيل على النفس أن تكون حساسة تماماً للحياة في كل لحظة ـ لأنّ هذا يعني أيضاً تحمّل عبء مقاربة واحدنا للموت كلّه ـ وهكذا يجب أن تميت بعض وعيها من أجل مواصلة العيش. ولعل على الإنسان أن ينسى جزءاً من ذاته من أجل الحصول على أمن الهوية الأكبر الذي يتيحه المجتمع. وبعد كل شيء، فأن تكون جزءاً من المجتمع يعني أن تكون أزليّاً بمعنى من المعاني. فالجماعة التي ولدت فيها كانت هنا قبلي؛ وحين لأخضع لقواعدها سوف تدعمني، تريحني حين أقترب من الموت، وتتذكرني حين أذهب. كان الشعور بالجماعية لزمن طويل وسيلة لتخفيف رعب الموت؛ وعن طريق إطلاق الذات من استقلاليتها، يمكن للمرء أن يحظى بالدعم من بنيان أضخم على طول الطريق. وقد يكون مردّ القبضة القوية للتماسك المجتمعي حتى العصر الحديث في جزء كبير منه هذا النوع من الاستجابة لتجربة الاقتراب من الموت.

أعتقد أن وصف فويرباخ للحياة على أنها صيرورة إضفاء ـ ذاتي ليس فقط يستغرق هذا المنطق بل يدفع به نحو المزيد: إنه ليس أنني *أختار* التخلّي عن جزء

من ذاتي لصالح كليّة أكبر، بل، بالأحرى، فإن بنياني البشري يتطلب ذلك. وبأن يطبّق على العلاقة بين الفرد والمجتمع الحجة المسيحية الكلاسيكية المتعلّقة بالمخلوقية creatureliness: وعي الاستقلالية البشريّة زائف لأن الإنسان يعتمد كلياً من أجل إثبات موجوديته بالذات على ما تتلقاه من مجموعات الوعي المربيّة. وهكذا فإن صورة الفرد المكتفي ذاتياً هي وهم من البداية. أيضاً، وعلى الرغم من صيرورة الحياة البشريّة الناضجة تشمل استسلاماً ـ للذات، فالذات ـ بوصفها ـ واعية تتضاءل مع تنامي الذات ـ بوصفها ـ موضوعاً. ومع مرور الوقت، أصبح موضوعاً أكثر فأكثر؛ فأنت وأنا يمكننا أن نلاحظ الذات التي كنتها. وملء البشرية المكتسب حين يصل الإنسان تصل إلى ذروته هو في الحقيقة ملء الذات كموضوع مُتذكّر. ونقطة الموت هي إكمال صيرورة التحوّل هذه إلى الموضوعانية؛ إنها انغماس الذات وتقسّمها دون باق في الجماعة، لأنه في هذه النقطة أنا أتواجد فقط في وعيها لما كنته. وهكذا فإن وصف فويرباخ لأخلاقية منح ـ الذات ينصح البشر بما يمليه عليهم البنيان البشري على أية حال.

المحتوى الكامل للجزم التاريخي عند فويرباخ، إذن، هو أنه، على الرغم من أنه كان كل الثقافات مواجهة معضلة الموت، فإن الشعور بمنح ـ الذات للجماعة منعهم عن إدخال وهم الدوامية الأزلية للذات في الوهم الغربي الحديث. ومع ذلك، وبصرف النظر عن التساؤل حول دقة هذا النص، قد يكون من الصعب جداً علينا القبول بهذا التأكيد على أسبقية المجتمع. أليس فويرباخ يخفي حقيقة أن كل واحد منا فريد بذاته على وجه الدقة حين يكون علينا مواجهة حقيقة موتنا، أننا نصبح غير قابلين لأن يحلّ أحد مكاننا على وجه الدقة حين نختبر الموت كلّنا على نحو مستقلّ؟ ومن ثم أليست أمثولة الانغماس ـ الذاتي بالنسبة للجماعة هي مجرد حلم آخر للتجاوز، أمثولية مفرطة للجماعية عوضاً عن كونها أمثولية مفرطة للذات؟ ألا يخفي الأمر حقيقة الكذبة النهائية لأية مشاريع، سواء للمجتمع أم للفرد، والتي يجب أن تنتهي كلها عند النقطة السلبية ذاتها؟

في حين قد لا يكون هناك إجابة مرضية تماماً على حقيقية هذه الأسئلة،

فإنها تفتقد منطق حججية فويرباخ، الذي يقول إن صيرورة الحياة الفردية، بسبب ضرورة علاقتها بالكينونات الأخرى، تستهلك الذات حتى، عند الموت، يترك القليل الكافي من تلك الحقيقة، والذي سيكون فقدانه مؤلماً. والمبدأ الفلسفي الكامن خلف هذا هو أن الكينونة جماعية، أن الإله هو كلّ شيء في وحدته وكذلك في تميزه، ومن ثم فإن الواقع القائم على نحو إفرادي يسعى إلى التغلب على عزلته. عند البشر، فإنّ مصادر الدافع للتغلّب على العزلة هي كل تلك الجوانب التي تتحدث عن العلائقية، سواء أكانت الجسد أم القوى الواعية للتفكير والإرادة. ويدعو فويرباخ هذه الجوانب *باللا ـ ذات*، فبالنسبة له، فإنّ صيرورة النمو، صيرورة اكتساب النضج البشري، تنطوي على توافق مع نمو اللا ـ ذات. وعلى الرغم من أنه يتحدّث عن ضرورة التأكيد على الجانب المظلم للّه، الذي بدافع من حبّه خلق قوانين استهلاك الذات، فإنّ فويرباخ لا يدافع عن خضوع ـ ذاتي مازوخي والذي يتناقض مع منطق فلسفته. الجانب المظلم فينا هو ذلك الجزء من إنسانيتنا الذي تُكتب فيه قوانين موتنا، تماماً مثلما أنّ الدافع لحياة غير محدودة مكتوب في الذات. والموافقة على الكينونة البشرية تتضمن الموافقة على السماح لأنفسنا بأن نُحتوى ونُستخدم فقط لأن الموافقة على قوانين الموت تعمل فينا. ومن هذا المنظور، فإن الموافقة على الخضوع للجماعة ليس هروباً من وحدانية موتنا، بل الموافقة على السماح لوحدانيتنا بأن تموت قليلاً كل يوم.

ومع ذلك، يمكنِ أن تبدو غير دقيق ولا عادل من قبل فويرباخ حين تتهم المسيحية بفصل الفرد عن الجماعة؛ فكثيراً ما ارتقت الرسالة المسيحية إلى قمة بطولة أمثولة منح ـ الذات. علاوة على ذلك، كانت هذه الأمثولة بالذات المصدر للقوة المسيحية التي تجبر على خلق جماعة: حين نكون كلّنا مخلوقات للّه متساوية، فحياتنا في خدمته يجب أن تتضمّن خدمة الآخرين. مع ذلك، فبعيداً عن هجومه على هذه الأمثولة، تهاجم حجج فويرباخ شكلاً بعينه من الفهم الذاتي الذي امتلكته المسيحية، لأنه يعتقد أنه يستبعد إمكانية منح الذات ليس فقط للبشر الآخرين بل حتى للّه. وتعرف المسيحية الحديثة، الفردية المسافة

بين الخليقة واللّه وتحاول التعبير عنها. مع ذلك، فلأن النماذج الوحيدة المقدّمة لتفسير حقيقة اللّه هي سمات للشخصية المرتقية إلى سوية القوة اللانهائية، فإن مسيحي فويرباخ يرى في اللّه فقط تلك الصفات التي تؤكد الأهمية القصوى لذاته. ومن المؤكد أن موضوع مثل هذا الهمّ الشخصي اللامحدود لم يكن ليُسْمَح له بتجاوز الوجود! فهذا الشاب المتمرد على اللاهوت، الذي سرعان ما أعلن الإلحاد بشكل صريح، يهاجم المسيحية الحديثة على أخذها للقوة السرانية، النافية لحب اللّه من العلاقة الدينية! مع ذلك، فإضافة إلى هذا، فإن التركيز الحديث على الذات جعل لها أهمية فائقة بحيث أنّ كل فرد يربح أعطية غير محدودة على اختبار الاحباطات بامتداد غير محدود هنا على الأرض. يمكن للمسيحي أو المسيحية الفرداني أن يعلن أو تعلن عدم أهليته أو عدم أهليتها للسماء، لكن تبقى الحقيقة أن الخضوع للّه هو أحد أشكال الأنانية طالما أن هدفه هو الأزلية ـ للذات.

إنّ صورة فويرباخ للفردانية المسيحي، إذن، هي صورة ذات معزولة والتي لا تستطيع، وربما لا ترغب، أن تُطلق من داخليتها الخاصة. لذلك فهي محجوزة في تذبذب متواصل نحو أحد الطرفين القصويين المتروكين لها أو الآخر، الطرفان القصيان للحرمان النفسي ولاتضاع ـ الذات كلياً ـ بمصطلحات فويرباخ، شكل معكوس للتمركز حول الذات ـ ولوعي ممتدّ بلا حدود إلى النقطة حيث لا حدّ للذات يمكن تصوره. قد يكون باستطاعتنا فهم المزيد من هذه الصورة من خلال العودة إلى الوصف السابق لتجربة الذات في ردة الفعل على واقع موتها الوشيك. يمكن للذات قبول أو محاولة الهرب من رؤية نهايتها. مع ذلك، فشرط القبول هو الاعتراف بتخلخلية الذات، بتخلخلية علاقتها الداخلية ومن ثم حساسيتها في التعرّض لكل القوى التي تشكّل خطورة بالنسبة لها بل وتستهلكها. ولأن الفردية رؤية للواقع لا تسمح بهذه التخلخلية، فهي لا يمكن أن تقبل بالموت، ونقديّة فويرباخ هي محاولة لمنع الاستراتيجيات التي تكونها الذات المقفلة للسيطرة على مصيرها ومن ثم الهروب من الواقع. وبرأيه، السخرية من محاولة تحرير الذات من موتها القادم هي السخرية التي تتضمنها في فقدان قيم الحياة. وبالنسبة للذات

التي تعيش داخل عالمها السحري، الشامل لكلّ شيء، فقد بدأت السماء للتو، وهي قادرة على أن تطفو فوق الصراع الأزلي للواقع، دون إعاقة من أي شيء سوى حدود مخيلتها. ويفسّر المفكّرون الأكثر تأخراً هذه الظاهرة على أنها تعبير عن الرغبة في أن تكون إلهاً، والتي تمنع الإنسان من أن يصبح إنساناً[1].

جسد الإنسان عقبة حاسمة أمام مشروع الذات لتجنب الحدودية؛ وكما رأينا، يقول فويرباخ أن الثنائية التقليدية المسيحي نفس ـ جسد هي محاولة أخرى أيضاً من قبل الفردانية لإنكار أية علاقة مع هذا التعلّق الواضح ـ للغاية ـ جداً باستقلالية المرء. إنّ عقيدة أزليّة النفس «تقسم البشر إلى نفس تنتمي إلى العالم الآخر، لا يمكن تصورها، لا هيئة لها، والتي هي معادية للشكل والطبيعة على حدّ سواء، وإلى جسد خام، بلا روح، والذي هو معاد للنفس». من المؤكّد أنني أستطيع أن أميّز ذهنياً ذاتي عن جسدي؛ والحرية التي أمتلكها بالذات على تخيّل شيء ماوراء محدوديتي إنما تقوم على القدرة التي تميّز البشري عن كل الكينونات الحية الأخرى، القدرة على خلق تقسيم الداخلي بين ذاتي وبيئتي الآنية. لكن هل يمكنني حقاً أن أخطو خارج بيئتي؟ هل الأنا التي أنا أكونها في معارضة ذاتي لجسدي مستقلّة تماماً عن جسدي؟ أو بالأحرى، حتى إذا كانت علاقة الذات بالجسد ليست غير علاقة تعارض ـ والتي من الواضح أنها ليست كذلك ـ ألا تعتمد أنايَ على جسدي من أجل فعلها المتعلّق بالتقسيم؟ إذا كان هذا صحيحاً، فحين يُستهلك من ثم نقيضه، تكون كذلك الذات. أنه الموت، وليس الهروب من الموت، الذي يدخل في العالم مع الوعي ـ الذاتي، لأن للفرد البشري هو فقط كينونة والتي يجب أن تتأمّل حقيقة الموت قبل وصولها. إنّ جسدي، وليس المعارضة التي عليّ التغلّب عليها من أجل النجاة من العالم، هو التعبير الخارجي عن مرساتي فيه.

لهذه الحجة نوع من الضعف معين؛ فافتراضات فويرباخ المثالية في هذه

(1) على سبيل المثال، John S. Dunne, *A Search for God in Time and Memory (New York: Macmillan Co., 1967), p. 21*. أنظر أيضاً معالجة دن للجانبين المظلم والمضيء عند الله والبشرية، ص ص 169 ـ 205

المرحلة من مسيرته المهنية جعلته يفهم الفردية على أنها تعني القابلية للموت لأن الفرد هو المظهر المادي لنوع مثالي، روحي. فقط مع رفضه اللاحق لهذه الافتراضات كان سيبدو قادراً على رؤية التعبير عن الحب الجنسي على أنه الدليل القوي على إلحاق الفردية بقوانين الأنواع البيولوجية.[1] ومع ذلك فهيكلية حججه هنا تتحرك بهذا الاتجاه وربما تبرر لي تقديم نقاشات أكثر عصريّة لهذه المقولة.[2] وكما ما مثله تجربة، فالتعبير الجنسي عن الحب يتغلّب على عزلة الإنسان ومن ثم فهو شكل أساسي للتواصل بالنسبة للذات. لكن ظهور الوعي الجنسي يمكن أن يكون تهديداً خطيراً لمشروع الهروب من الموت، لأنه تجربة قوة غير شخصية في الفرد التي تنكر، في استقلاليتها الظاهرية عن رغبات المرء، سيطرة المرء على مصيره. وعلاوة على ذلك، فالتعبير المطلق عن الحب الجنسي يمكن يكون إنساناً آخر، والذي يكون، في شبابه أو شبابها، تجسيداً لقوانين القابلية على الاستبدال للفرد ضمن النوع. ومن جديد نعود إلى معضلة الفردانية الحديثة: الخوف من الخضوع للضعف يمكن أن يمنع التواصل الإنساني الحي.

وهكذا فنقد فويرباخ للفردية يصل به إلى القول إن الذات، ما إن تنفصل عن قوانين الطبيعة ودعم المجتمع البشري، حتى تعاني من العواقب المدمرة لكونها غير قادرة على النظر إلى أي مكان غير ذاتها من أجل مبرر لوجودها. إضافة إلى ذلك، فإنّ حكمه التاريخي القائل بالتفسير الفرداني للمسيحية الحديثة للعلاقة الدينية ساهم في هذه المشكلة. أنا أعتقد أن كلاً من هذين الحكمين يستحق النظر فيه بجدية. فقد شهدت ثقافتنا التقييد التدريجي للدين بالعالم الخاص، رفض هيكله المجتمعي لصالح الاعتماد على الخبرة الشخصية وحدها، ونحن بدأنا

(1) مع ذلك، فهذه الموضوعة متضمنة في الشعر.

(2) أنظر، على سبيل المثال، John S. Dunne، *Time and Myth: A Meditation on Storytelling as an Exploration of Life and Death (Notre Dame، ind.: University of Notre Dame Press، 1975), pp. 59 - 69.*

نلحظ النتائج المترتبة على ذلك. وحتى حين يشعر واحدنا في بعض الوقت بأنه متحرّر تماماً من خلال استسلام ـ ذاتي داخلي للّه، تظلّ، دون أن يكون قادراً على إطلاق شيء من مسئولية واحدنا للدعم المرئي لجماعة بشريّة، طقوسها، عاداتها، فيُشجع واحدنا على العيش خارج تركيز استبطاني خطير. فأن تقف وحيداً تماماً أمام اللّه أو وحيداً تماماً أمام موت واحدنا فذلك قد يؤدي بالفعل إلى النوع ذاته من الشلل، شلل العيش حصريّاً على خيال المرء الخاص. وأثناء ذلك، ففي روح معاصرة والتي لا تُخفف فيها الفردية حتى من قبل الشعور الديني بالاستسلام ـ الذاتي، نشاهد أناساً والذين لا يستطيعون الالتزام بأي مجتمع أو شخص أو مشروع خوفاً من عرقلة حريتهم ويعانون في الوقت نفسه من الشعور بالذنب والشعور باللامعنى اللذين يتأتيان من عوزهم لتجربة تأكيدهم من قبل هيكلية واقية.

محاولة فويرباخ الأخيرة لإعادة الذات الفردية إلى حدودها الحقيقية هي اعتراض على الأمل بحياة بعد الموت بتأكيد من النوعية للحياة التي نحياها قبل الموت. إنه يصف ذروة الخبرات لحياة الإنسان على أنها خبرات اللانهائية ضمن شروط المحدودية. وعلى سبيل المثال، فإن تجربة منح ـ الذات للحب توحد الجوانب الشخصية وغير الشخصية للإنسان لأنه، في التجربة، يدرك الفرد المحدود وحدته مع «الإنسانية نفسها»، مع المثل الأعلى غير المحدود للنوع. هنا أختبر موتي للتو، انمحاق شخصي الفردي أمام واقع لا نهائي، لكني أختبر أيضاً إدراك مقدرتي على الامتداد إلى ما لا نهاية. وهكذا فالمحدودية تُغزا من داخل المحدودية. وعلى الاعتراض القائل إنه حتى هذه التجارب إنما هي عابرة، يجيب فويرباخ بأن الموت ذاته يمكن أن يكون تجربة عابرة. وحدهم البشر يختبرون الموت قبل وقوعه؛ فاكتمال موتي وعواقبه تُختبر من قبل أناس آخرين أحياء. وهكذا فالأزمة الكبيرة في حياة بشرية ليست مسألة الموت بالذات بل إدراك الإنسان الحي أن المرء سوف يموت بالفعل. إن الخيار حول ما يجب فعله بشأن الموت، إذن، هو الخيار حول أية حياة تُعاش. يمكن للمرء أن يجعل من الموت الموضوعة الثابتة لحياته عن طريق الأمل بحياة بعد هذه الحياة فحسب ـ يدعو فويرباخ هذا بالعيش كما

لو كان المرء ميتاً ـ أو يمكن للمرء أن يقرر أن يعيش الآن، أن يعيش بكثافة تسمح للذات بأن تُستهلك. وبالنسبة لفويرباخ، فالخيار الثاني هو أن تغزو الموت من داخل الحياة.

مع ذلك، فمرة أخرى تسير فلسفة فويرباخ الشاب في درب اتجاه تأكيداته. ومن أجل صورة النعيم السماوي فهو يستعيض عنها بمشاركة بشرية في اللامتناهي، القوى الشاملة، «الإنسانية ذاتها، الوعي ذاته، الفكر ذاته»، مُثُل النشاط الفلسفي، التي هي، كما هي عليه الحال، تجريدية للغاية كي تزعم بوجود حياة بتكريس كامل. ومع ذلك، فإن القصد من توكيده على هذه المثل واضح؛ فهو يحث البشر على التخلي عن محاولة أن يكونوا كل شيء من أجل أن يصبحوا شيئاً ما، على التخفيف من الرغبة في أن يصبحوا لانهائيين من خلال القبول بالتجارب المحدودة للانهائية التي يعتقد أنها متاحة لنا. وكما رأينا، فهذه التسوية ممكنة فقط مع ضبط النفس، فقط مع استسلام الشخصية لنوع من الأمثولة بأن الإنسان يتصور ككينونة أعظم من ذاته.

مع ذلك، ربما في هذه المرحلة النهائية تماماً، فالواقعية الصرفة لعالمنا المعاصر تصرخ مرة أخرى محتجة. ونحن نعلم جيداً أن الرغبة في الوجود دون حدود لا تحتاج لأن يتم تدميرها من قبل ترجمتها إلى تماثل مع جماعة. ولقد رأينا في الواقع أنّ الاحتمالات المدمرة تكون أكبر بكثير عندما تنفجر الأنانية الفردية في الأنانية الجماعية لمجموعة ما التي رغبتها بالتفخيم الذاتي تتأتى تماماً من السيطرة على الأفراد الذين يشكلونها. هذه بالضبط هي الواقعية المعاصرة التي يبدو أنها تحطّم قدرتنا كي لا تثق بعد ذلك بالأيديولوجيات الجمعية لعالمنا، دينية كانت أم دنيوية. وهنا لا فويرباخ ولا علم النفس الفرويدي الذي كان هو ملهمه يمكنهما مساعدتنا، لأنّ مشروعيهما كانا مقتصرين على تبديد الأوهام، وعلينا أن نصل إلى النقطة حيث يتوجب علينا التسلي باحتمالية أن الحياة البشرية، في حين يبدو أنه ما من أمثولات جماعية تستحق المخاطرة، لا يمكنها أن تعمل دون بعض التنويهات للأزلية، دون بعض الحلم بأننا نشارك في مصير أكبر من مصيرنا. يجب

أن يكون لدينا شخص ما أو شيء ما نثق به، من أجل أن ننطلق من نرجسيتنا. يجب أن نكون على استعداد للعمل بدافع من التزام، ليس بشكل أعمى، بل في مواجهة الخوف من أن تخوننا هذه المجموعة أو هذا الشخص. ويبدو أن القوى المحفزة الوحيدة الفعالة هي تلك الأحلام مثل الأحلام الدينية التي توسع حياتنا نحو أبعاد ما فوق بشرية. ويبدو أن مشروع يومنا لم يعد مشروع تدمير الأوهام بل مشروع التمكين من إيجاد وقبول تلك الأوهام التي تعد بتعزيز إبداعنا البشري. وسأترك للقارئ ليقرر ما إذا كانت عقيدة الخلود الشخصي وهماً مدمراً أو خلاقاً.[1]

ملاحظة على الترجمة [من الألمانية إلى الإنكليزية]:

بسبب الطريقة التي تُلقي فيها *أفكار حول الموت* أصلاً،[2] فإن فويرباخ الشاب لم يخطط لطبعة ثانية في صيغة قريبة للأولى؛ وعندما ضمنه في مجموعة أعماله، فقد قام بتنقيح جوهري للنثر من منظور موقفه الفلسفي الجديد وترك الغالبية العظمى من الحكم.[3] والأخطاء المطبعية الكثيرة هي الدليل على السرعة الكبيرة التي ذهبت بها نسخة عام 1830 إلى الطباعة ـ ففويرباخ لم ير البروفات النهائية. من ناحيته، فإن يوهان آدم شتاين، المحرّر ـ الناشر الأصلي، والذي هو مذكور في العنوان بأنه «واحد من أصدقاء [فويرباخ]»، فقد حاول التخفيف إلى حد ما من حدة هذه المشكلة عن طريق إضافة قائمة الأخطاء الأكثر خطورة في نهاية الكتاب.[4] المسافات بين الفقرات في الترجمة

(1) بعض من التأملات في هذه المناقشة أوحيت لي من قبل إرنست بيكر، *The Denial of Death (New York: Free Press, 1973)*؛ أنظر بشكل خاص الصفحات 198 ـ 207.

(2) أنظر المقدمة للترجمة الإنكليزية.

(3) جزء من السبب في الشطب الحاسم من *الحِكَم* هو واقعة أن ربما كلّها لم تكن له؛ وفي مقدمته (الصفحة vii من الطبعة الألمانية) يعترف المحرّر ـ الناشر شتاين أنه أضافاً شيئاً من عنده! من أجل التاريخ المجمل للنشر، أنظر الحاشية رقم 1 آنفاً.

(4) لقد أخذت على محمل الجد نصيحة المحرّر ـ الناشر شتاين المتعلّقة بخطأ المؤلّف (الصفحة viii من الطبعة الألمانية) فوضعت النثر الختامي (الصفحات 232 ـ 247 من الطبعة الألمانية) مباشرة بعد الشعر الموزون، بدل وضعه بعد *الحكم*، حيث ظهر في الطبعة الأصلية.

[الإنكليزية والعربية] تتوافق مع ما قام به فويرباخ، لكن معظم تقطيع الفقرات ضمن هذه المقاطع إنما يعود لي.

طرحت الترجمة مشكلتين تحريريتين رئيسيتين: كيف ننقل إلى الإنكليزية نكهة أشكال خطاب مختلفة وكيف نقدّم المعلومات الأساسية الضرورية دون تشتيت القارئ أو خيانة النية اللاأكاديمية antiacademic الواضحة عند المؤلف. فعلى سبيل المثال، كان لفويرباخ عادة أن يرشرش كتاباته باللاتينية، اليونانية، والفرنسية، بل حتى الإسبانية والإنكليزية. وفي *أفكار حول الموت* تمتلك هذه الكلمات والعبارات أهمية متفاوتة وفقاً لما إذا كانت موجودة ضمن النثر أو في واحد من نمطي الشعر. ففي النثر، يستخدم فويرباخ بعض الكلمات غير الألمانية بسبب معناها التقني، وبعضها لإظهار سعة اطلاعه؛ وقد تركتها كلها إلا عدد قليل من هذه الكلمات والعبارات في الترجمة، حيث قيدت تفاسيري بتلك التي هي غير مألوفة بالنسبة للقرّاء باللغة الإنكليزية أو التي لا توجد في قواميس اللغة الإنكليزية. وهناك عدد قليل جداً من كلمات غير ألمانية في الأبيات المنظومة، وكانت هذه تستخدم ربما فقط لتناسب الوزن؛ لذا قمت بترجمتها كلّها. مع ذلك، *فالحكم* تخلق مشكلة من نوع آخر، لأن اللغات المختلفة كانت هنا وظيفتها مساعدة فويرباخ في محاولته التحلّي بروح الدعابة. وهكذا فإنه من الضروري أن إيراد جميع الكلمات غير الألمانية، جنباً إلى جنب مع ملاحظات تفسيرية ضرورية. إن ملاحظات فويرباخ وكذلك الناشر ـ المحرّر لعمله إنما يشار إليها بعلامة النجمة وترد في أسفل الصفحة المقابلة، كما في النص الأصلي، في حين أنّ ملاحظاتي مرقمة على نحو متوال وترد بعد النص المترجم.

لم أكن قادراً على إعادة تقديم الإيقاع الثقيل أو قوافي أبيات الشعر الركيك؛ وعذري جزئياً في هذا هو أن الأبيات لا تكاد تكون شعراً بل محاولة لإلباس الأفكار الفلسفية شكلاً جمالياً. علاوة على ذلك، فإن العديد من القوافي تبدو قسرية، وغالباً ما ينتهك الوزن. تبدو *الحكم* أقرب بكثير إلى الألمانية، مع نبرة

لاذعة في السطر الثاني من الكوبليه حين يعملان. *والحكم* تظهر الكثير من دعابة الوطن الأم لفويرباخ، بافاريا. مع ذلك، هنالك عقبات كبيرة أمام ترجمة هجاء يعود إلى أكثر من 150 سنة. فمن الصعب بما فيه الكفاية نقل الدعابة إلى قرّائنا المعاصرين عن طريق الكلمة المطبوعة. بل لعله من الأكثر صعوبة على الجمهور القادم من زمن لاحق الوصول إلى مغزى الدعابة؛ ويعتمد الهجاء على قراءة واعية للمشهد المعاصر لأن الدعابة تنطلق من التلميحات لأناس ذلك اليوم وأحداثه. في محاولة مني لحل هذه المشاكل، حاولت أن أبرهن على عينية المراجع الهجائية لا تقديم تفسير بحثي شامل. وهكذا فقد قصرت تفسيراتي في الحواشي على الإشارات إلى الشخصيات المهمة من الناحية التاريخية وعلى تلميحات أكثر غموضاً إلى الأساطير.

النثر غير متكافئ في الأسلوب، فهو يتراوح ما بين التلويحات الرسمية، الخطابية، الأدبية إلى خيوط ذات ترابط فضفاض من عبارات غير مصقولة، بيضاوية الشكل. وعلى الرغم من أني كنت حرّاً للغاية في تغيير علامات الترقيم الألمانية، لقد حاولت أن أعيد إنتاج هذه التنويعة، مقتنعاً بأن أسلوب النثر عند فويرباخ إنما هو مؤشر مهم على محتوى حججه والأهمية ذات الصلة التي يوليها له. فعلى سبيل المثال، كان ينتقل فوراً من سلسلة من الترابطات المنطقية إلى الهجوم الساخر الذي يحتوي على مبالغات من جهة الحجة التي كان يرغب في تقديمها. ويبدو لي أن الترجمات الأخرى، على الرغم من أنها ممتازة في كثير من النواحي، فقد صمتت حيال مثل هذه التغييرات من السجل الشعوري، وساهمت من ثم في الإرباك الحالي المتعلّق بما كان يحاول فويرباخ قوله تماماً.

أفكار حول الموت والأزلية:

عندما كنت طفلاً،
لا يعرف من أين أو إلى أين،
حولّت عيني الجوّالة
إلى الشمس، كما لو أنه كان هناك
أذن موجودة فوق لتسمع شكواي،
قلب مثل قلبي
يشفق على المظلومين

ـ غوته، *بروميثيوس*

كان للفلسفة مجال رحب كي تزدهر بين الإغريق والرومان لأنه لم يكن للديانة الوثنية أية عقائد، لكن العقائد اليوم تدمّر كل شيء. يجب على الكتّاب اليوم أن ينطلقوا للعمل بحرص كي لا يضعوا قيوداً على الحقيقة. *فالرعاع الإكليروسي ينتقم من أصغر مخالفة للأرثوذكسية؛ والناس لا يجرؤون على إظهار الحقيقة المحجوبة.*

ـ فريدريك الكبير في رسالة إلى فولتير

التماس متواضع
للأجلاء، الحكماء، والشرفاء
العوام المتعلمين
بأن يستقبلوا
الموت في أكاديمية العلوم
أيها السادة من أصحاب الشأن الرفيع في العلم والمكانة،
اسمحوا لي أن أقدّم لكم هنا الموت أمامكم
من أجل أنه، في دائرتكم المتعالية

أن ترفعوه إلى درجة الدكتوراه

وهكذا بحيث تجدون الأمر مشيناً،
إذا جلس للتشاور معكم
وأنا بذلك أعلمكم
أنه أفضل طبيب على الأرض؛
لم يفشل أي من علاجاته؛
فلا يهم ما صرتم عليه من المرض،
فهو يشفي الطبيعة بالكامل.

وتأكدوا أنه لم يشغل نفسه قط
باللاهوت المسيحي،
لكنه لن يكون له نظير
في فهم فلسفة.

لذلك فإنني أناشدكم استقبال
الموت في الأكاديمية،
وفي أقرب وقت ممكن، أن تجعلوا
منه دكتور فلسفة.

مقدمة المحرر

في زمن مثل الوقت الحاضر، والذي هو متوجه دون إنكار إلى أن يحمل في طياته بذرة تطورات سامية، وقت تتكدّس فيه التناقضات فوق التناقضات، ومع ذلك دون إحراز تام، بسبب سقوطها السريع من ارتفاعات هائلة، لتحطيم الأشكال العتيقة، المتدهورة للحاضر ودون اختراق بلحن للتذبذبات الرتيبة لبندوله ـ في زمن كهذا، إذاً، فإن محرّر هذا العمل، المكتوب والمعطى له على يد أحد الأصدقاء، اعتبر أن من واجبه الذي لا مفر منه أن يأخذه من العالم ويوجهه بيد ثابتة نحو مصيره. وأؤكّد أنه مجرد جزء ـ مع أنها كانت مهمة سهلة بالنسبة للمؤلف لأن يجعله يظهر بشكل علمي فعلاً، أن يضع اللمسات النهائية، لولا تدخل الزمن والظروف ـ لكن قيمته على الرغم من ذلك حاسمة.

وفي حين كانت المادية والمثالية الذاتية السابقتان قطبين تميل إليهما كل امتحانات الموت والأزلية، ففي هذا العمل فإن ذلك الذي هو أزلي وباق يتحول ليكون واقع الروح، موضوعيتها، وجوهريتها، الروح التي يستنتج منها الكاتب بدوره الموت ذاته. وبهذه الطريقة يفترض الموت ومن ثم يلغيه؛ وهكذا تسوى الأمور بين النقائض جدلياً عبر وساطة، والنتيجة التي يُدمج فيها الموت والأزليّة على يديه هي العالم الحقيقي، حياة جوهرية، اللامتناهي الحقيقي، الله والروح بالذات.

ومع ذلك، إذا كان أحد يريد مناقشة بمزيد من التفاصيل علاقات المحتوى الداخلي وأهمية هذا العمل بالحاضر، بالوضع الحالي لحياة الروح والعلم، عندئذ، فبدلاً من مقدمة، كان على المرء أن يكتب تفسيراً أو حتى اعتذار. ولذلك فإنه لا يتبقى للمحرر غير أن يتحدّث بشكل عام لماذا يختلف هذا العمل بكل سماته عن

كلّ ما سبقه في هذا الموضوع ولماذا تبدو *فرادة* أفكاره غير قابلة حتماً لأن تبزها أفكار أخرى وتضع هذا العمل، بالفعل، في فئة خاصة به.

حين يكون هدفاً محدداً لموضوعات ثابتة في أساس افتقاد الدقة في النثر في هذا العمل، فهذا ما يمكن الافتراض أنه يصح أكثر على حالة القصائد، لأن هذا الغرض معبّر عنه هنا بشكل لا لبس فيه. أما بالنسبة لشكل هذه القصائد، أو بالأحرى افتقادها للشكل فعلياً، فإن طريقتها في التعبير كلها، تقدّم ذاتها بالطريقة السخروية الأكثر مرارة. والمقصود منها أن لا تكون أقل من قصائد، لكن فقط التطورات الاستعارية ـ مع أنها رمزية تماماً ـ للأفكار بصيغة شعرية. أما مفاتيح فهم القصائد فهي موجودة في النثر؛ والحقيقة، أنه وفقاً لترتيبها الداخلي، يجب أن توضع في وسط النثر، حيث لا يزال الكاتب موجوداً في موقف المعارضة. (هذا التعليق مهم للغاية بحيث نأخذه في الاعتبار من أجل تقييم عادل لقيمتها، روحها، ومعناها).

إن الغالبية العظمى من الحكم هي احتماليات من *الكاميرا الغامضة* للحاضر.[1] وربما أن بؤس عصرنا يبرّر فظاظتها جيداً؛ كانت ضرورية. وحين نجد هنا وهناك استخدامات والتي هي ليست صحيحة بالمعنى الأدق للكلمة، فإن المحرر وحده يتحمل مسؤولية إدراجها، لأنه لم يكن باستطاعته حمل نفسه على التضحية بمحتواها الداخلي لصالح القواعد الشعرية. ومن جديد أقول، لا يجب أن يُلام المؤلّف على هذا، لأنه، كما سبق بيانه، لم يكن قادراً على وضع اللمسات النهائية. على أية حال، ففي بنائه للأبيات، لم يتبع المؤلّف لا أوفيد ولا هوراس، بل مؤلفو أمتنا ـ وهو ما يجب أن يقال للذين يشتكون من صلابة القشرة الخارجية عندما تجد أفواههم الناعمة أن النواة مريرة جداً.

المحرر، منجرفاً بالسيل الحي لهذه الحكم ومتحمساً بدفء حماستها ـ في هذه الأوقات نادرة جداً ـ للحقيقة الأبدية، سمح لنفسه إدخال بضع نهيرات إضافية من

(1) *الكاميرا الغامضة* *camera obscura*: كاميرا بدائية، تظهر فيها صورة معكوسة ومقلوبة على الحائط الأسود الشفّاف للحجرة المظلمة، وتحتوي واجهتها عدسة محدّبة.

الينابيع ذاتها إلى تيارها القوي والعميق، مفترضاً مسبقاً أن قطراته الصغيرة لن تستطيع توحيل صفاء الجدول الرئيس ولا تغير مساره الفريد من نوعه. وهي أيضاً واضحة بسهولة فلا تحتاج إلى تسمية خاصة، على الأقل بالنسبة للقارئ المفكّر الذي هو قادر على فهم أفكار المؤلف تماماً ومتابعتها دونما انقطاع، لكنها مجرّد ظلال فردية والتي تضع في النور الذي ما يزال أكثر سحراً من موجات الفضة للتدفق الجوهري.

تتمثل المساهمة الحقيقية الوحيدة للمحرر بهذا العمل في نشره فعلياً، والذي حثّ عليه وأنجزه بحرص كبير. وبالنسبة للمؤلف فهو لم ينو قط طباعته بشكله الحالي، ولم تُنفق لأجل الإقناع أعطية صغيرة، إذا جاز التعبير، لأخذه منه بالقوة وجعله يظهر كجزء. وما حتم على الناشر أخيراً إيداعه على عتبة المستقبل في هذا الوقت تحديداً تم ذكره للتو. لكن الدافع الأساسي كان الصلابة الداخلية بالذات لهذه الكتابة المجزأة فحسب وإن كانت ما تزال ممتازة، والتي تشتبك فيها بشكل حميم أندر الطرافة وسخرية مدمرة تقريباً لأجل الرؤية الفلسفية الأعمق. وهذه الأسباب ستكفي وحدها!

الحرف *W*، الذي يمكن العثور عليه تحت قليل من الحكم، لا معنى له على الإطلاق. وقد وضع في المخطوطة فقط لتحديد المنظومة التي كان على قسم من الحكم السير وفق منوالها وقد طُبع فقط بسبب خطأ من المدقق اللغوي. وأخيراً، يطلب من القارئ على وجه السرعة قراءة النثر الختامي قبل الحكم، حيث من الواضح أنه يشكل كلاً متكاملاً مع النثر السابق. وبسبب خطأ لا يغتفر للمنضد، لم يوضع مباشرة بعد الشعر المقفى. وبالنسبة للبقية، يمكن للقارئ تجنب تلك الأخطاء المطبعية التي تغيّر معنى الحجج باستخدام القائمة المرفقة في نهاية العمل.

المحرر

نورمبرغ 25 حزيران يونيه 1830

حقب أزلية الروح:

في التاريخ المتنامي للروح الإنسانية الأوروبية، يمكن أن نميز ثلاث حقب رئيسة في عقيدة أزلية الروح. الحقبة الأولى هي حقبة الإغريق والرومان، الذين لم يكونوا يؤمنون بالأزلية كما نفهمها نحن ولا هم على دراية بها. لقد عاش الروماني فقط في روما؛ وكان الشعب الروماني، إذا جاز التعبير، الفضاء الواحد والوحيد الذي احتوى نفسه وحدّد أفق حياته العامة. كان المسعى الأكثر مثالية واتساعاً للمواطن الفرد تمجيد روما، توسيع قوتها وراء كل الحدود، وتأسيس ذلك لأجل المستقبل، وفيما يتعلق بالمكافأة الشخصية، الاستمرار في التذكّر الشاكر للأجيال القادمة. لم يعتبر الروماني ذاته على أنها حقيقة فوق الحياة المشتركة الفعلية ولم يفهمها على أنها شيء جوهري ومستقل بنوع من التمجيد الذي يتجاوز كل تحديد وقاسم مشترك. وكان الروماني النفس، الـ«أنا» للروماني؛ كان شيئاً ما وكان على دراية أنه كان شيئاً ما، ليس بمفرده، بل فقط في الاتحاد مع شعبه، فقط فيهم ومن خلالهم. يقوم الاعتقاد بالأزلية بمعناه الحديث على الفصل بين الكمونية والفعلية؛ وعندما تكون هاتان واحداً، يختفي هذا الاعتقاد الحديث. والإنجاز الأخلاقي في تصميمه كإنجاز أخلاقي روماني، الروماني الكامل، كان المثل الأعلى الأخلاقي للروماني. لكنه كان في وسعه تحقيق هذا المثل الأعلى، تماماً كما أن المثل الأعلى للبرعم، وهو الزهرة ذات الألوان الزاهية والعطرة، إنما يتحقق بالفعل في البرعم بفضل ميله الطبيعي، قدرته، وكمونيته. نقول الآن إنه كون الروماني لم يعرف فصلاً أو فجوة بين التمثيل والواقع، بين القوة الكامنة والقوة الفاعلة، بين المثالية والواقع، فهو لم يعرف باستمرارية للنفس بعد الموت.

وينطبق الشيء نفسه على اليونانيين. فاليونان، حيث كان الجمال هو التصوّر الحاكم لكلّ شيء، المتخلل لكلّ شيء، الملهم لكل شيء، حيث كان الجمال، إذا جاز التعبير، الأمثولة العامة، شكل التصوّر عند الشعب، حيث قام فهم الجمال على وجه الدقّة على إمكانية تقديم الواقع الروحي الداخلي بصيغة مرئية فعلية ـ كيف كان باستطاعة الاعتقاد الحديث بالأزليّة أن يزدهر في اليونان؟ كيف كان باستطاعة المرء أن يصادف في اليونان الاعتقاد الذي يقسم البشر إلى نفس من عالم آخر، لا يمكن تصورها، لا شكل لها، والتي هي معادية للشكل والطبيعة على حدّ سواء، وجسد خام، بلا روح، والذي هو معادٍ للنفس؟ ولا يمكن اعتبار تأكيدات قلّة من الفلاسفة اليونانيين بأنّ النفس أزلية والتمثيلات القديمة للجنة والجحيم على أنها اعتقادات بالأزلية الفردية.

الحقبة الثانية في التاريخ المتنامي لهذا المذهب أو المعتقد هي الفترة المسيحية الكاثوليكية، العصور الوسطى. وهنا أصبحت الأزلية مادة شاملة للاعتقاد والمذهب. لكنه كان سيبدو رأياً سطحياً للغاية فيما يتعلّق بالعصر الكاثوليكي المسيحي حين يتم الاستشهاد بالاعتقاد بالأزلية، وتعليمها، كلحظة مميزة ومؤشر حاسم على روح هذه الفترة. بدلاً عن ذلك، فالسمة المميزة والأبرز للعصور الوسطى كانت الاعتقاد الحي بالوجود الفعلي للنعمة الإلهية والمواد الأعلى ما فوق الحسية، الاعتقاد المطلق، الحاوي لكلّ شيء بالمحتوى الإيجابي لمجمل الدين المسيحي. إن الإنسان الفرد لم يكن قد أحرز بعد الوعي المقفر والفارغ لفرديته، لاستقلاليته المعزولة، لم يتخل بعد عن نفسه لنفسه ويتخذ له موقفاً حاسماً من نفسه. فقد كان قد استُقبل وأُدْرِج في الشراكة المقدّسة للمؤمنين، وكان يتخيّل ذاته ويشعر بها على أنها مفديّة، مخلّصة، مستحوذة على الحياة الحقيقية، لكن فقط عبر كونها مُدرجة في شراكة إلهية، عالم روحي مقدّس، منظومة ما فوق حسيّة حقيقية. الكينونة العليا هي كينونة شراكية، المتعة العليا هي متعة الوحدة والشعور بها. لكن الكنيسة الكاثوليكية كانت فقط هذه الكينونة الشراكية، وجمع كلّ الأرواح في روح واحد وعقيدة واحدة. وبما أن الفرد لم يكن يعتمد على نفسه، لم يكن مقيداً

بذاته وتُرِك لمصادره الخاصّة، فالوصول إلى حياته الأخرى، أي، خلاصه وسعادته، لم يكن يعتمد على قراراته الذاتية الحرة ـ أنشطته، قناعاته، وتطلعاته. فلا الاعتقاد، لا الميل الأخلاقي، لا الفعل الأخلاقي هم الكينونة؛ إنهم فقط قرارات ذاتية حرّة، نشاطات ذاتية. ومن منظور الاعتقاد، الميل الأخلاقي، والفعل الأخلاقي، الكينونة شيء والذي هو غير فعلي بل يتواجد في عالم آخر فقط، شيء يُعتقد به، يؤمل به، يُتاق له. لكن في الزمن المسيحي الكاثوليكي، كانت الكينونة العالم ـ أخروية الوحيدة لأجل الاعتقاد والميل الأخلاقي في الكنيسة القائمة في الواقع، التي كانت كينونة حقيقية تقف بمعزل عن الحياة الطبيعية والدنيوية المجرّدة، عالم ما فوق محسوس على نحو محسوس ومحسوس على نحو ما فوق محسوس. وهكذا فهي لم تكن اعتقاداً ولا ميلاً أخلاقياً بل كينونة في الكنيسة التي شكّلت جوهر الفرد. مع ذلك، نظراً لأن الكنيسة كشراكة للمؤمنين كانت المملكة الفعلية للّه، لم يسمح بأي مجال للفصل بين هذا العالم والعالم القادم، الأمل والإحراز، النشاط والكينونة، المثالية والواقع، الكمونية والفاعلية. لذلك، كان الاعتقاد بالخلود فقط أحد بنود الاعتقاد ضمن بنود أخرى، ليس مؤشراً مضيئاً ولحظة حدّدت وميزت روح القرون الوسطى. في الواقع، إذا تم النظر بهذه المسألة بمزيد من العناية والدقة، لا بد من التأكيد أنه، ليس الفرد بحد ذاته، بل بالأحرى كانت السماء والجحيم الموضوعين الأساسيين لبند الاعتقاد والعقيدة هذا.

يجب التمييز تماماً بين الاعتقاد بالجنة والنار عن الاعتقاد بالخلود الفردي. إنّ العلامة الأساسية للاعتقاد بالجنة والنار ليست الاعتقاد بالاستمرار الأبدي للفرد بل الاعتقاد بالجزاء على الخير والشر ـ بعبارة أخرى، الاعتقاد بحقيقة الخير وعدميّة الشر. وفي الواقع، فالسماء ليست سوى الصورة الحسية للخير والنعيم المتحد به، في حين أنّ الجحيم ما هو إلا التمثيل الحسي للشرّ والعدم والبؤس الذين هم جزء لا يتجزأ منه. والمعنى الحقيقي لهذا الاعتقاد، المطهّر من عنصره التصويري، هو هذا: الخير يعقب الخير، والشر يعقب الشر، ونتائج الخير والشر لا تتوقف بالكامل مع نهاية الوجود المحسوس. علاوة على ذلك، مطهراً من كل خليط الاستعارات

الزمنية، يكون معنى هذا الاعتقاد هو التالي: لا يوجد هناك تعاسة خارجية محسوسة فقط، بل أيضاً تعاسة روحية، أخلاقية، محضة، التي هي الشر ذاته؛ ولا يتواجد هناك خير خارجي، محسوس فقط، بل أيضاً خير ابدي، أخلاقي، الذي يأتي من الخير ذاته والذي يتكوّن فقط من متعة الخير. لا يمتلك الخير والشر عواقب محسوسة فحسب؛ يتواجد هناك أيضاً ثواب وعقاب داخليان أخلاقيان. ورغم أن مباهج الجنة وآلام جهنم كانت قد رسمت حتى الآن بشكل محسوس، فالجنة تعني فعلياً عالم الخير، وجهنم تعني فعلياً عالم الشر، ومعنى هذه العبارة هو التالي: الناس الخيرون يكافئون بالخير؛ والناس الأشرار يعاقبون بالشر.

إذا كان المرء يرغب بأن يجد موضعاً ما في منظومة الاعتقاد للمسيحية الأولى لفكرة أزلية الفرد بحد ذاتها، للاستمرارية الفردية بعد الموت بالمعنى الحديث، فسوف يكون المرء قادراً أن يجدها ذلك فقط في الاعتقاد بقيامة الجسد. لأن هذا الاعتقاد يعني على وجه الدقة أن الجسد، الفرد كفرد، إنما هو أزلي. ففي الطبيعة، الظل يتبع الواقع، لكن في التاريخ، الظل يسبقه. وهكذا، أيضاً، ففي حين أنه في الفن، النسخة تتبع الأصل، ففي التاريخ، النسخة تسبقه. كان الاعتقاد بقيامة الجسد هو الرمز، الصورة المبهمة، الظل للاعتقاد بأزلية الفرد بحدّ ذاته. وحين حلّ التاريخ، الذي يحل جميع الألغاز ويكشف جميع الأسرار، هذا اللغز، حين قدّم أحضر وأظهر معنى هذا الاعتقاد، اختفى الاعتقاد في الصورة. ونؤكّد: الاعتقاد بقيامة الجسد موجود بالفعل في النصوص الدينية المقدسة للزند القديمة. لكن ما من دين في العالم القديم ينضمّ بشكل وثيق في الروح إلى الدين المسيحي مثل دين البارسيين القدماء، لأنه ينطلق من *المبادئ الأخلاقية* وحدها. وكما أن الديانة الفارسية القديمة برمتها لم تكن سوى ديانة رمز مضيء، شفاف، سوى فكرة واحدة، بأن الخير يرمز له بالنور والشر يرمز له بالظلمة، وكما أنه يمكن أن ندعو الديانة الفارسية القديمة برمتها رمزاً، صورة ظلية، للديانة المسيحية، كذلك، أيضاً، كان الاعتقاد بقيامة الجسد ليس غير اعتقاد بأزلية الفرد بحدّ ذاته، فكرتها في الصورة والرمز، الذي فصّل فقط

في العصر المسيحي الحديث. (هكذا، أيضاً، فإن التمثيل الفارسي القديم بأن لكلّ واقع روحه السماوية الحارسة كان شيئاً شبيهاً، صورة، للعقائد الأفلاطونية والمسيحية حول أفكار وجواهر كلّ شيء في اللّه).

يبرز الاعتقاد بأزليّة الفرد بحدّ ذاته وفق أسبابه الخاصة ودونما تمويه فقط في العصر الحديث، الذي يشكّل من ثم الحقبة الثالثة والأهم من حقب هذا المذهب والمعتقد، وهكذا، فقط في هذا العصر يشكّل لحظة تاريخية مميزة والتي هي نهائية وحتمية، التي ينبغي اغتنامها وتقديمها إلى الصدارة في حد ذاتها. العلامة الفارقة للعصر الحديث ككل هي أن البشر كبشر، الشخص كشخص، ومن ثمّ الفرد البشري المفرد في فرديته الخاصة، تم النظر إليه على أنه إلهي ولا متناه. وكان الشكّل الأول الذي عبّر فيه عن شخصية العصر الحديث هو البروتستانتية. لم تعد الكنيسة والوحدة مع الكنيسة مبدأها الأعلى بل كان الاعتقاد، القناعة الفردية. لم تعد الكنيسة مبدأ الاعتقاد، بل أصبح الاعتقاد أساس الكنيسة ومبدأها. لقد امتلكت الكنيسة الآن السلطة وأساس وجودها، لم تعد بيدها مقاليد سلطة الوحدة والعمومية، بل قوة الاعتقاد الفردي. وكانت النقطة المحورية في المؤمن البروتستانتي هي المسيح، الإله ـ الإنسان، أو جوهر الإنسانية المتحد مع جوهر اللّه في شكل وهيئة المسيح. وهكذا فقد كانت النقطة المحورية في البروتستانتية هي الشخص، لكن مع ذلك ليس مفهوم الشخص كشخص، الذي يُتضمّن فيه كل شخص دون تمييز؛ كان الشخص فقط شخص المسيح المفرد، التاريخي العالمي. وفي بعض طوائف داخل البروتستانتية، مثل تلك طائفة التقويين، دُفع بهذا التبجيل لشخص المسيح إلى مثل ذلك التطرّف بحيث أنه حتى الفردية الحسية للمسيح أصبحت موضوعاً للتبجيل؛ بالمقابل، تم توسيع تبجيل فرديته لتشمل تبجيل جثته. ويمكن تثبيت هذا التأكيد بشكل كاف من خلال الكلمات التالية لأحد التقويين من القرن الماضي: «أولئك الذين يرغبون في أن يكونوا ويبقوا مباركين يجب أن يُقبّلوا من شفتي يسوع الشاحبتين، الميتتين، الجليديتين، يجب أن يشمّوا رائحة الجثة الميتة للمخلّص، يجب أن يُخترقوا بنَفَس قبره».

الإضافة البروتستانتية:

نقول الآن إن البروتستانتية قامت بمزيد من التطوير على النقطة القائلة، إنه لم يعد شخص المسيح، بل الشخص كشخص هو النقطة المحورية في الاعتقاد الفردي؛ وهكذا أصبح كل شخص بنفسه وفي واقعه الداخلي الخاص نقطة بؤريّة لذاته. وفقاً لذلك، أصبحت الإنجيلية البروتستانتية العقلانية والأخلاقية. ومن ثمّ لا بد من الاعتراف بالتقويّة كنقطة انتقالية لهذه الأشكال الأخيرة. لأنه، في ذهن التقوي، فالمسيح الحقيقي والجوهري لم يعد الشخص الفعلي للمسيح في ذاته ولأجل ذاته، كما هو وجوده في اللّه، بل هو الشكل الذي ينتحله المسيح في دواخل الذات، المسيح الذي يؤخذ إلى داخل القلب، الذي لا يوجد إلا في الشعور والتصرف، المسيح الذي أصبح أنا الفرد المعتقد بالذات. وفي تلك الآونة، فإن العناصر الوحيدة للمسيح الخارجي الذي لا يزال التقوي مهتماً بها هي خصوصياته، جزئياته الذاتية. لكن فقط لأن الذي هو شخصي للمسيح الفرد ـ مثل التجارب المؤلمة التي تحمّلها المسيح لأجل حبّه للآخرين ـ يصبح موضوعاً للتمثيل، فقط الذاتي يصبح موضوعاً للذات، وتصبح الذات حقاً موضوعه الوحيد. وبهذا المعنى، أدت التقوية إلى العقلانية والأخلاقية، لأن هاتين هما بالضبط شكلا الروح التي يكون فيها موضوع الذات هو فقط الذات ذاتها، التي يكون فيها الشخص وحده كل شيء، يكون الحقيقة الجوهرية واللامحدودة. وهكذا فإن الاعتقاد بالخلود الفردي كلحظة مهمة وضرورية، كمؤشّر متمايز، نوعي على نحو خاص للمنظور الحديث، إنما ظهر للمرة الأولى في منظور التقوية، لكنه أضحى بعد ذلك بارزاً خاصة في النزعة الأخلاقية والعقلانية. وأسباب أهمية، جوهرية، وضرورة هذا الاعتقاد لهذه المواقف يمكن فهمها والتعبير عنها بطرق مختلفة.

1. تعتبر الشخصية الصرفة، المجرّدة بأنها الواقع الملموس الوحيد. لكن بالنسبة للشخص الذي يفهم نفسه بهذه الطريقة، فهذه الحياة هي وضعية لا تفي بالغرض إلى حد بعيد. لا توجد شخصية نقية في هذا العالم؛ فهنا، الشخصيّة

مقيدة من جميع الجوانب، محددة، مقمعة، مكتئبة، ومزعَجة بكلّ أنواع الظروف والصفات المؤلمة التي تلوثها وتشوهها. لكن حين يكون الشخص الواقع الملموس الوحيد في هذا العالم، وتكون هذه الحياة مع ذلك حياة مقدّرة، حياة جُعلت مؤلمة عبر حدود الصفات، فهذه الحياة عندئذٍ غير جوهرية، حياة غير كافية لجوهر الشخص. لذلك، يجب أن توجد حياة ثانية، حياة والتي هي غير مقيدة ولا محدّدة بصراع واختلاف أية صفات، حياة والتي تُعاش في عنصر منير وشفاف كأنقى المياه الكريستالية، وذلك كي يخترق نور الشخصية النقي ويشع من خلال هذا العنصر دون تحديد، دون تلوين، دون مقاومة. ففي الحياة الدنيوية، الشخص النقي هو فقط شخص ممثّل، فقط شخص مثالي؛ ومن ثم يجب أن توجد إضافة إلى ذلك كينونة يكون فيها الشخص الممثّل واقعياً، يمتلك الحقيقة المثالية.

2. على نحو أكثر دقة، الشخص النقي هو الشخص غير الآثم وغير الملطخ، الشخص الذي هو خير بالكامل، المتماثل مع الفضيلة ذاتها. الأخلاقية، الشخص الفاضل على نحو كامل، هي جوهر الشخص. لكن الأشخاص المحدّدين، المقيدين بالصفات والخصائص المحسوسة، ليسوا خيرين على نحو شامل وكامل؛ إنهم فقط يكافحون للوصول إلى جوهر الأخلاق الكاملة. والوحدة مع الشخصية النقية، سواء أفهمت بمعزل عن الفردية بوصفها الخير ذاته، الفضيلة ذاتها، أو الكمال ذاته، أو سواء أفهمت على أنها على أنها كمال مطلق، فرد مطلق، كإله، هي مجرّد هدف ناء، ينتمي إلى العالم الآخر؛ وحده الكلّ في الكلّ، الشامل، الكليّة، الكينونة في ذاتها، المطلق، يمكن أن يكون تامّاً وكاملاً. لذلك، حين يرغب الأفراد بحدّ ذاتهم أن يكونوا كاملين، أي، مطلقين، عندئذٍ، إضافة إلى الحياة الحالية، هم بحاجة إلى زمن والذي هو غير محدود، الذي يختفي في الأزلية. ومع ذلك، هناك نوعان من العلاقات الممكنة بين الفرد والموضوع الذي هو هدفه في الآخرة. فمن جهة، يتم إكمال سعيه في الآخرة؛ وفي هذه الحالة، سوف يستمر ويجب أن يستمر دون نهاية. لأنه لو كان للفرد تحقيق هدفه، لكان سيتوقف عن أن يكون شخصاً فردياً. وحده معيار متناه،

كمية محدّدة من الكمال يترك مجالاً لوعي الذات في الفرد المحدّد؛ وإذا ما ملئ معيار كماله، لكان الفرد سيغرق، مثل غلوكون في المصيدة، في منابع الكمال الفيّاضة. فقط طالما أن المعيار ليس ممتلئاً تصمد حتمية الفرديّة ووعيها. لكن كون الفرد يتشبث بفرديته الخاصة بوصفها مطلقاً، فإن إحراز الكمال يجب أن يوضع في مستقبل بعيد المنال. من جهة أخرى، يتوقف السعي الفردي في الآخرة؛ فالفرد يبلغ على الفور هدفه في تأمل الخير أو اللّه. لكن في هذه الحالة، فالفرد لا يزال متمايزاً ومنفصلاً عن الموضوع الذي هو هدفه، لأنه فقط في هذا التمايز يحافظ على اليقين بذاته، تمثيلها، وتصورها. إنه ذات فقط طالما هو متمايز؛ فلا يمكن لتمايزه بل لا يجب عليه أن يستسلم، لأنه وحدها الذات هي جوهر الذات. وبالنسبة للفرد، ليست مسألة اتحاد بالموضوع بقدر ما هي تمايز عنه.

3. بما أن الموضوع الأساسي للأفراد هو فقط الـذات، بما أنّ الشخصية وحدها تمتلك حقيقة مطلقة بالنسبة لهم، فقد وضعوا أنفسهم في موقف حيث الشيء الوحيد الهام في كل موضوع، أي، الشامل، الكليّة، الحقيقي والجوهري بالفعل، يغيب عن الأنظار. لأنه في أعمق أعماق أنفسهم، وحدها الذات هي موضوعهم، وهم يرون أيضاً خارج أنفسهم ذواتاً فقط، الذاتي، الفردي، ومن ثم فقط ذلك الذي هو مُعاب، سلبي، متناه. ومن المؤكد أنهم يسمون تاريخ الفلسفة باسمه الصحيح؛ بل حتى أنهم يسمونه «تاريخ العقل المفكّر». لكن، بالنسبة لهم، فهو في الحقيقة ليس سوى تاريخ آراء، أهواء متناقضة، خاصة، مساع سطحية وتجارب ذاتية. وأكرّر أنهم يمنحون تاريخ الكنيسة اللقب «تاريخ الكنيسة» (لكنه ليس أكثر من لقب؛ لأنه بالنسبة لهؤلاء الأفراد، فإن ما هو شامل وجوهري يتواجد فقط في ألقاب وأسماء)، لكنه، بالنسبة لهم، فإنه ليس في الواقع سوى تاريخ الباباوات، الأرثوذكسية والهرطقة، المتحمسين دينياً، التقويين، الملحدين، المؤمنين البسطاء، وهلم جرا. وهكذا فحتى حين لا يكون تاريخ الكنيسة مجرّد تاريخ للحماقة البشرية، فهو يظل تاريخ انحرافات وحشية، تاريخ تلوثات وتقبيحات للإنجيل

النقي. وعبر متاهة الفساد هذه يُسحب خيط لا يكاد يُلحظ للعناية الإلهية، الذي هو بأفضل ما يمكن مرهف ودقيق. والواقع أنه رقيق وواه للغاية بحيث يُمزّق إرباً عبر كلّ هرطقة وفيلسوف، وحتى الآن، لم يكن بالإمكان ملاحظته وتحليله إلا من قبل بعض الأشخاص المنعم عليهم على نحو خاص. يسمّى تاريخ العالم «التاريخ العالمي»، «تاريخ العالم»، «تاريخ البشرية»، لكنهم يعرفون فقط عن البشر وليس عن البشريّة، عن روح واحدة أو كليّة واحدة؛ فالعالم، الإنسانية، الروح، بالنسبة لهم، هي ألقاب أو أسماء ليس إلا. وهكذا، ففي عقولهم، تاريخ العالم، من جهة، ليس إلا تاريخ بشر أفراد، ومن جهة أخرى، تاريخ حالات، ظروف، تفاصيل. كان الهنود يعتقدون أن الفيلة كانت حَمَلة الكون، لكن هؤلاء الأشخاص يعتقدون أنّ الأهواء السرية لوزراء الحكومة، ببغاوات وجراء صيد الأميرات والملكات، البراغيث والقمل التي تعشّش على رؤوس السادة والأبطال الكبار، هم الحَمَلة، المحرّكون، والأركان العالية للكون. بل حتى أنهم يتحدّثون عن الطبيعة، مع أنهم لا يمتلكون معرفة بطبيعة واحدة، بل فقط بجملة لها، بمجموعة من النجوم، الحجارة، النباتات، الحيوانات، العناصر، الأشياء الفردية التي لا حصر لها. بل حتى أنهم يقولون إن الله موجود؛ والواقع أنهم يقسمون على ذلك بأكثر ما يمكن من جديّة؛ إنهم يشهدون أن كينونة الله هي الكينونة التي هي الكينونة الأكثر حتميّة بين الجميع. لكن، بالنسبة لهم، «الكينونة» هي في واقع الأمر مجرّد كلمة، لقب؛ الله موجود فقط في آمالهم، معتقداتهم، تمثيلاتهم؛ إنهم يضفون عليه كينونة ذاتية، ممثلة. وهكذا، فحين يسرع أحدهم ويشير إليهم بأنّ الله يتواجد بالفعل، أن كينونته ليست مجرّد كينونة ممثلة، غير واقعية، بل أن الطبيعة وتاريخ العالم هما وجود (وإن لم يكن طبيعة) الله، فبالنسبة لعقولهم، فإنّ من يعطي مصداقية لإله فعلي، تحديداً لأنه يؤكد أن الله موجود، هو ملحد وطبيعي.

وفقاً لذلك، ما أن يكون ذلك كلّه فعلياً، شمولياً، جوهرياً حقاً، ما أن اختفت كلّ الروح، النفس، والجوهر من الحياة الحقيقية، الطبيعة، وتاريخ العالم، ما أن ذُبح كلّ

شيء، حُلّل إلى أجزائه، جُعل دون كينونة، دون وحدة، دون روح، دون نفس، عندئذٍ، على أنقاض العالم المكسور، يرفع الفرد راية النبي ومحطات الحارس المقدس البغيض للاعتقاد بأزليته وبعهد الآخرة. واقفاً على أنقاض الحياة الحالية، والتي يرى فيها العدم، يصحو هناك بغتة في الفرد الشعور بعدميته الداخلية الخاصّة ووعيه لها؛ وهناك في الإحساس بهذه العدميّة المزدوجة يتدفق منه، كما من سكيبيو على أنقاض قرطاج، قطرات الدموع المتعاطفة وفقاعات صابون عالم المستقبل. وعلى الفجوة المتوضعة بين الحياة الحاضرة كما تكون في الواقع وتصوّره وتمثيله لها، على المسام والفجوات في نفسه، يقيم الفرد جسر حمقى الحياة المستقبلية. وبعد أن سمح بذبول أشجار فاكهة العالم الحالي، ورووده وزنابقه، بعد أن حصد بالمنجل العشب، الملفوف، والذرة وحوّل العالم كله إلى جذامة زرع لحقل جاف، مجفف من قش، هناك في النهاية ينبع، في الشعور الفارغ لجدبه ووعيه العاجز بزهوه، مثل السيماء الضعيفة والوهم الخافت للزمن الحي، البض حين تتفتح الأزهار، التي لا توصف، الأحمر الشاحب، زعفران أزلية الخريف الذاوي. لأنه لا يوجد شيء في الذات غير الذات المفتقدة إلى الحقيقة ذاتها، ولأن لا شيء يوجد خارج الذات غير الزمني والعابر، المتناهي، لا شيء غير ذلك الذي هو *مزيف* وغير *حقيقي* في العالم الحقيقي، يبقى للعقل انه بالنسبة للذات العالم *الحقيقي* هو عالم غير حقيقي، مستقبلي، أخروي. لأن الحياة الأخرى ليست غير العالم الحقيقي الخطأ، المُسَاء تصوره، والمُسَاء تفسيره. فالذات لا تعرف غير الظل، المظهر الخارجي السطحي للعالم الحقيقي، لأنها [الذات ـ مترجم عربي] مجرد سطحية وجوفاء في ذاتها. إنه يخطئ بين ظلّ العالم والعالم ذاته؛ وفكرته عن العالم الحقيقي فعلياً يجب أن تكون مجرّد ظل، الحلم الوهمي والخيالي لعالم مستقبلي.

عصرنا والحياة الروحية الجديدة:

إن من يفهم لغة روح تاريخ العالم لا يمكنه تجنّب الاعتراف بأن عصرنا الحالي هو حجر الزاوية لحقبة عظيمة في تاريخ البشرية، ونقطة أصل لحياة روحية

جديدة. ومن المؤكد أننا نرى كيف أنّ جمعاً غفيراً من معاصرينا، غير مبال بتعاليم التاريخ الرفيعة، لا يولي أدنى اهتمام لأفعال البشرية الجهيدة ولأعمالها المؤلمة، محتقراً ومهيناً الحقوق والمطالب التي اكتسبها العقل في أكثر من ألف سنة من المعارك، تحوّل إلى الطرق القديمة وهو مهتم باستعادتها دون تغيير. أنهم يقومون بمحاولتهم لاستعادتها كما لو أنّ أنهار دم العصور الماضية اندفعت دونما هدف، أو، على الأكثر، انسكبت فقط بحيث يمكن لبعض الأفراد التأرجح دونما انشغال للذهن في أراجيح الإيمان القديم، وفي تيار القرون التي مرت عبثاً، استطاعوا أن يمتلكوا مرآة روعة، صلابة، ومتانة ضمن ممتلكاتهم المعينة الخاصة، إيمانهم وتقواهم. لكن هذه الظاهرة وحدها تثبت أن روحاً جديدة سوف تبارك سريعاً الإنسانية بمظهرها وسوف تنقذها من التعارضات والتناقضات البائسة التي اختُزلت إليها في الوقت الحاضر. ولأنّ التاريخ يعلّمنا أنه في الوقت الذي يقف فيه شيء على شفا تدميره الكلي، فإنه يُنهض مرة أخرى نفسه بكل قوته، كما لو كان يرغب في البدء من جديد بسيرة حياته المتناهية.

من المؤكد أننا نرى أيضاً كيف أن أعداداً لا تحصى من الناس تمسك بالحاضر على أنه مطلق وتتشبث بالروح المعاصرة، بما هو جارٍ من آراء، تمثيلات، تصورات، نظم، حِكم، ومبادئ. لكن يمكن للمرء أن يقابل هذه الظاهرة في كل عصر. فلا شيء أغلى على الإنسان الحصيف من أن يعتبر الحاضر حقبة لا يمكن تجاوزها، نهائية بالمطلق والتي يقبض بها على تدفق التاريخ. لكن فقط ذلك الشخص الذي يعرف كيف يؤرجح ذاته فوق الكوكب ليتأمّل في القوات السماوية يمكنه استيعاب حركة الكواكب. إنها تُمنح لعدد قليل فقط كي يروا نهاية الحاضر، أن يوقفوا خارج حدوده، وأن يشعروا من خلال الجلد الصلب وقشرة الحكم والمبادئ الآمنة حالياً بالنبع الذي يفور أبدياً للحياة الأزلية. إنها تُمنح لعدد قليل فقط كي يذهبوا خلف السطحيات التي تقدّم في كل مكان مظهر شيء على أنه ثابت ومتطابق ـ ذاتياً، أن يضغط في الأعماق وأن يدرك ضربة نبض الزمن الجديد الإبداعي. فبالنسبة للروح القادمة، التي ستكون اليوم المشرق والممتاز للمستقبل، تظهر في البداية

دائماً فقط في الأفراد، في التطيّر والتوق المظلمين، في الاشمئزاز والاستكراه تجاه المُطْلقات، أصنام اليوم الحالي، وفي التبصّر الواعي بعدميتها. وربما أنّ روح الكاتب الحالي [فويرباخ ذاته ـ مترجم عربي] هي قطرة عابرة من نبع الحياة الأبدية، التي تبقبق تحت قشرة الحاضر؛ فربما أن أفكاره حول الموت والأزلية هي شرارات تصعد عبر مداخن الزمن الحاضر من كير ما تحت أرضي وموقدة الروح الإبداعية.

حين توشك روح جديدة، كينونة جديدة، على الدخول مرة أخرى في صدر الإنسانية المعاصرة، الممتلئ حالياً بالفراغ والغرور فحسب، فمن بالغ الضرورة أن الكينونة الإنسانية، بعد أن تكون قد رتعت طويلاً بما يكفي مثل محمدي حقيقي في الأحلام الفردوسية لأزليتها، بعد أن عاشت طويلاً بما يكفي في تأمل ـ ذاتي مذهل وفي المتعة المُسكرة لفردانيتها، أن تتذكّر الكينونة البشريّة زواليتها وقابليتها للموت الحقيقيتين والكليتين، وفي هذا التذكر والتأمّل، توقظ في نفسها الحاجة للبحث عن مصادر الحياة والحقيقة، الأساس المحدّد لتصرفاتها، ومأوى سكينتها، لكن في مكان مختلف عن فرديتها الخاصة والاعتقاد بأزليتها ولانهائيتها الخاصتين. فقط حين يقرّ الإنسان ثانية أنه يوجد هناك ليس فقط *مظهر للموت*، بل موت فعلي وحقيقي، موت ينهي تماماً حياة الفرد، فقط عندما يعود إلى وعيه بنهائيته فسوف يكتسب الشجاعة لبدء حياة جديدة ولاختبار الحاجة الملحة لأن يجعل مما هو صحيح وجوهري بالمطلق، ذلك الذي هو لا متناه بالفعل، موضوع حياته الروحية كلّها ومضمونها.

I

الدين الحقيقي، التواضع الحقيقي، الاستسلام الحقيقي والكامل للّه والانغماس فيه ممكن فقط عندما يقرّ الإنسان بالموت على أنه صحيح، حقيقي، وكامل. يعتمد التقوي الكامل أو اللاهوتي المتصوف الحديث على لعبة كرة فحسب. فالفرد يلقي بنفسه بعيداً فقط من أجل أن يجعل اللّه يرميه مرة أخرى؛ انه يذل نفسه أمام اللّه فقط من أجل أن ينعكس فيه. خسارته الذاتية هي متعته الذاتية، تواضعه هو

تمجيده الذاتي. إنه يغطّس نفسه في الله فقط كي يطفو إلى السطح مرة أخرى سليماً، ومنتعشاً ومتجدداً، كي يشمّس نفسه في تميزه الخاص؛ إنه يغرق نفسه في المنظومة مرة أخرى فقط كي يصطاد من الله لؤلؤة أناه الثمينة. وكما أنّ بعض الأعشاب لا تعطي رائحة طيبة إلا عندما يتم سحقها، كذلك فإن الفرد يسحق نفسه فقط ليشم رائحة نفسه؛ وكما أن بعض الأشياء لا تكون لذيذة إلا عندما يتم حلها على اللسان، كذلك فإن الفرد يغلي ويذيب نفسه مثل السكر في دم المخلص فقط من أجل الحصول على طعم لنفسه. كم يجب أن يكون حلواً مثل ذاك الطعم للفرد المطحون، اللزج، المحلول!

إذا كنت تراقب طفلاً يعضّ جوزة، كم كنت ستعجب به، حتى قبل أن يقضم قضمة ببضع من أسنانه أو قبل أن يتوقف عن تكسير الجوزة، إذا كنت غافلاً عما كان مخبأً في الجوزة، عن الغرض من هذا الجهد الصعب والمؤلم. لكن كم كان سيتبدّل إعجابك إلى الشعور المعاكس بسرعة إذا ما أدركت الهدف، الموضوع الحقيقي الذي كان الطفل يسعى إلى تحقيقه من خلال عنائه. لنتأمّل الآن أتقياءنا؛ أنظر كم يعض الفرد نفسه ويجعلها قطعاً فقط ليستعرض النواة الحلوة لذاته. وفي الواقع، ألن يقف الشخص محدّقاً في الأرض بإعجاب عندما يسمع هؤلاء الناس يتحدثون عن عدمهم وفسادهم، عن التواضع، عن الخضوع لله، عن الموت في المسيح، وعندما يرى بأية روح وبأية حركات مفطرة للقلب يقضمون من أنفسهم أفضل ما بحوزتهم، عقلهم؟ لكن إلى أي شعور سوف يتغير إعجابه عندما يُدرك ما الذي يجب قضمه إلى قطع؟ لأن هذا ليس سوى الفرد. فعندما يتحدثون عن إثميتهم، عن فسادهم، أليسوا يتحدّثون في الوقت ذاته عن جوهرهم، عن فحوى وحقيقة ذواتهم الفردية؟ أليس الذي يتفقد دائماً أخطاءه وعيوبه في المرآة أقل عبثاً واغتباطاً ذاتياً من الذي يفكّر فقط بفضيلته ووسامته؟ أليست على وجه التحديد علامة على أعظم أنواع الخيلاء حيث يُتحدّث دائماً عن غرور أحدهم؟ يجب أن يكون الدين مسألة لله، لإرادة الله، لله في ذاته ولأجل ذاته. ومع ذلك ألا يبدو وكأن جميع الأشياء تستدير فقط إلى الفداء والمصالحة *الخاصين بها*، إلى

الخلاص والأزلية *الخاصين بها*؟ الله يكون فقط على محيط دينهم؛ والأفراد أنفسهم نقطته البؤرية. يعترف الأفراد بإله فوق أنفسهم فقط من أجل أن يمتلكوا فيه مساحة لا حدود لها والتي يمكنهم أن ينشروا ويوسعوا فيها إلى الأزل فرديتهم المحدودة، الخاصة، المثيرة للشفقة، دون إزعاج، دون تعدٍ وتقييد متبادلين، دون الدفع والدحم اللذين لا مفر منهما في الحياة الحقيقية. فإلههم ليس سوى الجو الذي يمكن للأفراد أن يتبخروا وينتشروا فيه مثل أبخرة غازية ترتفع من الأرض، دون عائق من تنوعيتهم المدهشة بين واحد وآخر. وإذا كان ينبغي أن يكون غير قابل للتصديق بالنسبة لك أنه بالنسبة لهم فإن ما من شيء سوى الفرد نفسه تحديداً ينتج عن هذا النوع من الموت، عندئذ فقط تأمّل بالموت الطبيعي. فبالنسبة لهؤلاء الناس، إنه فقط الغرفة خلف مسرح العالم حيث يتم تغيير ملابس المرء! إنهم يسمعون حتى في نداء البوق الأكثر إثارة للرعب لدينونة حكم العالم فقط الرنين الممل للراكب على أحد خيول العربة الذي يأمر الخيول الطلقة كي تصل إلى محطة البريد للسيرة الذاتية المستقبلية. أية متعة سماوية التي يجب أن تكون، للتحرّر من عبء الأرض (أي، من العقل)، للتبخّر في جو الكينونة الأكثر علواً، لأن ينشر المرء ذاته من المتجر الصغير لفرادة المرء البشريّة الممجدة المتبلة ولذيذة الطعم، فترتفع مثل سحابة ثلج صغيرة فوق الجو العقلاني الخانق للوجود الدنيوي! أية نشوة، أية متعة التي ستكون، لأن يعاد التأمل بأخطاء المرء الماضية، أن يتملك واحدنا خلفه، كما لو أن الأمر نكتة، الحياة القارصة للتاريخ والعقل، والآن لتهدئة عالم الذات دونما نهاية!

الله

الله حب. الإنسان يحب، لكن الله هو الحب. عندما يحب الإنسان، يبقى ذاتاً؛ يظل يحافظ على كينونته الخاصة خارج حبه. فبالنسبة للإنسان، الحب صفة؛ السعادة البشرية ـ لأن الحب هو السعادة ـ ظرف عابر، لحظي. حين تفكّر بما هو جزئي في الإنسان ككلّ، بالسمة الإنسانية كذات، شخص، مادة، حين تفكّر بما هو لحظي على أنه كينونة باقية، فأنت تمتلك عندئذٍ تصوّراً لله. الله هو حبّ

كلّي. وبعد فالحب ليس دعة بل نشاط صرف؛ الحب يلتهم، يضحي، يحرق؛ الحب نار. إنه غضب على ذلك الذي يتواجد على نحو منفرد وأناني. الإنسان، الكينونة المعينة، يحترق بلهيب الغضب المُلْتهم بسبب أنانيته وفرديتيه الطبيعيتين؛ في الحب، يسلّم الإنسان نفسه، يسلّم كل ما هو خاص ومتناه. لكن اللّه يسلّم كل شيء. فهو يقدّ لذاته الوجود الطبيعي، الأناني لكلّ المخلوقات؛ إنه الحب الذي يستهلك الجميع والذي يذيب الجميع في ذاته.

اللّه شخص. لكنه أكثر، أكثر من شخص على نحو غير متناه. إنه الشخص الذي هو الحب الصافي. لذلك، يجب أن يكون ثمة مكان، إذا جاز التعبير، في اللّه حيث كل الكينونات المعينة، كل المخلوقات، تصبح واحداً، حيث تُستهلك وتُلغى. والحقيقة أنّ جميع الكينونات المعينة تزول، ليس مباشرة مع الوقت، بل في اللّه ذاته. اللّه هو الأرضية النهائية لجميع المراحل الانتقالية. ويمكن القول إن الدليل الحقيقي الوحيد على أن اللّه موجود هو الزمن، لأن الزمن يثبت أن هناك تتواجد كينونة غير متناهية يُستهلك فيها كل شيء، وأمامها كلّ شيء والذي يتواجد إنما يكون متناهياً، وبالنسبة لها وحدها كلّ شيء محدود، عابر، وقابل للتلف. الزمن ليس غير مظهر من مظاهر الواقع بأن جميع الأشياء قد فنيت في اللّه منذ الأزل. والحقيقة المتناهية كانت ستمتلك وجوداً أبدياً لو لم يكن هناك كينونة أبدية. لكن تماماً مثلما أنّ الجرم السماوي المنير الذي توقف بالفعل عن الوجود منذ سنوات عديدة يمكنه أن يظهر أنه توقف بالنسبة لنا فقط حين يختفي عن أنظارنا، بسبب بعد المسافة الهائلة للأجرام السماوية عن رؤيتنا، كذلك، أيضاً، فذلك الذي فَنيَ في اللّه منذ الأزل يبدو أنه يفنى بالنسبة للإنسان ذي الإحساس فقط حين يرى كينونة تموت بأم عينيه. ولأن الموت الزمني يفترض موتاً بمعزل عن الزمن؛ فالموت المحسوس يفترض موتاً ما فوق حسّي. وهذا الموت الأبدي، هذا الموت ما فوق الحسّي، هو اللّه نفسه. وحدها قشرة الموت قاسية؛ أما نواته فحلوة. ليس الموت المحسوس، إذا جاز التعبير، غير النغمة التي يخرج بها الشيء الزمني صوتاً لموته الأبدي ويعلنه، ليس سوى النور الذي يضيء في الظلام ليري ويظهر الموت الخفي

والسري. فذلك الذي لم تفطن فيه الحقيقة الإلهية لم يكن باستطاعته الموت. وهكذا، فأن تتمنى، أن تتوق لشيء بعد الموت هو خطأ بلا حدود. لأن الموت يُنتج عبر توق داخلي للطبيعة، توق داخلي يفترس الطبيعة طالما هو موجود لإظهار ما هو خارج دافعه وسعيه، أو، ما هو تقريباً الشيء ذاته، أن تعبّر عن الأعماق الداخلية للطبيعة من سعيها إلى الحقيقة. وذلك الذي تتوق الطبيعة إلى إظهاره، الدافع الداخلي الذي تعبّر عنه الطبيعة، هو أن الكينونة تُستهلك وتُذاب في الله. أنت تموت فقط لأن كل ما تتخيل تحقيقه بعد الوفاة موجود بالفعل قبل الوفاة؛ فالموت لا يقترب بسبب الحاجة والفقر، بل بسبب الامتلاء والارتياح. إن ثقل الوجود والامتلاء الأبديين للكينونة الإلهية يجبر حَرَم كينونتك الخاص، الذي يتضمنه الإلهي في ذاته، على أن يتفجّر متمزقاً إرباً. فقبل الموت وفوقه تكمن الأزلية.

أفضل ما يمكن لك تحقيقه كفرد، إنجازك النهائي والأقصى، هو التأمل في الله والانغمار في الله. وما الذي كان بإمكانه أن يفرّق بينك وبين الله في هذه الحياة وأن يُقحم كفاصل بينك وبين التأمّل في الله؟ هل الموت وحده سيقيم هذا الفاصل؟ لكن الموت الطبيعي هو فقط مظهر لنوع من الموت أكثر علواً ومختلفاً. أنت تموت فقط لأنك، منذ الأزل، أنت معروف كما أنت في الله، فقط لأنك، بحكم طبيعتك ككينونة متناهية، تُستهلك للأبد بالفعل في اللهيب المحبّ إلى الأبد للجوهر الإلهي، فقط لأنك مت بمعزل عن الزمن. إن انغمارك التأملي والواعي الحالي في الله ما هو إلا تجديد وعودة إلى انغمارك الأزلي، ليس سوى جلب للوعي، إبانة، لانغمارك الأصلي، الجوهري، اللاواعي، اللاطوعي فيه. ليس باستطاعتك أن تغمر نفسك في الله إذا لم قد غُمرت فيه لتوك، إذا لم تكن لتوك، عبر طبيعتك الخاصة بالذات، قد غمرت في الله من قبل الله نفسه. الموت الطبيعي، مثل انغمارك التأملي والواعي في الله، لا يمتلك غير جذر واحد، يمتلكه كمصدر له هو الانغمار والانحلال الأصليين، الجوهريين، ما قبل الوعي وما فوق الوعي في الله. وهكذا، لا يمكنك أن تتوقع أي شيء بعد الموت، لأن الموت هو على وجه التحديد نتيجة لذلك الذي تتوقعه على نحو خاطئ بعد الموت. وبسبب

فهمك، الذي يتميز بالتسلسل الزمني، أنت تعتقد أن ذلك الذي حدث فعلاً قبل الموت ومنذ الأزل يحدث فقط بعد وعند نقطة الموت الطبيعي. ولتصحيح هذا الانطباع، ما عليك سوى أن تذكّر نفسك بهذا التكرار الأبدي، أن تحوّل أفعال الجوهر إلى أفعال تفكير ووعي، وأن تجدّد معرفتك وتأملك بطبيعة الحقيقة الأزلية.

حين تصلك، يا عزيزي القارئ، هذه الصفحات بالصدفة، ومهما كان الموقف الذي تتخذه، تقوياً كان أم عقلانياً، حين تبدو لك هذه الأفكار سرّانية، يظلّ عليك أن تفكّر متأملاً أنه لمرة واحدة على الأقل، إن لم يكن في الحياة، فإذاً في ختام الحياة، في لحظة الموت، سوف تضطر لأن تصبح سرانياً أحببت ذلك أم لم تحب. لأنه في الموت الطبيعة ذاتها سرانية تماماً. ليس ثمة نصف موت، ما من موت متشعب وغامض؛ ففي الطبيعة، الكل صحيح، كلّي، غير منقسم، كامل. والطبيعة ليست بشعبتين؛ إنها لا تراوغ. فالموت هو الانحلال الكامل والشامل لكينونتك بمجملها؛ ليس ثمة غير موت واحد فحسب، والذي هو كلّي. الموت لا يقضم شيئاً من الإنسان، ولا يترك بقية. الكلية، الإجمالية، هي الشكل والصفة الجذريتان للطبيعة؛ وحين تموت، فأنت تموت كلياً؛ كل ما فيك ميت. لذلك، فقط من خلال التفكّر بالموت الطبيعي، هذا الفعل السرّاني للطبيعة، عليك في بعض الأحيان أن تُثار وتُحرك لأن تصبح سرّانياً، حتى أثناء الحياة، لأنه عليك أن تصبح سرّانياً لمرة واحدة على الأقل. وبعد فمن المؤكد أن هدف الناس العقلانيين أن يكونوا عمداً، عن وعي، وبحرية ما سيجبرون على أن يكونوه في نهاية المطاف. وعلاوة على ذلك، يجب أن تأخذ باعتبارك أن الله هو الأعظم بين كل *السرانيين* الذين يمكن تصورهم، أنه ليس عقلانياً (لكنه بالتأكيد ليس تقوياً أيضاً)، ليس جوهراً سطحياً، مجدباً، بائخاً، بل جوهر عميق على نحو لا متناه.

حين يتمّ تخيّل الله وتعريفه فقط كشخص (تعريف لا يتبدّل بحوامل اللامتناهي، الأعلى، المطلق، الكامل، المقدس، وما إلى ذلك)، حين يُستوعب شيء يتعلّق بالله ويعبّر عنه بمعزل عن الوعي الذاتي، الحرية، الإرادة، القرار، الغرض (وبالفعل، بالمعنى ذاته الذي ينسبونه لهم أولئك الذين يتأملون بالله في ظل هذه

التحديدات فحسب)، فاللّه سيتم تصوره عندئذٍ كجوهر *سطحي*. اللّه المُتخيل على هذا النحو إنما هو دون عمق، إنه مجرّد سطح أملس يعكس دعم الإنسان لنفسه، إنه الأنموذج البدئي لكنه أيضاً الصورة الدقيقة للشخصية الإنسانية. لأنه تماماً كما أن البورتريه الفني الأصيل الخاص بي ليس مجرّد صورة لي، بل هو بالفعل أنموذجي البدئي، لأنه يجمّل، يموثل [من مثال ـ مترجم عربي] ذاتي الطبيعية، لأنه يسلّط الضوء على الروح، جوهر فرديتي، لأنه يشدّد على جوهري مقابل الشوائب المعرقلة والمحدّدة، عيوب وصدوع الوجود الطبيعي، ويقدمه للتأمل في ذاته، كذلك فاللّه أيضاً، متصوّراً فقط في ظل هذه التحديدات، هو، على الرغم من أنه أنموذج بدئي، في الوقت ذاته، صورة دقيقة. ليس ثمة شيء من هذا التعريف للّه والذي لا وجود له في الشخصية المحدودة؛ الحقيقة ذاتها، المضمون ذاته الذي يُنسب إلى اللّه موجود في الإنسانية. وكما أنّ أولئك المفكرين الذين أكدوا أن ما من شيء موجود في الفهم لم يكن موجوداً مسبقاً في الحواس أقاموا تمايزاً شكلياً مجرّداً بين المحتوى الروحي والحسي، كذلك، أيضاً، هنالك تمايز شكلي فقط، تمايز في الدرجة أو الكميّة، بين البشرية وهذا التحديد للّه. فالتحديدات ذاتها التي في اللّه هي في البشر، فقط تكون فيه على نحو غير متناه، وفي البشر إنما هي متناهية ـ بكلمات أخرى، إنها تتحقق في اللّه *بدرجة أعظم على نحو غير متناه*. وحين، كما يتوجب على المرء أن يضفي، يصبح تمايزاً كميّاً مرفوعاً إلى الدرجة القصوى تمايزاً نوعياً، يظل مع ذلك الجوهر الأساسي، المفاهيم التي تحدّد وتمايز الإله والبشرية على حد سواء، متطابقاً.

وفقا لذلك، فالموت، الذي يشع في أعماق كل جوهر ومعرفة، سوف يُفهم فقط كنفي خارجي *سطحي*، تنتجه ضرورة خارجية لكل الوجود الطبيعي ولا يمسّ إلا القشرة الخارجية للفرد، لكن ليس كنفي نحو الداخل والذي يضغط ويرتفع إلى القلب. الموت إذاً ليس غير كسارة بندق تقضم فقط القشرة المحيطة الخارجية بحيث تخرج النواة اللحمية، اللذيذة من تلقاء ذاتها. ولأن الإنسان يعرف نفسه فقط في اللّه، يجد في اللّه فقط ثقته ـ الذاتية، يشفي نفسه فقط في اللّه ومن

اللّه؛ اللّه بالنسبة للفرد هو فقط الحَرَم الذي لا يُنتهك، المرجعية المقدّسة، الإثبات المقدّس والضمان لذاته ولوجوده الفردي الخاص. اللّه بالنسبة للفرد هو فقط أبو منزله، سيدّه الذي يراقبه ورقيبه في الليل، روحه الحارس، قديسه الذي يشفع له. وكيف بإمكان الفرد أن يفكّر بغير ذلك في طريقه إلى نهايته، كونه يفكّر دائماً فقط بذاته حتى في اللاتناهي، حيث يجد في اللّه، ليس نهايته ومبدأ موته، بل فقط مبدأ وجوده، فقط مبدأ حقيقته الأنانية، حيث أن اللّه بالنسبة له هو فقط بداية محدوديته وليس نهايتها أيضاً. كيف أمكن التوقع منه أن يكون قادراً على النظر في أعماق الموت حين يرى في الحقيقة الأعمق فقط السطح اللامع الذي يريه صورته ويعكس له ذاته؟

لذلك فاللّه ليس محدّداً بعد كروح حين يُحدّد فقط كشخص مطلق، الذي هو مميّز في ذاته عن الطبيعة والذي يعرف ذاته في هذا التمايز. لأنه في هذه الحالة فإن الطبيعة، أي الآخر بالنسبة للّه، سوف يُفكّر بها على أنها متواجدة بشكل مستقل، خارج اللّه؛ وعلى الرغم من أن اللّه متمايز الآن عن الطبيعة، فهو لا يمايز نفسه عنها، ومن ثم فهو شخص فقط وليس روحاً. إنه روح فقط عندما يكون ما يكون عليه من خلال ذاته، حين تكون كينونته نتاجاً ونتيجة لنشاطه الخاص. لكن حين يُفهم اللّه كشخص فحسب، فقط بوصفه متمايزاً عن الطبيعة، عندئذٍ، كما رُسّخ للتو، تقع الطبيعة خارج اللّه، ووحده التمايز يقع في اللّه. لكن عملية التمايز، أو فعالية التمايز، ملائمة للذات المتناهية الموجودة خارج اللّه. ومن ثم فاللّه بوصفه الشخص المطلق متمايز عن الطبيعة فقط لأن الشخص المتناهي لا يصنع التمييز. واللّه من ثم هو مجرّد ذات؛ لكن الذاتوية ذاتها، مبدأ الكينونة الذاتوية وأرضيته الفاعلة، لا تتواجد فيه. إنّ تمايز اللّه عن الطبيعة هو النتيجة لنشاطه الخاص المتعلّق بالتمايز، فاللّه يمايز نفسه عن الطبيعة فقط حين يُمايز عن ذاته ضمن ذاته، وليس حين يُفكّر به كشخص مطلق فقط، أي فقط كـ«من» دون «ماذا»، شخص دونما جوهر، لكن فقط حين يكون شخصاً وجوهراً في آن، فقط حين يكون كل الجوهر والطبيعة ضمن هذا الجوهر الذي هو متمايز عنه

كشخص واعٍ ـ ذاتياً. وحيثما لا يكون ثمة معارض، لا آخر، لن يكون ثمة تمايز. (لأنه في المعارضة هناك تمايز، وفي التمايز هناك معارضة؛ والأشياء كي تكون متمايزة يقول أحدها للآخر، «أنا لا أكون ما تكونه أنت، وأنت لا تكون ما أنا أكون؛ فبقدر ما تكون، بقدر ما لا أكون؛ وحيثما أكون، هناك أنت لا تكون؛ وحيثما أنت تنتهي، هناك أنا أبدأ؛ فبدايتي هي نهايتك»). لكن حيثما لا يكون ثمة معارضة وتمايز، لا يكون متعة ولا ألم، لا دافع، لا محرّض، لا تحفيز، لا باعث. وحيثما لا توجد هذه في جوهر ما، لا يتواجد فيه أساس للفعالية؛ فجوهر ما يفتقد الفعالية ـ الذاتية هو جوهر مملّ وميت، جوهر دونما دافع أو محفّز. وهكذا، فحين لا يكون التمايز عن اللّه في اللّه ذاته، حين لا يشمل ضمن ذاته جوهراً متمايزاً عن شخصه (الذي هو الاسم الوحيد الذي يدعوه به معظم الناس)، وحين لا يشمل جوهره نقيضه، فهو عندئذٍ متمايز عن الطبيعة بالفعل، لكن هذا التمايز ليس نتيجة لفعاليته الذاتية الخاصة. لأنه وحده الجوهر الفاعل ـ ذاتياً هو الجوهر الذي هو متميز عن ذاته ضمن ذاته، جوهر والذي هو ثنائي في ذاته.

الإنسان... والطبيعة:

لماذا الإنسان كينونة روحية؟ ليس فقط لأنه متمايز عن الطبيعة، بل بسبب أن تمايزه عن الطبيعة هو نتيجة لنشاطه الخاص المتعلّق بالتمايز. الإنسان بطبيعته يتميز عن الطبيعة؛ لكن روحه وعمل روحه يتكونان من حقيقة أنه يفعّل هذا التمايز منذ البداية، يتصرف كما لو أنه لم يكن متمايزاً، يسمح للتمايز أن يتطوّر وينتج عن فعاليته المتعلقة بالتمايز. لكن في ما تكمن إمكانية الفعالية المتعلقة بالتمايز؟ في حقيقة أنه ليس مجرد شخص، واعٍ ـ ذاتياً، بل إنه يكون ويمتلك في ذاته ذلك الذي منه يميّز ذاته، ذلك الذي بالتمايز عنه يكون شخصاً متمايزاً ذاتياً، وعياً ـ ذاتياً؛ إنه يكون، ويمتلك في نفسه، الطبيعة، النفس، الجوهر. إذا لم تكن ثمة طبيعة فيه، أو بالأحرى، لو لم يكن هو طبيعة، لكمن عندئذٍ الحافز، البداية، والمبادرة إلى النشاط والتميز خارجه؛ وكان سيبدو جوهراً لا روح فيه، مفعّل فقط من الخارج. الشخصية المجرّدة المستقلّة بذاتها هي بلا روح كالطبيعة

المجرّدة المستقلّة من تلقاء ذاتها؛ فالروح ليست سوى وحدة النفس والوعي، أو ـ وهو الشيء ذاته ـ وحدة الطبيعة والشخصية. لأن الطبيعة نفس نقية وكلية؛ إنها ليست مجرد نوع من مادة أو مجموعة ميتة من الأشياء والجواهر الميتة التي هي مقطوعة عن سلسلة ضرورات خارجية، أو مقيدة بها. لا يمكنك التمييز بين المفهوم الحقيقي للطبيعة والمفهوم الحقيقي للنفس. وحين يكون اللّه ليس أكثر من كينونة شخصية، فالإنسان سيكون حقاً أكثر علواً وأكثر عمقاً من اللّه، لأنه حتى الإنسان لا يكون مجرد شخص، ليس دون نفس. لذلك، فأن تجعل من الشخصية التحديد الوحيد للّه يعني أن تجعل من فقدان الروح وفقدان النفس تحديدين للّه.

أنت تقول، «الشخصية هي كينونة ـ في ـ الذات ومعرفة ـ للذات». لكن ما الذي تعرفه هذه المعرفة؟ أنت حتماً لا تريد أن تأخذ معرفة الذات على أنها الموضوع والمحتوى لمعرفة الذات. أي نوع من الأشخاص الفارغين والمحدودين سيكون هو الذي لم يكن يعرف غير نفسه، الذي كان يعرف أنه يعرف نفسه، أو الذي فيه معرفته وذلك الذي هو معروف له كان ذاته فحسب، الشخص؟ اللّه هو شخص، هو معرفة؛ لكن ذلك الذي يعرفه ليس معرفة من جديد، ليس هو ذاته كشخص؛ ذلك الذي يعرفه هو جوهره، نفسه. وفي معرفته، يكون اللّه ضمن ذاته ولأجل ذاته، لكنه في نفسه وجوهره يكون كلّ شيء. وهكذا، فذلك الذي يعرفه، مضمون وموضوع معرفته، ليس اللّه بوصفه ذاتاً، بل اللّه بوصفه كلّ شيء. وكون اللّه يعرف نفسه فهو يكون ويعرف كلّ شيء. اللّه متمايز عن كل شيء بحقيقة أنه ليس شيئاً ما بل هو كل شيء؛ فصفته النوعية هي الكلية، تمايزه هو الشمولية. ومهما كنت ترغب أن تتميز عنه، اللّه ليس متمايزاً عن أي شيء عبر حقيقة أنه كينونة والتي هي متمايزة، أي، معينة ـ هذه علامة مميزة للكينونة المتناهية ـ لكنه متمايز عن كلّ شيء عبر حقيقة أنه كل ما يميز ذاته عنه. وذلك الذي يميّز نفسه عنه كمعرفة ذات ليس تمايزه الخاص بل جوهره، والذي هو فيه كل شيء. إنه واحد مع ذاته وواحد لأجل ذاته بقدر ما يكون واحداً مع كلّ شيء. وعلى أية حال، تمايز اللّه متضمن ليس فقط في معرفته، بل أيضاً في

جوهره. لأن جوهره هو جوهره هو، الجوهر الذي هو *مناسب* له، كينونته هي كينونته هو، الكينونة التي هي *مناسبة* له، تحديداً لأن جوهره وكينونته هما كل الكينونات والجواهر، وليس كينونة لشيء ما، كينونة لشيء محدّد، مفرد، نميزها كلها عن اللّه. فالإله الذي يكون شيئاً ما فقط في حقيقة أنه يكون شيئاً ما، الذي يتكوّن تمايزه فقط من التمايز، الذي تتكون كينونته ـ لأجل ـ الذات فقط من الكينونة ـ لأجل ـ الذات، لا يعود إلهاً بل صنم، لأن الصنم متمايز عن الإله بحقيقة أن الصنم هو شيء ما بينما اللّه هو كل شيء. لقد جعلت منه موضوعك الوحيد لتميز وتفصل اللّه، لتجعل منه شيئاً، حقيقة معينة ومتمايزة. لكنك بهذه التمايزات ألم تشوش اللّه وتخلطه بأسوأ طريقة ممكنة بأشياء وجواهر متناهية، ناهيك عن الطبيعة نفسها؟ حين يكون اللّه كينونة متمايزة فحسب، فهو بالتأكيد ليس طبيعة، لكنه يشبه جوهراً طبيعياً واحداً، لأن الجواهر الطبيعية متمايزة عن اللّه بحقيقة أنها متمايزة ومعينة فحسب. أنت تتهم وحدة الوجود المحضة بأنها تجعل كل شيء في اللّه، لكن هذا الاتهام لأسوأ أنواع وحدة الوجود من بينها كلها، «وحدة وجود ـ معينة»، يليق بك. لأنه بسبب أنك تفكّر باللّه في ظل تحديد الكينونة ـ في ـ الذات والمعرفة ـ للذات، أو، على نحو أفضل، الكينونة ـ لأجل ـ الذات، لذلك، فقط في ظل التحديدية أو الخصوصية والتمايزية، أنت ترفع إلى مرتبة المطلق، ليس الكليّة، بل الشيء ما والمخصص فقط.

الوعي الذاتي... والحب!

هل تعرف الوعي ـ الذاتي فقط في أكثر تحديداته جفافاً، فراغا، ومحدودية؟ أليس هناك درجات للشخصية؟ هل الوعي الذاتي حاضر فقط حين يعرف الشخص نفسه فقط، حين لا شيء غير الشخص يتواجد في الشخص؟ أليس الحب وعياً ذاتياً، أليس هو أيضاً متعة عميقة، الأعظم بين كل المشاعر ـ الذاتية؟ لكن هل النفس التي تشعر بها في الحب هي النفس الشرعيّة، المانعة، المعطية للتمايز، نفسٌ والتي هي فقط محتواة ذاتياً وعارفة ذاتياً؟ أو، بالأحرى، أليس شعور الذات في الحب

هو في الوقت نفسه الشعور بجوهر والذي هو متمايز عن الذات ومع ذلك هو متحد معها؟ حين تحب، ليس النفس بل الجوهر هو موضوع ومضمون مشاعرك، وأنت تشعر بذاتك لأنك تشعر وتختبر فيك الجوهر الآخر. علاوة على ذلك، فالأمر ينفرد فيه الحب بأن الشعور والمعرفة غير منفصلين عن الكينونة؛ فأنت متحد مع الجوهر الذي أنت على دراية به، أنت بالفعل ذلك الجوهر. نقول الآن ألا يمكنك أن ترتقي بذاتك إلى سوية الفكرة القائلة إن اللّه هو كل شيء ومع ذلك فهو وعي ـ للذات، إنه كما يعرف ذاته فإنه يعرف كل شيء كذاته وذاته ككل شيء؟ ألا يمكنك أن تناسب أيضاً الكينونة ـ لأجل ـ الذات عند اللّه مع كينونته ـ كل ـ شيء؟ كينونة ـ كلّ ـ شيء كما هي في اللّه وتكون اللّه وكينونة ـ كل ـ شيء كما هي في الطبيعة وتكون الطبيعة هما متمايزتان من خلال الحقيقة القائلة إنّ كينونة ـ كلّ ـ شيء للّه هي كينونة ـ واحدة مطلقة، ولذلك فهي كينونة ـ لأجل ـ ذاتها، في حين أن كينونة ـ كلّ ـ شيء للطبيعة هي كينونة ـ كلّ ـ شيء بوصفها عديدة، بوصفها مخصصة، بوصفها مفردة، بوصفها منفصلة، بوصفها كينونة ـ خارج ـ ذاتها وكينونة ـ في ـ التعاقب. والتمايز بين الوحدة والتعددية ليس مجرّد شكلاني، لكن كل شيء بقدر ما هو واحد يكون على وجه التحديد مضموناً متمايزاً، مستقلاً عن كلّ شيء بوصفه متعدداً. ولفهم هذا، على واحدنا أن يدرك فقط سرّ الحب. فالحب متمايز عن كلّ التجارب الأخرى عبر واقعة أنه كلّ التجارب؛ إنه ليس تجربة واحدة بعينها، لكنه تجربة مطلقة، لا متناهية، شاملة على نحو كلي؛ إنه في آن كل الآلام وكل المباهج، كل متعة وكلّ معاناة. ومع ذلك، لأنه كل تجربة في آن وكوحدة غير قابلة للانقسام، الحب هو تجربة والتي هي متمايزة ومستقلة عن كلّ تلك التجارب التي تحدث على نحو مخصص، منفردة، في تعاقب خارجي. علاوة على ذلك، فإن هذا التمايز للحب عن كل التجارب الأخرى ليس مجرد شكلاني، بل يوجد فارق أساسي في المضمون. ففي الحب، الواحد هو الكلّ والكلّ هو الواحد، في حين أنه في كل التجارب الأخرى، فذلك الذي هو واحد في الحب يكون متعدداً، متفرقاً، متنوعاً. ليس فقط أنك تعيش في الحب تجربة تختلف عما تعيشه في التجارب المتفرقة،

المعينة الخاصة بنفسك، أنت أيضاً تختبر شيئاً مختلفاً. وهكذا فإن كلّ التعددية كما توجد في الوحدة وتكون وحدة إنما هي متمايزة عن الكثير بقدر ما يوجد الكثير في التعددية ويكون تعددية. ينشأ جوهر جديد فقط حين يظهر واحد من بين كثيرين. لذلك، فأنت تمتلك تشابهاً لوحدة الكينونة ـ لأجل ـ الذات وكينونة ـ كلّ ـ شيء في الإنسانية، والذي لا تستبعد فيه الطبيعة الشخصية ولا تستبعد فيه الشخصية الطبيعة أو النفس. ففي نفسه يكون الشخص لا ـ أنا، ليس شخصاً، كما بإمكانك أن ترى، على سبيل المثال، في النوم، حيث توجد هناك نفس لكن لا يوجد وعي، في حين لا يمكن أن يكون ثمة وعي دون نفس.

حين تقول عن اللّه، «إنه يحب»، أو على نحو أفضل، «إنه حب» (على مستوى أعمق، فحتى النفس البشرية في الحب، بمعيار معين، تبدو متطابقة مع الحب ذاته، كما تعتقد بذاتها عندما تفكّر؛ وأؤكد أن الإنسان أيضاً يأكل، يسافر، يضرب، يرى، يشم، لكن الحب والفكر مرتبطان بالبشرية على نحو يختلف عن الأكل، الضرب، والشمّ)، فأنت تساميت للتو بتصورك لشخصية اللّه. لأن الكينونة الشخصية بحدّ ذاتها، فقط كشخص، لا تحب، بل فقط تستثني وتصدّ؛ والشخص متصوّر على نحو دقيق كشخص لا يستطيع أن يحب بل يمكنه فقط أن يكره، يقسم، يقصي. وكي يكون قادراً على الحب، على الشخص أن يكون قادراً على تسليم ذاته ـ لأجل ـ الذات القاسية، المُقْصية. لكن الشخص لا يمكنه القيام بهذا التسليم إذا لم يكن فيه مسكن، إذا جاز التعبير، حيث يكون لا ـ شخص، حيث لا يكون انفصالاً فاصلاً وتمايزاً طارداً، بل حيث يكون فيه الكلّ واحداً والواحد كلاً. وبالتأكيد فأنت لا تأكل بالأكل، بل بالشوكة، بيديك، فمك، أسنانك، كما أنك لا تشمّ بالشم، بل بأنفك؛ وبعد فإن جهاز الحب وأداته هما الحب ذاته. أنت تحب فقط بالحب وفي الحب. لكن الحب ليس كينونة ـ في ـ ذاتها وكينونة ـ لأجل ـ ذاتها؛ الحب هو كينونة ـ معاً، كينونة ـ في ـ الشراكة. لذلك، فأنت لا تحب بشخصيتك كشخص، بل فقط في جوهرك وبجوهرك، الذي هو كينونة ـ معاً، لكن ليس كينونة ـ متمايزة أو كينونة ـ لأجل ـ ذاتها. أنت تحب فقط لأنك أعمق وأكثر من شخص. ليس هنالك ثمة حب

حيث يكون ثمة جوهر فحسب، وليس هنالك ثمة حب أيضاً حيث يكون ثمة شخص فحسب. الحب هو وحدة الشخصي والجوهر، ولذلك فهو يفترض وحدة وتمايزاً في آن. حيثما يكون ثمة جوهر فحسب، هنالك وحدة فقط؛ وحيثما يكون ثمة شخص فحسب، هنالك فقط تمايز، والحب يقيم فقط في وحدة الاثنين. وبما أن الإنسان الذي اختبر الحب اختبر كل شيء، لذلك فالإنسان الذي عرف الحب يعرف كل شيء. اعرف الحب وأنت تكون فد عرفت اللّه وكل شيء. وهكذا وحده المؤمن الأصيل بمبدأ كليّة الوجود يعرف ماهية الحب؛ وحده يمكنه أن يحب. وبمعزل عن وحدة الوجود فكل شيء أنانية، بحث ـ عن ـ الذات، غرور، جشع، ارتزاق، وثنية. حتى الأناني، على الرغم من أن موضوع حبه ربما يكون الحقيقة الأكثر تحديداً، إلا أنه، إلى المدى الذي يكون فيه قادراً على الحب، يتخلّى عن أنانيته ويصبح من أنصار مبدأ وحدة الوجود. وبخلاف ذلك، لم يكن باستطاعته أن ينال أكثر تجارب الحب عبوراً. وتماماً كما تُسامي تحديد الشخصية حين تقول، «اللّه حب»، فأنت أيضاً تساميها عندما تؤكّد، «اللّه مبارك»، أو «اللّه هو البركة». لأن البركة لا تتواجد دونما تحديدية، تمايزية، حصرية، أو شخصية بحد ذاتها، إنما فقط في الوحدة. لكن اللّه هو البركة فقط حين يكون في الوقت ذاته بركة كلّ الأشياء وجواهرها، فقط حين يكون وحدة كل الجواهر كجوهر مستقل واحد.

وهكذا، فحين تتمسّك باستمرار ونزاهة بتحديد الشخصية وتنجزه، بينما ترفض التخلّي عنه ومن ثم تتناوله من جديد كما تشاء، يجب عليك أن تعترف من ثم أنك لا تستطيع أن تعزو الحب للّه كما يتم تأمله في ظل تحديد الشخصية فحسب. لا يمكنك أن تقول إن اللّه حب حين تعزو الحب له فقط فيما يخص ذاتك، عندما تعترف بأن فيه تحديدات والتي هي فقط توكيدات حول وجودك الشخصي، حين تجد نفسك فقط محتواة ومؤكدة فيه، حين تترك متسعاً لنفسك فقط فيه في حين تدفع بكل شيء آخر. حين تعترف في اللّه بتحديدات هي فقط تشكل الذوات كذوات ولا تعترف على نحو معادل بالتحديدات التي تشكل الموضوع كموضوع والطبيعة كطبيعة، فإلهك عندئذٍ ليس حباً، جوهراً، ومادة. على العكس من ذلك،

فحين تمثّل الله ككينونة مستقلة والتي تتمايز عنك في ظلّ التحديدات التي تشكّل الذاتوية فقط، فإلهك عندئذٍ ليس سوى أنانية وحب للذات مرتقيتين إلى الدرجة القصوى. الله متصوّر ككينونة موضوعية، مطلقة وليس فقط ككينونة ذاتية، فقط حين تتصوره في ظل التحديدات التي يتواجد عن طريقها وفيها شيء ما، وليس فقط في ظل التحديدات التي تكون فيها أنت أنا ما. وشيء هو لا ـ أنا، شيء، حين تجد محتوىً فيه بداية الأرضية والنهاية على حدّ سواء، هو النفي لشخصيتك ولوجودك الشخصي. الله ليس إلهاً والذي يؤكّدك، لكنه أيضاً إله والذي ينفيك؛ إنه ليس فقط البداية والنهاية لكل *الأشياء*، لكنه أيضاً *البداية والنهاية لذاتك أنت*. تلك الأشياء والجواهر التي تتواجد خارجك، التي تميزها عن ذاتك، التي تعترف بأنها مختلفة عن الأنا التي لك وعن ذاتك، كلّ هذه الأشياء هي نقاط والتي تحد من ذاتك وتنفيها. وبقدر ما وطالما تتواجد الأشياء والجواهر الأخرى خارجك، بذلك القدر وبذلك الحدّ أنت لا تتواجد. وبقدر ما يتواجد العديد من هذه الأشياء، كذلك فإن العديد من الحواف والحدود، التي تتوقف فيها وعندها كينونتك، تمتلكها أنت. في كلّ شجرة، كل جدار، كل طاولة تلمسها، أنت تلمس موتك، كما لو أنك، تلمس حدّ وحافة وجودك. أن تأتي إلى الذهن بنهايتك، أنت لا تحتاج للذهاب في مسيرة على الأقدام إلى المقبرة؛ وكلّ جرعة من السعوط تأخذها، طالما أنها خارجك، يمكن أن تأتي إلى الذهن بتابوت ذاتك. كلّ لكمة على الأضلع، كل دحسة، كل انطباع، هي تذكرة بالموت حيّة؛ وكلّ ما في الطبيعة هو مقبرة لأنانيتك الخاصّة. حين تفكّر بكينونة باعتبارها ملكاً عاماً والذي وزعه الله، عند بداية العالم، عليك وعلى كلّ الأشياء والجواهر خارجك، فسوف تدرك عندئذٍ أنه بقدر ما تعود الكينونة للأشياء والجواهر الأخرى، بقدر ما لا تعود لك، أن كلّ شيء يتواجد يقتل، إذا جاز القول، جزءاً من كينونتك، وهو حرمان، نفي، تقليص، تقييد لوجودك. أمّا الآن، وحيث أن الله ليس مجرد كينونة ذاتية بل هو أيضاً كينونة موضوعية، وحيث أن الله ليس مجرّد إله للذات ومن أجل الذات بل هو أيضاً إله للطبيعة ومن أجل الطبيعة، وحيث أنه يتواجد في الله ليس فقط تحديد الشخص (لذلك ليس

أنت وحدك) بل أيضاً تحديد للموضوعية، ومن ثم، حيث يتواجد هناك في الله الأشياء والجواهر خارجك، كذلك أيضاً يجب أن يتواجد هناك في الله الحدّ، النهاية، النفي لوجودك الشخصي ولأناك، وعليك أن تعترف بالله على أنه الأرضية النهائية والمبدأية لموتك بقدر ما تعترف على أنه الأساس لوجودك. وحين تتواجد الأشياء في الله، أو على الأقل تنشأ في الله، فإن حدود ونهاية أناك وكينونتك تنشأ إذاً فيه أيضاً. لكن حين تنشأ حدود وجودك في الله، فإن الموت ينشأ إذاً في الله، فالموت ليس سوى النتيجة، المظهر، للحدود الداخلية لذاتك. إنها هذه الحدود الداخلية ذاتها التي تمتلك وجوداً خارجياً، موضوعياً في الأشياء؛ ومجموعها الإجمالي هو الموضوعية بشكل عام. حين لا يكون موضوعاً موجوداً، فالذات كانت ستبدو لا متناهية ومن ثم أزلية بحد ذاتها. وحين تتواجد ذات شخصية وحدها، سيكون من المستحيل أن نتصور نهايتها، حدّها، موتها. لكن وجود واقع موضوعي هو دليل واقعي على نهائية الذاتية؛ لأن وجود حقيقة موضوعية، بقدر ما وطالما تتواجد الحقيقة الموضوعية وتكون موضوعية، يشكّل اللا ـ كينونة، النهاية، للذاتية. ومهما ترغب في أن تفكّر بشأن الطبيعة، أنت تصرّح وتمثّل لذاتك أن الله خلقها. وهكذا فأنت يمكنك أن تلتوي وتستدير، تكذب وتخدع، لكن الحقيقة يجب أن تؤكّد بأنّ الله أعطى وجوداً وحقيقة للا ـ كينونة التي لكينونتك، وأنه، من ثم، هو الأرضية النهائية لموتك.

من الواضح أنك معتوه للغاية حتى نسيت ما فكّرت به، قلته، وفعلته في اللحظة بالذات التي تمنح فيها الخلق ووجود الطبيعة ومن ثمّ تعترف بضرورة، عقلانية، وواقعية النهاية والموت. ولا عجب. أنت تعتقد أنك وحدك المحتوى والقيمة للّه، أنه وحدك فقط مادة لفحوى لا متناهية. وهكذا فمن الطبيعي أنه، بالنسبة لك، أن يكون الموت شيئاً يجب أن لا يوجد، أن نهايتك ليست نهاية *حقيقية*. وحيث أنك لا تواجه نهايتك الخاصة حتى في الله، من الطبيعي من ثمّ أنك تواجه نهايتك على نحو أقل حتى في الموت الطبيعي، ومن ثمّ يجب أن تلصق بالغراء إلى نهاية هذه الحياة الورقة المتراقصة، المملة ذيل التنين وذيل النجم المذنب البخاري

لأزلية بلا جذور. لكنك مرة أخرى أنت قصير النظر ومتناقض ذاتياً إلى درجة أنك غير عارف بأن هذا الذيل الممجد باعتراف الجميع للنجم المذنب للمستقبل ما يزال مجرّد تأمل شاحب، ضبابي وظلاً ضعيفاً لعظمتك وروعتك الحاليين. ولأنك تأخذ تحديداتك الذاتية الأخلاقية على أنها التحديدات المطلقة الوحيدة لمضمون الله، ولأنك، كما ذُكِر تواً، تأخذ نفسك على أنها المحتوى والقيمة للمطلق، فأنت تختبر وتعترف، ليس بنقطة انفصالك عن الله، بل، بالأحرى، بالتواصلية والديمومة بينك وبين صفاتك الأخلاقية فحسب، تواصلية ترفعك، بالفعل، إلى سلطة أكثر علواً، والتي تجعلك كاملاً. لكن تواصليتك الكمية، الزمنية بلا زمن، المتناهية بلا تناه، داخل المستقبل إنما تليق بتواصليتك وديمومتك النوعيتين، الجوهريتين في الله بالقدر القليل ذاته الذي يليق به العفن بالخبز، الذي يليق به الإشعاع بالنور، الذي يليق به السديم بالشمس، الذي تليق به الوردة على على النسيج بالوردة الحية، الذي تناسب فيه النسخة السيئة النسخةالأصلية. وحيث أنك كنت لتوك كلّ ما كان باستطاعتك أن تكونه في هذه الحياة، ما الذي تبقى لك بعد الحياة غير ضوء القمر الشاحب الذي يتبع نور شمس الحاضر؟ أخيل العظيم، الأنموذج البدئي للروح اليونانية، عزيزي أيها العامل باليومية على الأرض، الذي اعترف بنبل كبير برغبتك في حكم عالم الظلال، كان باستطاعتك فقط أن ترى كيف تنشر الذات الحديثة لليوم مروحة طاووس الأزلية، كيف يلتهم ذُرَة الحاضر فقط كي يمضغها مرة أخرى في الآخرة كبراز لا طعم له، كيف يسعى لخنق الأشكال البطولية للواقع بذنب حصان أجرد رمادي لزمنيته التي لا نهاية لها فقط كي يؤكّد لنفسه ضرورة وجود ظلال بلا قيمة!

حين يكون معنى ما تم تقديمه الآن لا يزال مخفيّاً عليك، تأمّل القضية من منظور بسيط آخر. قد لا تمتلك معرفة عميقة بالله، لكنك على الأقل تعرف أن الله هو الكينونة غير المحدودة، غير المتناهية، وأنه من أجل جعل الله موضوعاً للتأمل، يجب على المرء أن يأخذ، أو ينفي، كل التحديدات والقيود التي تُحصر ضمنها كينونة متناهية، وأن الشخص الذي لا يمكنه القيام بعملية تجريد من الكينونة

التي هي هنا وهناك، الآن ومن ثم، هذا وذاك، هذه الطريقة وتلك الطريقة، هو غير قادرة بأي وسيلة على تمثيل اللامتناهي. لكن هذه الضرورة من الحاجة إلى التشديد على فكرة اللامتناهي فقط عن طريق نفي المتناهي لها أساسها، ليس فيك، بل في الموضوع ذاته. فقط لأن اللامتناهي هو نفي المتناهي عليك أن تنفي المتناهي، أن تقوم بعملية تجريد منه، من أجل أن تفكّر باللامتناهي. وحالما تسعى لأن تولّد فيك تمثيل اللامتناهي، فإن عملك المتعلق بالتجريد هو فعل مقلّد فحسب، نسخ، إذا جاز التعبير، لما أنجزه اللامتناهي ذاته. العدم الفعلي والحقيقي للمتناهي هو اللامتناهي ذاته. وكون الأشياء متناهية، تختلف، تتغير، تزول، إنما يقوم فقط على الكينونة الفعلية للامتناهي. إذا لم يكن اللامتناهي موجوداً، فكلّ شيء، حتى *الأكثر محدودية*، كان سيبدو غير *محدود*، كان سيبدو غير قابل لأن يتغيّر، غير متحرك وغير محرك، كان سيبدو ثابتاً بالمطلق، حقيقة مطلقة. المتناهي متناه، وحدوده قد تم تعيينها، فقط عن طريق اللامتناهي وفي اللامتناهي (على الرغم من أنه مع تحديد الحدود يأتي الباعث إلى الحركة، الرغبة في التخلي عن الحدود). يُقدّم المتناهي كمتناه من قبل اللامتناهي، وفي تناهيه يُقدّم عدمه وموته. والموت الأزلي، اللامتناهي، والحقيقي لكلّ الأشياء والجواهر هو اللّه نفسه. والموت الذي يُفهم عموماً على أنه الموت الوحيد هو موت متناه، محدّد، وقتي، مزيف. فالأزلية هي أساس كل الوقتية. فإذا لم تكن هناك أزلية، لن يكون هناك زمن، لأن الأزلي هو الزمن بالنسبة للمتناهي. لا يكون المتناهي زمنه الخاص، لكن الأزلي هو زوال المتناهي. تتمايز الوقتية عن الأزلية فقط من خلال الحقيقة القائلة إن الزوال الذي هو في وقت واحد في الأزلية يكون متتالياً في الوقتية؛ أو، للتعبير عن هذا التمييز في مزيد من الصور الوقتية، الزمن هو فقط *الزوال* الدائم للحقيقة المتناهية، التي، بدورها، تصبح كينونة ماضية والتي لا يمكن إشباعها أبداً. في حين أن الأزلية هي *الماضي المُنجَز* و*الكينونة الماضية* المرتاحة. الزمن هو الزوال لوجود المتناهي، أو المتناهي بحسب شكل وجوده. لكن المتناهي يتواجد بشكل متناه، منفصل، منفرد، في العلاقات الخارجية. وهكذا فالزمن، لأنه الزوال للمتناهي في

انفراديته، في تخارجيته، هو مجرّد زوال متتال، زوال لتناه بعد الآخر. لذلك، وعلى وجه التحديد كزوال لذلك الذي يتواجد على نحو إفرادي، الزمن هو الزوال الذي لا يُنهى بذاته أبداً، الذي يتطوّر دائماً، الذي هو دون راحة، دون هدف، دون سلام. لكن الأزلية زوال، ليس للمتناهي كمتناه، بل *لنهائية* المتناهي. الأزلية هي زوال المتناهي، ليس بحسب وجوده الفردي، بل بحسب جوهره الشامل. هذا الزوال ليس مجرّد زوال ذلك الذي هو زمن، بل زوال لذلك الذي هو في ذاته *كينونة* وجوهر، الذي هو ماض مغلق بالكامل. وبهذا المعنى، الأزلية لا تكون ولا يجب أن تُدعى زوالاً. وهكذا، مع أنّ الكينونة في ذاتها ولأجل ذاتها تناسب الأزلي، يمكن للمرء أن يدعو الزمن على نحو صحيح صيرورة الأزلي.

تدرّجية الوعي البشري:

لكن لماذا إذاً لا يبقى الجنين البشري مجرد جنين؟ لماذا تموت الأشكال والصيغ الخاصة بالوجود الذي يمتلكه الإنسان حين يكون متوضعاً في رحم الأم؟ لماذا هي أشكال وقتية، عابرة إن لم يكن لأن مفهوم الإنسان وجوهره، اللذين هما غرض الجنين، هما أيضاً النهاية الجوهريّة الداخلية للجنين ووجوده؟ هل أن هذه الأشكال، التي اختفت لتوها في الجوهر، تختفي على نحو متعاقب في الوجود المحسوس للزمن؟ إذاً لماذا لا يبقى هذا الكوكب حيث هو الآن، لماذا هو دائماً في مكان آخر، الآن هناك، لكنه في اللحظة ذاتها لا يعود هناك بل في موضع آخر؟ فالكوكب، الذي هو في جوهره متحرك ـ ذاتياً والذي هو، من ثم، في حركته العفوية، الأصلية، الفطرية، هو هيئة لها حياة ونفس، إنه عدم المكان، جوهر المكان ـ بعبارة أخرى، الكوكب هو نفي للحدّ المكانيّ بشكل عام. مع ذلك، فالزمن هو العدم، ليس للمكان، ليس لجوهر المكان، بل لمكان موجود، محدّد، محسوس، مفرد. المكان يزول ويختفي في الزمان. لكن في الحركة المحسوسة، يتلاشى هذا المكان الواحد، الذي هو، كونه يتواجد على نحو محدّد، منفصل عن المكان الآخر، هو بعد ذلك المكان الآخر، حيث أن ذلك المكان هو بعد السابق، وهكذا فضمن الأزلية، هذه الأماكن المفردة في وجود منفصل تختفي الواحد بعد الآخر. لكن في

جوهرها، في جوهر مكان محدّد، الذي هو عدم، ليس بالنسبة للحجر أو لهيئات منفردة أخرى، بل بالنسبة للكوكب. هذه الأماكن المفردة اختفت لتوها في وقت واحد (وليس مؤقتاً).

أنت تقول،»لا أستطيع الشك في أن اللّه، اللامتناهي،، موجود، لكن بالقدر القليل ذاته تماماً الذي أستطيع أن أشك فيه أني أنا وكلّ شي متناه موجود. اللّه موجود، الطبيعة موجودة، أنا موجود». لكن، لتقديم الاقتراح وفقاً للترتيب الصحيح للأسبقية، «أنا موجود»، لأنك أنت ضمير المتكلّم، «اللّه، أنت موجود»، لأنه هو ضمير المخاطب، و«الطبيعة، إنها موجودة»، لأن الطبيعة ضمير الغائب والنهائي. وهكذا فأنت تمايز بين اللامتناهي، اللامشروط، والمتناهي، المشروط. لكن حيث أن كينونة النهائي والمشروط لها تماماً القدر ذاته من الحتمية اللامشروطة واللانهائية بالنسبة لك التي لكينونة اللامتناهي، فأنت تلغي التمايز في الكينونة بين المتناهي واللامتناهي. وحتى لو أنك تعزو كمية أكبر من الكينونة للامتناهي من تلك التي تعزوها للمتناهي، فهذا على الرغم من ذلك لن يحسم الأمر. الكينونة هي القاسم المشترك التي تسمح أنت لكلّ من المتناهي واللامتناهي بالمشاركة فيها. لكن، آسف أن أقول، هذا *العقد الاجتماعي* الذي خلاله تسبّب أن يعيش المتناهي واللامتناهي بانسجام ضمن المنطقة المشتركة للكينونة لا يصادق عليه من قبل اللامتناهي ذاته. الكينونة اللامتناهية تتناسب مع اللامتناهي؛ إنها لا تستطيع أن تكون لا متناهية في الجوهر لكنها متناهية في الكينونة دون أن تتوقف عن أن تكون لا متناهية. الكينونة تلي الجوهر؛ ولا نهائية الجوهر تلغي نهائية الكينونة. وحين لا يكون للامتناهي في جوهره نهاية وحدّ في المتناهي، فإن كينونة اللامتناهي لا تمتلك حدّاً عند كينونة المتناهي. وهكذا، حين تضع كينونة اللامتناهي بجانب كينونة المتناهي، فأنت تحوّل كينونة اللامتناهي إلى كينونة متناهية؛ إنها تمتلك حدّها عند كينونة المتناهي. ومع ذلك، فحين تمثّل كينونة كمجال، كمساحة، من الواضح أنّ اللامتناهي لا يشغل جزءاً واحداً من هذا المجال، لا يحتل بضع مساحة ويترك الباقي فارغاً؛ إنه بالأحرى يملأ كامل

المساحة، دون أن يترك مكاناً لأي شيء آخر. لذلك، فإن كينونة اللامتناهي هي اللا ـ كينونة، التدمير للمتناهي، لأنه حيثما يكون اللامتناهي، فالمتناهي لا يكون. لكن اللامتناهي يتواجد في كل مكان؛ إنه لا يتواجد في جزء أوحد من مجال الكينونة، بل في المساحة برمتها. وهكذا فالمتناهي لا يتواجد في أي مكان. لكن من منظور هذا الاعتبار، والذي هو، حين يؤكّد على نحو أحادي الجانب، يؤدي إلى نفي كامل للمتناهي، كيف تكون كينونة المتناهي ممكنة؟ فقط لأنك تحدّد، تقرّر، وتميّز الكينونة ذاتها إلى كينونة صرفة وكينونة محدّدة، وقتية. فقط من خلال الزمان وفي الزمان تكون الكينونة المتناهية ممكنة. وضمن مجال الكينونة اللامتناهية، تكون الكينونة المتناهية ممكنة فقط ككينونة متتالية، كتعاقب، كتضاؤل وزوال. وكما أنّ الكوكب لا يستقر ولا يقف بل يتنقل باستمرار، فهو لا يحافظ أبداً على النقطة المكانية ذاتها بل ينفي موضعاً بعد الآخر، وهكذا، فضمن مجال الكينونة التي يشغلها اللامتناهي، لا يصل المتناهي أبداً إلى موضع استقرار والذي كان باستطاعة المرء أن يقول عنه، «*إنه يكون*»، لكن، إذا جاز القول، يستبدل دائماً باللامتناهي. هذا الاستبدال هو الزمن. لكن من أجل مزيد من التطوير على حقيقة أن أساس الموت ومبدأه يجب البحث عنهما في اللّه ذاته، سوف أعود إلى التحديدات الأكثر حيوية والأكثر امتلاء بالمعاني للنقاش الأول.

اللّه... حب!

اللّه هو الحب كذات وجوهر. لكن، كما ذكر سابقاً، فهذا الحب، كما يظهر في الإنسانية، هو نار تأكل الأخضر واليابس. إن كينونة المفرد والمعيّن، المتنوّع والمختلف، التي هي بخلاف ذلك تمتلك وجوداً وحقيقة بالنسبة لك، تُلتهم وتُدمّر من قبل الحب. في موضوع الحب وأمامه، الذي هو، بالنسبة لك، طرّاً، كل ما هو متمايز ومنفصل عنه، الذي هو بخلاف ذلك كان سيبدو شيئاً بالنسبة لك، يصبح لا شيء. يتم تدمير كلّ التعددية والتنوع فيك حالما يقوم الحب فيك؛ فقيامه هو الاختفاء لكلّ وجود معيّن. حين تحب، فأنت لا تعود تتواجد في العلاقات والترابطات مع الأشياء والبشر التي كنت تتواجد فيها سابقاً والتي تكوّن وحدها

وجوداً معيّناً؛ فأنت لا تعود تتواجد في اهتماماتك المعينة، في قضاياك، في الموضوعات العديدة التي اعتدت التواجد فيها. أنت *تتواجد* الآن في كينونة واحدة والتي هي موضوع حبّك. وكلّ ما هو خارجها باطل، لا شيء. لقد تمّ سحب الأرضيّة الصلبة والآمنة التي اعتدت الوقوف عليها من تحتك؛ فأنت تقف على شفا دمار كامل؛ فقد غرقت في الهاوية التي لا قعر لها. وهذا يصح تماماً على موضوع حبّك؛ إنه ليس هذا أو ذاك، ليس شيئاً ما، ليس معيناً، بل كلّ ما هو قابل للانفصال وقابل للقسمة، متنوع وخاص، يذاب في موضوع واحد الذي هو كل شيء. لنأخذ حالة حب لشخص ما. فطالما أنك لست في حالة حب مع شخص ما، وحدها خصوصية الشخص، التي يمكنك عادة ملاحظتها وتمييزها في هذا الشخص، لا تزال تمتلك وجوداً بالنسبة لك؛ إنّ شخصية هذا الشخص، صفاته، جوانبه الحسنة والسيئة، سماته، وهكذا دواليك، هي الموضوعات الوحيدة لتصورك، وهي توجد في تصورك بوصفها مفصولة مكانياً، إذا صح القول؛ والصورة الكاملة لهذا الشخص مأخوذة معاً إنما توجد فقط ككليّة مكانيّة. لكن عندما تدخلان كلاكما في رباط الحب التبادلي، يصبح الجوهر موضوع جوهر، جوهر يمسّ جوهراً؛ وفي هذه الوحدة للجوهر، تختفي الفرديّة المنفصلة والكينونة المعينة لكلّ واحد منكما إلى جانب الفروق والانقسامات فيكما وبينكما. وهكذا، فذلك الذي لا يمكن نفيه وتجريده غير مناسب للحب وليس له حصة فيه، لأن فعالية الحب (رغم التمايز في الموضوع والمضمون) هي، مثل فعالية لتفكير، فعالية تجريد. فمن دون حب، أنت غير قابل للانفصال عن وجودك الخاص؛ في الحب، تصبح أنت وخصوصيتك لا شيء. لكن في الوقت نفسه فهذا الإفناء هو حالة جديدة وأكثر تميزاً للكينونة. ووفقاً لذلك، أنت تتواجد ولا تتواجد في الحب؛ فالحب هو الكينونة واللا ـ كينونة في واحد، الحياة والموت كحياة واحدة. الحب يعطي الحياة ويأخذها، يدمّر الحياة ويولّدها. تحصل الحياة والوجود على معنى فقط من خلال وفي مطهر الحب الذي يلتهم كلّ شيء والمؤلم. لكنه معنى وحيد يجعل من الحياة حياة؛ من وجود مليء بالمعاني كما لو أنه لا شيء. وهكذا يصبح الوجود وجوداً بالفعل فقط حين يكون وجود حب؛

فالحب يغيّر الكينونة إلى لا شيء واللا شيء إلى كينونة، ووحده الشيء ما الذي يُطهّر في لا شيء يعني ويكون شيئاً ما.

الآن، على الرغم من أنّ الوجود فقط يبدأ بمعناه ومن معناه، فالحقيقي أيضاً أن الوجود ينتهي بمعناه. لأن معنى ذلك الذي له معنى يكون حاضراً فقط عندما يتوقف؛ فمعنى الطبيعة حاضر فقط حيثما تنتهي. وأنت تجد معنى الحياة فقط عندما تذهب إلى ما ورائها، تتركها خلفك، وتقوم بعملية تجريد منها. أنت تدرك معنى اللغز عندما تحلّه؛ أنت تدرك فحوى الصورة عندما تنفيها كصورة. فحين تمتلك فحوى الصورة، لا تعود بحاجة إلى الصورة. لكن في حين أن معنى شيء ما هو مبدؤه وبدايته حالما يُحلّ الشيء ويُستهلك مرة أخرى من قبل معناه، فالشيء مع ذلك خرج فقط من معناه. لذلك، فإن معنى شيء هو نهايته وبدايته على حدّ سواء. وهكذا، فالوجود يبدأ وينتهي على حدّ سواء في الحب.

حين ترغب بمواصلة السعي لمعرفة الحب بوصفه الأرضية لمثل هذه التحديدات المتعارضة، فكّر إذاً أنه مصدر وأساس كل الأفراح والآلام، أنّ كلاً من السراء والضراء ينشآن عنه، وأن الحب، بذلك، يحتوي التحديدات الأساسية المتناقضة لذلك الذي يجعل السرّاء سرّاء والضرّاء ضرّاء. الفرح هو شعور بالكينونة؛ الألم هو شعور باللا ـ كينونة، بالحدّ أو بالسلب. لكن الشعور بالكينونة هو في حد ذاته كينونة، والشعور بالسلب هو في حد ذاته سلب. علاوة على ذلك، الفرح والألم، حالما يرتقيان إلى وجود في تجربة الذات، هما المبادئ والتحديدات الأساسية لكلّ الوجود. الفرح هو الشعور بالحياة في الحياة؛ الألم هو الشعور بالموت في الحياة، الشعور بالحرمان من الخبرة. ولأن الألم ليس الشعور بالحرمان الصرف ومن ثم غير المحسوس الذي هو الموت، بل الشعور بالحرمان الحاسم من الشعور، لذلك فهو ألم، بفضل هذا التناقض بالذات. الفرح هو الوعي بكينونة واحدنا الخاصّة بوصفها مجتمعية، ككينونة ـ في ـ شراكة؛ الفرح هو الوعي بالكينونة بالموجب، ولهذا السبب تماماً، فالفرح في ذاته كينونة صرفة. الألم هو الوعي بالكينونة المنفصلة، المتميزة، المنفردة؛ لذلك، فالألم هو وعي النهائية، الحدود، وفي هذه، فهو السلب

ذاته. وهكذا فالحب، كمصدر وأرضية لكلّ من الألم والفرح، هو المصدر والأرضية لكلّ من الكينونة واللا ـ كينونة. لا تغضب، أيها النبي العظيم، يا إسكافي غويرليتس المفكّر، الواضح ـ الرؤيا، حين أضيف أفكارك الرفيعة والخالدة بشأن الحب.[1]

«ما هو الحب في قوته وفضيلته وفي عليائه وعظمته؟ فضيلته هي اللا ـ شيء، وقوته تتواجد من خلال كل شيء. علياؤه هي بعلو اللّه، وعظمته أعظم من اللّه. وكلّ من يجده يجد لا شيء وكلّ شيء».

«عزيزي المعلّم، أخبرني كيف بإمكاني أن أفهم هذا؟»

«أنت تفهم معنى `فضيلته هي اللا ـ شيء` حين تتحوّل عن جميع المخلوقات، وتصبح جميع الطبيعة والمخلوقات لا ـ شيء بالنسبة لك. عند هذه النقطة، أنت تتواجد في الواحد الأبدي الذي هو اللّه نفسه، وأنت تختبر الفضيلة العليا للحب. لكنك تختبر `قوته الموجودة من خلال كلّ شيء` في نفسك وجسدك. وهكذا فسوف يتم إشعال هذا الحب الكبير فيك، وهكذا حتى يحرق أقوى من أية نار، وترى كيف انسكب الحب في جميع أعمال اللّه فهو الأرضيّة الأعمق والأبعد في كل شيء، داخلياً في القوة وخارجياً في الشكل. علاوة على ذلك، أنت تفهم في ذاتك `علياؤه هي بعلو اللّه` لأن الحب يقودك إلى نفسك بعلو اللّه نفسه.[2] لكن من الصحيح أيضاً أن يقال `وعظمته أعظم من اللّه`، لأن الحب يذهب حتى إلى حيث اللّه لا يقطن. وعندما وقف عزيزنا ربنا المسيح في الجحيم، لم يكن الجحيم هو اللّه، بل كان الحب هناك فهزم الموت. وحين تكونون خائفين، اللّه ليس الخوف، لكن حبه يكون هناك ويقودكم خارج الخوف وإلى نفسه. عندما

(1) يشير فويرباخ هنا إلى ياكوب بوبمه (1575 ـ 1624)، الثيوصوفي، السّراني، والرؤيوي الذي تركت أعماله أثراً عميقاً على الحركة الرومنطيقية الألمانية وعلى الفلسفة المثالية. الشاهد الذي يعقب إنما هو من *Sämtliche Schriften*، ed. August Faust في ،(Christosophia، *oder der weg zu Christo* (1624 Erich Peuckert، 11 vols. (1730; facsimile reprint ed.، Stuttgart: Friedrich ـ and Will ..152 ـ IV، 151 ،(1961 ـ Frommann Verlag، 1955

(2) يحذف فويرباخ العبارة التالية من هذه الجملة: «كما يمكنك أن ترى في بشريّة ربّنا الغالي المسيح، الذي قادكم حبّه إلى العرش الأعلى، داخل سلطة الألوهة» (السابق، ص 151).

يخفي اللّه نفسه فيكم، فالحب يكون هناك، ويظهره فيكم. ومن الصحيح أيضاً أن يقال `يجد لا شيء وكلّ شيء`، لأنّ من يحب يجد اللاأرضية ما فوق الطبيعية، ما فوق الحسّية التي تقطن في اللامكان، ويجد اللاشيء الذي يشبه الحب. لذلك فالحب غير قابل للمقارنة بالكامل، لأنه أعمق من أي شيء. إنه كلّ الأشياء بوصفه لا شيء، لأنه غير قابل للتخيّل. وفي حقيقة عدميته، يكون حرّاً من كلّ الأشياء وهو الخير الوحيد الذي يستحيل تعريفه. وأخيراً، من الصحيح أن يقال، `يجد كلّ شيء من يجده`. لقد كان بداية كل شيء وهو يحكم الجميع. فحين تجد الحب، أنت تدخل في الأرضية التي خرجت منها كلّ الأشياء والتي تتواجد فيها. أنت، في الحب، مَلِك على كل أعمال اللّه».

يمكننا أيضاً إرجاع التحديدات المتعارضة للفرح والألم والكينونة واللا كينونة المتحدة في الحب إلى التحديدات المتعارضة للوحدة والتمايز. فالحبّ يوحّد بقدر ما يميّز تماماً. لكنه لا يميز وفقاً للنموذج الزائف لفلاسفة الفهم أولئك الذين يجدون تمايزاً فقط في غياب الوحدة ووحدة فقط في غياب التميز، نقصه، وعيبه، لكن الحب يوحد في التمييز ويميز في التوحيد. فالتمييز إلى ذات وموضوع (على سبيل المثال، في البشر) لا ينشأ إلا في الحب، فالحب هو الوعي ـ الذاتي الأولي والأكثر أصالة في الإنسان. وطالما أن الطفل يرغب بالأم فقط من أجل الإطعام، فنفسه لا تزال فقط هذه الرغبة بالإطعام، وهي ليست بعد موضوعاً للطفل. فقط عندما يوقظ الحب، فقط حين تصبح الأم نفسها موضوع الاهتمام ومن ثم موضوع الحب، فقط عندئذٍ ينشأ التمييز بين الذات والموضوع. لكن هذا التمييز هو في الوقت ذاته التوحيد بين المحب والحبيب. الحب، بوصفه اسم عين بالمطلق، كما هو اللّه، هو أرضية، بداية، مبدأ الحياة والكينونة، وأرضيّة، بداية، مبدأ الموت واللا ـ كينونة. وبقدر ما هو تمايز، يكون أرضية للوجود. لكن بقدر ما يكون وحدة وتوحيداً، يكون أرضية للا ـ كينونة (أي، لا ـ كينونة المحدّد، المعيّن، والمتناهي ـ مع أن كلاً من الحياة والموت، كون الوحدة والتمايز على حدّ سواء هما واحد في الحب، يمتلك كأرضية ومبدأ

له التحديدين كليهما معاً، وكلّ تحديد يمكن تصوّره لأجل ذاته على أنه الأرضية لكلّ من الحياة والموت، لكل من الكينونة واللا ـ كينونة).

أنت تقول، في استعاراتك الغامضة ولغتك المزخرفة، «خلق اللّه العالم من الحب». ما المعنى الذي تمتلكه هذه الصورة غير أن الوجود يرتكز على حقيقة أن اللّه يميز نفسه عن نفسه، أن أساس الوجود هو تمايز عن اللّه؟ أو هل يمكنك تمثيل الحب دون تمييز؟ وهل أن الاقتراح القائل «خلق اللّه العالم من الحب» له أي معنى آخر غير أن اللّه خلق العالم من تمايزه ـ الذاتي الخاص؟ لكن الآن، هل يمكنك أن تفصل أساس اللا ـ كينونة عن التمايز عن اللّه؟ أليس التمايز عن اللامتناهي هو الأرضية لكل ذلك الذي هو متناه، لكل حدّ ونفي؟ أليس نفي أي شيء آخر غير الغياب، لا ـ كينونة؟ لذلك، أليس الحب، أرضيّة كلّ من الوجود واللا ـ كينونة على حدّ سواء، كل من الحياة والموت على حدّ سواء، يقوم على التمايز؟ حين تعترف أنّ اللّه هو مرجعية أو أرضية وجودك، عليك من ثم أن تعترف أيضاً أنه أساس لا ـ كينونتك. وحين لا تعترف به كأرضية لموتك ولا ـ كينونتك، لكنك تعترف فقط بخطيئة آدم، أو النظام الطبيعي والضرورة الطبيعية العمياء، فأنت تصبح عندئذٍ نصف ملحد نصف مؤمن بوجود إله. وبقدر ما أنت تتواجد، بقدر ما تعتقد بإله، لكن بقدر ما لا تتواجد، بقدر ما تكون ملحداً. لكن الآن، حين تكون كينونة بالقدر تماماً الذي أنت فيه لا ـ كينونة، توكيداً بالقدر تماماً الذي أنت فيه نفي (لأنه كما تنفي النفي فيك، كذلك تسلّم ذاتك؛ فأنت تكون ما أنت عليه فقط ضمن التمايز عن اللامتناهي، ضمن النفي والتحديد)، لذلك فأنت ملحد بالقدر تماماً الذي أنت فيه مؤمن بإله حين تفترض أنها متخارجة عن اللّه أرضية ومبدأ الموت، نهايتك، حدك، النفي الذي هو لا ـ كينونة بشكل عام. يقول أحد الحكماء القدماء، «كل الأشياء المتناهية تتشكّل من شيء ولا شيء، كينونة ولا ـ كينونة، تأكيد ونفي. فاتحاد الكينونة باللا ـ كينونة ينتج حقيقة ثالثة التي هي ليست كينونة محضة، لكنها أيضاً ليست لا ـ كينونة. الإنسان ليس لا شيء، لكنه أيضاً ليس كينونة محضة؛ إنه هذه الكينونة المتميزة أو شيء ما. لكنه شيء ما لأنه *ليس* كل

الكينونة. وهكذا فاللا ـ كينونة لا تمتلك تأثيراً أقل من الكينونة في تشكيله كشيء ما. الكينونة في ذاتها لا متناهية ولا يمكن قياسها، كما هو الحال في اللّه، الذي فيه توجد كينونة محضة. لكن التحديد والمحدودية يأتيان من اللا ـ كينونة. وإذا لم يشترك الإنسان باللاشيء، فقد كان سيبدو كل الكينونة، ومن ثم، كامل القوة، كامل المعرفة، وكامل الإرادة. لكن شكل وجوده يوحي بأنه لا يستطيع أن ينجز الكثير، ولا يعرف بكمية لا متناهية، ولا يحب إلى اللانهاية. وهكذا فهو يتكون من القدرة والعجز، من المعرفة واللامعرفة، من الإرادة واللا ـ إرادة. لكن العجز، اللامعرفة، واللا ـ إرادة هم اللا ـ كينونة».

اللّه... والإنسان!

أنت تظهر افتخاراً هائل الحجم في الحقيقة القائلة إنك لست اللّه، وإنك كينونة بعينها متمايزة عن اللّه. الآن إذن، كن أيضاً جيّداً لتعترف بالموت، ليس فقط كنهاية حقيقية وصحيحة لوجودك، بل أيضاً كبداية وأرضية حقيقيتين وصحيحتين لوجودك. لأن وجودك ممكن فقط مع شرط الموت. وعلى الرغم من أن الموت يظهر متأخراً، يكون فقط نهاية حياتك، ففي الواقع المحسوس، يبدو فقط أنه يعقب الحياة، يظل الموت ليس حقيقة أبوستريورية، بل حقيقة أبريورية. فالموت هو الشرط المفترض مسبقاً والمتقدّم على وجودك. وحالما تغادر من الوجود في الموت، تدخل وجوداً كذلك فقط في الموت. أليست نهاية شيء هي دائماً بداية حقيقية؟ أليست النهاية المحسوسة هي فقط مظهر لبداية حقيقية؟ ألست تحصل على تصوّر لشيء ما فقط عند نهايته؟ ألا تدرك جوهره فقط عندما يتوقف؟ أليست البذرة البشرية هي البداية الحقيقية للإنسان، أو بالأحرى، أليست نهاية البذرة، الإنسان، هي المبدأ والبداية الحقيقيان للبذرة؟ البذرة ممكنة فقط في ظل شرط لا ـ كينونتها، أي، فقط في ظل شرط أن لا تبقى بذرة بل تصبح شيئاً مختلفاً. أليست حتى الحقائق المكانية في مكانيتها تقدّم هذه الحقيقة؟ أليس رأس السكين هو أيضاً بدايتها؟ عندما تقر بالنهاية على أنها بداية أيضاً ولا تعود تفصل الموت عن

الوجود، سيكون عليك عندئذٍ أن تواجه سؤال كيف يمكن للامتناهي أن يكون أرضية للمتناهي؛ كيف يمكن لذلك الذي هو مشروط، معيّن، محدّد أن يخرج من الكينونة المطلقة، التي هي حب مطلق والوحدة الجوهرية لكلّ الكينونة؟ ليس هنالك معضلة أكثر استعصاء. لكن حين تفصل زوال المتناهي عن نشوئه، حين تفصل النهاية عن البداية، حين تفصل لا ـ كينونة الواقع عن كينونته، حين تسبغ على المتناهي وجوداً لا يمكن قهره، محض ومطلق مثل وجود اللامتناهي ذاته، فأنت عندئذٍ عن سابق ترصد وعمد *تجعل* هذا السؤال بلا جواب، لأنك من ثم تجعل من المتناهي لا ـ متناه. بالنسبة لك، فإن كينونة المتناهي ليست مفترضة، ليست تلك التي كانت قد بدأت، لا تنتهي وتزول في بدايتها، لكنها متأصلة، حتمية وموثوق بها دون قيد أو شرط، غير قابلة للتحرك، وغير قابلة للتغيير. وبهذا التأكيد، فإن الأجوبة على الأسئلة المتعلّقة بكيف يمكن لكينونة معينة على نحو غير مشروط للمتناهي أن تكون في الوقت ذاته غير ممكن الاعتماد عليها وكيف يمكن لكينونة متأصلة للمتناهي أن تكون في الوقت ذاته ليست أولية بل مفترضة تصبح، بالفعل، أقل قابلية للتصوّر من مفهوم المطلق ذاته.

العلاقة الدياليكتيكية بين المتناهي واللامتناهي:

لكن من ثم، كيف يمكن للنشوء والزوال أن ينتجا عن اللامتناهي؟ كي نطرح ذلك على نحو أكثر دقة، كيف يمكن للنشوء والزوال أن يتأسسا في اللامتناهي؟ لأن اللامتناهي لا يمكنه أن ينشأ حتماً. وهذه المعضلة ستختفي حين تتحمّل عناء فهم العلاقة المقدّمة للتو بين الزمن والجوهر والاعتراف في الوقت نفسه أنه، قبل اللامتناهي وفيه، يكون النشوء والزوال متزامنين، أنه، قبل اللامتناهي، لا يدخل فاصل من طول محدّد من الزمن ليفصل نقطة منشأ كينونتك عن نقطة نهايتها، كما تفعل قبلك، حواسك، وتمثيلك الحسّي. وبقدر ما يكون الزمن متمايزاً عن الجوهر، وكل ما هو متتابع في الزمن هو الزمن الواحد وهو الزمن ذاته في الجوهر. لكن النشوء والزوال يكونان مرة واحدة في الزمن، بقدر ما يكون الزمن متطابقاً مع الـ«مرة واحدة» للجوهر. كل شيء، إذاً، المتعدد، المعيّن، المتناهي،

هو واحد ومرة واحدة في الجوهر؛ ومن ثم، فالجوهر ينفي الوحدة. ومتصوّراً على أنه فقط كينونة ـ في ـ واحد، الجوهر جوهر؛ لكنه متصورٌ على أنه *نفي* الكينونة ـ في ـ واحد (كما ينبغي أن يكون متصوّراً، لأنه دون نفي ليس ثمة وحدة)، تحديداً كنفي، يكون زمناً؛ فالجوهر هو الكينونة ـ في ـ واحد للكينونة والتي هي متتابعة، والتي هي النشوء والزوال مرة واحدة للسبب بالذات بأن الجوهر هو الكينونة ـ في ـ واحد للكينونة التي هي متتابعة. لأنه مع أن النشوء والزوال ضمن الوقتية منفصلان بالنسبة للحواس، ففي الزمن نفسه هما غير منفصلين. الزمن متمايز عن الجوهر مثلما يتمايز فعل النفي عن النفي. فالجوهر، حالما ينفي، هو زمن. وحالما ينفي النفي، فإنه يفترض ويخلق؛ أي، إنه يفترض المعيّن، المتناهي، المتعدّد، الذي هو واحد في الجوهر ولا متناه في هذه الوحدة؛ إنه يفترض كل شيء الذي هو واحد في الجوهر على أنه متعدد، على أنه منقسم خارجياً؛ فالنفي النافي يفترض المعيّن كمعيّن، المتناهي كمتناه. لكن افتراض المتناهي كمتناه لا يعني غير افتراض المنفي كمنف. وهكذا، فالجوهر، نفي فعل النفي، الذي يكون فيه الافتراض والإلغاء واحداً، هو الزمن. الزمن هو فقط الجوهر في العمل. وكما أن ذلك الذي يتواجد في النزعة يتواجد أيضاً في الفعل، كذلك فالفعل هو النزعة التي فيها كل ذلك الذي يتواجد مرة واحدة وعلى نحو متطابق يُقدّم بشكل متعاقب. وهكذا، نعيد ثانية، الزمن هو مجرّد تقديم للنفي كنفي. لكن النفي يُقدّم كنفي فقط عندما يكون ذلك الذي هو مرة واحدة في الجوهر، ذلك الذي هو منفي مرّة واحدة، ينفى على نحو متعاقب، ومن ثم، فقط عندما يصير ويكون تعاقباً، أي، عملية نفي في العمل. العمل يكون نفياً فقط حين ذلك الذي متطابق في الجوهر يُفترض من الوحدة وفي التمييز، فقط حين يُفترض المتناهي كمتناه، المفرد يُفترض كفرد. لكن هذا العبور إلى علاقة خارجية هو في الوقت نفسه زوال، هذا الافتراض هو في الوقت نفسه إلغاء، هذه البداية هي في الوقت نفسه نهاية؛ لذلك، الزمن هو فقط جوهر *فاعل*، الجوهر في الفعل. وحين تسأل كيف يصبح الجوهر فعلاً، فالإجابة الوحيدة هي أن الجوهر هو فعل للتو. لأن الجوهر وحدة، لكن كل وحدة

هي وحدة ذلك الذي هو متمايز، ومن ثم فالجوهر هو توحيد، فعالية وفعل. لكن الجوهر هو فعل في التماثل، فعل متماثل؛ أو هو فعل في صيغة تماثل. الزمن هو فعل منفصل، أو فعل في صيغة تمايز. الزمن ليس إلا التعبير عن الفعل اللازمني الداخلي الذي هو جوهر بذاته، وهكذا فإنه فقط التمايز الشكلاني بين الداخلي والخارجي هو ما يتواجد بين الزمن والجوهر. لكن حين تعترض بالقول، «الفعل اللا ـ زمني سخافة»، فإن رديّ الوحيد هو أن الحب، التفكير، الميل، وأفعال أخرى عديدة إنما هي سخافات، لأنها أفعال لا زمنية. وما الذي سيكونه الميل غير أنه فعل متطابق، كفعل داخلي، مع جوهره، ومن ثم فهو لا زمني، وهو أيضاً متعاقب زمنياً في علاقته مع الوجود الخارجي؟ ينشأ الفعل فقط من الفعل؛ وهكذا فكلّ فعل مرحلي يفترض مسبقاً فعلاً لا ـ زمنياً. أليس الميل فعلاً؟ أليست الكينونة المتعاقبة للفعل الخارجي كتواقت بسيط، ومن ثم، أليست فعلاً بلا زمن؟

اللّه... اللامتناهي:

بوصفه اللامتناهي، اللّه ذاته، هو أرضية المتناهي ومن ثم فهو أرضية الوجود واللا ـ كينونة ـ لأن المتناهي هو كينونة بحدود، بنفي، ومن ثم، بلا ـ كينونة ـ وكاللّه نفسه، الذي يتضمن نفياً عمومياً (بما في ذلك نفيك أنت) في فعاليته التأكيدية، اللامتناهية بالمطلق، هو الأرضية النهائية والأولية لموتك، يجب أن تعترف، لاحقاً، في كل الأرضيّات التوكيدية والتحديدات الجوهرية لوجودك، بالأرضيات والتحديدات للا ـ كينونتك. وحده الذي هو أرضية ومبدأ حياتك هو أيضاً أرضية ومبدأ مماتك. وحيث أن الجوهر الذي هو كلّ جوهر يتضمّن نفيك إضافة إلى توكيدك، كذلك فإن أي شيء جوهري يتضمّن في ذاته توكيدك ونفيك. أولاً، المكان والزمان هما توكيدان لكينونتك لكنهما أيضاً نفيان لكينونتك. أنت *تتواجد* فقط في المكان والزمان؛ أنت تبدأ بهما، لكنك تنتهي بهما أيضاً؛ إنهما حدّان لكينونتك. وكفرد، لا يمكنك أن توجد خارج الزمان والمكان؛ لذلك، أنت تتواجد فقط في هذه الحياة الزمانية المكانية. لأنك، ثانياً، ككينونة تتواجد في المكان والزمان، أنت كينونة والتي هي محدّدة بالمكان والزمان، أو كينونة زمانية ومكانية محدّدة؛ وفي هذه الوحدة للزمنية

لمكانية، أنت تتلقى نفساً وتكون جسداً مادياً ـ بكلمات أخرى، فرد حي. الجـ
لنفس يشكّلان متحدين حياتك؛ فكينونتك هي فقط كينونة حية. لكن، أيضاً، أن
وت فقط لأنك تعيش؛ فتوكيدك هو أيضاً نفيك. ثالثاً، ليس فقط لأنك موج
كانياً وزمنياً ومع حياة، بل أنت أيضاً إنسان، كينونة واعية، وروحية. الروح والو
ما كينونة كينونتك، هما كل جوهر وكل كينونة، هما الجوهر والكينونة الحقيقي
ي جوهرك وكينونتك، هما التوكيدان الأعلى، النهائيان، اللامتناهيان لكينونت
نهما أيضاً النفيان الحقيقيان لكينونتك، لأنهما نفياك الروحيان، اللامرئيان، و
وق الحسيين، اللذان فيهما، من ثم، النفيات المحددة مثل الزمان، المكان، الحي
ذه الأرضيّات المحسوسة ومن ثم التابعة، المكيفة لحياتك، تُستوعب من ق
ضيتها الحقيقية. إن الأرضية اللامتناهية *على نحو غير حاسم* لموتك هي ال
لامتناهي. إن الأرضيات المعترضة بذواتها، المحددة، المتناهية لموتك، والتي ه
ن ثم أرضيات *محسوسة* وتوسطية، وليست أرضيات نهائية ومنشئة، هي الزما
مكان، الحياة. الأرضيات اللامتناهية *على نحو غير حاسم* لموتك، والتي، من ث
ست فقط لا متناهية بل هي أيضاً الأرضيات الحاسمة لمعرفتك بالموت نفس
ي العقل، الروح، والوعي. المكان والزمان ليسا غير توكيدين محسوسين، ومن
ما مجرّد نفيين محسوسين. والموت الذي يُشتق فقط من المكان، الزمان، والحي
س سوى موت مؤسس على نحو محسوس. وحدها الأرضية النهائية هي الأرض
ولية. وهكذا، فحين يؤكّد المرء أنه فقط الزمان، المكان، الحياة هي أسبا
وت، فهو يؤكد إذاً على أنها أرضيات للموت، ليس الأرضيات الحقيقية، بل مج
نج، مظاهر، أحداث توسطية. وكلّ من يبقى مع هذا النوع من الأرضيات للمو
ما هو تجريبي، مادي، من أتباع المذهب الطبيعي. وهكذا فإن سولارية[1] الاعتة
أزلية الفردية تؤكد حقها وحقيقتها في تناقض مع هذه المادية والتلورية.
ون الاعتقاد بالأزليّة الفرديّة صحيحاً وله أساسه فقط كمعارض ومناقض لها

(1) تفسير الأساطير بالإشارة إلى الشمس، أو تشخيص الشمس كبطل يحمل سمة الشمس. ـ مترجم عربي
(2) التأثير المفترض للإنبعاثات من التربة في خلق المرض. ـ مترجم عربي!

العملية من وضع الأرضية الطبيعية للموت. حين يكون الموت مجرّد واقع قائم على أرضيّة محسوسة، فهو لا يمتلك أساساً وحقيقة أكثر من كل ما هو محسوس. وهكذا، بالقدر القليل الذي تكون فيه حقيقة محسوسة صحيحة ونهائية، فبالقدر القليل ذاته يكون كذلك موتاً قائماً فقط على أرضية محسوسة صحيحاً ونهائيّاً؛ إنه ليس نهاية الحياة وخاتمتها. وكما أن المحسوس ليس خاتمة بل مجرد انتقال إلى الروحي، كذلك، أيضاً، فإنّ موت الفرد هو مجرّد مرحلة انتقالية. لأن الفرد ليس مجرد واقع محسوس؛ فهو لا يتواجد فقط في المحسوس، بل هو يتواجد أيضاً ما وراء المحسوس، في الوعي والعقل. وهكذا فالفرد مسوّغ بالفعل في وضع نفسه فوق هذا المفهوم للموت، في عدم اعتباره بأن نهايته المفهوم المادي الذي يتضمّن فقط النتيجة المحسوسة للواقع المحسوس. لكن الفرد الذي يتمسّك بأزليته، ضد المادية، وكأنها مزار مقدّس لا يختلف عن المادي بقدر ما يفترض أيضاً أن وحده حدّ محسوس، طبيعي، وحده حدّ محسوس، هو النهاية للفرد. إنه يختلف عن الماديّ فقط من خلال عدم قبوله بالحد المحسوس كحدّ حقيقي ونهائي؛ لأنه، من خلال هذا الإنكار، لا يثبّت المحسوس كحد. لكن *الحد الحقيقي* للفرد، الذي يتجاوز الحد المحسوس الذي هو الموت المحسوس، هو *العقل*، الروح، الوعي. العقل هو الحد الروحي، النهاية ما فوق المحسوسة، الموت الحقيقي للفرد. والحد لكل شيء محسوس، ومن ثم للموت ذاته بوصفه نهاية محسوسة، هو الروح. الأرضية الحقيقية، الأرضية اللامتناهية الحاسمة والمطلقة الحاسمة، هي الروح، الوعي، العقل. حيث أن النفيات الأعلى والنهائية ـ أي، الروحية ـ لكينونتك الفردية، لذاتك، لشخصيتك، روحك، وعيك، وعقلك هي شاملة، مستقلة، ومتمايزة عنك. علاوة على ذلك، فهي نفيات روحية لك حيث أن شخصيتك *أنت* متحدة آنياً مع فرديتك المحسوسة، المنفردة، العابرة. وهكذا فإن النفيات المحسوسة لك هي مجرّد نتائج ومظاهر لهذه النفيات المطلقة، الأصلية، الروحية. أنت فرد، شخص محدّد، مثل ذلك الذي أنت تعيه، مثل هذا الفرد المحدّد الذي هو موضوع لوعيك، لكن ليس *ك*ـواع، كمفكّر محدّد، أنت فرد، شخص محدّد، لكن ليس *ك*ـمفكر. كواع

وكمفكّر، أنت قد تمّ تدميرك *بشكل روحي*، قد تم امتصاصك في الروح. أنت واعٍ لذاتك فقط في وعي الروح لذاتها. فقط في نور الروح الصافي والشامل يمكنك، أيها الفرد المحدّد، أن ترى نفسك وتعرفها. والإدراك الخارجي لهذا النفي الروحي هو الموت.

II الزمان، المكان، الحياة

الله وحده هو الأزلي وهو الطبيعة والجوهر الشاملان للأشياء والجواهر المعينة التي هي مؤسّسة، متضمنة، ومحتواة فيه. لأنه بحسب تعاليم الحكماء الأتقياء، الموحى لهم من الله، الله يحتوي في جوهره كل الأشياء والجواهر بطريقة بسيطة، شاملة، لا متناهية؛ أو، بالأحرى، هو ذاته كلّ الجواهر في الأشياء كما هي موجودة في جوهرها وحقيقتها. وكما هو مؤكّد وحقيقي أن الجوهر اللامتناهي، الروح غير المحدودة، موجود منذ الأزل، كذلك فمن المؤكّد والصحيح أنّ ذلك الذي هو مقدرٌ أو محدّدٌ في المحتوى أو الجوهر إنما هو مقدّر ومحدّد أيضاً في وجوده، وأنه، من ثم، فالشخص المقدّر يتواجد فقط لزمن مقدّر. وحين تدرك أنك جوهر محدّد وليس الجوهر ذاته، أنك شخص *واحد* وليس *الـ*شخص ذاته، يجب أن تدرك من ثم أيضاً أنك موجود الآن، لكن ليس إلى الأبد. أنت تقول، «أنا، كواعٍ لذاتي، كفرد متمايز عن الآخرين، أزلي؛ أنا، هذا الفرد، سأكون أزليّاً». لكنك بهذا لا تعني أن تقول إن الشامل، الإنسان في هذا الإنسان المعيّن، الجوهر في جوهرك، الشخص في شخصك، هو الأزلي ـ لأن الشامل بالنسبة لك تجريد ميت، حيث أنك وحدك ذلك الذي هو حي وحقيقي بالنسبة لك ـ لكنك تقول وتعني أنه أنت نفسك، هذا الشخص المقدّر كليّاً، هذه الذات المعينة بالكامل، هم أزليون. لكنك أنت، هذه الذات المعينة، تكون ما تكون أنت عليه فقط كذات معينة، كمجموع لكل صفاتك، أنماطك، وخصوصياتك المحدّدة والمقرّرة. التقريرية والخصوصية تميزان. وأن تكون ذاتاً خاصة يعني أيضاً أنك ذات متمايزة عن الآخرين. وهكذا لا يمكنك فصل وتمييز ذاتك كذات نوعية عن هذا، تمايزك والفرق الخاص بك. هذه التقريرية،

هذه التمايزية، هي حدّ كينونتك، والذي لا يمكن إلغاؤه دون أن تتوقف أنت ذاتك عن التواجد، بالقدر القليل ذاته حيث كان بإمكانك حرمان طائر معين، على سبيل المثال، الغراب، من تحديدات اللون والشكل، وهلم جرا، وهي التحديدية التي يكون من خلالها ما يكون عليه، والتي تميزه عن غيره من الطيور، دون حرمانه من وجوده. لكن كل التقريرية، الانفصالية، والتميزية التي تقوم فقط على هذا الوجود الفعلي، المقرّر، إنما هي ممكنة وفعلية فقط في هذه الحياة الفعلية. أنت هذا الإنسان فقط في هذه الحياة. وهكذا، حين تتوقف هذه الحياة، فأنت تتوقف عن أن تكون هذا الإنسان؛ لأنه وحدك، هذا الإنسان في هذه الحياة، تعتبر نفسك أزلياً.

الكينونة والزمن:

التعبير الأكثر تحديدية لتقريريتك هو الوقتية. فأن تكون شخصاً مقرّراً، أن تكون كينونتك كينونة مقرّرة، فذلك يجد أكثر تعابيره تحديدية في الحقيقة القائلة إن كينونتك وقتية، إنها حاضرة الآن لكنها أيضاً زائلة. والواقع أن كينونتك ليست فقط وقتية، بل هي مقررة وقتياً على نحو كلّي أيضاً، كينونة لحظية، كينونة منقسمة على نحو كلّي إلى لحظات. أنت تتواجد فقط طالما يمكنك أن تقول، «الآن، في هذه اللحظة المقرّرة، أنا موجود». أنت موجود دائماً الآن فقط، في هذه اللحظة؛ وكشخص، يتم تضمين وجودك في هذه اللحظة على نحو كلّي. نقطة واحدة في الزمن، لحظة واحدة، إنما هي كبيرة بما فيه الكفاية لأن تحتوي داخلها كينونتك الفردية غير المنقسمة بالكامل. الزمن جزء لا يتجزأ منك كشخص مقرّر؛ وحين تنفذ اللحظات، لا تعود أنت موجوداً. ولعل حتى من الممكن أن أنت، ككينونة معينة، لست أكثر من لحظة من الكينونة اللامتناهية.

أنت فردٌ فقط طالما أنت تختبر. فالفرد يمتلك يقين وجوده فقط في الخبرة؛ الخبرة هي التوكيد لكينونته الفرديّة، الضمان لها، الموافقة عليها، والمصداقية لها. الوعي هو كينونة الكينونة؛ إنه وحده الحتمية التي يمكن الاعتماد عليها بالمطلق، التي هي غير مشروطة ـ بكلمات أخرى، الكينونة الفعليّة، الإيجابية. لكن التجربة

ليست سوى الوعي الذاتي الذي هو فردي، الذي هو متطابق مع الفرد. وهكذا فالفرد هو بحد ذاته مجرّد تجربة. التجربة ليست ضمانة والتي هي منفصلة عن كينونة الفرد أو مترافقة معها، بل هي الكينونة للفرد. فأنا أمتلك وجوداً فقط في التجربة. وهكذا فالتجربة هي التقريرية المطلقة، التعبير المحدّد بالمطلق، للفردية. إن للفرضية القائلة «أنا فرد مُقرّر، كينونة زمنية، مفردة» تعبير ومعنى محدّدين فقط في الفرضية القائلة «أنا كينونة تعيش اختبارات». لكن الزمن جزء لا يتجزأ من التجربة؛ فحيثما لا يوجد «الآن»، ليس ثمة تجربة. أنا أجرّب فقط بحكم واقعة أني أختبر في هذه الآن المختفية، في هذه اللحظة العابرة. توجد التجربة فقط كلحظة؛ إنها خاصية أساسية للتجربة التي هي *الآن*. اللحظة هي الشكل الجوهري للتجربة؛ وحد التجربة، ذلك الذي ضمنه تكون ما تكون عليه والذي لا يمكن تجاوزه، هو اللحظة، هو الفترة المحددة من الزمن. علاوة على ذلك، فالزمن ذاته يصبح زمناً محدداً، يصبح لحظة، فقط في التجربة. وكما أن الزمن يتواجد فقط في اللحظة، فاللحظة تتواجد فقط في التجربة. وكما تستبعد «الآن» المفردة، كما تصدّ ذلك الذي هو قبل وبعد، كذلك فالتجربة تستبعد؛ إنها الكينونة ـ المفردة للمفرد، للكينونة ـ لأجل ـ ذاتها. لكن الفرد هو كينونة محدّدة، منفصلة، متمايزة على نحو كلّي. وهكذا فالتجربة هي الكينونة التي هي منقطعة، التي هي منقسمة عبر تحديدات مفردة؛ إنها ليست كينونة صرفة، متطابقة ذاتياً، لكنها زمن، كينونة ـ في ـ تعاقب. تحدث الخبرات فقط في تعاقب لأن التجربة، ككينونة ـ الآن محدّدة، مستثنية، هي الكينونة الكليّة للفرد. وعادة ما يمثّل الناس دواميتهم الوقتية كخط غير منقطع، انسيابي. لكن يمكن للمرء أيضاً أن يمثّل اللحظة المستثنية كشيء محدّد ومغلق، بقدر ما تأخذ اللؤلؤة، قطرة الماء، شكلاً كروياً حين تنفصل عن الانسياب المستمر للماء. أنا أختبر فقط لأني أفصل لؤلؤة اللحظة، إذا صح القول، عن التدفق غير المنقطع والمتطابق ـ ذاتياً للزمن وأحيط كينونتي ضمن مجالها الضيق. أنا أشعر فقط بذلك الذي هو محدّد، لكن أنا، الفرد الكلّي، كينونتي بمجملها، محتوى في هذا الشعور المحدّد، لأن كل شعور هو في

الوقت ذاته شعور بذاتي، إنه كينونتي الكليّة في تحديد أوحد معيّن. لكني أشعر فقط لأن كينونتي بمجملها مركّزة، إذا جاز القول، مدفوعة ومضغوطة في نقطة زمن مفردة، فقط لأن كينونتي بمجملها موحدة في «أنا» واحدة وحاضرة في هذا التركيز. وكما يشتعل نور الشمس حين يركّز ويُضغط، كذلك فإنّ نار التجربة تُشعل فقط من خلال ضغط كينونتي بمجملها ضمن نقطة محورية للحظة.

وعي الزوالية:

وهكذا فالزوالية هي جوهر كل شعور. ويظهر جوهر التجربة على نحو أكثر وضوحاً وتمايزاً في المتعة الحسيّة. لماذا لا توجد متعة دائمة؟ لأن متعة متواصلة، غير منقطعة لم تعد لتكون تجربة ومتعة؛ فالمتعة تكون متعة فقط لأنها تزول. المساواة، التناسبية، التواصليّة، الهوية هي الأشكال الأساسية للشمولية، للتفكير، لكن ليس للشعور. تتواجد التجربة فقط مع انقطاعات، نطاقات زمنية، عهود؛ إنها تختفي في ذلك الذي هو متماثل ـ ذاتياً. ومن أجل معرفة شيء ما على المرء أن يفهمه حيث يبرز إلى حيز الوجود على نحو هو الأكثر تحديدية، حسمية، وتميزاً. وهكذا يمكنك أن تدرك طبيعة التجربة فقط حيثما تعبّر عن شخصيتها. لكن شخصية التجربة موجودة بشكل واضح في الرغبة والمتعة الحسيتين. الفرد هو فقط كينونة ـ لأجل ـ ذاتها، انفصال تام، حد، تمايز، هو كينونة سلبية تماماً. وبعبارة أخرى، فإن الفرد، الكينونة ـ لأجل ـ ذاتها المستبعِدة، هو نفي الآخر، لذلك الذي يتميز عنه. وهكذا فالتجربة، كرغبة وسرور، ليست سوى زوال الموضوع؛ إنها تنطفئ جنباً إلى جنب مع موضوعها، مثل النار مع وقودها؛ لذلك فهي تتواجد فقط *حالما* تزول. لكن الفرد يجرّب في الزمن فقط. فالمفرد يزول في الزمن؛ فالزمن هو نفي لذلك الذي هو مفرد. الفرد، المفرد، هو فقط نفي المفرد، هو فقط نفي الموضوع المفرد لتجربته، ضمن نفي شامل لكل ما هو مفرد ضمن الزمن. وهكذا فالزمن هو الأرضية، المبدأ، الإمكانية لكل التجريبية. لا توجد تجربة خارج الزمن. فوحده موضوع والذي يتواجد في الزمن يمكن له أن يزول في ذات ولأجل ذات، ويمكنه أن يزول في التجربة، فيك، فقط لأنه يزول في الزمن. الزمن والوقتية

متحدان بشعورك المرهف بالتجربة؛ وبمعيار معين، الزمن هو *مقدرتك* بالذات على التجريب. وحيث لا يكون هناك زمن، لا يكون هناك فرد؛ وحيث لا يكون هناك فرد، لا يكون هناك تجربة، والعكس بالعكس.

وهكذا، عندما تعزو وجوداً وتجربة فرديين، وواقعياً، نعيماً أبدياً، فرحاً أبدياً، إلى الفرد في الآخرة الزرقاء الداكنة، التي هي مجرّدة من كلّ زمن، فأنت فقط تلاحق الخيال الذي يجعل ممكناً كلّ ما هو مستحيل في الجوهر، الحقيقة، والمفهوم. لكنك لا تلاحق الحقيقة. فالنعيم الأبدي، الفرح الأبدي، يتواجدان فقط حين لا يعود وجود للفرد، فقط عندما يتوقف الفرد عن أن يكون فرداً؛ وهكذا، فالنعيم الأبدي يوجد في الروح، التي تمتلك وجوداً وحقيقة صحيحين، متطابقين ذاتياً، ليس في الفرد أو كفرد، بل فقط في الوجود والحقيقة اللذين هما متطابقان مع جوهره ـ أي، في التفكير والمعرفة. الزمن يختفي في التفكير؛ الزمن يمتلك وجوداً بالنسبة للإنسان فقط في التجربة، في حين أنه كون التفكير يتواجد فوق وما وراء التجربة، فالتفكير يتواجد فوق وما وراء الزمن. الزمن يتواجد في التجربة؛ فجوهر تجربة ما هو الزمن نفسه. لكن الزمن لا يتواجد في التفكير؛ الزمن ليس سوى سمة للتفكير. وحين تؤكّد أنه بالنسبة لك الأفكار تنشأ بالتتابع، أنك تأخذ علماً بها واحدة بعد الأخرى، أنك على بينة من فكرة واحدة، التي هي نتيجة لأخرى، حيث سترد في وقت لاحق، وهكذا دواليك، فإنك تؤكّد فقط على سمة للفكر وتعتبر سمة الفكر بأنها جوهره. لأن حقيقة أن أفكارك تدخل في وعيك فقط بشكل متسلسل لا ترتكز على التفكير، بل ترتكز على وجه الدقة على تمايزك عن التفكير، لأنك تفكّر في تمايز عن ذاتك كشخص وكفرد. أنت متحد مع التفكير، ليس كفرد وفي كينونتك الفرديّة، ممتلكاتك، وما شابه ذلك، بل فقط في التفكير ذاته. ولو كان التفكير متحداً بفرديتك، لكان سيبدو تجربة فحسب. الزمن يتواجد فقط على الحد بينك وبين التفكير. فالتفكير هو نشاط والذي يتواجد في وطنه مع ذاته في المبدأ، البداية، وفي النهاية، النتيجة على حدّ سواء، والذي يبقى في وحدة غير منقطعة مع نفسه بانفصال وتمايز؛ لذا، التفكير هو نشاط بلا زمن. وذلك الذي هو، في

التجربة تعاقب، الكينونة ـ في ـ متتالية، في التفكير هو تطوّر، تحديد، إعادة تحديد نوعية، لكنه ليس تسلسلاً كمياً وزمنياً منفصلاً ضمن لحظات. أو هل أنّ «الآن» هي تحديد جوهري داخلي للفكر وكذلك للتجربة؟ فقط ذلك الذي يتواجد فيه الزمن، ذلك الذي الزمن هو تحديده الداخلي، يتواجد في الزمن. لكن من ثم، هل أنّ هذه الفكرة منفصلة فعلياً في الزمن عن الأفكار الأخرى، مثلما أن هذه التجربة الحاضرة منفصلة عن التجارب السابقة وعن تلك التي ستتلو؟ هل ثمة حاضر وماض في الأفكار وكذلك في التجارب؟ التجربة تزول؛ فهل تختفي الأفكار أيضاً وتزول بحيث أن الفكرة التالية لا تظهر إلا لأن الأولى لم تعد موجودة؟ هل الأفكار تستبعد إحداهما الأخرى؟[1] ورداً على ذلك، يجب أن أسألك ما إذا كنت في التفكير، تتناول الطعام والشراب. حين تستخدم مثل هذه اللغة الزمنية المتعلقة التفكير، هل أنت على صلة بموضوع التفكير بالطريقة ذاتها التي تكون فيها على صلة بالطعام أثناء أكلك؟ هل الأفكار تجارب؟ هل الأفكار، فقط كتجارب، هي توكيدات وتعزيزات لكينونة ـ من ـ أجل ـ الذات منفصلة خاصة بك؟ وهكذا فحين تأخذ التفكير على أنه تجربة، فأنت تأخذ السمة التي يخلقها الفرد للتفكير ذاته، حين لا تعترف بأن التفكير نشاط والذي هو حرّ من الزمن. وكما سبق ذكره، ففي التجربة تؤكّد الذات المفردة ذاتها فقط بوصفها مفردة ومن ثم تمتلك فقط موضوعات مفردة. لكن الموضوعات المفردة يمكن أن تكون حاضرة فقط كموضوعات مفردة، كموضوعات يستبعد أحدها الآخر على نحو تبادلي، ومن ثم فقط متعاقبة. ليس التفكير نشاطاً ممدوداً، بل هو نشاط الذي فيه النقطة المحورية في كل مكان؛ التفكير هو متوسط، لكنه ليس لأطراف قصوى. التفكير هو متوسط صرف بالمطلق، حاضر لا متناه، دون بداية أو نهاية، والذي هو ليس انفصالاً وتسلسلاً بل تمايز، تطوّر، وتشكيل نحو الداخل ضمن الجوهر الذي هو الأساس للوحدة ـ الذاتية.

---

(1) ملاحظة للمحرّر الألماني: حين يتحدّث المؤلّف عن التفكير، فهو لا يعني التفكير الحيواني، ذلك التفكير الذي هو الذي هو ملائم أيضاً للحيوانات، والذي يبقى على سوته البشر غالباً؛ وهكذا، فهو لا يعني تمثيلاً حسيّاً، تدخل فيه الصور وتخرج، لكنه التفكير الذي هو فعالية للعقل، الذي يجعل موضوعاً له الحقيقة، الأزلي.

لكن الشخص المحدّد، الفرد، يجب أن لا يكون فقط كينونة زمنية، كينونة غير قابلة للانفصال عن الزمن، بل كينونة مكانية أيضاً. وهكذا، حين تفترض وجود حياة بعد الموت والتي ستكون فيها الشخص نفسه الذي كنته ذات مرة هنا، التي سوف تكون فيها الكينونة الشخصية نفسها، الذات نفسها، التي تكونها في هذه الحياة الدنيا، مهما أمكنك من ثم محاولة إزالة كل التمثيلات المحسوسة عنها، وبقدر ما أمكنك تخيل نفسك على أنك تمتلك فهماً روحياً لها، يظل متوجباً عليك وضع هذه الحياة بعد الموت في مكان ما. وحين لا تكون هذه أحد أوهامك، حين تكون حياة كهذه موجودة فعلياً، لا بدّ عندئذٍ أن تكون في مكان ما. كفرد، أنت كينونة منفصلة عن الآخرين؛ فالفصل ينتمي أساساً إلى الفردية الخاصة بك. فالأفراد يجب أن يكونوا متخارجين مكانياً الواحد بالنسبة للآخر ومن ثم يجب أن يتواجدوا مكانياً. التفكير، العقل، الوعي ليسوا مكانيين، لكن هؤلاء ليسوا أفراداً؛ فاللامكانية تستثني الفردية. لكنها خاصية أساسية للفرد بأن يتواجد على نحو منفصل. مع ذلك، فالتواجد على نحو منفصل هو ذاته التواجد مكانياً. لكن تمايز الأفراد أحدهم عن الآخر ليس تمايزاً في الجوهر، بل تمايز والذي هو يتناسب فقط مع الوجود المحسوس. فذلك الذي هو المفهوم، الفكر، لا يميز، الجوهر لا يميز؛ لكن وحدها الحواس تميز الأفراد. التفاحات العديدة على هذه الشجرة لا تتميز بالتصوّر ولأجل التصوّر، بل فقط للحواس، لأنها غير متمايزة في الجوهر. لكن ذلك الذي هو غير متمايز في الجوهر والمفهوم إنما يتمايز فقط في الوجود المحسوس ولأجل الوجود المحسوس. (على نحو أكثر صحة، التفاحات العديدة منفصلة، لأن التمايز مرتبط بالجوهر والمفهوم، في حين يرتبط الفصل بالوجود والحواس). لكن البشر متمايزون أحدهم عن الآخر ليس أكثر من تمايز التفاحات على الشجرة ذاتها الواحدة عن الأخرى. وهكذا المكان والزمان شكلان حتميان، ضروريان تماماً لكلّ فردية. أنت تكون فرداً فقط في وجود محسوس، فقط عندما تتواجد زمنياً ومكانياً. فبقدر ما أنت محسوس، بقدر ما أنت فرد. وذلك الذي يتجاوز الحواس هو من الروح.

الزمكانية:

على الرغم من أن كلاً من المكان والزمان يحتويان تحديدي الإثبات والنفي، يمكن للمرء أن يعزو تحديد النفي أساساً للزمان وتحديد الإثبات أساساً للمكان. المكان هو وجود محسوس، الشكل الخارجي للحبّ الإلهي بوصفه نوراً، بوصفه جذّاباً ـ لكل ـ شيء ومعطٍ ـ لكلّ ـ شيء. الزمان هو الصيغة المحسوسة للحبّ الإلهي بوصفه النار التي تأكل كلّ شيء، بوصفه النفي لكلّ ما هو متناه ومعيّن. الأفراد ليسوا غير حدود، نهايات؛ إنهم يتواجدون فقط منفصلين. وهكذا فهم لا يمكن أن يتواجدوا خارج المكان؛ فالمكان هو وجود الأفراد بالذات. وكما أنه يجب الإقرار بالزمان، ليس كعدو، بل كصديق حميم وابنة للجوهر، كذلك يجب الاعتراف بالمكان أيضاً على أنه في الجوهر ومن الجوهر. فجوهر الأفراد هو واحد وهو ذاته، وفي هذه الوحدة، هو جميع الأفراد دون تمييز أو استثناء. وهكذا يتواجد الحب والنعيم الحقيقيان، ليس في الفرد، بل في الجوهر وحده. لكن في هذا، فإنّ وفرة الجوهر، الذي يكون فيه كل شيء وله كل شيء، الكينونة ـ في ـ ذاتها للجوهر هي أيضاً خير مضف، إن صح القول، فيّاض، هي كينونة ـ متخارجة ـ من ـ ذاتها لا حدود لها، هي وجود جميع الأفراد الذين تحتويهم كوحدة. الجوهر هو من ثم مكان والذي يحتوي في ذاته جميع الأفراد (مع أنه ليس كما يتواجدون على نحو منفصل). وتماماً مثلما أنّ هذه الوحدة لجميع الأفراد، التي هي من ثم ليست كينونة ـ لأجل ـ ذاتها مستَبْعِدة، التي هي ليست وحدة متناهية (مثل وحدة الفرد)، الجوهر هو تمايز الذات في الأفراد، هو الحب، الإضفاء، والتحرير للوجود المستقل للأفراد الذي يحتويه في الوحدة. ليست وحدة الجوهر مجرّد انكماش وتركيز، لكنها أيضاً توسع غير محدود، نشوة الفرح، الحب، والوفرة. وهكذا فالمكان الحقيقي، ذلك الذي يمنح الأفراد داخل نفسه، المكان الذي يتواجدون فيه كأفراد، هو الجوهر ذاته في التحديد كينونة ـ متخارجة ـ عن ـ ذاتها الذي له. وآمل أن تكونوا على الأقل عقلانيين بما فيه الكفاية لمعرفة أن التفاحات على هذه الشجرة غير متمايزة في الجوهر. لكن كيف أن الأشياء التي تتواجد بشكل متمايز تشتق

من هذا الجوهر الواحد؛ كيف أن هنالك العديد من التفاح (حيث أن توجد يعني أن تكون كثيرة، وأن تكون كثيرة يعني أن تكون متمايزة في *الوجود*)؟ فقط لأنها ليست مجرد تحديد الكينونة ـ في ـ الذات، بل أيضاً تحديد الكينونة ـ كلّ ـ شيء، للوحدة والكليّة، لذلك، فإن تحديد الوفرة والحرية، لكن ليس البخل، تحديد الخلو من الهموم، الامتداد غير المتباخل والكينونة ـ المتخارجة ـ عن ـ الذات التي لا حدود لها، ومع هذه الأمور، تحديد الوجود الذي يخلق إمكانية الوجود، يناسب الجوهر. وهكذا فإنه محتوى هناك في الجوهر، ليس التعددية، التنوعية، الفصل، بل احتمالية هذه المسائل.

ما بعد الموت:

لذلك فالأفراد الذين يتواجدون بعد الموت، من أجل أن يتواجدوا كأفراد، يجب أن يكون لهم مكان، مكان مشترك يمكنهم التواجد فيه. لكن في هذه النقطة تنشأ بعض صعوبات والتباسات خطيرة جداً. فحياة الفرد بعد الموت تكون في مكان ما. لكن نظراً لأنه من غير المعقول أن يكون هناك نوعان من الأماكن، أو مكان خارج المكان، فهذا المكان لا يمكن فصله أو تمييزه عن المكان نفسه، لأنه من الواضح أنّ مكاناً خارج المكان هو مسألة عبثية. يجب أن يكون هذا المكان مكاناً للأفراد الزائلين، ومن ثم، يجب أن يكون مكاناً معيناً والذي هو مختلف عن مكان الأحياء. لكن كمكان واحد فهو منفصل عن مكان الأحياء، ليس بالمكانية ذاتها، بل فقط عن طريق موضعيته المحدّدة. وهكذا فإنه من المستحيل تماماً أن مكان الأفراد في الآخرة يمكن أن يكون خارج المكان الذي تتواجد فيه الطبيعة المحسوسة ونحن، الأحياء. لكننا نحن، الأحياء، هذه الأرض، هذه السماء، هذه الطبيعة، كل الوجود قبل الموت، كينونة مكانية، محسوسة؛ فالمكان ينتمي جوهرياً إلى حياتنا. المكان، إذا جاز التعبير، ملك للكينونات التي تتواجد بشكل محسوس؛ وهو ليس غير تعبير وصيغة شاملين لحياتنا الحاضرة المحسوسة. المكان متضمّن في الكينونة قبل الموت. لأن الأفراد الأزليين، ومن ثم، يتواجدون في مكان ما، فمكانهم يجب أن

يحتوى في مكان ما، والحياة بعد الموت يجب أن تُدرج في الحياة ما قبل الموت. لأنه حين يتواجد هؤلاء الأفراد مكانياً بعد الموت (ولأنه يتواجد هناك بالتأكيد عقل وحقيقة، لذلك بالتأكيد يجب أن يتواجدوا مكانياً إذا أريد لهم أن يستمروا كأفراد)، ثم، أبعد من ذلك، ليس فقط يجب أن يتواجدوا زمنياً ـ لأن المكان لا يمكن أن يوجد لأجل ذاته، منفصلاً عن الزمان، والحياة الأزلية هي من ثم حياة زمنية ـ بل هم يوجدون مثقلين بكل السمات والخصائص المحسوسة التي تنتمي إلى هذه الحياة الزمنية ـ لأن المكان والزمان لا يمكن تمييزهما عن السمات الأخرى لهذه الحياة المحسوسة ـ وحياة الماوراء تصبح الحياة هنا، الحياة التي نعيشها هنا على الأرض. لكن لو أن الأفراد الأزليين كانوا فقط مكانيين، دون أية أعباء أخرى والتي يجب أن تترافق مع المكان، فالإمكانية الوحيدة المتبقية للأفراد الأزليين عندئذٍ هي أنهم أرقام من الرياضيات، أو على الأقل هم كينونات والتي هي مشابهة جداً للخطوط والمثلثات. لكن الخطوط والمثلثات مُدرجة أيضاً في هذه الحياة.

من هنا، فكونه لا بدّ من إدراج حياة الفرد بعد الموت في الحياة قبل الموت، كان منتظماً بالكامل أنه في الآونة الأخيرة، بعد أن رفض الناس التمثيلات المظلمة لعالم الأشباح والظلال، لهادس[1] وشيئول[2]، للإقامة المظلمة للموتى تحت الأرض أو فوقها، كانت النجوم مقدراً لها أن تكون أماكن سكن الراحلين. والواقع أنه حين تتجول في جميع أنحاء العالم، فسوف لن تجد مكاناً والذي هو أكثر ملاءمة لحياة الموتى من النجوم، خصوصاً كون هذا المكان السكني لديه ميزة إضافية ألا وهي وضع الحياة بعد الموت على مسافة كبيرة من الحياة قبل الموت، ولأنه على النجوم، بعكس الأماكن السكنية السابقة، لا يعود بإمكان الموتى التأثير بالأحياء أو مضايقتهم. بتقديم هذا التمثيل للنجوم كمواطن سكن للكينونات الحية، يبدأ الفرد من المبدأ الشمولي القائل إن هذه الأجرام التي لا تعد ولا تحصى إنما تتواجد عبثاً حين لا تقطنها كينونات حية، وأنه، نتيجة لذلك، إذا لم تكن مأهولة، فذلك يتناقض

(1) إله العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية، الذي أعطى اسمه لذلك العالم. ـ مترجم عربي!

(2) في التوراة، مكان مظلم يذهب إليه الأموات. ـ مترجم عربي!

مع جوهر الطبيعة، التي لا تصنع شيئاً عبثاً، ومع حكمة خالقها. «ماذا؟» أنت تصرخ برعب. «ماذا؟ العديد جداً من مثل هذه العوالم الهائلة إنما هي تتواجد عبثاً، وفقط على هذه الأرض، التي هي ضائعة مثل حبة ملح صغيرة، لا طعم لها في محيط لا يسبر غوره من هذه العوالم، فقط على هذه الأرض تكون ثمة حياة؟» وفي رعبك الحيواني والمحب للناس تنسى أن تسمح لنفسك بأن تتلقى تعليمات بشأن الأجرام العالمية البعيدة من قبل الطبيعة بالذات التي تحيط بك. فكّر بالإنسان، فمنذ زمن سحيق مصوّر كميكركوزم[1]، مرآة للكون، والتأمل بهذه الحقيقة الوحيدة سيكشف لك عن الكون بكامله. فالجسد البشري يتكون من أجزاء متمايزة باستقلالية وكثيرة على نحو لا متناه. هنالك أجزاء ضمن الأجزاء، أعضاء ضمن الأعضاء، منظومات ضمن المنظومات. ويظل الجزء الأصغر غنياً بالأجزاء والتحديدات المستقلة بحيث (بصرف النظر عن وحدة الصفة، المفهوم، أو الأنواع) حين ترغب بتقسيم المادّة العارية للجسم، فأنت باستطاعتك تقسيم الأجزاء الأصغر إلى عدد لا متناه وبإمكانك عدّها إلى الأبد. تطوّر الطبيعة طاقتها الإبداعية غير المحدودة في تعددية غير مقيدة، استقلالية، انفصال، قطع، تحديد، وتمييز. لكن الآن، أنظر إلى عجيبة كل العجائب هذه، هذا السر العظيم! هذه غير القابلة للقياس وغير القابلة لأن تعد أو تحصى، هذا اللاتناهي للأجزاء، الأعضاء، الأجهزة، والنظم، ينتج حياة واحدة فقط، كينونة واحدة، شخصاً واحداً! هذه الدوامة المحرّكة بوحشية للطبيعة المادية، التي تقسم وتمايز ذاتها دون توقف أو راحة، تذيب ذاتها، تصبح واضحة ومستوية مثل وجه مرآة وتطوي ذاتها معاً بسلام في شعور واحد لوحدة واحدة والتي تُسمّى الحياة! هذه التعددية اللامتناهية، هذا الشيء الهائل يصبح كله واحداً. الكل واحد، الواحد هو الكل؛ هذا هو سر الحياة، سر وحدة النفس والجسد. الواحد كعديد هو الجسد؛ العديد كواحد هو النفس.

لكن لماذا، في هذا اللاتناهي للأعضاء، ليس هنالك غير إنسان واحد؟ لماذا

(1) المعنى الحرفي هو عالم صغير؛ لكنها تعني هنا العرق البشري حين يُنظر إليه كمثال على العالم أو الكون. ـ مترجم عربي!

ليست العين كينونة بشرية؟ لماذا لا يعيش البشر في العظام والشعر؟ لماذا ليس هنالك عظمة ـ بشر، ليس هنالك عضلة ـ بشر، ليس هنالك عصب ـ بشر؟ وفيما يتعلق بالنفس، التي تحتلّ مساحة أصغر من نقطة في الرياضيات، التي، فعلياً، لا تحتلّ مكاناً، فالجسد البشري يحتل من المكان ـ إن لم يكن أكبر ـ بأكثر مما يحتله الكون المرئي بالنسبة إلى الأرض. لأنه بالنسبة لذلك الذي هو بلا مكان، المكان الأصغر هو لا متناه. إذاً لماذا النفس، التي هي غير قابلة للتجزئة، بسيطة، نقطة، ذرة، لماذا يحتلّ هذا الفرد المفرد مثل ذلك المكان الهائل؟ ومن المؤكد أنه يبدو واضحاً لي أن النفس بأكملها سيكون لها مساحة كافية في جذر شعرة واحدة؛ إذاً لماذا لا يكون الجذر المسكين نفساً أيضاً، إنساناً؟ «ماذا؟» العظام، الأسنان كانت ستقول، إذا اشتركنا بهذه المنظورات الحيوانية والمحبة للبشر مع الناس، «ماذا؟ نحن العظام، الذين نحتل مساحة زحل ما أو أورانوس ما في بالنسبة للنقطة غير المرئية، غير القابلة للتقسيم للنفس، ألن يتوجب على جواهرنا أن تحتوي جواهر التي هي على الأقل مشابهة للبشر؟ أليس علينا أن نكون دون جوهر وفارغين من الإنسانية؟ فالحياة البائسة والغرض المؤسف اللذان أضفاهما علينا فلاسفة الطبيعة والأطباء ليسا حياة وليسا غرضاً. يقولون لنا إننا نحن الأسنان نتواجد لمضغ وطحن اللحوم، وإن هذا، هدفنا، هو نشاطنا، حياتنا، طبيعتنا. لكن ما هو الغرض الحقيقي، الصحيح، النهائي لهذا الغرض، الجوهر الحقيقي لجوهرنا! الإنسان الحي، صاحب الإرادة، المفكّر. لذلك، فنحن، الذين لا نمتلك ما هو مشترك مع الإنسان، نحن الطبائع العملاقة التي في متانتها وصلابتها الماديتين ينمحي الجوهر الرقيق، الشبيه بالنجم للنفس اللامادية بقوة فقاعة صابون، نحن، الذين أبعد عن الإنسانية على نحو لا محدود من بعد أورانوس عن الأرض ـ لأن المسافة بين أورانوس والأرض ليست غير مكانية، بل قابلة للقياس، لكن مسافتنا عن الإنسانية مسافة طبيعة، من نوعية الجوهر، وهي، من ثم، مسافة غير قابلة للقياس، لا متناهية، لا يعدلها شيء، لا تضاهى ـ هل علينا أن يكون هدفنا في الإنسانية، في النفس، هل علينا أن يكون هدفنا بعيداً عنا، خارجنا في طبيعة أخرى ليس فيها شيء مشترك

معنا البتة؟ هل يجب على حياتنا أن لا تكون محتواة فينا، بل في زاوية أخرى من العالم، في الطبيعة الإنسانية، في النفس؟ إنه المستحيل، إنه يتنافى مع حكمة الله، أننا يجب أن نكون موجودين عبثاً، أننا لسنا أسناناً ـ بشرنا الخاصين بنا، إنه بدلاً من هدفنا الأكثر إلحاحاً، الذي هو هدف يرثى له، بلا هدف لأنه موجه إلى جوهر أجنبي، هو النفس، لا نحتوي فينا هدفاً والذي هو آني بالنسبة لنا تماماً كالهدف الذي يضفيه علينا علماء الطبيعة، لكنه الذي هو، حر، مستقل، نبيل تماماً كالهدف البشري. لذلك، علينا أن نحتوي على إنسانية والتي هي مناسبة لنا، التي هي ملك لنا؛ بكلمة واحدة، يجب أن نكون *أسناناً ـ بشراً*. حين يكون هنالك أسنان إنسان، لماذا لا ينبغي أن يكون في العالم ثمة أسنان ـ بشر؟ إنّ سناً أجوف، سن يخلو من الإنسانية، كان سيبدو فجوة في خلق العالم الذي يصرخ إلى السماء! لذلك علينا نحن الأسنان أن يكون لنا مواطنينا وسكاننا». أي أحمق اعتدت أن أكونه حين اعتبرت نفسي على أنني مجرد أحد البشر. فحيثما اعتدت أن أرى حولي مجرّد أعضاء وأقسام ميتة، بلا نفس، ولا واعية، دون هدف *في ذواتها*، انتقلت لتنتج من ذواتها هذا الفرد الواحد، أرى الآن أناساً أنقياء. فأنا نفسي، هذا الإنسان الواحد، حشد لا يعد ولا يحصى من البشر!

لا نهائية العوالم:

في تأملك النجوم، أنت تمسّ فقط وجوداً مستقلاً بشكل محسوس، فقط حجم وكمية هذه الأجرام العالمية. «لكنها تكون، إنها تتواجد؛ لأي هدف تتواجد هذه العوالم اللامتناهية إن لم يكن لشيء ما، إن لم يكن لوجود حي؛ لماذا تتواجد إن لم يكن فيها حياة؟» أنت على صواب في اعتبار أن الحياة هي غرض جرم ما. لكنك مخطئ في الاعتقاد بأنه تماماً كما أنّ هذه الأجرام مستقلة في الوجود المكاني، كذلك، أيضاً، يجب أن تكون مستقلة في غرضها وجوهرها. وهذا يعني، أنك مخطئ في افتراضك أنّ هذا الجرم المعين، الذي تضعه بصريّاً في مكان ما، يتواجد سدى إذا كان ذلك الذي تكتشفه وتقرّ به على أنه غرضه على الأرض ليس محتوى أيضاً

في هذا الجرم بالذات وعليه، وأنه، من ثم، فهذا المكان الذي لا يمكن قياسه هو دونما غرض حين لا توجد حياة *فيه*. ومتعلقاً بخطأك الخاص، فأنت دونما تردد «تغطّي» وتُسْكِن العوالِم البعيدة بظلال غير حقيقية من خيالك المتطور. فذلك الذي يدهشك ويضلّك ليس سوى الوجود المحسوس، المكان غير المحدود لهذه الأجرام العالمية. لكن يجب أن أعترف لك بأن مثل هذا الوجود الفائض عن الحاجة، الذي لا طائل منه، الذي هو بلا هدف يدهشني في كل مكان، حتى هنا، حتى على الأرض، إنما هو ممتلئ بدفء الروح والحياة، أنه حتى في كل مكان قد تمّ شغله، فالأماكن الفارغة تواجهني بمثل تلك الطريقة بحيث أنه، في حين تبدو لك الأجرام العالمية أنها عبثية لأنه ما حياة تتنفس عليها، فكل مساحة، كل وجود، كل طبيعة تبدو لي بأنها عبث. وهذا يعني، أنه حين أحمّل الطبيعة التمثيلات التي تنظر بها إلى الأجرام العالمية، فأنا أجد كلّ شيء فارغاً ومهجوراً، أجد كل شيء دونما غرض. وحين تسأل «لماذا توجد هذه الأجرام إذا لم تكن ثمة حياة عليها؟» أرد بالسؤال: «لماذا هناك كينونة، مساحة، مادة، طبيعة، على الإطلاق؟». كان باستطاعة اللّه يخلط الكون كله في ذرة واحدة؛ وهكذا، فكل ما يتخطى عالم الذرة يكون كينونة تالفة، فائضة عن الحاجة، لا هدف لها. لماذا لا يوجد إنسان مفرد واحد بدلاً من العدد الذي لا يحصى من البشر؟ ولأن كثيراً من البشر يتواجدون خارجي، فكثير من المساحات الفارغة وغير مأهولة تتواجد فيّ. فكلّ إنسان مفرد والذي يتواجد خارجي هو ثقب، فراغ، فجوة فيّ. فأنا جوهر مثقب بدقة وإحكام؛ وكينونتي بمجملها هي ثقب واحد. وكل جوهر والذي هو مثل جوهري والذي لديه وجود مستقل يثقبني، يسبب جرحاً فيّ. ففي كل إنسان أرى ذلك الذي ينقصني. والبشر الآخرون ليسوا سوى الثقوب الموضوعية، المستقلة لذاتي الخاصّة كما تُصوّر من خارجي. وهكذا فكل الأشياء هي مساحات يسهل اختراقها، فارغة بالكامل، مفتوحة. لماذا لا تكون نغمة مفردة واحدة القطعة الموسيقية كلها؟ لماذا لا توجد نغمة واحدة؟ فقط في هذه النغمة واحدة، يمكنك أن تجد تلك اللاهدفية وذلك المكان الفارغ ذاته اللذين لاحظتهما في الحجم المحسوس للنجوم. هذه النغمة الواحدة

مثقوبة تماماً، مخترقة تماماً، لأن جميع النغمات الأخرى لا تتواجد فيها. لماذا تغفل الفراغات على الأرض؟ لماذا لا تكون ورقة الشجر شجرة متمددة بالكامل؟ لماذا لا تكون كلّ الحقائق حقيقة غير قابلة للفصم وغير قابلة للتمايز؟ إن غرض الشجرة هو الزهرة والثمرة؛ إذاً لأي هدف توجد الورقة، العروق، الأغصان، الجذع، والباقي، لماذا هذه منفصلة واحدها عن الآخر، ولماذا تتواجد الشجرة حتى الإسراف في أنواع عديدة من الأجزاء معينة ومستقلة؟ ألم يكن من الحكمة لو أن الغرض كان حاضراً على نحو آني، كلّ شيء مرة واحدة، ودون كلّ الشروط والمضاعفات الأخرى، دون كل الاستطرادات والانحرافات، حين يتواجد كلّ شيء كواحد بطريقة روحية بسيطة؟ والشيء نفسه ينطبق على المادة، على الطبيعة، على الكينونة ذاتها. لأن كل كينونة، حتى الطبيعة، لها غرض لجوهرها الداخلي، فيما يتعلّق لأي طبيعة وكينونة تظهران على أنهما تتواجدان خارجياً من دون جدوى. حين يمدّد المرء إلى كلّ شيء تمثيلاتك التي، على نحو غريب، تطبقها فقط على النجوم، فسيصل في نهاية الأمر إلى النتيجة القائلة إنه سيكون من الأفضل لو أن لا شيء تواجد، لأن كلّ شيء يفتقد الهدف كان سيتم تجنبه في اللاشيء، وأن الكينونة ذاتها هي ذلك الذي ليس لديه هدف. أو، إذا أنجز واحدنا تمثيلاتك، فسوف يجبر واحدنا على الأقل على الرأي القائل إنه وحدها الروح يجب أن تتواجد، إن الكينونة المحسوسة، المادية هي تبذير صرف، إنفاق غير مثمر، وإنه فقط إذا وجدت الروح ببساطة لكان بإمكان كلّ ما يتواجد الآن دونما هدف أن يُستغنى عنه.

وهكذا، حتى تثبت أن البشر يعيشون في الأسنان، فإنّ اعتقادك بالكينونات الحية على الأجرام السماوية لا يمتلك أساساً. على العكس من ذلك، لأنه من المؤكد تماماً أن العديد من البشر لا يعيشون في إنسان واحد، أنه لا يوجد سوى نفس واحدة في الجسد، لذلك فمن المؤكد تماماً أنه، في جميع الخلق، ليس ثمة غير نقطة واحدة مبعوث فيها الحياة ومعطاة النفس، وأن هذه النقطة هي الأرض، التي هي نَفْس وغرض الكون الكبير.

كل شيء موجود لديه تاريخ أو ماضٍ؛ فطريقته الحالية للوجود لا تتحقق على

الفور، ولا هو يكون ما يكون عليه بذاته أو من ذاته، لكنه لديه خلف وجوده وخلف ذلك الذي يكون كينونة تسبقه وتضع له الشروط. بكلمات أخرى، كل شيء موجود لديه خلف كينونته كينونة أخرى كأرضية له وخلفية. وهكذا فالجسد هو خلفية النفس؛ إنه، إذا صح القول، النفس التي للماضي، النفس التي كانت، ما قبل التاريخ للنفس؛ وبعبارة أخرى، فإن الجسد هو الشرط والفرضية المسبقة للنفس؛ فالنفس لا يمكن أن توجد دون جسد. وهكذا فالجسد مستقل إلى درجة أن النفس لا يمكنها أن توجد دونه، إلى حد أن طبيعة الجسد تسبق النفس، وتبدو النفس اتكالية إلى الحد الذي يجب أن يكون لها جسد كافتراض مسبق لها. ومع ذلك، فلأن الشرط يمتلك غرضه وجوهره، ليس في ذاته، بل، عوضاً عن ذلك، في ذلك الذي يشترط، فالإتكالية الظاهرية للنفس منفية، والشرط يُخفض إلى سوية وسيلة مجرّدة، أداة. الجسد مقرّر فقط لأجل النفس؛ فالنفس هي الغرض، التقرير لوجود الجسد. وهكذا فالجسد وجميع أجزائه يسلّمون استقلالهم، ماديتهم، ومن خلال هذه التضحية بكينونتهم الخاصة التي هي ملكهم، ينتجون تأثيراً واحداً، هو النفس. ومع ذلك، فمرة أخرى، النفس هي أثر فقط في المظهر، فقط للعين الحسية، التي يظهر لها الشرط على أنه واقع مبدأي وبارز. وفي الواقع، فإنّ النفس، كغرض للجسد، هي العلة الداخلية، الروحية المخفية للجسد، الأرضية والمبدأ اللذان يجعلان من الشرط شرطاً.

نقول الآن، تماماً كما أن الغرض الحقيقي والضروري يكمن دائماً على *مسافة* من ذلك الذي يتواجد على حساب هذا الغرض، تماماً كما أن الغرض لا يتواجد بشكل آني بل يصل إلى العيان فقط نتيجة لسلسلة طويلة من المراحل المتوسطة، التي هي، مثل الجسد وأجزائه، تمتلك وجوداً معيناً، مستقلاً قبل تفعيلية الغرض، كذلك فإنّ غرض الأجرام السماوية غير مرتبط بها على نحو آني، لا يتواجد عليها، بل يتم تحقيقه على مسافة هائلة منها، أي، هنا على الأرض. يكمن الغرض دائماً خارج الوجود وبمعزل عنه، بعيداً عنه. ولتحقيق هذا الغرض، تستخدم الطبيعة أوسع الطرق، وأعرضها؛ إنها لا تستخدم ترتيبات وأساليب بسيطة، بل فقط الأكثر تعقيداً،

الأكثر تشابكاً، الأكثر اتساعاً وشمولاً. وفقاً لذلك، فجسد الإنسان هو المؤسسة الأكثر التباساً، الأكثر تلوناً، الأكثر تعقيداً، الأكثر تفصيلاً، الأكثر تجزؤاً، المليئة بما يمكن للمرء تخيله من أعداد الأعضاء والأجزاء، ومع ذلك فإن الأثر، الغرض من هذه المؤسسة الضخمة ليس سوى شعور واحد، حياة واحدة، نفس واحدة. ولتوضيح هذه الحقيقة، لا يحتاج المرء إلا لأن يفكر بعملية الهضم. فغرضها لا يتحقق إلا من خلال أعضاء وسيطة. وهذا يعني *أنها لا تكون واحدة مع الوجود على نحو آني*؛ إنها منفصلة عن ذلك الذي لديه غرض والذي هو موجود من أجل ذلك الغرض. بشكل أكثر دقة، فإن الغرض يفترض مسبقاً ذلك الذي ليس له غرض، لأن ذلك الذي تم تخفيضه من غرض إلى وسيلة يتم تخفيضه بهذه الحقيقة بالذات إلى مجرد وسيلة، إلى مجرد مظهر، الذي لا يوجد لديه جوهر، لا غرض في ذاته ولأجل ذاته. إنه على وجه التحديد الغرض الذي، من أجل أن يتواجد كغرض، يطيح بالاستقلال، القيمة، والفحوى من ذلك الذي يبدو للحواس على أنه مستقل. فعلى سبيل المثال، عندما أضع لنفسي غرض تبجيل للّه، آخذ كل استقلال من تلك الفعاليات التي، بالنسبة لإنسانٍ حسيّ، لها قيمة مستقلة كغرض. ولا تصبح هذه الأنشطة شيئا بالنسبة لي لأجل ذواتها؛ إنها مجرّد وسيلة لتحقيق الهدف الذي يكمن بعيداً عنها للغاية. كل هدف ينفي؛ وحيث لا يوجد دمار، لا نفي وتضحية بوجود مستقل، ليس هناك غرض. فالغرض هو الروح، لكن الروح هي الموت للواقع الحسي، المدمرة له.

من الجنين إلى الكون:

لو قيض لك أن ترى الجنين البشري للمرة الأولى وقيض لك أن تعتبر أنه مناسب للتمثيلات ذاتها التي تقوم بتطبيقها في تأملك للأجرام العالمية، كيف ترد إذا ما قال لك شخص ما: «انظر، إنه مقدّر هذا الجنين أن يصبح إنساناً؛ أنظر، هذه الخضرة البكماء، التي لا حراك فيها ستكون في يوم من الأيام إنساناً حياً، قوياً، ذا إرادة، فاعلاً»؟ يا للترتيب الغبي الميئوس منه! لماذا لا يحتوي هذا الشيء المسكين لتوه غرضه في ذاته، لماذا يكمن غرضه، جوهره، الإنسان الذي سيكونه،

بعيداً عنه إلى نحو غير متناه، بحيث أن ذلك الذي في ذاته، ذلك الذي يكون كمونياً، ذلك الذي لأجله يوجد، ليس حاضراً فعلياً بعد؟ ولماذا يجب أن لا يتحقق غرضه إلا بعد سلسلة طويلة من السنوات، إلا بعد المرور من خلال عدة مراحل وأنواع من الوجود؟ حين لا تُدهش وتنزعج من وجود البشر كأجنة، لماذا، حين تستخدم حسّك السليم، تندهش وتنزعج لأن الأجرام السماوية هي فقط أجنة على الأرض، أنه في طبيعة السماء لا تزال مطوقة في حضن الأم قوتها الإبداعية ولم تخطُ بعد إلى يوم الأحد المشرق لتطوّر الأشياء الحية؟ ومثل كلّ شيء يتواجد تماماً، فالأرض، أيضاً، يجب أن تمتلك مراحلها وأعضائها التي تلعب دور الوسيط لوجودها وتجعله ممكناً؛ الأرض، أيضاً، يجب أن تكون لها خلفيتها. وكون الأرض هي الوجود الحي، هي الوجود الذي يحتوي الحياة، فالأجرام السماوية، دونما احتواء للحياة في ذواتهم ولأجل ذواتهم، هم فقط شروط الحياة، هم فقط افتراضات ـ مسبقة للأرض، هم فقط التحضيرات، والتدريبات المدرسية، وما ـ قبل ـ التحضيرات للأرض، تماماً مثلما أنّ الجسد هو فقط التحضير للنفس. ولأن اللحظة الماضية هي الشرط للحظة الحاضرة، فإن شروط الواقع الحاضر هي ماضيه. وهكذا، كي نتحدّث عن هذه المسألة بشكل مجازي، فالنجوم هم حقاً المعاني المتعلّقة بالأسلاف والشعارات الشرفية للأرض ليس إلا؛ والسماء برمتها ليست سوى نصب تذكاري لما قبل تاريخها. ففي السماوات، تحتفل الطبيعة بعيدها المتعلّق بجميع الأنفس؛ والأنوار التي تراها في الأعلى هناك ليست أبعد وليست أكثر من شموع تذكارية على قبور الماضي. النجوم ليست سوى حوليات للأرض، سجلات لها.

حين لا يبقى فهمك مخدوعاً على الدوام برؤية الحجم الكبير الذي لا يقاس لهذه الأجرام العالمية، عليك من ثم أن تفكّر أنه على المرء أن يستنتج على وجه الدقّة عكس ما توصلت إليه من تنوعها وحجمها الكبير. لأن الامتداد غير المحدود في الكتلة، الحجم، والتنوع يثبت عدم وجود كثافة فقط. ففي السماوات، تنشر الطبيعة قوتها باتجاه الخارج؛ إنها تثبت كثافتها ليس في الوقائع الكثيفة، بل في الوقائع الواسعة. فحيثما تسحب الطبيعة ذاتها نحو الداخل، حيثما تجمع وتركّز

ذاتها، وتعبّر عن قوتها في شكل قوة وكثافة، وليس في الكمية وككمية، تصبح نوعية، نوعاً، إحياءً، أرضاً. لكن حيثما تنشر قوة الطبيعة ذاتها وتوسعها باتجاه الداخل، حيثما تسحب ذاتها من الخارج، فإنها تضيّق فضاءها وتحدده. أنظر كيف تقف شجرة البلوط أمامك، بجذور بعيدة المدى، بجذع سميك، ضخم على نحو هائل، بتعددية لا تحصى من الفروع، الأغصان، والأوراق! لكن الغرض، جوهر شجرة، شجرة البلوط بتمامها ـ التي تفقد ذاتها وتنشر ذاتها في الجذع، الجذور، وهكذا دواليك ـ يحط ويأوي في الثمرة، في المساحة الضيقة للبلوطة، كما لو أنها في بيتها ـ لأن هذه البلوطة، بالقوة والكمونية، هي شجرة البلوط بأكملها. لأن كلّ غرض مشروط من قبل تعددية لا متناهية من الوسائل والمظاهر، لأن كل غرض يمتلك خلفه تاريخاً، صيرورة تحضير وسائطية، ولأن كل غرض يكمن ما وراء وخارج الوجود المحسوس، يجب أن تعترف، من تعددية النجوم بالذات، من حجمها الهائل بالذات، أن غرضها يتحقق، ليس فيها، بل فقط على الأرض، وأن هذه الأرض الصغيرة، من ثم، هي ثمرة الكون الكبير.

مركزية بشرية:

لقد اعتادت البشريّة على الاعتقاد على نحو شبه شامل أنّ كلّ شيء جُعل من أجل الإنسان، أنّ الإنسانية كانت غرض العالم، ومن ثم فإن مركز الكون كان هنا على الأرض. وهذا الاعتقاد يحتوي على الكثير من الحقيقة؛ إنه غير كاف فقط لأن الغرض من الكون كان يُفهم على أنه فقط الإنسان الفرد، استخدامه وفائدته. وهكذا فقد فُهم الغرض فقط بمعنى مادي، وليس من المنظور الروحي؛ لم يُفهم على أنه الإنسانية كإنسانية. في الأزمنة الحديثة، تم قمع هذا الاعتقاد من قبل المنظور المعارض: أن مركز الكون يتواجد على كل نجمة مفردة وكذلك على الأرض، أنّ المركز هو كلّ مكان، أنّ كل شيء، أو بالأحرى اللاشيء، هو مركز الكون. لأنه من الواضح أن يعتبر كلّ شيء هو المركز إنما يعتبر أن اللاشيء هو المركز. وهكذا فقد فقدت الحداثة تصوّر الكليّة الحقيقية، تصوّر الوحدانية والحياة في الوحدة

الواحدة. لقد كان الإنسان الحديث ولا يزال دون نقطة محورية، لأن الشخص، الفرد دون مركز، دُفع به إلى الأمام وتم تصويره على أنه المركز. ومثلما تفكك تصوّر الإنسانية لنفسها إلى تصوّر لمراكز مستقلة تماماً، كذلك وصل العالم إلى أن يُصوّر على أنه دونما مركز، وتم تفريق العالم الواحد إلى العديد من العوالم. وهكذا فإن المهمة الرئيسة للإنسانية الحديثة أصبحت مهمة تركيز كل وجود دون تمييز في الوعي؛ وجُعلت الروح مجرد مرآة، اسطبل للكون يتقبل كل شيء، فارغ. «كلّ ما يستأهل الكينونة يستأهل أيضاً المعرفة». لقد دُفعت الروح في العرض والاتساع؛ فقد انطلقت من ذاتها في رحلة إلى أرض غريبة؛ وممتلئة بالدهشة في أراض غريبة، نست الوطن الحقيقي. فقد صبّت نفسها بغير حساب في امتداد لا حدود له على كل شيء، لتجعل كلّ شيء، دون تمييز، في مركزها. وذلك الذي كانه البشر في أنفسهم، رأوه خارج أنفسهم في الطبيعة. وفي التعددية، في عظمة النجوم، في الطبيعة الكمية، في توسع لا حدود له، في الوجود المحسوس، الذي لا مركز له فحسب، رأوا الصورة حقيقية لكينونتهم الحقيقية.

حين تتواجد أشياء حية على أجرام عالمية أخرى، يكون هنالك ثلاثة احتمالات: إما أن الحياة التي تتواجد على الأرض، الكينونات الحية ذاتها التي تتواجد هنا، تتواجد عليها؛ أو أن هنالك حياة أرفع، هنالك كينونات أكثر كمالاً عليها؛ أو، أخيراً، هنالك حياة عليها أدنى من الحياة على الأرض؛ فهنالك كينونات أدنى، أقل كمالاً من الكينونات الحية للأرض. لكن حين تكون الحياة ذاتها التي تتواجد هنا تتواجد عليها، فسوف يكونون فائضين عن الحاجة تماماً. حين تكون حقيقتان أو أكثر متشابهة بمعنى أنها تتضمن الحياة نفسها، فإن واحدة منها فقط ضرورية ومفيدة. لأنه من بين شيئين متشابهين على نحو تام، فإن واحداً ليس له غرض. وإذا كنت على علم بأني سأتواجد من جديد على الأرض، أو أنه كان ثمة كينونة ثانية هناك هي مثلي تماماً، كنت سألقي بنفسي على الفور في هاوية العدم في القناعة بأنني كنت كينونة لا فائدة ترجى منها. لم أستطع تحمل هذا الاستهزاء الرهيب والازدراء الشيطاني بي. لأنه دونما تمييز لا يوجد غرض؛ فالغرض يستثني أولئك

الذين هم متشابهون، الذين هم مجرد جمع، اثنين، ومكررين. فالأرضية، الغرض، المعقولية لوجودي تكمن فقط في خصوصيتي، فقط في تحديديتي وتمايزي. فالكينونة الواحدة لا تحتاج إلى الوجود إلا مرة واحدة فقط؛ وحين تتواجد بشكل كلّي هي ذاتها مرة ثانية، تكون بلا هدف. إن غرضها هو توابل الوجود والحياة؛ وفقط من خلال غرضها تحصل الحياة على طعمها. لكن فقط عندما تكون الحياة مرة وإلى الأبد تمتلك التوابل والمذاق. فإذا كان للأرض مثل هذا الأخ المساوي لها، مثل هذا الثنائي تحت النجوم، عندئذٍ، ممتلئة بالغضب من هذا اللاطعم، الوجود المسطح، كانت ستلقي بنفسها حتماً في خليج العدم، لأنه وحده الغرض يمنع شيئاً عن العدم. وهكذا فالحياة ذاتها لا يمكن أن تتواجد على بعض الأجرام السماوية ولا على كلّها.

الاحتمالية الثانية هو أنه في بعض الأجرام السماوية هنالك على الأقل تتواجد حياة والتي هي أدنى من الحياة التي على الأرض. لكن الآن، كون مجمل الحياة على الأرض تنقسم إلى تدرجات للوجود والحياة أعلى وأدنى، هنالك نوعان فقط من الاحتمالات هنا: إما أن الكينونات على العوالم الأخرى تقف في على المستوى المتدني ذاته والذي هو مثل المستويات الدنيا للحياة على الأرض، أو أنّ هذه الكينونات تمتلك مستوى للحياة أدنى من أدنى شكل من أشكال الحياة على الأرض. لكن المستوى ذاته من التدني للحياة لا يمكن أن يتواجد على الأجرام العالمية الأخرى، لأنه يكفي أن تكون متدنياً لمرة واحدة. فتكرار التدني كان سيبدو بلا هدف وغير عقلاني على الإطلاق. لذلك يجب أن يكونوا أدنى من أدنى وأضأل الكينونات على الأرض. لكن أدنى حياة ووجود على الأرض هما، على سبيل المثال، حياة الحجر، التي هي وجود ابتدائي وآلي، حياة يتردد كثيرون، نتيجة لذلك، في تسميتها حياة. وهكذا فالكينونات الحية في الأعالي هناك هي أكثر تدنياً من أدنى الكينونات على الأرض، ومن ثم فهي بذلك تتوقف عن أن تكون حيّة، أو أنه سيكون لزاماً عليها أن تفترض أن الموت هو مستوى للحياة وأن اللا ـ كينونة هي درجة من درجات الكينونة.

لا يبقى هناك سوى الاحتمال الثالث: أنه يوجد هناك على الأجرام السماوية كينونات أكثر كمالاً، أعلى، مستويات ومراحل حياة أعلى، مما هي على الأرض. لا يمكن الشك بأي حال من الأحوال أنه يمكن للمرء أن يتمثل، أو يتخيل، كينونات أعلى، لأن للخيال لا حدود له وهو من ثم لا عقلاني. لكن ما إذا كانت هذه الكينونات الأعلى المتخيلة تتواجد في أي مكان آخر إلى جانب الخيال، وما إذا كانت حقاً أعلى، فهما سؤالان، حين يتبع المرء الحدود والقوانين التي يفرضها الواقع، العقل، والحقيقة، لا بد أن يجيب المرء بالنفي حتماً. هذه التخيلات ليست سوى تخيلات وهي من ثم غير منطقية على حد سواء إن في النتيجة أو في الأساس. لأنه ما أن يتعدى المرء لمرة واحدة حدود الإنسانية، الحدود الفعلية للكينونة المفردة الحية، فإنّ كل حدّ، افترض ذات مرة، يصبح مجرد حدً مفترض، متخيّل اعتباطياً. وللسبب ذاته أن المخيلة تخطو ما فوق البشرية كحقيقة متناهية، عليها أن تذهب أيضاً ما فوق الكينونات الأخرى المخترعة، وهكذا تنشأ هناك سلسلة لا متناهية من الكينونات الأكثر كمالاً، ومن جديد الأكثر كمالاً، ودائماً الأكثر كمالاً، وهلم جرا، إلى ما لا نهاية. لأن كل مستوى سيتم وضعه بوصفه نهائياً سيكون دائماً حداً آخر والذي لا بد من إلغائه مرة أخرى من قبل الخيال الذي لا حدود له. والإجراء لا يمكن أبداً أن يُملأ؛ ولا يمكن أن يكون هناك غير هذيان بلا هدف، لا نهاية له، وبلا قانون، ومن ثم، كئيب، غير منطقي، وبلا غاية من مستوى إلى مستوى، من حد إلى حد. لا يمكن أن يكون هناك سوى تقلّب صبياني، سخيف لحدود يتم افتراضها ثم تُلغى مجدداً.

علاوة على ذلك، عندما تتم موضعة هذا الغرض الوهمي على عوالم أخرى، تختفي الأرض باعتبارها حبة رمل بلا هدف، بلا قيمة، وبلا معنى في هذا الجدول من الكمالات المتصورة، الذي يتدفق بشكل مضجر دون توجيه عقلاني. وهكذا ينبغي للمستويات النهائية من الكمال أن تكون الهدف من الحياة على الأرض. لكن، وفقاً لهؤلاء المفكرين، فالمستويات المطلقة لا يجب أن تكون ولا يمكنها أن تكون الأخيرة، لأنها، كمستويات مطلقة، يجب أن تكون حدوداً وقيوداً، ومن ثم،

على الرغم من أنها المستويات المطلقة للكمال، يجب أن تكون مع ذلك مستويات لمستويات مستسلمة، غير كاملة. وهكذا تكون الأرض بلا غرض، لأن الذي لا يتواجد فعلياً لن يتم إحرازه أبداً، وهو من ثم لا يتواجد أبداً. إن غرضاً والذي هو، بدلاً عن إقامة حدود، كما تتطلّب طبيعة الغرض، يسبّب كل الحدود، كل التعيينات، ليختفي في العدم هو ليس سوى غرض متصوّر، ليس غرضاً حقيقياً، ومن ثم ليس غرضاً على الإطلاق. لكن هذا التخيّل هو غير عقلاني وعلى وجه التحديد في أساسه. لأنه يصدف أن الكينونة الأعلى والأكثر كمالاً التي هي فوق الأفراد المحسوسين إنما يتم تصوّرها من جديد على أنها كينونة محدودة، فردية، وأن هؤلاء الأفراد الذين هم أكبر وأعلى من الأفراد الذين يتواجدون بشكل محسوس يُفهمون جزئياً على أنهم هم أنفسهم سوف يكونون في المستقبل وجزئياً ككينونات فردية أخرى.لا يعترف هؤلاء المفكرون أن الكينونة الأعلى والأكثر كمالاً إنما هي فقط روح، عقل، أو إنسانية حيث يكمل المرء الكليّة إلى الأبد، أن الكمال موجود فقط في وحدة الكلّ، أن الأفراد لا يمكنهم أبداً أن يكونوا مثاليين أو مطلقين، لكن يمكن للمرء فقط أن يجعل ذلك الذي هو كامل موضوعاً لروحهم.

أنت كامل فقط في تأمل الكلية، فقط في التفكير، فقط في المعرفة اللذيذة بالكمال. وكفرد بشري، مفرد فأنت لن تكون لك حصة في أي كمال آخر. لكن عبث وبطلانية تمثيلاتك للموضوع الحاضر لهذا الإعمال للفكر سوف يوضحان أكثر في المناقشة التالية، على الرغم من أنني أعتقد أن هذا التوضيح هو شبه مستحيل بالنسبة لك. كيف يمكن أن تصبح هذه المسألة واضحة بالنسبة لك، ما دمت تمتلك السمة الملحوظة من جعل النور يظلم فيك؟ وحتى كواكب السماء الجميلة تخفي عن بصرك الجوهر والحقيقة.

إذا كانت توجد كينونات أخرى غير الأرضية، والتي، حين لا تتواجد من دون جدوى، سيكون عليها أن تفترض مستوى حياة أعلى من الإنسانية، ولن يكون هناك أي دين، لن تكون فلسفة، لن يكون علم على الإطلاق. وبدلاً من هذه الموضوعات الشاملة، المجردة للمعرفة، بدلاً من الله، الذي هو، بالمقارنة مع الكينونات الفردية

العالية لخيالك، إنما هو مجرد وشامل على نحو عال، باختصار، بدلاً من الأفكار، المعارف، المفاهيم، هذه الكينونات والموضوعات الروحية الصرفة التي هي الموضوعات الحاضرة لروحنا، سوف يقيم سكان زحل، أورانوس، وغيرهما من النجوم في رؤوسنا. وبدلاً من الرياضيات، المنطق، الميتافيزيقيا، الدين، وهلم جرا، سوف نمتلك الزحل ـ غرافيا والأورانوس ـ غرافيا الأكثر دقة، الصور الأكثر دقّة لقاطني السماوات، وسينظّم معرض الصور لهذه العلوم الغريبة وفقاً لترتيب المستويات وتدرج حياة هذه الكينونات. وهذا يعني القول، إن هذه الكينونات العليا، إذا كانت عليا وفي الوقت نفسه فعلية، سوف تقحم ذواتها بيننا وبين موضوعات التفكير والمعرفة؛ أنها ستمنعنا من رؤية هذه الموضوعات وسوف تسبب كسوفاً أبدياً، كاملاً للشمس في روحنا. لأن هذه الكينونات العليا ستكون أقرب إلينا وأكثر علاقة بنا من الأفكار لأنها ليست كينونات روحية بحتة، مثل الآراء والأفكار، ولا هي كينونات محسوسة، مادية بحتة، مثل الأفراد الذين يعيشون في الأرض البائسة، لكنها نوع من واقع يكمن في منتصف الطريق بين الكينونات المادية واللامادية. إنها ليست أفراداً مثلنا نحن، لكنها ليست شمولية، لا تفتقر إلى الفردية، مثلما هي الأفكار. إنها ليست أفراداً حقيقيين، ليست هيئات حقيقية، لأن هذه مقررة بدقة، محددة بصرامة؛ أي، بلغتكم، فهي ليست مادية على نحو فادح. إنها شبه أفراد، شبه هيئات؛ لكنها غامضة الدلالة وأثيرية كالفكرة، لأن روحانية الفكرة وغموض دلالتها يستبعدان الفردية. إنها أفكار مادية وهيئات مفاهيمية؛ وبعبارة أخرى، إنها كينونات للخيال. فكما يبدأ الطفل بالخيال قبل أن يبلغ التفكير، كذلك فإن جوهري أورانوس والزهرة يجب أن يظهرا فينا قبل الأفكار؛ فقبل أن نبلغ الرياضيات والميتافيزيقا، يجب أن نبلغ أولاً أورانوس أو الزهرة. وهكذا سيكون علينا أن نكسر ونقطع حلقة تلو الأخرى من سلسلة أشباه الكينونات والأعضاء المتوسطين هؤلاء، سيكون علينا أن نمرض ونتعب من الحياة فيهم ومعهم، وسيكون علينا أن نندفع ونشق طريقنا إلى مركز جيشهم قبل أن نبلغ فكرة الكينونة اللامتناهية، قبل أن نحقق أية فكرة بالفعل.

لكن شبه الأفراد هؤلاء لا يتواجدون، ولا ينبغي لهم أن يتواجدوا ولا يمكن لهم أن يتواجدوا في الواقع ـ لأن الواقع غليظ، خشن، خام، مثير للاشمئزاز على نحو مسيء للسمعة، لأنه ما من «شبه» له معنى فيه ـ كما لا يتواجدون في الفكر، لأن الفكر روحي تماماً، إطنابي تقريباً كذلك. فهؤلاء يتواجدون في الخيال وحده، لأنه لا يمكن الحصول منهم على خبرة، تصوّر، منظور، ولا على معرفة، فكر، إدراك، لأنهم ليسوا موضوعات للشعور ولا للعقل (وحده الفرد الفعلي موضوع للشعور، مثلما أنه وحده الروحي الفعلي، وليس شبه الروحي، هو موضوع للعقل)، بل هم موضوعات للخيال وحده. وإلا لكانت حياتنا كلها المتعلقة بالروح مجرد حلم، مسرحية رائعة ورؤية لمستقبل جميل، صورة أو حفل موسيقي لهذه الشخصيات العالية، المشكّلة على نحو خيالي. وهكذا، فإن ذلك الشخص الذي يحظر عليه ثقل عقله أن يسبح حول سطح محيط الخيال الذي لا حدود له سوف يدرك أن كينونة هذه الكينونات نصف المحسوسة، نصف المرئية، غير الحاسمة، التي لا شخصية لها، المتوسطة ليست سوى كينونة متخيلة، والتي، من ثم، يتم تدميرها بواسطة كينونة الفكر، المعرفة، والدين، وسوف يدرك أن نور حياة الملائكة وسائر الكينونات الروحية الحسية والمحسوسة الأخرى إنما تنطفئ في أعماق روحنا كما في الجو الذي لا يمكنها التنفس فيه، أن جميع هذه الأرواح يمكنها أن تحمل نور الروح بالقدر القليل ذاته الذي يمكن فيه للأشباح أن تحمل نور الفجر. وفي الواقع، فإن كلّ هذه الكينونات العليا، سواء أتم تمثيلها كملائكة أو أي شيء آخر، ليست سوى حلي، غوطية gothic تترعرع على معبد روحنا. ومثل التماثيل النصفية وتماثيل القصور الكبيرة، فإنها فقط تزيّن الردهة، الدهليز، لواقعنا الأعمق. لأنه بقدر ما نرفع أنفسنا خارج أنفسنا، خارج وجودنا وحياتنا المحسوسين، بقدر ما نعود إلى أنفسنا ونركّز على أنفسنا، نرفع أنفسنا إلى الروح، إلى فكرة الكينونة اللامتناهية، وإلى الآراء، الأفكار، المفاهيم بشكل عام دون التقاء بالأفراد الأعلى. لكن نظراً لأن الإنسان هو من يصل إلى العقل، إلى الأفكار، إلى الوقائع الشاملة، الخفيّة على نحو صرف حين يرفع ذاته إلى ما فوق الكينونة والجوهر الحسيين، فإنها عندئذٍ الكينونة الحسيّة

للإنسانية هي التي تكون الكينونة الحسية النهائية؛ فالإنسانية نفسها هي نهاية المطاف لجميع الكينونات الفردية، الأعلى من جميع الأفراد. وهكذا، فإن الحياة الأعلى هي حياة الدين، العلوم، الفنون، في المجمل التاريخي ـ العالمي للبشرية. هذه هي الحياة ما فوق الحياة المحسوسة والعابرة، الحياة ما بعد الموت. إن العقل، الإرادة، الحرية، العلم، الفن، والدين هم فقط الملائكة الحارسون للبشرية، هم فقط الكينونات الأعلى والأكثر كمالاً فعلياً. والحياة اللامتناهية، الأبدية تتواجد في هؤلاء وحدهم، إنما ليس على زحل أو أورانوس أو أي مكان آخر.

لكن بصرف النظر عن وهم رؤية الكامل والمطلق فقط في صيغة الفرد، عن وهم تجاوز الفردية المحدّدة، الفعلية للإنسانية، عن وهم افتراض وجود لكينونات أعلى على النجوم أو في أي مكان آخر، فالافتراض والفرضية بوجود أي كينونات أخرى غير كينونات الأرض، سواء أكانت أكثر أو أقل كمالاً منّا، إنما يتعارض مع الإدراك غير المتحيز والمعرفة بالحقائق والوقائع الفعلية. وهذا يعني القول، إنه إذا كان ثمة وجود لأية كينونات أخرى على الإطلاق، فالتفكير والعقل لن يُحرزا أي وجود فينا. فالتفكير ينشأ فقط في الختام، فقط عند أكثر الحدود تطرّفاً، فقط عند نهاية كل طبيعة، كل حياة ووجود محسوسين؛ فالطبيعة وصلت إلى حدّها الخارجي في التفكير؛ فهناك يقف. لأن التفكير، العقل، الروح ليسوا فقط غير محسوسين، بل هم أيضاً ما فوق الحسي وما فوق الطبيعي. وبما أننا في الوقت الحاضر نفكّر هنا على الأرض وبما أن الطبيعة الدنيوية تعمل من خلال سلسلة طويلة بشكل لا نهائي من مراحل وأنواع لوجود وحياة حسيين، لهواء، لأرض، لحجارة، وصولاً إلى الشكل العضوي للحياة في الهيئة الإنسانية، فالطبيعة الدنيوية إذاً يجب أن تملأ وتستنفذ مجمل عالم مراحل الأشكال الممكنة للحياة، يجب أن تنجز وتنهي جوهرها بأكمله من خلال سلسلة متنامية من مختلف الأنواع والأشكال الدنيا والعليا للحياة. وإلا فإن الحياة المحسوسة فينا لن تتوقف، ولن تصبح حياة جديدة، مختلفة ومتميزة تماماً والتي هي الحياة في العقل، في التفكير. وإذا لم تكشف الطبيعة الدنيوية عن جوهرها بأكمله، فكلّ أشكالها الممكنة للحياة،

من خلال تاريخها، لو أنها، عندما جاءت للبشرية، لم تصرخ، «لقد اكتملت، هنا وليس ثمة بعد»، لكان الإنسان سيعيش عندئذ لكن لا يفكّر، وهناك ستتواجد ما فوق البشرية والكينونات الحية للأرض سلسلة أخرى من الكينونات الممكنة، والتي ستستمر حتى تصحو أخيراً الروح، التفكير. وبيننا وبين التفكير سيظلّ هناك موجود حاجز لا يمكن تجاوزه والذي سيكون فقط هذه الكينونات الحية الأخرى على عالم أو قارة أخرى. التفكير ينشأ من التعب الكلي، وإذا جاز القول، من إرهاق الطبيعة، من الشبع والملل من الذات، فتماماً كما هو الحال في الإنسان الفرد فالدافع إلى التفكير يبدأ بالاشمئزاز من حياة حسيّة. الطبيعة انقضت وانتهت، ومع موتها، يثور هناك فوقها عالمٌ جديدٌ، الروح.

هل من طبيعة غير أرضية؟

لو لم تجتمع كلُ الطبيعة الحية على الأرض، لكانت الطبيعة الأرضية قد أصبحت عندئذٍ مشبعة وضَجِرة ومن ثم، لكان ما يزال سيتواجد حياة أخرى، ما تزال كينونات حية أخرى. وكانت ستتواجد هذه الحياة الأخرى، هذه الكينونات المحسوسة الأخرى، في موضع تفكيرنا، كانت ستفترض، إذا جاز التعبير، الموضع الذي تفترضه الروح الحاضرة، وكان التفكير سيتواجد ما وراءنا، ما وراء الأرض في أرض من العالم ـ الأخر ما تزال ـ غير معروفة ـ حتى. وعلى افتراض أن هذا صحيح، فإنه سيكون غير ضروري بالكامل، كان سيبدو مستحيلاً بالكامل، في الواقع، لأن هذه الكينونات الحية الأخرى تأخذ هيئة دنيوية معينة أو عالمها الخاص بها. لأنه، بسبب أن الروح، التفكير، كانت ستتواجد ما وراءنا، فقد كانت ستنشأ هناك فجوة؛ كان سينفتح فينا مكان مفتوح، وبما أن الطبيعة تمتلك *vacui horrorem*[1]، من دون شك، فإن الكينونات الحية الأخرى كانت ستتواجد في المساحات التي جُعِلت فارغة فينا برحيل العقل؛ كانت ستتواجد، إذا جاز القول، في ثقوبنا. وكان رأسنا، الذي هو في الوقت الحاضر جهاز التفكير، سيكون العالم الذي كانت ستتواجد فيه.

(1) (*Die natura einen horrorem vacui hat*): الطبيعة... تبغض الفراغ

وبدلاً عن هذه الكينونات الحية الأخرى التي تقطن هيئاتها الدنيوية الخاصة، ربما، على الأقل ظاهرياً جداً، الفكر ذاته كان سيحتل هذه العوالم التي أخطأنا حالياً في أن نضع فيها هذه الكينونات، وبدلاً من الدماغ، كانت الفكرة ستجعل كعضو لها نجمة ما أو جميع الأجرام السماوية. أمّا أولئك الذين اعتادوا الحديث كثيراً عن حدود العقل والتقييد المفروض عليه من قبل الحسيّة فيبدو أنهم أشاروا بشكل نبوئي إلى أن الفكرة التي قيدها العقل وقمعها هنا على الأرض، كانت ستتحصّل على وجود أكثر حرية وأكثر ملاءمة لو أنها حصلت على أورانوس أو زحل كأداة للتفكير خاصة بها. لقد وصلنا الآن إلى التبصّر القائل إن العالم أو العوالم التي اتخذت حالياً من قبل الروح، التفكير، الوعي، الإرادة كان يمكن، سوف، ويجب أن تكون أماكن سكن هذه الكينونات الحية الأخرى (إن وجدت)، إنه ربما أن تلك الكينونات بالذات التي تشغل ذهنك فيها وتتخيل أنها كينونات مستقلة، معينة، حية، محسوسة هي ليست غير، في الواقع والحقيقة، الروح ذاتها. وحتى تستطيع أن تثبت لي أن الإنسان على وجه الأرض لا يفكّر، لن تكون قادراً أبداً على أن تجعلني أوافق على أن هناك كينونات حية في الكون خارج الأرض.

عودة إلى المتناهي واللامتناهي:

كل شيء يتواجد ليس بلا نهاية وحدّ، حتى بما في ذلك اللامتناهي. فاللامتناهي يتميز عن المتناهي فقط لأن حده ليس كينونة أخرى خارجه؛ فاللامتناهي يمتلك ذاته كحد له. وهكذا، في اللامتناهي، لا يتواجد الحد كحد، ليس تقييداً وقمعاً، بل هو فرحة، متعة اللامتناهي مع ذاته وفي ذاته، المعرفة الذاتية الممتعة، لأن حدّه يعبّر عن علاقته فقط بذاته وليس بالآخر. الكينونة، التحديدية، التقريرية تُفترض معاً إحداها مع الأخرى؛ فوحده العدم هو دون قيود. كل حقيقة هي دليل على صحة هذا الاقتراح. فهناك سلاح واحد فقط ضد العدم، وهذا السلاح هو الحد؛ إنه نقطة الحقيقة الثابتة الوحيدة، الحصن الوحيد لكينونته. لأن الحد لا يتواجد خارجياً على نحو دائري، كسياج حول حقل؛ إنه المنتصف هو المناسب والمركزي بالنسبة

للحقيقة. وهكذا، فإنّ كل شيء في الطبيعة يكون على ما هو عليه، ليس بسبب المادة التي تم تكوينه منها، بل، بالأحرى، بسبب التحديد للمادة غير المحدّدة، بسبب الحصة المقرّرة، بطريقة التوحيد، ودرجة خليط المادة. وحدها هذه التقريرية لنسبة المادة تشكّل حدّ شيء وجوهره. وحين يتغيّر شكل توحيد تلك الحقائق التي تسمى المكونات الأولية لشيء ما، حين يتغيّر هذا الشكل التحديدي جنباً إلى جنب مع نسبة العناصر التي يحدّدها هذا الشكل التحديدي، فإن الشيء ذاته يتغيّر عندئذٍ. ومن ثم، فإن جوهر شيء ما وحياته إنما هما معيار، شكل، نوع، وقانون. وهذا المعيار، الذي به ومن خلاله يكون شيء ما يكونه، ليس شيئاً يمتدّ إلى مادة بعينها ـ على سبيل المثال، المكونات الكيميائية ـ بل معيار يخترق كل شيء، يحدّد كل شيء، يقيم في كل شيء. ومجمل الحياة وجوهر شيء ما هما التقريرية التي هي في غاية الإتقان، المعيار الواحد الحاضر في الجميع. وعلى سبيل المثال، فنسبة المادة الكيميائية في هذه السمكة ليست فقط يمكن وزنه وإحصاؤه؛ لكن عضويتها، جسدها بكامله، لهما أيضاً صيغتهما المقررة و***habitus*** [1] الخاص بها، اللذان يميزانها عن غيرها من الحيوانات. وماذا يمكن لهذا الـ***habitus*** أن يكون غير المعيار، الحد؟ أيضاً، فإن العلاقة الخارجية لهذه السمكة ليست علاقة لا حدود لها، غير مقررة، عشوائية. إنها تحرك ذاتها، لكنها تمتلك حركة يحددها شكلها. إنها تعيش في بيئة مقررة، في عنصر مقرر، هو الماء، لكن، نكرّر من جديد، ليس في أي ماء، بل في ينبوع مقرّر، نهر مقرّر، أو بحر مقرّر. مياه المحيط هي بقدر المياه التي تتدفق في النهر، ومع ذلك فهذهِ السمكة، فقط لأنه لا يمكنها أبداً الهروب من الحد الذي هو مركز طبيعتها، الحد الذي يقرّر ويشمل كل شيء موجود فيه، لا يمكنها أن تعيش إلا في هذا الماء وليس في ماء غيره.

البشر والإرادة:

يمكنك تجربة هذه الحقيقة في نفسك، وإن مع تعديلات روحية. أنت كينونة

(1) (*Habitus*: ظرف، شرط، حالة، وضعية

أخلاقية، حرّة. وغيرك من البشر، الذين تتمايز أنت عنهم، هم أيضاً أخلاقيون وأحرار. والمادة، إذا جاز القول، العنصر الذي تتواجد فيه وتتشكل منه ككينونة أخلاقية هي إرادة أو حرية. كمادة، الإرادة متساوية في جميع البشر؛ الآخرون يريدون بالإرادة وفي الإرادة ذاتها كما أنت تريد؛ ولأن السمكة تعيش في المياه، يعيش الإنسان في عنصر الإرادة الشامل. لكن كما تعيش السمكة في الماء المقرّر، تعيش أنت أيضاً في إرادة مقررة. وعبر نوع إرادتك الخاص، الإرادة التي هي، كمادة وعنصر، واحدة وهي الإرادة ذاتها عند كلّ البشر تصبح إرادتك، تصبح إرادة نوعية، محددة، متميزة، تصبح شخصية. لكنك أنت، هذه الذات المعينة، لست شيئاً خارج هذه الإرادة النوعية؛ وهذه الطريقة من الإرادة، هذا الحد من الإرادة الواحدة المتساوية ـ في ـ كل ـ ذات، هي الآن جوهرك الخاص، هي أنت. وشخصية الإنسان ليست شيئاً يمتلكه أو يحوز عليه، بل هي متحدة مع الإنسان بوصفه ذاتاً معينة. وحين تتغيّر شخصيتك، معيارك، طريقتك المقرّرة، فأنت تتغيّر. فأنت تكون ما تكون عليه فقط ضمن هذا المعيار.

الحياة نفسها لها حدوها الضرورية، والتي فوقها وتحتها لا توجد حياة؛ فالمكان ذاته الذي تقيم فيه الحياة وتأخذ منه مصدرها هو أيضاً حدّها. الحياة ممكنة وفعلية فقط ضمن هذا النوع والشكل المقررين للعناصر، فقط ضمن المعيار العام الذي تفترضه الطبيعة على الأرض. إنه *جوهر الحياة نفسها* حتى تتواجد على الأرض، حتى تكون ممكنة وفعلية فقط ضمن الحدّ الذي تمتلكه الطبيعة في الصيغة والشكل للأرض. ومثلما أنه يخصّ طبيعة سمك السلمون المرقط أن يعيش فقط في هذه المياه المقررة، مثلما أنه يخص طبيعة كوكب ما في أن يكون ما يكون عليه فقط ضمن حد لبيئة مقررة، كذلك فإنه يخص الطبيعة، يخص الطابع الأساسي للحياة بشكل عام، أن يتواجد في الطبيعة فقط كما هي هذه الطبيعة، فقط كما هي أرض، ومن ثم أن تكون قادراً على الوجود فقط ضمن حدود السَنَة الأرضية، وهلم جرا.

أصناف الحياة على الأرض:

على الأرض، هناك معايير مقررة، واضحة للحياة، هناك مراحل، مستويات، وأنواع للحياة والتي تختلف إحداها عن الأخرى. وهكذا فإن كلّ نوع من أنواع الحيوان والنبات هو نوعه الخاص ومعياره الخاص للحياة. لكن الطبيعة نفسها، كطبيعة أرضية، هي المعيار الشامل، الوحيد، والنهائي لكلَ هذه المعايير المعينة العديدة؛ فالطبيعة هي المعيار الوحيد الذي يدعم ويحتضن المعايير المختلفة للحياة. ومن المؤكد أن هذا المعيار للحياة، الأرض، هو معيار مقرر؛ لكنه ليس معياراً مقرّراً على نحو متناه، مقيّداً على نحو متناه. بدلاً من ذلك، ففي تقريريتها، الأرض هي أيضاً معيار شامل، لا متناه، ذو مغزى؛ إنها المعيار الذي يضفي، يولد، ويحافظ داخل نفسه على معظم الأنواع، المتمايزات، والأضداد تنوعاً؛ فالأرض هي معيار عضوي وتنظيمي، منظومة. ولو أن الأرض، معيار الحياة، كانت مقررة بشكل متناه، لو لم تكن شاملة ولا متناهية في تقريريتها، فهذا المعيار للحياة قد يكون عندئذٍ، على سبيل المثال، المعيار لنوع مفرد من النباتات أو الحيوانات. وأي شيء في الوقت الحاضر يكون عضواً معيناً واحداً فقط في نظام الطبيعة الأرضية كان سيبدو وحدة متكاملة مستقلة، كان سيبدو الكليّة ذاتها. وكان المعيار الأرضي سيستبعد عندئذٍ التمايز، الانفصال، المحتوى المتعدد الغني الذي تمتلكه الأرض. وإذا كانت الأرض فقط عنصراً مقرراً واحداً على نحو مجرّد، على سبيل المثال، المياه أو كتلة ذهب صلبة مستقلة واحدة، إذا كانت الأرض فقط، كمعيار للحياة، معياراً مقرراً، محدوداً واحداً، نوع مقرّر واحد، فقط في ظل هذه الشروط كان سيتواجد هناك في هذه الطبيعة المحددة للأرض الأرضية والضرورة لتجاوزها كواقع محدود. ولكن بما أنه هنالك في الواقع تواجد لمعايير وأنواع متمايزة للحياة، ومع ذلك فهذه الأنواع المتمايزة العديدة مستوعبة ومحتواة ضمن المعيار العام الذي هو الطبيعة الأرضية ذاتها، فالطبيعة الأرضية إذاً هي النوع الشامل لكلّ حياة، النوع الذي طوّر كلّ الأنماط الممكنة للحياة حيثما تتواجد على الأرض؛ فالأرض ذاتها إذاً هي المعيار الوحيد، الحد الذي لا يمكن تجاوزه لكلّ

حياة؛ وتقريرية المعيار التي تمتلكها الحياة على الأرض هي من ثم التقريرية المطلقة والنهائية لكل حياة. الأرض هي الإمكانية الوحيدة للحياة وتفعيليتها الكاملة؛ والإمكانية الأخرى الوحيدة هي الإمكانية غير الطبيعية، غير المنطقية، التي هي بلا روح، ولا قانون لخيال سخيف.

وهكذا فإن جوهر الحياة هو المعيار للطبيعة الأرضية. وحيثما لا تكون جميع الشروط اللازمة للحياة حاضرة على نحو تام وكامل ـ وليس فقط العناصر والمادة الشاملة، بل أيضاً فإن الصيغة المقرّرة، المعيار، النسبة المقرّرة، إنما تخص هذه الشروط ـ ليس ثمة حياة. وهكذا فحين لا تصادف، في سياق تجربة ما، ماءً أو غلافاً جوياً على جرم سماوي، فالعقل، الخبرة، والطبيعة ذاتها يطلبون منك الاعتقاد والتسليم أنه لا توجد حياة عليه ولا يمكن أن تكون حياة عليه. يمكن لواحدنا بالتأكيد أن يتصور أنه تماماً كما يمكن انتزاع الريش من الإوزة دون أن تتوقف عن أن تكون إوزة، كذلك يمكن التقاط الحياة غير المجزأة وسحبها إلى قطع وتظل مع ذلك مستمرة. ويمكن للمرء أن يتصور أنه على القمر تتكون الحياة من الموت، أن الجفاف هو بلل، أن أجرام الكينونات القمرية مصنوعة من الزجاج، أن التخيلات ورجال المخيلة الصغار الذين يندفعون جيئة وذهاباً للتدمير على الأرض الخام، الضخمة يجدون قبولاً سعيداً ووجوداً آمناً على الأجرام السماوية السمحة. لكن أولئك الذين يعتبرون القابلية على التخيّل احتمالية ما، الذين يعتقدون أنه كما يمكن أخذ الريش من الإوزة، كذلك يمكن أخذ الجوهري من الجوهر والحقيقة من الحقيقي، ومع ذلك يبقى الجوهر هو ذاته والحقيقة هي ذاتها، فقبل أن يعلمونا بمثل هذه الأمور في السماء، فإنه يمكنهم تقديم دليل على الأرض حول هذه القابلية للانقسام للجوهر، لأنه حين يكون ممكناً بأية حال أن يبقى الجوهر جوهراً حين يأخذ منه المرء ذلك الذي به يكون على ما يكون عليه، لا بد أن يكون الأمر ممكناً عندئذٍ على الأرض. يمكنهم أيضاً أن يثبتوا لنا ما إذا كانت الحياة تستمر على أنها حياة حين تنتزع النخاع من العظام، حين يُنتزع القلب من الجسد. أنهم لا يستطيعون الاعتراض بأن هذه المطالب ليس لها علاقة بما يفعلونه. لأن الحياة

بشكل عام ليست أقل قابلية للانقسام من حياة الفرد. المياه، المعيار التحديدي للسنين، وما شابه ذلك ليس بالضرورة أقل استيعاباً واحتواءً في الاحتمالية الشاملة للحياة، في الطبيعة التي تبث فيها الحياة الشمولية، من القلب والنخاع الجوهريين للجسد العضوي الواحد، الضروريين له، وغير المنفصلين عنه.

إني أستمع للتو إلى ما رددت به علي، «الطبيعة شبقة للحياة. ثمة فضاءات هائلة وحياة صغيرة جداً! كيف نفهم ذلك؟ يا للتناقض!» لكنك تنسى أن تلاحظ في سُكرك بالحياة أن الشبق للحياة عند الطبيعة هو شبق للموت أيضاً. فولادة كينونة هو موت لأخرى؛ والباعث على الحفظ ـ الذاتي في الطبيعة هو أيضاً باعث على الدمار. أنت لا ترى كيف يكون الوجود والحياة المؤسفان لكينونة مفردة، التي لا يمكنها أن توجد دون معارضة وتناقض مع كينونة أخرى، أو كيف أن الحياة محددة ومشروطة على نحو بائس لأنها لا تستطيع الاستمرار إلا بحسب الحد والشرط بأنها تناقض. أنت لا ترى أنه لذلك يبدو الأمر كما لو أنه، إذا جاز لنا التعبير، إلى حدّ ما، إذا صح القول، إنه من سوء الطالع أن تعيش، أن تكون كينونة حيّة، مفردة، فرداً. وأنت أيضاً لا تدرك كيف أن هذه الوضعية، أنّ الحياة لا يمكنها أن تتواصل إلا كتناقض فقط، أن كلّ شيء حي له عدوه البشري، يُظهر حدّاً ونهائية للحياة ذاتها. من المعيب أن لا تكون الطبيعة شبقة للحياة مثلك، أنها لم ترتب الواقع وفقاً للترتيب الخاص بك، الذي يكون فيه الوجود المجرّد، الفردية الحسيّة، الفرد الحي هو النهائي والمطلق. إذا كانت الطبيعة شبقة للحياة بالمعنى الذي تتخيّله، كانت ستبدو عندئذٍ حياة منفصلة، متناثرة، ومشتتة. لو أن الطبيعة عيّنت وجهزت هيئة عالمية بعينها لكلّ نوع معين من الحيوان والنبات، بل لكلّ إنسان مفرد، الذي، في فرديته، يمتلك وجوداً أكثر شمولاً، أهمية، وحريّة بكثير من نوع حيواني أو نباتي، لكان سيتعين عليها تحضير هيئة عالمية كي يقطنها بمفرده. وكان هذا الترتيب سيبدو بالتأكيد أكثر هدفية من الترتيب الحالي، حيث تُضغط الأشياء العدائية، المدمرة تبادلياً التي تخص الحياة وتكوّم كلّ واحد على قمة الآخر. كم كان سيبدو هذا الترتيب رائعاً! فالموت، هذه الحقيقة الغريبة والخطيرة في الطبيعة، التي،

إذا ما درست بعناية، من شأنها أن تحرمك من كل أمل بأن كينونات أخرى تتواجد على الهيئات العالمية الأخرى، الموت كان سيختفي بلا شك من الخلق. مثل هذا الإنسان المستقل، الذي يعيش عالمه الخاص، مثل هذا الإنسان المطلق لن يموت أبداً. يموت الإنسان فقط بالإنسانية؛ يموت الإنسان فقط لأنه يتواجد منفصلاً وفي الوقت ذاته في وحدة أساسية مع غيره من البشر. الموت حاضر فقط حيثما يكون وحدة وتمايز على حدّ سواء. إذا كانت الدولة، ومن ثم تاريخ العالم ـ لأنّ أصل الدولة هو أصل تاريخ العالم ـ إذا كانت اللغة، ومن ثم العقل، قد نشأت عن طريق التعاقد، لماذا لا ينبغي للموت إذاً أن يكون نتاجاً لجماعة، لعقد، لمجتمع لبشري، لماذا لا يكون للموت، أيضاً، أرضيته في *العقد الاجتماعي*؟ وحتى النباتات والحيوانات أبرمت اتفاقاً وضعت عقداً فيما بينها مفاده أن واحدهم يفسح الطريق للآخر، أنّ المدخل إلى حياة أحدهم مشروط برحيل الآخر. وهكذا، فإن نوعاً معيناً من النبات، إذا ما تم نقله ليعيش كلّه بذاته على إحدى هيئات العالم، لكان سيمتلك مجالاً لانهائياً من الوجود هناك؛ وبلانهائية مجال الوجود، وفي هذه التوحدية والعزلة المطلقتين، كان سيختفي أساس الموت وضرورته. وبهذا التشتت للحياة، هذه التعددية للفرد إلى ما لا نهاية، فإن الحياة كانت ستدخل جميع الأجرام السماوية، وكان السلام والهدوء سيتواجدان على الأرض، وكانت الحياة الأزلية ستحضر في كل الطبيعة. وبهذه الطريقة ستتم إزالة عيبين في آن واحد، ذبابتان مزعجتان ومدمرتان كانتا ستقتلان بضربة واحدة.

وهكذا فالحياة على الأرض تبدو لك صغيرة ومحدودة للغاية بالنسبة للكون العظيم. والعالم يبدو لك أنه جدير بخالق لا متناه فقط حين تكون الحياة متعددة على نحو لا متناه، لا تعد ولا تحصى مثل الحشد الهائل للأجرام السماوية، جيش الأحياء، أولئك الذين يتمتعون بالوجود ويفرحون بذواتهم. لذلك، أنت توسع هذه الحياة وتضاعفها إلى ما لا نهاية. أنت تبدّل الملاحق لهذه الحياة الدنيوية المحدودة، بأجرام أخرى وكينونات أخرى، كما لو أن مساحات الأجرام السماوية كانت شاغرة فقط حتى يمكنك أن تضع فيها، كما في قرص العسل، العسل الأحلى لخيالاتك. لكنك

من جديد تخطئ بحقّ المعيار المجرّد لدماغك؛ أنت تفقد نفسك على المكان وفي المكان. ففي حين تتخيل أنّ الخليقة يمكن أن تُجعل تامة وكاملة فقط من خلال ملء تلك المساحات الفارغة، في حين تُجرف من خلال المحرك البخاري لدماغك غريب الأطوار، فأنت تتغاضى عن نقص، عن فجوة على الأرض والتي لم يتم ملئها. وهذه الفجوة، التي تصرخ إلى السماء، هذه الأكثر إثارة للرعب بين كل النواقص، هذه المساحة الفارغة، التي لا بد أنها كانت حجر عثرة أمامك قبل أن تصرخ ضد خراب السماء، وهذا الصدع العظيم في الخلق، هو النهاية، الحد، النفي للحياة نفسها، هو الموت. لأنه لا توجد حياة في الموت؛ إنه الخراب الأنقى، الفجوة الأكثر ترويعاً في الحياة. وبالتأكيد فإنّ كينونة جديدة تأخذ دائماً مكان كينونة ميتة. لكن هذه الكينونة، الموجودة الآن، وسوف لن تكون من ثم في يوم من الأيام؛ هذه الكينونة المقررة لن تعود أبداً، فقد رحلت على نحو أزلي. والمكان الذي اعتادت هذه الكينونة التواجد فيه سوف يبقى فارغاً إلى الأبد؛ فالكينونة هي *هذه* الكينونة لكن لمرة واحدة؛ والإنسان هو هذا الإنسان المقرّر كلية الآن فقط، لمرة واحدة فقط. والكينونة الأخرى، المتميزة على نحو جديد والتي تحلّ محلّها لا تملأ المكان الفارغ للكينونة السابقة فقط لأنها شيء مختلف. للقيام بذلك فإنها يجب أن تكون تماماً كالكينونة السابقة بالذات. فالعالم كله مليء بالثقوب كالاسفنجة؛ والأرض كلها مثقبة كالغربال؛ ففي كل مكان هنالك صدوع، كسور، شقوق. وبالقدر الكبير نفسه الذي مات فيه ناس، تتواجد هناك مساحات فارغة وأماكن غير مأهولة؛ فكلّ موت هو صدع وشق قويان في الطبيعة الحية. ما هو الخواء والفراغ في الأجرام السماوية، هذا النقص المكاني غير المؤذي، الذي هو في الحقيقة مجرد نقص في مخيلتك، حين يُقارن بالنفي المؤلم للحياة الذي هو الموت؟

هل ثمة حياة أخرى خارج الأرض؟

أيها الأحمق! في العوز البسيط أنت تضيع العوز الحقيقي؛ في الفجوة المتخيّلة أنت تضيع الفجوة حقيقية! فلو كان لتصوراتك أساس وواقع في الطبيعة، فإن

سلسلة الأحياء لم يكن ليقطعها لا فراغ ولا موت، لأن الكينونات الحية على زحل أو أورانوس لا تعوّض النقص الإيجابي على الأرض. وكان على الكينونات الحية الأخرى أن تكون استمراريات دون انقطاع للكينونات التي تعيش هنا، استمراريات التي هي غير متميزة، لكنها مرتبطة آنياً ودون انفصال باستمرارية الحياة للكينونات الأرضية. الكينونات الحية الأخرى سوف تملأ مكان الموت؛ وحياة الكينونات الأخرى ستصبح على الفور متحدة مع حياة الكينونات الأرضية، وهكذا فإن حياة هذا النبات، هذا الحيوان، ستكون في ذاتها سلسلة غير منقطعة لتلك الكينونات السماوية. وعلى سبيل المثال، فهذا النبات، الذي هو الآن مزهر، فبحسب السوداوية الحالية والحزن المظلم للطبيعة، له نهاية مفروضة لحياته. وعند نقطة يقترب فيها الآن من نهايته، ستبدأ فيها حياته على أورانوس، أو حياة أورانوس؛ وكما قدّم الأمر سابقاً في الورقة، الجذع، والزهرة، سأقدمه الآن في الكينونة العليا لأورانوس. (كما هو الحال في رسوم الأرابيسك الخيالية، فإن الكينونات السماوية ربما تنبت من السيقان والأزهار.) وبعد أن ينهي حقبته على أورانوس، فإن حقبة لنجم آخر ستبدأ مرة أخرى فيه، وهلم جرا إلى الأبد. ومن ثم، فسوف لن يكون هنالك ثغرات في الطبيعة، لا نقص في الحياة، فقط إذا كان السكان المستقلين للأجرام السماوية (الذين هم، في خيالك، منفصلون مكانياً عن هذه الحياة والذين هم، من ثم، لا يملأون الثغرات أو لا يزالون ألم الموت) حقباً، أشكال حياة، حالات نباتات، حيوانات، بشر، إذا كانوا مقدمات وملاحق لحياتهم الدنيوية الخاصة. لكن في الوقت نفسه، فإن هذه الحقب السماوية يجب أن تُفصل أو تُميّز عن أشكال حياتها الأخرى. وإلا فإن النبات في حقبته الأورانوسية سيكون شيئاً مختلفاً عن النباتات في حقبته الأرضية، ومع هذا التغيير ستدخل هناك كينونة ـ لم ـ تعد، فجوة للملء، خشية أن يصبح نقصاً في الخلق. وهكذا فسوف يصبح كاملاً تماماً فقط إذا لم يكن يتضمن أي تغيير، لأنه في كل تغيير يزول شيء ما، وهناك سينشأ مع هذا الهلاك لا ـ كينونة أو نقص. ولأن كل حياة تقوم على التغيير، سوف لن يوجد هناك أي عوز للحياة في العالم فقط إذا لم توجد هنالك فيه أية حياة على الإطلاق. فقط حين لا تُفترض حياة سوف لن تجد نفياً للحياة.

وهكذا، عندما تحاول إلغاء حدود الحياة عن طريق ملء الأجرام السماوية بالكينونات الحية، كما يقول المثل، فأنت تضع السدادة بجانب الثقب، لأنك لا تبعث الحياة بالموت وتملأه عبر هذه المحاولة. دع الموت خارج العالم! وما دامت «للأسف» و«الويل لي»، صرخة الموت، تضغط من خلال أذني على نفسي، فأنا أعتبر نفسي مبرراً في التأكيد على أنها تخيلات مجرّدة هذه الملاحق والتذييلات التي تعيش على النجوم، وكل امتداداتك، تكراراتك، استئنافاتك المملة للحياة. وهذه الحشرجة الأخيرة للموت، حتى وإن كانت لعجل أو خنزير يحتضر، هي الدليل الأكثر تعبيراً، أو بالأحرى صراخاً، على المساحات الفارغة في الطبيعة، هي نغمة قادمة إلينا من الأعماق المقفرة للطبيعة، والتي يمكن أن ترشدنا بشأن الأجساد العالمية الأبعد والتي يمكن أن تكشف أن الموت هنا على الأرض لن ينهي الحياة فقط إذا وجدت هناك حياة أخرى، أن الموت لن يكون نهاية هذه الحياة فقط إذا كانت هذه الحياة ليست نهاية وحد كلّ حياة، ومن ثم، فقط لم تكن كل حياة ممكنة وأشكال الحياة غير محتواة، موضوعة، ومُدركة في هذه الحياة.

ما بعد الموت في النجوم:

التمثيل الذي يقول إن المرء بعد الموت يتجول من نجم إلى نجم، إن النجوم هي أماكن سكن جاهزة ومريحة للكينونات الحيّة المفردة، إنما هو فارغ وسطحي ويتناقض بشكل خاص مع الطبيعة والروح لأنه يسحب التراجيديا العظيمة والخطيرة للطبيعة إلى العالم العادي للحياة الاقتصادية البرجوازية للفلسطيني القديم[1]، لأن هاوية الطبيعة التي لا قعر لها تتحوّل إلى ساقية جدول ضحلة والتي يجمع قربها الأفراد حشيشة الحب الساحرة ويسترخون مع الشاي والقهوة من أشعة الشمس الحارقة للحياة الفعلية وللعقل، الذين يرون فيهما فقط أنفسهم وقد تم انعكاسها. في هذا التمثيل، الذي يحوّل كل طبيعة إلى قصر أو فندق مشادين

(1) مصطلح الفلسطيني القديم يرد بكثرة في هذا العمل، خاصة ضمن الحكم؛ وهو يعني أحد سكان فلسطين القديمة، لكنه يعني أيضاً الشخص الذي تقوده الماديات ومن ثم فهو يعاف عادة القيم الفكرية أو الفنية. ـ مترجم عربي!

بشكل جيد حيث يمكن للمرء أن يتقلّب من غرفة إلى غرفة، يتم بالكامل تجاهل ما هو خطر من جدية، ظلمة، وكآبة في الطبيعة. فاللّه لم يخلق العالم كوزير للخزينة أو اقتصادي؛ فالليل في الطبيعة كان قد أنتج من الليل في اللّه. فقد نسي اللّه نفسه عندما خلق العالم. فقد أنتج الطبيعة، بـالإرادة والوعي فعلاً، لكن ليس من الإرادة والوعي، لكن من طبيعته، إذا جاز القول، في خلفية وعيه. ليس كرأس يحسب بذكاء لرب الأسرة أو رئيس العمال، بل كشاعر نسي ـ ذاته، فأنتج التراجيديا العظيمة للطبيعة.

الفهم بين اللّه والطبيعة:

حين يؤكد المرء مبادئ المعرفة الأكثر قدماً، فربما أن المرء يؤكّد بحق أن ذلك الذي هو ليس السبب الوافي لمعرفة حقيقة لا يمكن أن يكون السبب الكافي لجوهرها ووجودها. لكن اللّه الذي يُفهم *فقط* كشخصي، فقط في ظلّ تحديد الشخصية، اللّه الذي يُتصوّر فقط بطريقة معادية لمبدأ وحدة الوجود antipantheistically، فقط كحد أقصى والذي هو معارض للجوهر، ليس سبباً كافياً لمعرفة الطبيعة ومن ثم ليس سبباً كافياً لجوهرها ووجودها. وحدها تلك الكينونة التي هي مبدأ التغييرات الخاصة بها، التي تقف في أساس جميع تغييراتها كوحدة حاضرة ـ دائماً، جوهرية، التي بالنسبة لها، وفقاً لذلك، التغييرات هي نحو الداخل، محايثة، محددة بتلك الكينونة ومتطابقة معها، وحدها تلك الكينونة لها تاريخ. فالحجر الذي يغير اليدين من الشحاذ إلى الملك، الذي ينتقل من أمريكا إلى أوروبا ومن هناك إلى آسيا، لا يزال لا يملك تاريخاً، لأنه ليس المبدأ لهذه التغيرات المكانية. وللسبب ذاته بأنّ الحجر ليس مبدأ هذه التغييرات، فهي ليست تغييرات فعلية، ليست تغييرات نوعية، داخلية، لكنها مجرّد تغييرات خارجية للمكان ـ بكلمات أخرى، انتقالات. لكن النبات لديه تاريخ، لأنه مبدأ والذي هو متطابق مع تغييراته. التغيّر ليس تحولاً سطحياً بل خلق، توليد لأشكال خاصة على نحو جوهري؛ ومع كل تغيير، تدخل الحقيقة المتغيّرة ـ ذاتياً تحديداً أساسياً جديداً لمفهومها.

وهكذا فالتغييرات هي لحظات الحياة الداخلية لحقيقة ما، وكلّ التغييرات إذا ما أخذت مجتمعة هي الكينونة الحية بالذات لحقيقة ما. لذلك، فكل ما يكون أو له تاريخ، ومن ثم يكون مبدأ تغييراته، له حياة، ليس من شيء خارجي، بل من داخله الخاص، له حياة من ذاته ولذاته. التاريخ حياة، والحياة تاريخ؛ وحياة بلا تاريخ هي حياة بلا حياة. يمكن للوجود الخارجي أن يُعطى ويُضمن حتماً، لكن الوجود الداخلي، الأساسي، الحياة، لا يمكن أن يُعطى. وإلا لكان على الحقيقة أن توجد قبل أن تكون حية؛ فعلى الحقيقة أن تكون قابلة لأن تعطي ذاتها. لأنه وحدها الحقيقة التي هي في حيازة كينونتها وجوهرها الخاصين تكون حية. فالحياة هي وحدة الجوهر والكينونة؛ وهنالك حياة فقط حيثما توجد هوية ـ ذاتية مطلقة. وهكذا، كل ما هو حي يمتلك الأرضية والمبدأ لكينونته في ذاته؛ وحده ذلك الذي يوجد في ذاته ومن ذاته لديه حياة. أن تعيش لا يعني شيئاً آخر غير أن تكون *الأرضية لذاتك*؛ كينونة ـ في ـ الذات، كينونة ـ ذاتك، تكون التحديد الأكثر للحياة والأقل إنكاراً. لكن هل يمكنك فصل الكينونة ـ في ـ الذات عن الكينونة ـ الأرضية ـ للذات؟ إن عدم امتلاك أرضية المرء في ذاته يعني على وجه الدقة الكينونة ـ خارج ـ الذات، عدم امتلاك جوهر المرء داخل ذاته أو أن يكون داخل ذاته. لأن أرضية حقيقة ما يجب أن تكون جوهرها، ووحده جوهرها هو أرضيتها. وأين غير في جوهرها على أرضية الحقيقة أن تتواجد؟ أليس ذلك الذي هو حقيقة هو أيضاً ذلك الذي بسببه يتواجد، وأليس ذلك الذي بسببه يتواجد هو حقاً أيضاً ذلك الذي عنه ومنه يتواجد؟ لنأخذ الافتراض، «هذا جوهر يعيش؛ إنه يتواجد في ذاته»؛ هل يمكن لهذا أن يكون له معنى آخر غير أن هذه الحقيقة تتواجد في أرضيتها وأن أرضيتها تكمن فيها؟ فالحياة تكون حاضرة فقط حين يكون الأصل والوجود متطابقين، فقط حين تكون أرضية الكينونة، مبدؤها، هي الكينونة ذاتها، فقط حين لا تخطو حقيقة خارج أرضيتها، بل تبقى فيها، في حين تبقى أرضيتها في الحقيقة. الوجود هو دائماً أصيل، دائماً في البداية. الساعة ليست غير ساعة، منتج ميكانيكي ميت، لأن مبدأها، أرضيّة جوهرها، ليس متحداً معها، لأن صانع الساعات، الإنسان المخترع،

الروحاني، وليس الساعة نفسها، هو جوهرها. إنها ليست كينونة ـ في ـ ذاتها، بل بالأحرى فإن كينونتها ـ في ـ ذاتها هي خارجها في الروح التي فيها، بها، وعن طريقها تُبنى وتُحرك. فالساعة تصبح ساعة فقط حين وطالما أنها تحقّق غرضها. فهدفها الأكثر آنية هو الإشارة إلى الساعات الزمنية. لكنها تشير إلى الساعات الزمنية فقط عبر الحركة، وهذه الحركة لا تنجم عنها ـ فبالأحرى، روح المخترع هي المحرك لها، هي ذلك الذي فيه وبه تكون الساعة على ما تكون عليه. أنت، أيها الشخص الذي تبرم برغي الساعة، أنت فقط الوسيلة الخارجية لروح المخترع. وفي الحقيقة، وإن ليس في المظهر، فإنّ كل الساعات تتحرّك في روح مخترعيها وبها. الساعة لا تتواجد في ذاتها ولأجل ذاتها، ليست ذاتاً، فقط لأنها تمتلك مبدأً والذي منه وبه تتواجد، ليس في ذاتها، بل في مخترعها.

الطبيعة كتاريخ:

أقول الآن، بالنسبة لعين الباحث، تقدّم الطبيعة نفسها كتاريخ بالكامل. لكن التاريخ غير متوافق مع الإنتاج والتصنيع؛ المنتج المجرّد ليس له تاريخ. كتاريخ، الطبيعة هي الأرضية للتغييرات الخاصة به؛ الطبيعة هي الحياة، التي هي جزء لا يتجزأ من التاريخ، بوصفه الأرضية لذاته؛ ويمكن فهمها ومعرفتها فقط من ذاتها وفي ذاتها. بل حتى يمكنك إقناع نفسك بحقيقة الأفكار المعبّر عنها فقط عبر النظر إلى ذاتك ككينونة مفردة، ككينونة والتي هي وسائطية، مفترضة، ومستقلة. لقد ولدك أبوك وأمك. كفعالية لنوع في اتحادهما المتعلّق بالإنجاب، هما الأرضيّة لكينونتك. أنت كينونة مفردة، ونتيجة لذلك، كينونة والتي هي مفترضة في الأصل. لكن حين تدخل ضمن الحياة، أي، حين تصبح مستقلاً ـ لأن الاستقلال جزء لا يتجزأ من الحياة ـ لا تعود أرضية حياتك خارجك، بل متحدة معك في داخلك. أنت لم تعد طفلاً، كينونة مفترضة، إتكالية ـ لأن ذلك إنما هو اتكالي والذي هو منفصل عن أرضيته ومع ذلك فهو مرتبط بها في الوقت ذاته ـ فكينونتك المفترضة، كينونتك بوصفها قد توسط لها آخرون، تختفي مع طفولتك. كذات حيّة، مستقلة،

أنت كينونة والتي هي في الأساس، أصلاً، تبدأ من ذاتها، على نحو آني، بلا أرضية. من المؤكد أنك لا تزال تحافظ على اتكالية الطفولة في معرفتك وتحتفظ بآثار من أصلك في حَرَم تقواك. لكن في الحياة ذاتها، في الطبيعة، تُحلّ كافة المرفقات الملزمة في شعور الفخر بأصالتك، استقلالك، وآنيتك. إن بدايتك الحقيقية ليست من هم أكبر منك سناً بوصفهم أفراداً محددين وهم أنفسهم مفترضون، بل الإنسان في هؤلاء البشر المحددين، النوع البشري. وأن تصبح مستقلاً، إنساناً، لا يعني أكثر من أنك تدخل ضمن شعور أصالتك الآنية، أرضية وبداية كلّ البشر، الجوهر البشري ذاته. فحياتك تبدأ فقط باستقلاليتك، فقط عندما ينزل وجودك إلى الأرض ويبدأ من جديد، فقط عندما أرضية كينونتك تتواجد فيك. إن حقيقة تمتلك مبدأها وأرضيتها خارجها إنما هي مثل نسيج الذي لا يمكن حياكته من خيطان والتي يمكن أن تكون مرتبطة بحقيقة أخرى. فالساعة، على سبيل المثال، يمكن تقسيمها مراراً وتكراراً إلى خيوطها، إذا جاز القول، لتُحاك في حقائق أخرى. لكن الحياة ليست نسيجاً؛ إنها غير قابلة للتجزئة، إنها وحدة لانهائية مع ذاتها. إن كينونة حيّة إنما هي متحدة على نحو لا متناه مع ذاتها وهي تماسك ـ ذاتي بشكل مطلق. ووفقاً لذلك، الحياة هي فوريّة وأصالة، التصاق ـ ذاتي كامل وأرضية ـ ذاتية. وهكذا، حين تعتقد أنّ الحياة الطبيعية مصنّعة، منتجة، تمتلك أرضيتها خارج ذاتها، فأنت عندئذٍ تنسل الحياة مثل جورب طويل محبوك، أنت تفككها مثل ساعة، أنت توجه ضربة قاتلة للحياة.

من المؤكد أن الروح هي أرضية الطبيعة. لكن الروح تنتج فقط بطريقة روحية، تنتج فقط ذلك الذي هو في ذاته روحي وحيّ. وعلاوة على ذلك، أكثر بكثير مما تنتمي الإرادة والوعي إلى الروح؛ فالإرادة والوعي (مأخوذان بمعنيهما المستخدمين العامين) يقدّمان فقط نتائج ميكانيكية. لكن أكثر بكثير مما هما الإرادة والوعي التحليلي محتاجان لإنتاج حقيقة حية، أو حتى لأعمال الفن والعلم الأصيلين؛ فهناك حاجة إلى الروح والعبقرية بالنسبة لهم. لماذا ترغب أن تعزو إلى إلهك الإرادة والفهم فحسب، لكن ليس الروح والعبقرية؟ العبقرية

الفنية لا تنتج عن الفهم، الإرادة، والوعي، بل من ملء نفسه، التي يكون فيها متحداً مع نتاجاته والتي تكون فيها جميع أعماله متحدة، مع *الوعي*، الإرادة، والفهم. وهكذا فأعمال الفن الأصيل ليست مجرد أعمال؛ إنها تمتلك أرضياتها في ذواتها؛ وهي بذلك أعمال روحية، موحى بها. الطبيعة هي الأرضية والمبدأ لذاتها، أو ـ وهو الشيء ذاته ـ إنها تتواجد بدافع الضرورة، من النفس، جوهر الله، الذي يكون فيه متحداً مع الطبيعة. وهكذا فحتى النجوم يجب أن لا تعتبر على أنها مصنوعة من حكمة اقتصادية ومالية جيدة ـ التصنيع وجيدة ـ الترتيب، من روح التي تصنع آلات فقط، بل يجب أن يقرّ بها ويمكن أن يقر بها على أنها نابعة من الحياة ذاتها، من الطبيعة وتاريخها.

حياة النجوم:

كما أُكّد للتو، يتم تعريف حياة النجوم، ليس من خلال واقعة أن أفراداً يتواجدون عليها، بل من خلال واقعة أنهم الـincunabula[1]، اللحظات التاريخية البدئية للطبيعة. إنها الشباب الذهبي وأحلام صباح الطبيعة، التي فيها يظل يتواجد العالم الفعلي للمستقبل فقط في الخيال، في التألق الذي يخلب اللب. إنها الشرق الرائع والأسطوري في الطبيعة، جنتها؛ إنها أول الكينونات النقية؛ إنها، إذا جاز القول، متماثلة ذاتياً بالكامل في براءتها؛ إنها لم تنقسم بعد إلى جسد وروح، إلى طبيعة تجريبية ذاتية وطبيعة موضوعية مجرّبة، التي هي فعل انفصال وصيرورة ـ وعي، تعبير وتمييز، والذي لا يحدث إلا على الأرض. في السماء تتعلّم الطبيعة فقط التهجئة؛ إنها تتعلّم القراءة للمرة الأولى على الأرض. في السماء تحتفل الطبيعة بالليلة المقدسة قبل عيد الميلاد، لكن الاحتفال بعيد الفصح وعيد العنصرة يتم على الأرض. والموقع النبيل لكنه التابع أيضاً للنجوم في نظام الطبيعة إنما يرتكز على حقيقة أنها حدود كل فردية؛ على النجوم، تتلاشى كل كينونة ـ لأجل ـ الذات منفصلة ومحددة وتذوب في كينونة غير محددة.

(1) النسخ الباقية من كتب مطبوعة قديماً، خاصة قبل عام 1501. ـ مترجم عربي!

وجود الروح:

تتواجد الروح دون جسد وبمعزل عن الجسد، لأن وجودها تفكير، معرفة، وإرادة. لكن الفرد، الذي هو ليس روحاً، بل يعيش فقط بالمشاركة في الروح، لا يتواجد دون جسد. بالأحرى، ككينونة محدّدة زمانياً ومكانياً، الفرد بالضرورة هو كينونة تعيش جسدياً أو كينونة جسدية حية؛ والفرد هو فرد فقط في هذا، حياته الجسدية. والفرد الذي يعتقد بأزليته هو أيضاً متصوّر لهذه الحقيقة، ومن ثم، فهو يعتبر أنه من الصحيح والضروري أن يمتلك جسداً في الآخرة. ومع ذلك، فهذا الجسد لا يعود ذلك القميص الثخين، الجشيم، العملي، اليومي كالجسد الدنيوي، بل قميص محاك من مادة ناعمة، خفيفة للغاية، جسد مثالي، واضح وشفاف كليّاً. ويعتبر الفرد أيضاً أنه من الطبيعي جداً أنه، كصيرورة مراحل متصاعدة ـ دائماً تتواجد في عالم الروح، كذلك، أيضاً، فإن تقدّماً لا ينتهي ـ أبداً لذلك الذي هو أرق وأكثر كمالاً يستمرّ في العالم المادي. وهنا أعيد مرة أخرى، فمن المؤكّد أن لا شيء سوى العقل يقف في طريق هذا التصور للجسد الذي يُقطّر ويُصعّد في الرِقة إلى الأبد، وأنه حين لا يعترف المرء بحدود، أي، لا يعترف بعقل، فإنه يمكن للمرء أن يتصور دون عقبات جسداً والذي لا يتكوّن من شيء غير النور أو رائحة الورود ولمعان الزنابق أو، فعلياً، ليس سوى الروح، الخيال، أو سوناتا جميلة لموزارت. لكن هنا مرة أخرى عقل كريه، الذي، لأنه هو ذاته مقيّد ومحدّد كليّاً، فإنه يظهر حيثما كان حدوداً، نهايات، أهدافاً، معياراً، وقانوناً، وهنا من جديد عقل يشير إلى حدود لا يمكن تجاوزها. إن نهاية سلسلة الهيئات هو جسد الإنسان، الذي هو للتو جسد روحي، سماوي، أثيري. إنّ جسداً روحياً وسماوياً ليس أكثر من جسد حي ومسكون بنفس، الذي هو مأهول، مُتخلّخل، ومُفعّل عبر نفس ما. والأرض، المياه، والحجارة هي أجسام غير روحية، أرضية، هي أجسام مقيدة بالجاذبية. لكن الجسم الأرضي يبدأ في الاقتراب من الجسم ما فوق الأرضي حتى في النبات. ففي النبات، يرتفع الجسم لتوه إلى السماء، وتختبر الطبيعة قيامة الجسد وتمجيده. وفي الشكل البشري، يبلغ الجسد كماله في النهاية، بعد أن تقدّم عبر سلسلة طويلة من مراحل

مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأشكال الحيوانية. ويتوقف الجسد البشري عن كونه مستوحى ومناراً من قبل نفس والتي هي متطابقة آنياً مع هيئته المادية، بل من قبل نفس مثالية صافية والتي هي مستقلّة عن كلّ مادة، التي هي تتواجد في ذاتها، التي هي محدّدة ـ ذاتياً، التي هي تريد وتفكّر، التي هي روح. ومن ثم فالجسد البشري هو الهيئة النهائية والجميلة حقاً.

الشكل المحسوس الأخير هو الشكل الجميل، لأن الشكل الجميل هو الشكل الوحيد الذي يُشبع ويُجعل شفافاً بواسطة الروح، هو الشكل الوحيد الذي هو مُنار والذي هو يعكس الروح. وشكل كهذا هو أيضاً الصيغة الأعلى والنهائية لكل جسدية. ويكون الشيء جميلاً فقط عند النقطة التي يدرك فيها زواليته. فالزوالية جزء لا يتجزأ من الجمال. والزوالية ليست نتيجة للجمال، بل هي أرضية الجمال. الزوالية لا تقترب من الخارج أو من الخلف؛ إنما بالأحرى فالمحسوس جميل فقط في اختفائه، في زواله. والكينونة تشتعل في تلونية الجمال فقط في الضرورة الملحة للحظة الزمنية المختفية، فقط عند نقطة نهاية وجودها، فقط عند حدّ حياتها. والشرارة المضيئة للجمال تنشأ فقط عندما تجتمع البداية بالنهاية، فقط حين يلتقي الطرفان القاسيان للكينونة واللاكينونة بعضهما ببعض. ولأن الكينونة تمتلك الجاذبية، الروح، المعنى، والأهمية، ليس في الاستمرارية، بل فقط في الزوال، كذلك فإن حقيقة ما ليست جميلة ضمن وفي وسط كينونتها، لكن حيث يلتقي حد كينونتها باللاكينونة، عند الحد النهائي الذي ضمنه تظلّ كينونتها ظاهرة، حيث تختبر من ثم للمرة الأولى أهمية كينونتها، وحيث يتبقى لها هناك مجرّد تأمل، تذكّر، وانعكاس؛ مثلما أن النبتة، على سبيل المثال، ليست جميلة بأوراقها، جذورها، أو ساقها التي تستمر طويلاً، بل فقط بالزهرة، النقطة الأكثر زوالاً ونهاية وجودها. الجميل هو المحسوس في انتقاله إلى الروحي. لكن المحسوس يدخل الروح فقط من خلال الزوال. وهكذا فالمحسوس يكون جميلاً فقط حيثما يتوقف عن أن يكون محسوساً، فقط حيثما يختفي. إنه ليس جميلاً بعد اختفائه، حين لا يتواجد هناك غير العدم الصافي للمحسوس، نفيه الصافي، الروح غير المرئية،

وهي لا تتواجد قبل اختفائها، حين تتواجد بشكل كلّي في المحسوس وتكونه؛ والمحسوس جميل فقط في صيرورة الاختفاء. لذلك، فالشكل البشري جميل فقط لأنه هو الشكل الأخير، فقط لأنه الحد الأبعد لكلّ ما هو محسوس من فردية وجسدية، فقط لأن الطبيعة هنا تأخذ إجازة من نفسها، تختفي في الروح.

ماهية الجسد الحي:

لكن لاحقاً، أنظر إلى الجسد الحي بوصفه حياً، بوصفه عضوياً. قارنه بالحجارة، الماء، والأرض، أو بمنتج ميكانيكي، أو حتى بتمثيلاتك للجسدي والمادي. هل الجسد الحي مبني؟ هل هو مبني من أجزاء التي يمكن وضعها خارج بعضها بعضاً؟ بالقدر القليل ذاته الذي يمكنك فيه تقسيم النور، بالقدر القليل ذاته الذي يمكنك فيه تقسيم النفس، بالقدر القليل ذاته كذلك الذي يمكنك فيه تقسم الجسد العضوي. إنه عضوي فقط بوصفه حياً، لكن، بوصفه حياً، فهو وحدة لا يمكن تجزئتها، كليّة غير قابلة للتقسيم، مطلقة. وحين تقسم الجسد العضوي، فهو يتوقف لتوه عن أن يكون عضوياً وحيّاً. ولأنك تقسمه، يموت، لا يعود موجوداً. وهو يثبت وحدته غير المجزأة فقط من خلال حقيقة أنه يموت عندما يتم تقسيمه. ولو كان يقبل القسمة، لكان سيظل حياً بعد التقسيم. لكن عندما يتم تقسيم الجسد العضوي، فإن كليته، تُدمّر دونما انقسام؛ وحدها هذه اللا ـ كينونة غير المشروطة، هذا الموت غير القابل للتجزئة، هو الشهادة الأكثر مرئية على الوحدة التي لا تنفصم عراها، غير المشروطة للجسد الحي العضوي.

أنت تقول، «إنّ جسداً هو ذلك الذي هو قابل للتقسيم؛ فأجزاؤه خارج بعضها بعضاً». مع ذلك، فإن أجزاء الجسد العضوي ليست أجزاءً بل أعضاء. إنها ليست متخارجة واحدها عن الآخر بل متداخلة واحدها بالآخر. إنها قابلة للقسمة فقط بوسيلة خارجية، لكنها واحدة بغرضها، جوهرها، الذي هو النفس؛ وإذا ما أخذت مجتمعة، فإنها تولّد غرضاً واحداً فقط، فعالية واحدة فقط، شعوراً واحداً فقط، الذي هو الحياة ذاتها. لأنه بسبب هذا الحلّ للأجزاء إلى أعضاء لغرض واحد، بسبب

هذه الوحدة البسيطة، الجوهرية، ما فوق الحسية غير القابلة للتقسيم، يكون الجسد الحي العضوي كعضوي جسداً غير مادي، مادة غير مادية، واقعاً محسوساً غير مرئي. وحين تتجاوز الاعتبار لما هو مجرّد مادي، للميكانيكي، إلى الاعتبار للجسد العضوي، سوف ترى أنه جسد ممجّد، روحي، ما فوق حسي. وحتى الطبيعة لها سماؤها. وهذه السماء، التي يُقام فيها الجسد ويمجّد، هي الحياة، النفس. وهكذا، فإن القيامة والتمجيد للجسد يجب أن يُبحث عنهما في الطبيعة نفسها، لا خارجها أو ما وراءها.

على الرغم من أن تمثيلاتك المتعلقة بالحياة، الجسد، والنفس سخيفة جداً، غبية وحمقاء جداً، بحيث أنه كان سيبدو مثيراً للاشمئزاز جداً ومهزاراً جداً أن تلقي الضوء بكل خصوصية على ضعف شكل تفكيرك حول هذه الموضوعات، ومع ذلك سأظل أشير إلى عدد قليل من تعريفاتك من أجل توضيح حماقتك. أنا عرّفت الجسد العضوي بوصفه مادة لا مادية، بوصفه غير قابل للتجزئة، بوصفه غير مقيّد بالجاذبية. من الصحيح تماماً القول إن الجسد العضوي هو أيضاً مادي، إن الذراع لا تكون حيثما يكون الدماغ، إن الدماغ لا يكون حيثما يكون القلب، وهكذا دواليك، فالجسد العضوي، نتيجة لذلك، هو حقيقة مضاعفة بمكونات واحدها خارج الآخر. إنه من الصحيح القول إن التحديد الأساسي للمادة هو العلاقة الخارجية، وأنه، نتيجة لذلك، فالجسد العضوي، بقدر ما يتم تضمينه في تحديد العلاقة الخارجية، هو مادة. لكن هل هذا التحديد للعلاقة الخارجية هو تحديد أساسي، تحديد يجسد، يعرّف ويميّز الجسد العضوي؟ حين تكونون جميعكم قادرين على التحدّث عن الجسد العضوي ومعرفته بأنه مادة، بأنه جسد، علاقة خارجية، فأنتم تتحدثون عن *لا شيء على الإطلاق* بشأن الجسد العضوي ولا تعرفون شيئاً على الإطلاق عنه. وحين تعتبرون أن المادة هي ما يحدد الجسد العضوي، فأنتم لا تحددونه بعلاقة مُحدّدة ومحَدِّدة، لكنكم تجعلون من اللاشيء ذاته تحديداً له. من المؤكّد أن العلاقة الخارجية هي أحد تحديدات العضوية، لكنها *حسّية* فقط، لا أساسية؛ إنها فقط خارجية، لكنها ليست متجهة نحو الداخل؛ العلاقة الخارجية هي تحديد

لا يموضع حقيقة فعلية في العضوية، لكنها تحدّدها *على نحو سلبي*. وحده ذلك الذي يشكّل الأساس لمعرفتك بحقيقة ما هو تحديدها الداخلي. لكنك هل أنت تعرف أي شيء عن الجسد العضوي حين تحدّده كمادة؟ على العكس من ذلك، عندما تقول إن الجسد العضوي هو مادة، عندما تصنفه تحت المسمى مادة، أنت تدخل في تحديده الجوهري التجريد الفارغ والتمثيل الذي لا معنى له لمادة صرفة تتواجد أينما كان في الطبيعة، وأنت تقوم بعملية تجريد من كلّ شيء عبر الجسد العضوي وفيه. أليس كلّ شيء عضواً وغرضاً في الجسد العضوي؛ أليس كلّ شيء محدّداً لغرض أوحد، والذي هو الحياة نفسها؟ أليست هذه الكينونة للعلاقة الخارجية، هذه الوحدة الجذرية للغرض، التي فيها الكلّ واحد، أليست هذه الاختراقية والشفافية المطلقة، التي لا تلقي فيها حقيقة بظلالها على الأخرى، التي فيها ما من حقيقة غير قابلة للاختراق بالنسبة للأخرى، بل التي فيها يتخلّل غرض أوحد كلّ شيء، ألا يثبت كلّ هذا أن اللامادية هي التحديد الداخلي، الجوهري للجسد العضوي؟ الحيوان مميز عن النباتات، وأكثر من ذلك بالنسبة للأشياء أو الجواهر الأخرى، من خلال وظائف الأكل والشرب. والبشر يأكلون ويشربون. لكن هل الأكل والشرب تحديدان مميزان، ضروريان للبشرية؟ هو القول إن الإنسان هو شيء يأكل ويشرب تحديد حقيقي للإنسانية؟ بقدر ما أنّ هذا التحديد أحمق، تكون أنت أحمقاً حين تصنف جسدك تحت عنوان التحديد لأي جسد، أي، للمادة، ولا تعتبر أن *اللامادية* هي التحديد لجسدك. مفهومك الوحيد، معرفتك الوحيدة لحياتك، تتكوّن من ثم من حقيقة أنك لا تمتلك مفهوماً لها ولا معرفة بها. إن أرفع اعتراف لك يأتي حين تصل إلى الاعتراف بعوزك للمفهوم. وهكذا، في ما يتعلق بطريقتك الخاصة بالتفكير، فأنت ترتقي بنفسك إلى المعرفة العليا والحقيقية بالجسد العضوي حين تعرف أنه لا يمكن معرفته، حين تتصوّره على أنه لا يمكن تصوره. لأنك تقرّ بذلك أنّ الجسد العضوي هو النفي الفعلي لتمثيلاتك للمادة والنفس (التي هي، مع ذلك، ما تزال يُنظر إليها بشكل غير متسق كي تكون تمثيلات والتي يستحيل عليك بالمطلق أن تتخلّى عنها)، أن هذه التمثيلات لم تعد مناسبة

له أو تحدّده، بل إنها بالأحرى تشينه وتدمره، ونتيجة لذلك، لا يمكن تبين الجسد العضوي الحقيقي في تصوراتك لمادة صرفة، عارية ونفس صرفة، عارية.

إنها الحالة ذاتها عندما تطبّق تحديد الوزن على الجسد العضوي. هل يحدّد الوزن ويعيّن الجسد العضوي بوصفه عضوياً؟ هل أنت تحدّد الجسد العضوي عندما تقول إنه يزن عدد كذا وكذا من الأرطال؟ يعرف الأطباء الحياة فقط بعد الحياة، في الموت؛ إنهم لا يعرفون الحياة في الحياة، والجسد العضوي بوصفه عضوياً، بل فقط بوصفه غير عضوي، بوصفه ميتاً. ففي انحلال وفقدان الوحدة التي تشكّل وحدها التحديد الأساسي للحياة، ونتيجة لذلك، في الموت، ذلك الذي هو لا شيء في الحياة والذي يظهر على أنه شيء، يظهر بأنه التحديد. حين تقول، على سبيل المثال، إن المخ يزن من رطلين إلى ثلاثة أرطال، فهل أنت حدّدت المخ، هل قلت عنه شيئاً أو لا شيء؟ أؤكّد أن الوزن والقابلية للوزن أو القياس يحددان المعدن، مثلما تحدّد عدم القابلية للوزن أو القياس الضوء. لكن الجسد العضوي متعال عن تحديدي والقابلية للوزن أو القياس وعدم القابلية للوزن أو القياس على حدّ سواء؛ وبعبارة أخرى، تنطبق القابلية للوزن أو القياس على الجسد العضوي لكنها لا تتواجد *فيه*؛ إنها لا تحدّده أو تعرّفه، لأنّ التحديد بوزن معين إنما يخص التعريف الأساسي للمعادن. الوزن هو تحديد داخلي للمعدن؛ ومن ثم فالمعدن مقيّد بمكانه. لكن الجسد العضوي بحد ذاته يمتلك داخله مبدأ الحركة غير المقيدة؛ ويمكنه تغيير مكانه؛ إنه غير مرتبط بمكان مقرّر. وهكذا فوزن الجسد العضوي هو تحديد والذي ملغ، مخضع، وغير جوهري إلى درجة أن الجسد العضوي لا يكون ما يكون عليه بسبب وزنه.

مثل كل شيء يتحرك في المكان، يتغلّب الجسد الحي على الحدود المكانية فقط عن طريق الزمن؛ إنه يذهب من مكان لآخر فقط في الزمن. فقط عبر التمني والتخيّل، أنت لا تتحرك جسدياً إلى مكان بعيد. إن ثقل الجسد الحي هو تكبيل يشكّل عبئا على التمني والتخيّل. لذلك، لأنك تجعل دائماً من تمنيك وتخيلك المعيار لما هو يتواجد ولما يجب أن يتواجد، فأنت قادر على القضاء على هذا

التناقض بين ما هو فعلي وأمنيتك، بحيث يمكنك القول إن جسداً مناسباً لأمانيك يجب أن يتواجد. لكني لا أفهم كيف ولماذا تتوقع وجود هذا الجسد الذي يُتاق إليه، الساحر فقط بعد موت الجسد العضوي، العقلاني. إن أي جسد يتواجد في موضع يُرغب ـ به بناء على رغبة آنية لك هو جسد متطابق مع رغبتك ومن ثم فهو جسد هو ذاته رغبة. إن وجود هذا الجسد ليس طبيعة، عقلاً، واقعاً، بل هو في ذاته رغبة وخيال. ولو أنه كان حقيقياً، أو لو أنه كان لمرة واحدة حقيقياً، أو لو كان متصلاً بالعالم الحقيقي للمستقبل، لكان واقعه وفعليته حداً وتقييداً لرغبتك. كجسد فعلي، كان سيتناقض مع نفسه كجسد يُرغب به فحسب؛ إنه لا يعود يكون خفيفاً، غازيّاً، بخارياً كالمخيلة. أي جسد ليس جسداً حقيقياً، بل هو فقط بكاء على جسد وتمن له، يجب، عليه، ويمكنه أن يكون فقط المتمنى والمتخيل. لذلك لماذا تلعب أنت بمثل هذه الحيل الغريبة كتأريخ لوجود الجسد المتخيل فقط منذ موت الجسد العضوي؟

الوضعية ذاتها التي تنطبق على الوزن والمادة تنطبق على الانقسام. فالجسد العضوي يمكن أن يكون غير قادر على الكلام بسبب الصدمة، فهو يمكنه أن يفقد أعضاء، أذرعاً، سيقاناً، وهكذا دواليك. حين يكون أحد الأعضاء مفقوداً، أليس هذا الغياب عيباً، عوزاً؟ العيب، أو العوز، هو لا ـ كينونة والتي لا ينبغي لها أن تكون. إن كينونة ما تعوز لأنها يجب أن لا تعوز؛ أو، بكلمات أخرى، العوز هو شيء يجب أن لا يكون معوزاً حين يكون معوزاً. إن شيئاً ما يعوز لأنه مرتبط أساساً بذلك الذي يفتقده، لأنه ينتمي جوهرياً إليه. لأن ذلك الذي هو مفقود ينتمي جوهرياً إلى ذلك الذي هو مفقود منه، لأنه يجب أن تكون ثمة وحدة بين ذلك الذي هو مفقود وذلك الذي هو مفقود منه، لأن هذه الوحدة وحدها تناسب جوهر وحقيقة هذا الواقع، من ثم لا بدّ أن يكون ذلك الذي هو غائب غير غائب. وهكذا فالعوز لا يتواجد في هذا التناقض بين الكينونة وذلك الذي يجب أن لا يكون. وهكذا فالعوز لا يتواجد في حرمان نقي، غياب نقي، لكن فقط حيثما يكون ذلك الذي هو غائب مرتبطاً، أو متطابقاً، مع ذلك الذي

هو مفقود منه؛ أي، حيثما يُنفى العوز في وقت واحد في الطبيعة الحقيقية والجوهر الداخلي لذلك الذي يتواجد فيه. فالعوز والعيب يفترضان مسبقاً ذلك الذي لا يشعر بالعوز، ذلك الذي هو كامل.

عندما يكون جسم إنسان بلا عينين، فهذا عوز على وجه التحديد لأن العوز الذي يتواجد في هذا الجسم ليس موجوداً في الجسد العضوي ذاته الذي هو الجوهر والطبيعة لهذا الجسم. الجسد العضوي نفسه كامل بالمطلق ولا عوز فيه؛ إنه لا متناه. إنه ليس جسداً نوعياً تكمن خلفه سلسلة لا نهاية لها من أجساد محتملة، والتي تقود إلى تحقيق كامل لفكرة الجسد، بل هو الأنموذج البدئي والأمثولة الأعليان الفعليان، الفكرة الحقيقية بالمطلق لكل جسدية. لذلك، كجسد والذي هو ذاته فكرة وأنموذج بدئي، الذي في وجوده يكون المفهوم الحقيقي للجسد، هو جسد روحي. إن جسدك المحدّد الفردي، الجسد العضوي في الفردية المحدّدة لوجوده، وذلك بوصفه متمايزاً عن الجسد العضوي في النوع والجوهر، هو جسد قابل للموت، مفتقر، متناه، فقط لأن الجسد العضوي ذاته هو مطلق دونما عوز، فقط لأنه جسد أزلي، إلهي. فالجسد العضوي ذاته هو النوع، الجوهر، لجسدك المحدّد، المتواجد على نحو فردي. لكن النوع، الجوهر، ليس تجريداً. الجوهر يتواجد، له وجود؛ لكن وجود الجوهر ليس وجوداً في فرديته، ليس هذه الظاهرة المفردة، لكنه وجود في كليته، وجود بحيث تؤخذ كلّ الظواهر معاً، وجود كلّ ما هو مفرد ككلية غير قابلة للتجزئة. لماذا تكون العين المفقودة عوزاً فيك؟ لأن ما هو مفقود فيك موجود في آخر. حين تضيف كل الوجودات إلى بعضها بعضاً، وحين تدمج وتعوّض عن ذلك الذي هو غائب في أحدها بذلك الذي هو حاضر في آخر، فسوف تكتشف أنّ كل الظواهر إذا ما أُخذت معاً فإنها تشكّل الوجود الكافي، النقي، الكامل للجوهر ذاته، وأن الجسد العضوي، نتيجة لذلك، الذي هو على علاقة بجسدك الفردي، إنما هو نوع، جوهر، ليس تجريداً، بل مادة فعلية، لها حقيقة.

الكينونة الفردية:

أخيراً، سوف تكتشف أنّ الفعليّة ذاتها هي الجوهر التام على نحو كلّي الذي لا يمتلك نقصاً أو عيباً. لأن وجود الكينونة المفردة هو وجود مفرد، في حين أنّ وجود الجوهر هو الفعلية ذاتها، لأن الفعلية ذاتها ليست وجوداً مفرداً لذاته، بل هي كل وجود معاً، كلّ شيء بوصفه واحداً، وحدة كلّ الظواهر المعوّضة والمكملة تبادلياً. لذلك، لأن الفعلية هي كل الظواهر في وحدة، لا يوجد أي عيب أو نقص في الفعلية، لأن السلبيات، الخصوصيات، النواقص، والعيوب تختفي في الوحدة التي تحتضن كل واقع مفرد. وفي كل ألم، يحتفل النوع بالانتصار على فعليته الفريدة. والنشيج المؤلم للمريض والتأوهات الأخيرة للمتحضر هي أغاني انتصار النوع؛ وفي هذه، فإنه يحتفل بواقعه وبسيادته على الظاهرة المفردة. ثمة فلسفة وعقل في آلامك وتنهداتك أكثر مما في فهمك كلّه. فأنت تتفلسف فقط عندما تئن وتصرخ بألم. وأصوات الحكمة التي تصدر عنك هي فقط أصوات الألم. لأنه في الألم، أنت توافق وتؤكّد على الجوهر، النوع، الشمولية الكاملة بالمطلق، الفعلية التي تنكرها في فهمك. إنّ آلامك وتنهداتك هي الحجج الوجودية الوحيدة التي يمكنك أن توفرها لوجود الله. وقاعات المحاضرات الوحيدة لفلسفة الزمن هي مستشفيات وأماكن علاج المرضى. لماذا، حين تكون عينك مفقودة، يكون هذا نقص فيك؟ لماذا تختبر الألم حين يمزقك؟ لأن النوع الكامل بالمطلق، الجوهر، هو الواقع الحقيقي الوحيد، لأن وجود عيب فيك، هذا الشيء المفقود بالنسبة لك، ليس واقعاً، ليس شيئاً في جوهرك الحقيقي، لأن العيب الذي يتواجد فيك كان يجب أن لا يتواجد، لا يتواجد في الواقع والحقيقة. ونتيجة لذلك، حين تُقلع عينك، أنت تختبر الألم لأن تجربتك أن العين التي تُقلع لا يمكن أن تقلع من جوهرك، لأنك تختبر الحد والمطلق، اللا ـ كينونة والكينونة، كلّه مرة واحدة. وفي الإحساس بعوز معين، أنت تمتلك في آن الشعور بعدمية كليّة كينونتك الفردية من تلقاء ذاتها والشعور بالسيادة والحقيقة الوحيدتين للجوهر الذي هو كامل في ذاته. أنت تموت، ليس فقط حين يُقتلع عضو من جسدك، بل حين يتم تقسيم جسدك ذاته. بعبارة أخرى، أنت تموت لأن

الجسد العضوي ذاته هو جسد غير قابل للتقسيم، مطلق، لا متناه، لأنه هو النوع، الجوهر، الواقعي فعلاً. وحين ينقسم جسدك، فحقيقة أن نهايتك نتيجة آنية لهذا التقسيم إنما تعطي حجة لوجود وواقع عدم القابلية للانقسام الحقيقية على نحو فريد للجسد العضوي ذاته. ثمة *crimen laesae majestatis*[1]، كما على سبيل المثال، قطع الرأس عن الجذع تأتي معها بالموت فوراً. لكن ضربة السيف الذي يقطع هذا الرأس عن جذعه ليست الأرضية، أو السبب، لموت هذه الكينونة الحية؛ إنها مجرّد مظهر، وسيلة خارجية، أثر، مناسبة. وحده النوع، جوهر هذا الجسد، هو الأرضية للموت. فذلك الذي ينتهي عندما ينقسم هو من مادة غير قابلة للتجزئة. والنفي الحقيقي الذي يظهر كموت، النهاية الحقيقية لهذا الجسد المفرد حين يتمّ تقسيمه، هو المادة غير القابلة للتجزئة؛ وهذا وحده حقيقة دائمة. وهكذا فإن تقسيم هذا الجسد المفرد هو لا ـ كينونته، موته، لأنه لم يعد باستطاعته البقاء في المادة غير القابلة للتجزئة. الانقسام منفي، غير واقعي، في المادة غير القابلة للتجزئة ـ لأن الجوهر هو النفي لقابلية القسمة ولكينونة ذلك الذي هو منقسم ـ التقسيم هو النفي لقابلية التقسيم، لكن ما من تقسيم يمكنه يؤثر على الجوهر أو يمسّه. وهكذا فالتقسيم هو نفي النفي ـ الذاتي؛ فالنفي والدمار ينسحبان، إذا جاز القول، من الجوهر، ويمكنهما فقط العودة إلى ذاتيهما. فالنفي لذلك الذي هو وحده حقيقي هو نفي ـ الذات. وهكذا، فالتقسيم والموت، اللا ـ كينونة، هم متطابقون، في وقت واحد. ومن ثم فالتقسيم، في عدم انفصاليته عن الموت، في إنكاره ـ للذات، هو التأكيد والتوثيق المهيبان للجوهر الاستبدادي.

تمثيلات الحياة الأخرى:

أقول الآن كما تستخدم تمثيلاتك المتعلقة بالحياة الأخرى فقط لرأب الصدع في الصدوع والشقوق في المزاريب الخشبية *لكابيتوليومك*[2] *capitolium*، في

---

(1) جريمة الخيانة.

(2) معبد قديم مكرّس لجوبيتر، جونو، ومنيرفا، كان يبنى على الهضاب والمناطق البارزة الأخرى في إيطاليا والأقاليم. ـ مترجم عربي.

مزاريب مفاهيمك ومعارفك، تلك المزاريب التي تنقذ فيها المياه المنعشة والباعثة على الحياة التي تتدفق من السماء على الأرض والتي تجمع فيها فقط الأجزاء الأرضية، الطين والوحل اللذان يجلبهما المطر بطبيعة الحال معه، مثلما تستعمل حياتك الأخرى فقط لسد الفتحات الجوفاء والفارغة في شخصك الذي بلا روح وغير الجوهري، كذلك فإن جسدك المتعال، المتخيل المستقبلي، الذي سيكون أكثر امتيازاً وروحية من الجسد العضوي، فهو ليس سوى الضباب والرياح اللذين لا جدوى منهما واللذين تملأ بهما القشور الجوفاء (*sit venia verbo*)[1] وقِرَب الخنازير لتمثيلاتك سهلة الاختراق، المعيبة لأكثر الموضوعات علواً وقداسة، للجسد العضوي الحقيقي والحياة. إن جسدك العالي، الأخروي ليس غير الجسد الفعلي هنا على الأرض بقدر وبحجم ما لا تعترف به. الجسد العضوي الفعلي كما هو يتواجد في الحقيقة والواقع إنما يكون بمعزل عن تمثيلاتك له. وعلى الرغم من أنك في بعض النقاط تضرب على زيفها، فأنت لا تزال تعتبرها على أنها تمثيلات صحيحة أساساً. وهكذا فإن جسدك الأخروي هو وحده الجسد الفعلي طالما انه يتواجد في الواقع الذي تجهله ومن ثم فهو فقط الجسد الحالي المساء تصوّره والخاطئ. وفي الواقع، لديك حس داخلي بالجسد الحقيقي في تمثيلاتك للجسد المتعال إنما فقط في الأحلام، فقط في الصور الخيالية، ومن ثم فأنت تملأ نقص معرفتك عن طريق خيالاتك. فالمخيلة تخلق، تجعل موضوعات في الصور، تجسّد. أما الفهم فيأخذ قيلولة على وسادة الخيال الناعمة، وفي هذه الحالة الهنيئة، بوسيلة من سحر المخيلة، تُكثّف المسامات والفجوات في معرفته وتتجسّد في الأشكال المستقلة للآخرة. إن المسامات والفجوات في معرفته، وتحديداً لأنه ما من شيء فيها، هي البقع المضيئة الوحيدة في الفهم. وفي ساعة قيلولته الحلوة، يتدفق العديد من هذه البقع المتباينة معاً في وميض واحد، تتكاثف إلى بصيص واحد؛ التكثيف يضغط حتى قلبه. يستيقظ الفهم، مذعوراً؛ الرؤيا حقيقة، البقع المضيئة العديدة، التي تلمع معاً في وميض واحد، إنما تشكّل السماء المرصعة بالنجوم

(1) إذا ستعذرني عن التعبير.

للآخرة البعيدة. فالآخرة تتواجد في فجوات رأسك الفارغة؛ إنها تستهل بدايتها حين تستنفذ أفكارك. فنشأة هذه الآخرة واضحة للغاية: حياتك، طريقتك في التصرف والعمل، تصوراتك وتمثيلاتك للعالم والأشياء لها بدايتها وأرضيتها في مبادئ الفكر التي لم تشكك بها قطّ، أو، بالأحرى، في أحد مبادئ الفكر الذي هو صالح لك بالمطلق والذي لم تفكّر به قط. إن المبدأ الحقيقي والفعلي للفكر ليس فكراً محدداً أبداً، ليس بديهية والتي يمكن التعبير عنها على نحو محدّد أو في مفهوم واحد أبداً، بل هو *شكل التفكير* ذاته. كلّ تفكير يبدأ في الكينونة ومن الكينونة؛ وهذه الكينونة التي يبدأ منها التفكير هي فقط شكل وطريقة التفكير. وهكذا فالكينونة الجوهرية لفرد ما هي أيضاً شكل تفكيره، لأن طريقته في الشعور، الإحساس، والفعل، وجوده كله، إنما يعتمد على طريقة تفكيره ويتحدّد بها. يصبح العالم بالنسبة للفرد ما يمثله على أنه يكون؛ فكما يكون العالم بالنسبة له، وما يكونه العالم بالنسبة له، كذلك يكون. إن طريقتك المحدّدة والخاصة في التفكير، التي لم تخضع قط للاختبار الناري للشك والنفي، تصبح الآن بالنسبة لك الأساس المطلق لكينونتك ولجميع تمثيلاتك، أفكارك، وتصوراتك. لكن في نتائج هذا المبدأ، في تطبيقه، في تحديد الموضوعات التي تعقب منه ـ بكلمات أخرى، في تمثيلاتك، مفاهيمك، وتصوراتك المحدّدة ـ يشرق هناك فيك وعي نقصها، حدودها، ومن ثم، عيوب مبدأها. مع ذلك، أنت تصبح على بينة من الحدود والنواقص في مبدأك فقط ضمن نتائجه، فقط ضمن تمثيلاته المحددة، وليس ضمن البداية، ليس في وعلى مبدأ الفكر. ولأن العالم الذي تخيلته يرمز إلى العالم الحقيقي، بقدر ما يكون الشكل المحدّد لتمثيلاتك وتفكيرك بالنسبة لك العقل ذاته، كينونة ذاتها حقيقية، جوهرية دون أدنى شك، فأنت تجعل النقص في معرفتك نقصاً في العالم. وكون الروح، الشجاعة، الإرادة الحرة الجدية سوف تتخلى عن وجهة نظرك، فإن أساس طريقتك في التفكير والكينونة، وقد كُسرت فيك، عندئذٍ، بدل مواجهة الوعي الساحق للفراغ وحدود طريقة تفكيرك ومعرفتك، فأنت تتجاوز الحدود المفترضة للعالم المتخيّل الذي تحافظ عليه على أنه العالم الحقيقي، لتقف الآخرة هناك

الآن بروعتها وعظمتها الكاملتين. إن آخرتك ليست غير الحدّ بين تمثيلاتك للعالم والعالم الفعلي الحقيقي. آخرتك هي المعرفة الحقيقية والفعلية بالواقع، الذي هو، بالنسبة لك، حياة أخرى، بعيدة، تقبع خلف شكل تفكيرك. وحيثما تتوقف عن التفكير، يبدأ هناك الفكر أولاً. حيثما تعيّن موضوعاً على أنه غير معروف، يصبح هناك موضوعاً للتفكير والمعرفة. حيثما تتواجد آخرتك، يبدأ هناك العالم الفعلي. ولأن ذلك الذي تعني به آخرتك وتدعوه آخرتك قريب جداً منك، فإنه يكون واحداً مع تمثيلك ومخيلتك. وذلك الذي هو بعيد عنك على نحو لا متناه، الآخرة الحقيقية بالنسبة لك، هو الطبيعة الفعلية، العالم الفعلي، الجسد الفعلي، وهكذا دواليك، ومن ثم، حيث يبدأ العالم الأفضل. يتوقف عالمك المنوي، المتخيل حيثما يبدأ العالم الحقيقي. وحيثما تظهر فيك تمثيلاتك لآخرة ما، هناك تفنى بالنسبة لك التمثيلات *خاصتك* للعالم الحقيقي والعالم الحقيقي ذاته، كما تظهر بالنسبة لك وتتواجد في تمثيلك. أنت تفترض عالماً آخر، ثانياً، لكن هذا العالم الثاني هو فقط العالم الفعلي الأول، وفق ما يتواجد خارج تمثيلك وما وراءه.

طبيعة الجسد ما بعد الموت:

الفرد النبيل، الأزلي لا يشغل نفسه بأقل ما يمكن بطبيعة جسده المستقبلي، أو بكيفية ارتباط الحياة بالموت، أو بما إذا كان حتى ممكناً أن يكون باستطاعة شخص محدّد أن يبقى الشخص ذاته حين يتخلّى عن جسده المحدّد. إنه يعتبر الأمر بالأحرى دون كرامته بالكامل كي يستعلم حول ما إذا كانت النفس قادرة على مغادرة جسدها وما إذا كانت تغادره في الموت حقاً. بدلاً عن ذلك، يفترض الفرد أنه من الصحيح على نحو مطلق أنه، كما يحتجز الطير في القفص، كما يُحتوى الماء في الإناء، كذلك فالنفس محتواة في الجسد، فذلك الجسد هو البيت الذي يؤوي، سجن، النفس، وأنه، في الموت، ترتقي النفس ربما من الجسد مثل دخان من مدخنة. لكن النفس ليست محتواة في الجسد ولا يمكن سيتم استبعادها منه؛ إنها تتواجد ليس في الجسد ولا خارجه ومن ثم لا يمكنها مغادرته. لأنه في كلتا الحالتين، إذا ما في وسعها أن توجد داخل الجسد أو

خارجه، فإنها ستكون شيئاً محتوى في مكان معين وفي جسدية معينة. وهكذ فسوف تكون هي ذاتها حقيقة محددة، جسدية، لأنه فقط ذلك الذي هو جسدي يمكنه أن يوجد داخل الجسد أو خارجه.

وحدها اللاجسدية هي ما وراء ـ جسدية extracorporeality النفس. وهكذ فالنفس تتواجد في الجسد فقط بطريقة لا مكانية، ليس بشكل وطريقة حسيين بل بشكل وطريقة روحيين، أساسيين. النفس تتواجد في الجسد بالطريقة التي يتواجد فيها رسّام في فرشاته، يتواجد فيها موسيقي في آلته. نتيجة لذلك، فعلى الرغم من أن النفس غير مادية، فإنها تكون نفساً دون جسد بالقدر القليل ذاته تماماً الذي يكون فيه سيّد سيداً دونما خادم، ومثلما تكون الغاية غاية دونما وسيلة، وكما يكون الفنان فناناً دون آلته، لأن الجسد هو آلة النفس. الجسد حدّ أو قيد على الجسد بالقدر القليل ذاته الذي تكون فيه فرشاة الفنان حدّاً للفنان، ما لم يكن بالصدفة انه هو ذاته فرشاة.[1] كانت الفرشاة ستبدو حدّاً للفنان فقط إذا ما أراد، على سبيل المثال، أن يعزف بها على مفاتيح البيانو، أو ينفخ بها على الناي أو يعمل بها بالحجر. فالعضو يمتلك تحديديته وجوهره في الفعالية التي يكون لأجلها عضواً؛ إنه فقط الشكل الخارجي لتحقيق الفعالية. وكونه مناسباً وكافياً لهذه الفعالية، فهو لا يشكّل أي عائق، أي تقييد لها.

حين يكون على المرء أن يعبّر عن الحقيقة بالمعارضة الأكثر حدة، الأكثر قساوة للتمثيلات التقليدية المتعلقة بالنفس والجسد ـ والحقيقة يُعبّر عنها دائماً بالتعارض مع الكذب، مثلما تتحدّث الفضيلة على نحو غاضب ضد الشرّ ـ يجب على المرء فهم العلاقة بين النفس والجسد على النحو التالي: النفس مرتبطة بالجسد مثلما ترتبط النار بالوقود. الجسد هو الفتيل والشمعة، الوقود المغذي للنفس. وحيثما لا يوجد وقود، لا توجد نار. ويمكن للمرء أن يقول إنه إلى هذا الحد الذي تعتمد فيه النار على وقودها ويجب أن تكون مقيدة به؛ فالوقود هو أداة النار. لكن طالما أن

(1) *Pinsel*، هي الكلمة المستخدمة هنا بمعنى «فرشاة»، والتي يمكن أن تعني أيضاً «ساذج».

النار تلتهم الوقود وتنهيه، النار هي ربه وسيده. وكون الوقود الذي تقضي عليه النار قابلاً للاشتعال، وكون النار، الحارق الفعلي، هي فقط إدراك اشتعالية الوقود، وكونه ما من شيء يحدث للوقود لا يكون أيضاً ناشئاً منه، على نحو مشابه، ليس الجسد خارجياً بالنسبة للنفس ولا النفس خارجية بالنسبة للجسد. فالنفس لا تأتي من أي مكان، لكنها تأتي فقط من الجسد إلى داخل الجسد. لأن الجسد ليس جوهراً نقياً، ليس مادة عقيمة؛ فكما أن الوقود الذي يشتعل قابل للإحتراق، الجسد جوهرياً، في ذاته ولأجل ذاته، قابل لأن تكون له نفس. هذه القابلية لأن تكون له نفس، أو تحديدية النفس، هي التحديدية الداخلية التي هي متطابقة مع الجسد؛ فالنفس هي التحقيق أو الوجود الفعلي لهذه القابلية الداخلية لأن تكون له نفس. وحده ذلك الذي يكون الجسد في ذاته ولأجل ذاته يُكشف ويأتي إلى الوجود في النفس. لكن تماماً كما تنطفئ النار حين تلتهم كلّ المادة القابلة للاشتعال، كذلك، أيضاً فالنفس *المحددة*، بقدر ما تكون وطالما هي النفس المحدّدة، المعينة لهذا الجسد المحدّد، المعين، فإنها تتوقف مع جسدها المحدد.

والنفس؟

مع ذلك، ففي الواقع أنها وحدها تقريرية النفس تتوقف. فالنفس ذاتها، كما تتواجد على نحو مقرّر، تتواجد أيضاً في ذاتها، وكما هي مقرّرة، فهي أيضاً متمايزة عن نفسها وحرة منها بوصفها مقررة. في هذه الحرية من التقريرية، تكون النفس متطابقة مع ذاتها، ولذلك، فمن البديهي أن تكون أزلية. وذلك الذي لديه نوع والذي لديه هذا النوع، وليس ذاته، وذلك بوصفه جوهره ومفهومه، إنما يكون قابلاً للموت. لكن النفس، خلافاً للفرد، لا تندرج تحت عنوان أي نوع؛ ومثل مفهومها وجوهرها الخاصين، النفس لا متناهية ونتيجة لذلك فهي أزلية. لكن النفس تكون قابلة للموت بقدر ما تكون متحدة بالوجود المفرد لفرد ما ومتمايزة عن ذاتها كمادة متطابقة ـ ذاتياً. وتتشكّل الروح، الوعي، العقل، والنفس ذلك الذي هو مادة متطابقة ـ ذاتياً في كل تنوع وتعدد. وهكذا، بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يمكن للمرء الحديث عن نفس واحدة، كما لا يمكن للمرء الحديث عن نفوس بصيغة

الجمع. لأن الإفرادية غير قابلة للإنفصال عن الحسية، الجسديه، والمكانية. وحد
الحسي لديه صيغة جمع؛ وحده ذلك الذي هو حسيّ في وجوده وما فوق حسي
في جوهره، وحده ذلك الذي يندرج تحت نوع ما، يتواجد بوصفه متعدداً، كثيراً
ومفرداً. نتيجة لذلك، أنت لا تعرف النفس حين تعرف أنفساً فقط أو نفساً واحد
مفردة. أنت تعرف النفس المفردة فقط مثلما يمثلها *الأوربيس بكتوس* الشهير في
رسم ملون.[1] ويمكن للمرء أن يشعر، يرسم، يفهم النفس المفردة لأنها ليست سوى
الإنسان الموجود، الإنسان المفرد كما هو متجسّد كليّاً. لكن هذه النفس على وج
التحديد قابلة للموت، لأنها لم تعد نفساً، بل الإنسان المفرد، الموجود حسيّاً، أو
النفس في تقريريتها. وحين تلتهم النفس المفردة، إذا جاز القول، جسدها، حين لا
تعود تمتلك وقوداً مغذياً في جسدها، حين هي، من خلال الاستخدام المتواصل
تبلي جسدها وتلهمته، حين لم تعد لها المادة نقيضاً لها وموضوعاً، والتي تثبت
فيها ذاتها، حين لم تعد تمتلك ذلك الذي ينفي، يستهلك، يتسيد كي تكون ما تكون
عليه ـ النفس ـ عندئذٍ يجب أن يعقب ذلك الموت. الجسد هو المعارض والموضوع
للنفس؛ والنفس تكون نفساً فقط في القهر والنفي المتواصلين لمعارضتها. اللامادية
ليست محمولاً ميتاً، مستقراً، ثابتاً والذي يعتمد على الجسد كملكية تعتمد على
حقيقة؛ اللامادية تتواجد بحد ذاتها كمادة نافية ومستهلكة فحسب. فما أن تُمْتَص
كل مادة وطاقة من الجسد ـ والجسد المفرد، في ذاته ولأجل ذاته كمفرد، إنما
هو متناه، الجهاز الذي انقضى عهده للقدرة المحدودة ـ حتى لا يعود قادراً على
أن يكون نفساً معارضة، ومن ثم مفردة محدّدة تختفي مع جسدها. ليست النفس
شيئاً، ليست واقعاً ميتاً، ليست جوهراً مستقراً، ثابتاً والذي يستقرّ في جسده مثل

(1) *الأوربيس بكتوس* أو *الأوربيس سنسواليوم بكتوس* (العالم المرئي عبر الصور) (1658)، هو كتاب للأطفال خطّه المربي التشيكي، يان أموس كومنسكي (بالألمانية، يوهان أموس كومينوس؛ باللاتينية، إيوانيس أموس كومينوس) (18 آذار ـ مارس 1592 ـ 15 تشرين الثاني ـ نوفمبر 1670)، الذي ساهمت تقواه وأفكاره التعليمية في الإصلاحات بعد حرب الثلاثين عاماً. وهذا العمل، الذي حظي بشعبية هائلة في كل القرن الثامن عشر، كان كتاباً موسوعيّاً، دليلاً إلى حقيقة العالم من خلال الصور، وهو يقدّم النظرية القائلة إن الحقيقة التجريبية هي الدليل الأفضل لفهم اللغة والمفاهيم على حدّ سواء. مترجم عربي!

محارة في صدفتها؛ إنها حياة نقية، نشاط نقي، نار مقدسة، ما فوق حسيّة. إنها لا تكتمل أبداً، لا تنتهي أبداً، ليست نتاجاً؛ فالكينونة الثابتة لا تناسبها أبداً. إنها *تصير* دائماً، إنها لا *تكون* أبداً. إنها نشوء أزلي؛ إنها تبقى إلى الأبد في بدايتها. البداية، الوسط، والنهاية لا تتواجد إلا في واقع متناه، لكن النفس تبقى ضمن ذاتها، فهي إلى الأبد شابة وبداية جديدة. لكن هذا النشاط النقي الذي هو نفس، كما هو مقرّر، بقدر وطالما هو مع الجسد المشروط المفرد ـ أي، إلى الحد الذي يكون فيه فرداً ـ ينتهي مع الجسد.

الأزلية الفردية بين الجسد والنفس:

معظم الذين يعتقدون بالأزلية الفردية، حين يتحدّثون عن جسد في حياة مستقبلية، يبدو أنهم يميزون بين الجسد والنفس. لكن حين يضع المرء معاً كلّ تمثيلاتهم وآرائهم، يبدو أنهم يمثلون النفس كشيء جسدي نوعاً ما، كمادة دقيقة تميز بين الشكل والصيغة. ومثل الأب القديم الذي كان يؤكّد على أنّ النفس هي جسد بنوعية فريدة من الصفات، جسد هش بألوان لامعة وشكل بشري كامل، يبدو أنهم يمثلون النفس على أنها ليست غير الإنسان الداخلي، الفرد غير المرئي، الصورة المرآة، انعكاس فردية الفرد في ذاته. إنهم يتخيلون أنّ النفس يجب أن تكون شيئاً ضبابياً، مخثّراً في هيئة متمايزة، ونتيجة لذلك فهي شيء والذي هو طري، أزرق سماوي يومض بالنور، أو على الأقل شيء يشبه الشبح ومرعب. إذا لم يكن هذا صحيحاً، كيف كانوا سيعتقدون بأزليتهم، كيف كانوا سيرفضون الاعتراف بالموت على أنه نهائي، كيف كانوا سيقولون إن الروح تغادر الجسد، كيف كانوا سيتحدثون عن الانفصال الحقيقي، المكاني، الحسّي للنفس عن الجسد؟ حين يُريهم المرء أنهم ذات يوم لن يتواجدوا، ماذا سيكون باستطاعتهم أن يستنتجوا من هذا، «نتيجة لذلك، نحن نذوب في نفس العالم أو في المادة البدئية؛ نتيجة لذلك، النفس تنحلّ في روح العالم»؟ وبمثل هذه الطريقة، مأخوذين بما هو أسوأ من الأنانية الحيوانية، التي لا تسمح لهم أبداً بالوصول إلى البصيرة الأنقى من

كل الجواهر، يلوثون الجوهر النقي والمقدّس للنفس بتمثيلاتهم الدنيئة وأشكال تفكيرهم الموحلة. وبمثل هذه الطريقة، يتحجّر الجوهر المتحرك والحي، المحترق والمتدفق أزلياً في الصورة الجامدة لفردية النفس المغارة المظلمة، الباردة لتلك الأرواح المتعثرة والمكرهة التي تسللت إلى جلود ضفادع أنانيتهم الساحرة، تلك النفوس الطاهرة التي، بدافع الاعتقاد بالله، بدافع الفضيلة والتقوى، بدافع التضحية بالنفس، تعتقد بذلك الذي لا يمكن التضحية به، بالاستمرارية الأزلية لذواتهم. ينبع اعتقادهم بأزليتهم من اعتقادهم بالله أو الفضيلة، وهو ما يعني القول إن القتل ينبع من الحب للبشرية، أن السُكْر ينبع من التعفف، أن التخليط في العلاقات الجنسية ينبع من العفة! أية ظواهر لا معقولة هي فضيلتك وتقواك وإيمانك! لأن أساسي فضيلتك ومعتقدك، المرجعان الرفيعان اللذان تؤسسهم عليهما، هما فقط تمثيلاتك الدنيئة للنفس، الحياة، والروح، لذلك فحين تُدمّر تمثيلاتك الزائفة، تُدمّر فضيلتك ومعتقدك.

بتجريد ما هو محسوس من التعابير المحسوسة والمكانية، مثل، «النفس تكون في الجسد؛ الروح تغادر الجسد»، عن طريق استخلاص معناها المفاهيمي وعن طريق التأمّل بالفروق الهامة بين النفس والروح أو التفكير والعقل، يعترف المرء أن التمثيل القائل «النفس تكون في الجسد» ليس له معنى غير أن النفس تجربة، وأن التمثيل القائل «إن النفس خارج الجسد» لا معنى له غير أن النفس ليست مجرّد نفس ولا شيء آخر، لكنها أيضاً حرية، وعي، عقل. النفس كتجربة هي الأرضية والأصل للفردية. وبقدر ما تقوم النفس بالاختبار، تكون فرداً، وبحد ذاتها، متحدة مع الجسد. لكنها متحدة مع الجسد بمثل تلك الطريقة التي تكون فيها الوحدة الحاضرة ـ كلياً للجسد، المتطابقة ـ ذاتياً في كلّ ما هو متمايز مكانياً. ولأن التجربة تشكّل ما يسمى بالحياة، لأن الحياة بدون تجربة ليست حياة، ولأنه هنالك حياة فقط بقدر ما يكون هنالك خبرة، ومادامت النفس تُفهم عندئذٍ على أنها مبدأ الحياة، يمكن القول بحق كامل إن النفس تجربة أو صيرورة تجريب. «النفس تكون في الجسد»، إذا ما عُبّر عنها بشكل

عقلاني، تعني أنّ النفس تربط ذاتها بجسدها، أن الجسد موضوعها، لأني أتواجد في ذلك الذي هو موضوعي أنا. الطريقة الوحيدة التي يمكن لنفس أو روح التواجد فيها في واقع معيّن هي بأن يكون ذلك الواقع موضوعها. نقول الآن، إن موضوع النفس في التجربة هو الواقع المحسوس. وعلى وجه التخصيص، فإن موضوعها هو إما الوقائع المحسوسة الأخرى التي يتمّ التوسط بها من خلال وجودها المحسوس الخاص، جسدها، كما في التجارب الحسية؛ أو أن موضوعها هو وجودها المحسوس الخاص، كما هو الحال في الألم والسرور؛ أو، أخيراً، أنّ موضوعها هو الآخر والذات في آن. لكن أيضاً، في المعاناة، تكون النفس لتوها في ذاتها ولأجل ذاتها، لأنه كيف يمكنها أن تختبر شيئاً ما، كيف يمكنها أن تكون موضوعها الخاص أو أن يكون جسدها الخاص موضوعها لو لم يكن في الوقت ذاته موضوعاً لذاته؟ لكن النفس في التجريب هو موضوع لذاته فقط طالما أنّ موضوعه هو جسده. إنه لا يكون في ذاته ولأجل ذاته آنياً، لكنه غرض لذاته فقط عن طريق موضوعية الجسد وفي موضوعية الجسد. مع ذلك، «النفس خارج الجسد»، حين تُفصل عن دلالاتها الحسيّة على نحو فج، فهي تعني، في فكرتها الحقيقية، أنّ النفس هي فكرة، حرية، إرادة، عقل، وعي ـ ذاتي. لأنها كروح وليست بعد كتجربة، النفس ليست موجهة أو مسحوبة إلى المحسوس وجسدها، لكنها تتواجد فقط ضمن ذاتها ونتيجة لذلك خارج جسدها. كروح، النفس غرض فقط لذاتها؛ إنها تتواجد، ليس بوسيلة الجسد، بل بوسيلة ذاتها؛ إنها موضوع لذاتها وعلى نحو صرف لأجل ذاتها وفي ذاتها. حتى من منظور العقل، النفس تجعل المحسوس، الجسد، موضوعها، لكن في هذه الحالة الجسد موضوع لإرادة أو تفكير؛ النفس تجعل المحسوس موضوعها، ليس بوسيلة المحسوس، بل بوسيلة ذاتها، فقط في ذاتها ولأجل ذاتها، ونتيجة لذلك، بهذا المعنى، خارج المحسوس. إنه طبيعي بالتأكيد بالنسبة لنا، حين نجعل الجسد موضوعاً لأفكارنا، أن نجعل من التجارب الحسيّة واسطة التفكير التأملي والمعرفة بالجسد. لكننا لا نفكّر لا بالحواس ولا بالدماغ. فالحواس ليست سوى

الوسيلة الخارجية للتفكير. ويمكن للمرء أن يفكّر ويعرف فقط بوسيلة التفكير والمعرفة، تماماً مثلما أنّ العقل لا يفكّر بالدماغ ـ عملية كهذه كانت ستنتمي دون منازع إلى أعظم العجائب تحت الشمس ـ بل يفكّر بذاته. الدماغ هو فقط العضو المحسوس ونتيجة لذلك الخارجي الذي ينظّم، من خلال صحته أو تشوهه، المدخل إلى عقل الفرد المحسوس. إن العضو الحقيقي ونتيجة لذلك غير المرئي للتفكير هو التفكير نفسه، تماماً مثلما أن العضو الحقيقي للفنان ليس اليد ولا الفرشاة، بل النفس الموهوبة فنياً للفنان. على الفنّان، بالتأكيد، أن يكون له يدان، لكنهما لا يجعلان منه فناناً؛ إنهما مجرّد شروط ووسائل فحسب. إنّ الشرط الداخلي، المطلق، العضو المطلق للفن، هو الفن ذاته. لا يرسم الرسام فعلياً (أي، في الجوهر والحقيقة) بالفرشاة، بل بالفن. لذلك، حيث أن التمثيل المحسوس «النفس خارج الجسد» يتضمن الفكرة القائلة إن النفس تتواجد في ذاتها، فهي مرتبطة بذاتها وحدها، ومن ثم فهي الروح، العقل، كذلك فإن الصورة المحسوسة «النفس تخرج من الجسد، إنها تفصل ذاتها عن الجسد» إنما تعبّر فقط عن تعريف النفس التي تصير روحاً، نشوء العقل في النفس، نشوء يتواجد فقط لأجلنا، وليس فقط لأجل النفس. «النفس تفصل ذاتها عن الجسد» تعني (مع أنها غير معبّر عنها ومستوعبة بالمعنى والتمثيل اللذين تربطهما به، بل كما يُعبّر عنه ويستوعب بالمفهوم الحقيقي) أن النفس تتمايز عن الجسد، تفصل ذاتها عن التجربة، تنكص ذاتها عن كل حساسية في علاقة نقية بذاتها، وفي هذا التجريد أو الانقطاع عن الجسد، في هذه العلاقة الحرّة بذاتها، في هذه الوحدة مع ذاتها التي تتقاعد به من الجسد الحي وتستبعده كمادة مجرّدة، كآخر والذي هو غريب ولا مبال به، النفس هي وعي ـ ذاتي وتفكير (على الرغم من أن هذا الاستبعاد للطبيعة كمادة مجرّدة يبدو صالحاً فقط كوعي ـ ذاتي مفكّر يصحو أولاً، ليس في تواصلية التفكير ومركزه).

لكن حين تعتقد أن فصل النفس عن الجسد وكينونتها ـ خارج ـ الـ ـ جسد يعني ويمكن أن يعني أي شيء أكثر من أن النفس تميّز ذاتها عن الجسد، وفي

هذا التمييز، تكون التفكير والعقل، عليك عندئذٍ أن تمثّل علاقة النفس بالجسد كعلاقة مكانية وتمثل النفس ذاتها كواقع مكاني. وهكذا، لأنك تتصوّر حقاً أن النفس تغادر الجسد بالموت، أنت تحوّل فصل النفس الداخلي، الروحاني، الأساسي عن الجسد، إلى فصل مكاني عن الجسد، وتتخيّل نتيجة لذلك الفعالية والجوهر الأعليين للنفس ـ لأن هذه روح ـ على أنه حدث معيّن، مكاني، وزماني والذي يحدث فقط مع الموت. وحين تتكون ظواهر مرضيّة بعينها من حقيقة أنه، بالنسبة لبعض الناس، تأخذ التخيلات وجوداً خارجياً، الذي هو، على سبيل المثال، بالنسبة لأولئك الناس الذين لديهم ازدواجيات، التمثيل المحسوس للذات، صورة المرء عن ذاته، تواجه المرء ككينونة مستقلّة، أنّ الشخص الواحد الذي هو الشخص ذاته ينقسم إلى شخصين فيرى الشخص نفسه خارج نفسه في المكان، وحين يقوم جنون هذه الظواهر على حقيقة أن التمثيل يصبح ثابتاً في الإنسان، يصبح متجسداً، إذا جاز القول، يأخذ وجوداً مكانياً، محسوساً، أن التمثيلات تتغير إلى عواطف آنية، إلى صفات، مشاعر، وظروف، فإن اعتقادك عندئذٍ بالأزلية، طالما هو الاعتقاد والتمثيل أنه في الموت تغادر النفس الجسد، حقيقة وفعلياً، يكون جنوناً نظرياً، مرض نظري للنفس. لأنه كما يجسد شخص مجنون تمثيلاته ويثبتها، وكما تعتبر بالنسبة له حقيقة محسوسة، فإنّ قطعك المفترض للنفس عن الجسد إنما يجسده فقط. وهكذا فأنت تستبدل حرية النفس وتحررها من الجسد، صيرورة العقل، الحرية، الوعي التي هي فعالية داخلية، أزلية، روحية، والتي هي نتيجة لذلك الروح ذاتها، أعلى الفعاليات والجواهر للنفس، إلى وضعية بعينها، شغف، حدث يجري في المكان والزمان. لأنه بحسب معتقدك، على الروح أن تصبح حرّة من الجسد فقط بعد الموت أو عند الموت، ونتيجة لذلك، يجب أن تغادر من الجسد فعلياً، بطريقة مكانية، محسوسة. وهكذا فإن اعتقادك بالأزلية، بقدر ما تقيمه على قاعدة طبيعة النفس، فأنت تقيمه على قاعدة من تمثيلات له مادية للغاية. باستثناء أنّ ماديتك تختلف جداً عن المادية التي يطلق عليها الاسم عموماً.

III الروح، الوعي

آمل بأنك ستوافق على الأقل أنك كفرد حي، محدّد مكانياً وزمانياً، أنت لديك جوهر. لأنه حين لا يكون لديك جوهر، فمن البديهي أنك الأكثر دونية والأسوأ من أي شيء والذي هو بالكاد موجود، لأن كلّ شيء يتواجد يكون لديه جوهر. لكن كونك توافق على هذا (وأنا لا أشك في أنك توافق)، فأنت تعترف على الفور أنك لست جوهرك الخاص. لأنه على وجه الدقة بحقيقة أنك تؤكّد أن لديك جوهراً، أنت تخلق انقساماً وتمايزاً في ذاتك، وأنت تعبّر، في هذا الانقسام، أنك لست جوهرك الخاص. وفي الواقع، أكنت تعلم بالأمر أم لا تعلم، فأنت باستمرار تجعل هذا الانقسام في طول وعرض حياتك برمتها؛ فذلك الذي تدعوه نصفك الأفضل يعتمد تحديداً على هذا الانقسام والتمايز. مع ذلك، فهذا حقاً ليس نصفك الأفضل فحسب، بل هو ذلك الأعلى والأفضل فيك، هو كليتك الحقيقية، جوهرك ومادتك. لأنه تحديداً بسبب هذا الانفصال والتمايز الحُريّن، أنت لست مجرّد جوهر حي، تسكنه النفس، بل أيضاً وجود واع، روحي. فكلّ ما يعيش، يتواجد بالفعل، له جوهر وهو منقسم ومتمايز إلى وجود وجوهر، مع أن كلّ حقيقة لا تقسم ذاتها وتمايزها إلى هذين. لكنك جوهر واع؛ أنت تمتلك جوهراً والذي هو ليس جوهراً مجرّداً بل أكثر من جوهر، أي روح أو وعي، وعلى وجه الدقة لأنك تقسم ذاتك وتمايزها عن جوهرك، وعبر هذا التمايز وفيه، تجعل من جوهرك موضوعك. وهكذا، كما أن جوهرك هو موضوعك، أنت أيضاً موضوع لذاتك في جوهرك. وذلك الذي هو جوهرك كفرد إنما هو بشكل واضح النوع، نوعك كبشر، ونتيجة لذلك، النوع البشري. وهكذا، النوع، البشرية، هو موضوع لك حالما تمايز نفسك عن جوهرك. لكن هذا التمايز وصنع الموضوع ليسا فعالية وفعلاً معينين واللذين هما متمايزين عن جوهرك، أو، فعلياً، خارجيين بالنسبة له، بل فعالية وفعل جوهرك ذاته. أنت تمايز نفسك عن جوهرك فقط عبر جوهرك وفيه؛ وكونك تمايز نفسك عن جوهرك وتجعل منه موضوعك إنما هو ذاته جوهرك. ففعالية التمايز هذه التي هي متحدة مع جوهرك وهي جوهرك إنما هي الروح أو الوعي. أنت واع لأنك تمايز نفسك عن جوهرك. نتيجة

لذلك، فالتمايز محتوى في الوعي؛ فأنت لا تستطيع فصل التمايز عن وعيك لو أن التمايز كان شيئاً معيناً. بكلمات أخرى، التمايز عن جوهرك وجوهرك ذاته يشكّلان جوهراً واحداً. فأنت تستطيع أن تفصل ذاتك عن ذاتك وتمايز جوهرك عن ذاتك فقط لأن جوهرك متمايز عن كلّ الجواهر الأخرى في الطبيعة بحقيقة أنه يمايز نفسه عن ذاته؛ أنه موضوع لذاته. أنت واع لنفسك كفرد معيّن فقط لأنّ الوجود الشامل على نحو صرف فيك هو موضوع لك فقط لأنه موضوع لذاته. لذلك، فأنت واع لذاتك في الوعي الذاتي للجوهر الشامل، الروح.

الوعي وموضوعه:

لأنك واعٍ، عليك أن تميّز بين الوعي ذاته وذلك الذي أنت تعيه، موضوعك. أنت ذاتك، هذا الإنسان المحدّد، المفرد، هذه الذات المعينة أو الفرد، أو الشخص، موضوع للوعي، لأن الشخص فرد واع طالما هو واع؛ لأن الشخص فردية وبقدر ما هو فردية يكون موضوعاً للوعي. وهكذا، فالموضوع الذي أنت تعيه مثلما أنت تعي ذاتك هو موضوع مفرد، معيّن، هو ذاتك. لكن الوعي ذاته شامل على نحو صرف؛ المعرفة هي فعالية للجوهر، للروح ذاتها. الوعي بحدّ ذاته متساوٍ ـ ذاتياً، متماثل ـ ذاتياً، واحد في كل الناس. وحدها الكينونات الواعية متنوعة؛ فالتنوع يخص موضوعات والتي هي أشخاص محدّدون الذين يعرفون أنفسهم في الوعي. ففي معرفتهم، كلّ البشر واحد، كما لو أنهم غير منقسمين، لكن في ذلك الذي يعرفونه، فهم متنوعون ومنقسمون، لأنّ ذلك الذي يعرفونه في المعرفة والذي هو الوعي هو أنفسهم فقط، الأشخاص المحدّدِون المتنوعون. الوعي هو النور؛ والأشخاص هم الألوان. وأنا لا أرى الألوان إلا في النور، لكنني لا أستطيع أن أرى النور في الألوان وبوساطتها. ولو أن الوعي ذاته كان لوناً واحداً، كما لو أنه كان متحداً مع الشخص المعين الملّون، لم أكن لأرى وأعرف ذاتي ولا الآخرين، بالقدر القليل ذاته الذي كان باستطاعتي أن أرى فيه لوناً واحداً لو أن النور ذاته كان متحداً مع ذلك اللون. الألوان هي موضوعات النور بقدر ما الأفراد هم موضوعات الوعي. الأشخاص متنوعون، ألوان، فقط في التمايز عن الجوهر النقي للنور؛ النور الذي

هو، بوصفه متعادلاً ـ ذاتياً ومتطابقاً ـ ذاتياً، يكمن في أساس كلّ الألوان. فالمعيّن مرئي فقط في الشامل وبوساطته؛ والحقائق المتمايزة هي موضوعات فقط ضمن ذلك الذي هو وحدة؛ والمختلف هو موضوع فقط ضمن ذلك الذي هو متطابق ـ ذاتياً. الأشخاص هم أشخاص، هم أفراد واعون ـ ذاتياً، فقط في النور النقي، المنير، السماوي للوعي، الذي هو حرّ من كلّ التمايزات، الألوان، والخصوصيات. وكما أن النور ينكسر في الألوان فقط في مادة أرضية محدّدة، كذلك ينكسر الوعي في ألوان الأشخاص فقط في الموضوعات، فقط في الأفراد.

أنت واعٍ ليس فقط لذاتك بل أيضاً لأشخاص آخرين وموضوعات أخرى محسوسة. فالتعددية والتنوعية اللامتناهيتان، الحشد الذي يُعد ولا يُحصى من الكينونات المتناهية، هو موضوع لك مثلما أنت موضوع لذاتك. وكونك شخصاً محدّداً واحداً، كينونة معينة، متمايزة، لا يمكن أن تكون العددية اللامتناهية موضوعك فيك ومن خلالك، الذي هو ذاتك واحد من عديدين، لكنها تصبح موضوعاً فقط في الوحدة اللامتناهية والشمولية المسالمة للوعي. وحين تقول، «أنا واعٍ لذاتي، أنا موضوع لذاتي»، فهل تعتقد أنّ الـ أنا التي تفهم بها ذاتك بوصفها هذا الشخص المعيّن منطابقة مع ذلك التي هي موضوع له حين تقول، «أنا موضوع لذاتي»؟ حين يكون الشخص، هذا البشر الذي هو موضوع، والـ أنا التي الشخص بالنسبة لها هو ذلك الموضوع شخصاً واحداً وهو الشخص ذاته، لن تكون هنالك ثمة إمكانية لمعرفة ووعي فيك. فهذه الوحدة لخصوصيتك مع ذاتها كانت ستستبعد التمايز الوحيد الذي فيه المعرفة ممكنة. لكن حين تقول، «أنا واع لذاتي»، فأنت تخلق تمايزاً بين الذات والموضوع، أو بين الموضوعية والذاتية فيك. وبما أن التحديدات المتمايزة تؤسس للتمايز، فهي مطلوبة للتمايز بين الذات والموضوع. وحين تمايز بين الذات والموضوع دون شيء متمايز، فأنت تخلق تمايزاً مجرّداً دونما تمايز، دون تحديدات متمايزة. وفعلياً فإنه ما من تمايز يُفترض بأية حال بين الذات والموضع حين تقول ببساطة إن واحداً هو ذات وآخر هو موضوع.أية تحديدات والتي تمايز الشخص كعارف والشخص كموضوع ستكون هناك غير تمايزات الشمولية والهوية وتمايزات

الخصوصية والتنوعية؟ الشخص العارف فيك، الذي أنت بالنسبة له موضوع، هو شخص متطابق ـ ذاتياً بالمطلق، متمايز عن خصوصيتك المميزة، شامل في كلّ الأشخاص، شخص الروح بالذات. وعلى نحو أكثر دقة، هذا الشخص العارف فيك هو وعي ـ الذات للروح، المستقل والقائم ذاتياً ضمن ذاته. وهذا الوعي ـ الذاتي للروح هو الأرضية والمبدأ المطلقان لشخصيتك ويجعلان ممكناً بالنسبة لك أن تكون واعياً لفرديتك. الروح هي الوعي للذات، هو موضوع لذاتها؛ فالأفراد أو الأشخاص هم أنفسهم بقدر ما طالما أن الروح موضوعاً لذاتها. لكن الروح ليست موضوعاً لذاتها كهذا الفرد أو ذاك، ليس كصيغة جمع، ليس كأفراد في فرديتهم وتعدديتهم؛ الروح، بالأحرى، هي موضوع لذاتها كما كلّ الأفراد، كما الأفراد هم واحد. وهكذا، كما أن الروح هي ذاتها كما هي تكون موضوعاً لذاتها، فهي تتواجد في الأفراد وفي الوقت ذاته في ذاتها في تمايز مستقل عنهم. كيف باستطاعتك أن تكون واعياً لذاتك، أن تجعل ذاتك موضوعاً، إذا لم يكن ذلك الذي تتصوّر فيه ذاتك، الشخص المعيّن، موضوعاً لذاته، لم يكن وعياً ـ ذاتياً صرفاً، لم يكن وعي الروح لذاتها؟ كيف يمكنك أن تتصوّر نفسك، إذا لم تتصوّر الفكرة ذاتها؟ كيف باستطاعتك أن تكون واعياً لذاتك بوصفك هذا الفرد إذا لم يكن جوهرك واعياً لذاته، لم يكن وعياً ـ ذاتياً؟ ما الذي كان سيبدو مصدر وعيك إذا لم يكن الوعي جوهرك؟ لا يمكن للوعي أن يأتي إليك من ذاتك أنت أو أي مكان آخر. لكن كيف باستطاعة الوعي أن ينشأ في جوهرك إذا لم يكن جوهرك ذاته وعياً ـ ذاتياً؟ مع ذلك، فهذه الفكرة المفكّرة ذاتياً، هذا الجوهر الواعي ـ ذاتياً، هو الروح ذاتها فقط.

وعي الذات والموت:

أقول الآن، تماماً كما تتغيّر الألوان، تماماً كما تنشأ وتزول، كذلك أيضاً يزول أشخاص محدّدون، لأنهم ليسوا وعياً ـ للذات ذاته، بل موضوعات له؛ أو أنهم فقط ذوات لكنهم ليسوا الذاتية الصرفة، مبدأ الذوات. وما هو الموت غير الفعل الذي به تخرج الذات من مبدئها وأرضيتها، من الذاتية، تفصل نفسها عن الذاتية، لتصبح من

ثم مجرّد موضوع؟ فذلك الذي هو مجرّد موضوع إنما هو ميت. فأنت حي وواعٍ ـ لأنه حيثما يكون الوعي مرتبطاً بالحياة، لا يعود ثمة حياة بحد ذاتها، بل الوعي في الحياة ـ فقط طالما أنت موضوعاً لذاتك. مع ذلك، وكما أكدنا تُلتو، الـ أنا التي أنت موضوع لها، ليست الشخص ذاته كأنت، بل الأنا الصرفة للروح ذاتها، التي هي شاملة ومتطابقة ـ ذاتياً في كلّ الأشخاص. فكشخص، كفرد، أنت متمايز عن الـ أنا التي هي روح، ولهذا التمايز مظهره وظهوره المحسوسان في الموت، الذي تصبح أنت فيه مجرّد موضوع. فالموت هو مجرد الانسحاب والمغادرة لموضوعيتك من ذاتويتك البحتة، التي هي فعالية تعيش إلى الأزل ومن ثم فهي أبدية وخالدة. وكما تمايز نفسك داخلياً عن جوهرك، كذلك، أيضاً، عليك أن تفصل نفسك عن جوهرك خارجياً، على نحو محسوس، في وجودك، لأنّ كلّ شيء روحي، داخلي، وجوهري له تبلوره المادي، تجليه، الذي يدخل فيه وجوده المرئي. يأتي الموت فقط من البشري إلى داخل البشري؛ إنه فقط المنجز والمنفّذ لفعالية بشرية خاصة. وحدها طريقة التفكير غير التأليهية، المتواضعة تفهم الموت على أنه قانون خارجي، على أنه ضرورة طبيعية صارمة. فحيثما لا يكون ثمة روح، لا حرية، لا جوهر وطبيعة داخلية، لا يكون ثمة موت. لأنه حيثما لا يكون ثمة تمايز داخلي، لا يكون ثمة حريّة؛ وحيثما لا يكون ثمة تمايز داخلي، لا يكون ثمة موت. فالموت يفترض الروح. أنت تموت لأنك كينونة حرة، مفكّرة، واعية. الوعي تقسيم؛ فوحده ذلك الذي يستطيع أن يعرض ذاته لذاته ضمن ذاته، وحدها تلك الكينونة التي تستطيع أن تميّز جوهرها عن ذاتها، التي تستطيع أن تضع جوهرها فوق ذاتها، التي تستطيع أن تدرج ذاتها كحقيقة محدّدة ومفردة تحت عنوان جوهرها، والتي تستطيع أن تربط ذاتها بموضوعها بهذه الطريقة، وحدها تلك الكينونة واعية. لكنك تموت فقط لأنك موضوع، فقط لأنك تميّز نفسك وأنت غير متمايز عن جوهرك، فالتمايز الداخلي يجب أن يصبح أيضاً خارجياً، مغادرة طبيعية؛ والفعل الداخلي للموضوعانية يجب أن يُظهر أيضاً ككينونة موضوعية في الطبيعة. وهكذا، فالموت يأتي فقط من الروح، من الحرية. فأرضية حياتك التي هي وعي وانقسام هي أيضاً

الأرضية والأصل الحقيقيان لموتك. وهكذا، أيضاً، تموت النباتات والحيوانات فقط لأن الروح تنفجر فيها حالياً، لأن الحرية تضع جذراً فيها، ولأنه يبدأ هناك فيها انكسار وتمايز داخليان إلى نوع، شمولية، جوهر، وإلى وجود، فردية، مظهر، أو، على نحو أكثر صحة، إلى ذاتوية وموضوعية.

آه أيها الموت! لا أستطيع أن ألوي نفسي لأتحرّر من اعتباري الحلو لجوهرك الين، المنصهر داخلياً للغاية مع جوهري الخاص! يا مرآة روحي اللطيفة، أيتها الروعة المنعكسة لجوهري الخاص! لقد قامت الروح الواعية، انبلج هذا النور الشامل، المستوعب ـ ذاتياً من شق وانقسام في الوحدة البسيطة للطبيعة مع ذاتها. وكما أن القمر يشعّ بنور الشمس، كذلك أنت، في توهجك الناعم، إنما تعكس فقط النار الحارقة لشمس الوعي. أنت نجمة مساء الطبيعة ونجمة صبح الروح. وحمقى المعرفة الحسيّة يعتبرون النجم الواحد على أنه اثنين. لكن بالنسبة للحكماء، فأنت تنير الطريق للخروج من أرض الأحلام إلى مهد المخلص الحقيقي، الروح. يتخيّل الحمقى أنهم يصلون إلى الروح فقط بعد الموت وبه، أن الحياة الروحية لا تنشأ إلا بعد الموت، كما لو أن النفي الحسيّ كان سيؤدي إلى الروح، كما لو أن النفي الحسيّ كان الأرضية أو الشرط للروح. إنهم لا يفهمون أن الموت يفترض مسبقاً لتوه وجوداً للروح، أن الموت فقط يعقب الروح، وأن النهاية المحسوسة هي فقط إظهار للنهاية الروحية والجوهرية. نجمة الصبح لا تأتي بالصبح؛ إنها فقط إظهار للصبح.

ميثة آدم والموت:

إن التمثيل القائل إن الموت جاء إلى العالم بسبب خروج آدم من الجنّة إنما هو تمثيل حقيقي وعميق إلى درجة أنه يجعل الموت يعتمد على فعل حرّ؛ إنه يقرّ بأرضية الموت في الروح. لكن حقيقة هذا التمثيل ضائعة لأن فعل الروح يتحوّل إلى فعل لفرد، لأن فعلاً روحياً شاملاً يحوّل إلى فعل معيّن، تصادفي، أخلاقي، لأن فعلاً أزلياً يحوّل إلى فعل زمني. وهكذا، بالنسبة للأشخاص الآخرين بعد آدم، يصبح

الموت مرة أخرى ضرورة خارجية، بلا روح. لأن الفعل الأخلاقي للفرد يخص فقط هذا الفرد؛ فبوصفه أخلاقياً، يجب أن يُنسب هذا الفعل لهذا الشخص فحسب، ونتيجة لذلك فنتائجه يمكن أن تنتشر لأفراد يختلفون عن الخاطئ فقط من خلال ضرورة عمياء ولا تميّز. من غير المقبول أن يؤخذ آدم على أنه فكرة الإنسانية، ممثلها، الذي يُفترض أن غيره من البشر قد أخطأوا فيه. لأنه، كخاطئ، كعنصر أخلاقي، آدم هو مجرّد كينونة مفردة، فرد؛ وهكذا، فإن خطاياه وأفعاله الأخلاقية لا تنطبق بأدنى درجة على الآخرين. ونتيجة لذلك، لا يمكن للآخرين التورط بخطيئة آدم إلا من خلال ضرورة خارجية، لا تصورها. وعلاوة على ذلك، ففي هذه العقيدة، الموت بالنسبة للكينونات الأخرى، غير البشرية يبقى ضرورة خارجية، لا يمكن تصورها. «تموت المخلوقات الأخرى أيضاً، لكن موتها ليس شيئاً بالمقارنة مع موت الإنسان. تموت الطيور في الهواء، السمك في الماء، وجميع الحيوانات على وجه الأرض، ليس بسبب غضب الله واستيائه، بل بسبب الطبيعة وبسبب الترتيب الإلهي لصالح الإنسانية. لكن موت البشر موت بائس، تعيس لأنه يأتي من غضب الله واستيائه»، وهلم جرا.

لا شيء بعد الموت:

«لذلك، لا يوجد شيء بعد الموت؟» هكذا بالضبط؛ حين تكون أنت كل شيء، لذلك فعندما تموت، لا يكون ثمة شيء بعد الموت. لكن حين لا تكون أنت كل شيء، لذلك فإن كلّ شيء أنت لم تكنه يبقى. حين تكون أنت الإنسانية ذاتها، الروح، الوعي ذاته، عندئذٍ، بطبيعة الحال، كل شيء ينتهي حين تموت. ومع ذلك، أعتقد أنني أستطيع أن أقول إنك لست الله، بل إنسان. ولأنك لست الله، هناك المزيد من الكينونات والتي هي مثلك. أنت لست الإنسان الوحيد والأوحد؛ فكثير من البشر الآخرين يتواجدون جانبك. هل ترفض أن تصدّق أن تعددية البشر تجعل أرضيتهم وأصلهم في جوهرك أيضاً؟ هل تعتقد أنه ليس سوى من قبيل الصدفة أنّ تعددية البشر موجودة؟ أليس عليك بالأحرى أن لا تُقنع بأن البشر الآخرين

الموجودين على نحو مستقلّ لا ينتمون فقط لوجودك بل ينتمون أيضاً لجوهرك أساساً؟ بخلاف ذلك، عليك أن تعتقد أنك الإنسان الوحيد في الوجود. لأنه حين لا يمكنك أن تفصل نفسك عن غيرك من البشر، حين يكونون عرضيين لحقيقتك الداخلية، فإن جوهر الإنسانية عندئذٍ مُدرك ومحتوىً فيك كليّاً، أنت واحد عندئذٍ مع جوهر البشرية. لكن حين تتواجد وحدك في جوهرك، حين لا تكون متعلّقاً بالضرورة وعلى نحو أساسي بالآخرين، فأنت عندئذٍ تتواجد بشكل مستقلّ في وجودك، لأن الاستقلال في الوجود يتبع الاستقلال في الجوهر. لكن الآن، وحيث أنّ التجربة تعلّمني بشكل واضح وكما تبدو مستعداً لأن تعطي، وحيث أنك لا تتواجد وحدك، فأنت عندئذٍ مُلزم بأن تُقنع على حدّ سواء أنّ الوجود غير المنفصل عنّا هو أيضاً غير منفصل عن وجود الآخرين، وأن الأفراد المعينين الآخرين ينتمون إلى جوهرنا، طبيعتنا، بضرورة ليست أقل من انتمائنا إليه. أيضاً، فنحن نشهد، في العديد من الأفعال والتجارب، لكن بصفة خاصة في فعل الحب، أن جوهرنا يطلب الجواهر الأخرى، وأنه في واقع الأمر، تظهر تلك الطريقة التي يظهر بها الحبّ على أنه التجسيد المادي والإظهار الحسّي لاتحاد أكثر عمقاً ورفعة، لاتحاد هو أكثر صدقيّة من الحب نفسه. وهكذا يبقى الآخرون بعد مماتك، يبقى جوهرك بعد مماتك؛ تبقى دون أذيّة وغير منقوص بمماتك. الإنسانية أبدية؛ الروح اللامتناهية تضمن ذلك. الروح أبدية؛ الوعي أزلي ولا متناه.؛ الحرية والإرادة تُسحبان من كل طبيعة، ومن ثم من الموت. وهكذا فالأشخاص، الكينونات الواعية، ذات الإرادة، الحرة، ستتواجد أيضاً للأبد. لكن أنت كشخص معيّن، كموضوع فقط للوعي وليس الوعي ذاته، عليك في وقت ما أن تترك الوعي، وسوف يُستبدل فيك شخص جديد، طازج في عالم الوعي.

من الغريب أن البشر ينكصون فقط من هاويات المستقبل لكن ليس من هاويات الماضي، أنهم يستديرون بحزن، قلقون حول الكينونة أو اللا ـ كينونة فقط بعد الحياة لكن ليس قبلها، أنهم ينظرون فقط إلى الأمام وليس إلى الخلف. ففعليّاً، قبل الحياة، أنت لم تكن شيئاً. ولأنك تسعى للهروب من معرفة الحقيقة بكل أنواع

التصوّرات، اسمح لنا أن نفترض أنك كنت موجوداً قبل الحياة، أنك، في مكان ما، كنت مدرجاً ومغلقاً بحدّ وتشكيل فرديين. ومع ذلك، ليس ثمة ما يمكن اكتسابه من هذا، لأنك لا تدرك أنك وجدت ذات مرة. كينونة الإنسان هي فقط كينونة واعية، شخصية؛ فكينونة المرء مرتبطة فقط بالمعرفة. ودوامية الكينونة إنما تُقاس بدوامية المعرفة؛ فالكينونة الشخصية تُنهى بانتهاء المعرفة. إن وجوداً دون معرفة أنني أكون ليس كينونة بالنسبة لي. ربما من الممكن أنه فقط في هذه الحياة نحن غير مدركين أننا كنّا موجودين قبل الحياة وأنه في يوم من الأيام سيتمّ الكشف لنا عن هذا الوجود السابق. لكن حتى لو كان هذا صحيحاً، فسوف لن تبعد العدم مع ذلك عن ذلك الذي يسبق مسار الحياة. وحين سيُكشف لك في زمن ما في تفكير استبطاني أنك وجدت وعشت سابقاً، مع ذلك، فذلك الوجود وتلك الحياة سوف ينتهيان مرة وإلى الأبد.

لكن لماذا من الضروري تجاوز هذه الحياة؟ في أول أزمنة حياتك، لم تكن أنت أنت بعد، هذه الكينونة الشخصية، المعينة. فالكينونة تصبح شخصية فقط بالفهم والإدراك المعينين للذات. فالشخص يمتلك المعيار لكينونته والدوامية فقط بهذه الشخصية وفيها. أنت تعرف، ليس من ذاتك، بل فقط من الآخرين، أنك كنت ذات مرة طفلاً وأنك الكينونة ذاتها التي كنتها كطفل. فالآخرون متشابكون ومتناسجون في حياتك الأعمق، في وحدة الوعي لشخصيتك المعينة الخاصة، إلى حد أن معرفتك لنفسك منقولة بوساطة معرفة الآخرين بك. لقد كان وعيك لنفسك في الأصل خارجك؛ فالآخرون كانوا وعيك، كانوا معرفتك بك؛ فكينونتك متشرّبة في المعرفة التي للآخرين. فقط لاحقاً، حين تقوم بموضعة ذاتك جسدياً وخارجياً، تصبح أيضاً مستقلاً داخلياً. عند هذه النقطة تصبح المعرفة التي امتلكها الآخرون عنك معرفتك الخاصة، والوعي الخارجي يصبح وعيك الداخلي. فالمعرفة دخلتك، أو، بالأحرى، أنت دخلت المعرفة. فأنت استرددت الآن المكان الذي احتله الآخرون نيابة عنك. لقد تلقيت من أيدي الآخرين، إذا صحّ القول، وعياً والذي كان بالفعل قد أُعدَّ لك. وتماماً كما كنت ذات مرة ترقد محاطاً ومغلفاً جسدياً في رحم أمك،

كان رحم ذاتك هو الوعي الذي للآخرين الذين اكتنفت منهم قبل أن احتويت ذاتك. لكن في جميع مراحل الحياة فإن معرفة الآخرين بك ومعرفتك لنفسك من خلال معرفتك للآخرين تبقى المعرفة التي تتشابك داخلياً. وكما أن طعامك الأول، حليب أمك، كان قد أعد في جسد والدتك، كذلك فأنت تمتص في شخصيتك، إذا جاز القول، في ومن الثدي البشرية. والموت ليس سوى الفعل الذي به تعيد وتسلّم وعيك للآخرين. فالمعرفة الخاصة بك تخطو مرة أخرى خارجك إلى داخل الآخر. وكما هو الحال في البداية، تصبح المعرفة الخاصة بك مرة أخرى مجرّد معرفة للآخرين بك، معرفة هي الآن تذكّر، ذاكرة، ذكرى. الوعي هو مثل وظيفة كنت تشغلها طيلة الحياة. في الموت، أنت تستقيل منها. وكما، في البداية، كنت موجوداً فقط في وعي الآخرين، كذلك، في النهاية، أنت موجود مرة أخرى فقط في وعيهم، الذي هو، كوعي من الماضي، تذكّر الآن.

الوعي هو الهواء الشمولي للروح والحياة؛ وعندما تستنشقه، فإنك تصبح حيّاً وواعياً؛ وعندما تزفره، فإنك تصبح غير واع، ميتاً. وبالقدر القليل ذاته الذي يكون فيه الضوء أو الهواء صفة أو حتى مما يمتلكه الجسد، كذلك فالوعي يكون بهذا القدر القليل شرطاً أو حتى مما يمتلكه الإنسان أو يحوزه. الوعي بالأحرى هو العنصر الشمولي، البدئي والأساس المطلق للفرد، الكينونة الحقيقية، الفراغ غير المحدود الذي يتواجد فيه الأفراد. ونتيجة لذلك، حين يرغب المرء أن يوضح لذاته جوهر الإنسان من منظور الكينونات الحسيّة، الأفراد، كل البشر، بقدر ما يشكّلون كليّة واحدة، ينتمون إلى وعيه؛ فالوعي هو التصوّر التبادلي، غير المنقسم، المتواجد والمحاك من خلال الجميع؛ والوعي هو معرفة الجميع بعضهم ببعض مأخوذة معاً كمعرفة واحدة.

الوجود والمعرفة:

يتواجد الشخص كشخص فقط في المعرفة، أو بدقّة أكثر، في التمايزية. وعندما تأخذ التمايزية، تأخذ وجود الشخص. أنت تتواجد فقط طالما وما دمت تمايز

نفسك. لكن الآخرين الذين تمايز نفسك عنهم وتتواجد كشخص في هذا التمايز ينتمون لك بوصفهم متمايزين. أنت واعٍ لنفسك فقط في التمايز عن الآخرين، ونتيجة لذلك، فقط على، في، وبوساطة، ومن خلال الآخرين. لكن هذه الضرورة بالذات، بأن التمايزية عن الآخرين مطلوبة لأجل وجود شخص ما، بأن وعيك هو أيضاً في وقت واحد الوعي غير المنقسم للأشخاص الآخرين، بأنك تعرف نفسك فقط بالآخرين ومن خلال الآخرين، إنما هو مظهر من مظاهر الحقيقة القائلة إن الوعي هو الوحدة المطلقة واللامتناهية لكلّ الأشخاص والبشر. يمكنك أن تتعلّم أنّ الوعي مرتبط بأجساد معينة ونتيجة لذلك، بالأفراد، بطريقة عنصر طبيعي مشترك، من مثل تلك الظروف كالنوم، الاغماء، والسُكر، التي يُحرم فيها الإنسان من استخدام للوعي. اللاوعي هو بداية الإنسانية، واللاوعي هو نهايتها؛ فالنقطة المتوسطة والبؤرية للبشرية هي الوعي. والإنسان، ككينونة مفردة، يدخل ـ وكلّ بشر يدخل بهذه الطريقة ـ البشريّة ككليّة، ككينونة كاملة، ثابتة، مغلقة للتو. الوعي هو المركز المطلق للبشرية؛ أو، بالأحرى، الوعي هو البشريّة ذاتها، هو هذه الكليّة غير المنقسمة في صيغة المعرفة. أعرف وانظر إلى السرّ العظيم للكليّة إنه النقطة البؤريّة الكاملة بالمطلق، غير القابلة للتدمير وغير القابلة للنقل، شمس البشرية. إضافة إلى الطبيعة الحسيّة، الوعي هو عالم يدخله الإنسان المفرد. ومثل الذرة تحت الشمس، فإنك تستوفي النمو وتنضج إلى شخص عن طريق الاصطلاء بشعاع شمس وعي البشرية المغلق أزلياً والشاب إلى الأبد والذي يتطوّر دائماً ويخلق ضمن ذاته. ومنهكاً من حرارة شمس الوعي الحارقة، التي تتعب وتستهلك البشر المفرد، فإنك عند الموت تغرق مرّة أخرى في النوم الأبدي وسلام العدم اللاواعي. إلى هذا الحد، الموت ليس شيئاً. ليس حقيقة وضعية أو شيئاً معيناً، لكنه فقط الاستبعاد، الحرمان من الوعي، فقدان النقطة المحورية، النسيان الذاتي.

لكن كيف يمكنك أن تشكو الآن من أنك قابل للفناء حين لا تشكو من أنك كنت ذات مرّة طفلاً، أنك كنت ذات مرة لا شيء على الإطلاق؟ كيف يمكنك أن تُذعر من الموت كونك خضعت له ومررت به لتوّك، كونك قد كنت لتوّك ما ستكونه

مرة أخرى؟ أنظر إلى الخلف إلى ما كنته قبل الحياة وما كان موجوداً قبل حياتك؛ لن تعود لترتعش أمام ذلك الذي ستصبحه بعد الحياة، لن تعود ترتاب أن شيئاً سيتواجد بعد حياتك أو بما سيتواجد بعد حياتك. أو على الأقل أنظر في الحياة؛ سوف تجد بالفعل في الحياة ذلك الذي سيصبح موضوعك ونقطة نهاية الحياة، وسوف تدرك أن الكينونة الحقيقية تتناسب مع الوعي وحده، الروح وحدها، أنه خارج الروح كل شيء لا جدوى منه. كينونتك مقتصرة دائماً على اللحظة الحاضرة. فأنت موجود فقط طالما أنت حاضر خلال هذه اللحظة. فالماضي، حتى لو كان لا يزال يعيش في ذاكرتك، لم يعد كينونة. فالكينونة هي فقط حاضر اللحظة، الذي يختفي مع كينونته. وحياتك بمجملها هي صيرورة متواصلة من التصيير متذكراً؛ فكل شيء فيك وأنت ذاتك تزول؛ وبهذا الزوال تصبح موضوعاً للذكرى. لكن التذكّر ذاته ليس سوى صيرورة روحنة، لأنه في التذكّر تصبح كينونتك أساسية وشاملة؛ تصبح غير قابلة للتقسيم. أنت لا يمكنك أن تكتسب كينونتك المجرّدة، الكينونة التي تناسبك آنياً، لكن ككينونة مُتذكّرة، كموضوع للروح على وجه التحديد، يمكن أن تصبح موضوعاً للآخرين. وحين تكون آنئذٍ حياتك بمجملها صيرورة مستمرة من التذكر والروحنة، يمكنك قطع هذا النشاط بالموت، أو، بالأحرى، أليس عليك أن لا تقرّ بالموت إلا بمظهر هذا النشاط وانتهائه؟ فتذكرك ليس سوى الاستعداد المستمر للموت. وحين تكون لتوك في الحياة، فأنت موجود فقط كشخص مُتَذَكَّر؛ ونتيجة لذلك، فحياتك تختتم حين تذهب من كونك شخصاً فعلياً إلى كونك شخصاً والذي هو ممثّل فحسب، مجرّد موضوع للتمثيل، شخص والذي هو فقط مُعطى وغير قابل للتقسيم. بوصفه وعياً، فإن نشاط التذكّر هو نشاط متطابق ذاتياً للروح التي هي شاملة بالمطلق في جميع الأشخاص؛ التذكّر هو فعالية روحنة وتعميم. وبحدّ ذاتها، إنها ليست فعالية التي أنت تملكها، بل فعالية الروح نفسها. فأنت، كشخص معين، تتواجد فقط بطريقة معينة ويمكنك فقط التعيين؛ لكنه لا يمكنك التعميم. الشخص بحد ذاته غير قابل للتقسيم؛ لأجل ذاته وبذاته، فإنه لا يمكنه التقسيم. نتيجة لذلك، فالتذكّر، كفعالية تعميم، كفعالية تجعل ممكناً تقسيم الشخصي،

المعيّن، الفردي، وما شابه ذلك، هي فعالية تتمايز والتي هي متمايزة عنك كشخص معين ومع ذلك متطابقة مع جميع الأشخاص دون استثناء في إلغاء تميزهم. لكن، للسبب بالذات أن صيرورة التذكّر متطابقة عند جميع الأشخاص في الوحدة، دون تمييز، فهي فعالية للروح ذاتها مستمرة، متطابقة ذاتياً، عمومية.

من الواضح أن هذا لا يجب أن يُفهم كما لو أنه تأكيد على أنّ كل إنسان لديه الذكريات ذاتها، أنّ لجميع الأفراد المضمون ذاته والموضوعات ذاتها لموضوع تذكّرهم. علاوة على ذلك، أتوسل إليك على نحو ملحّ أن لا تكون من الغباء بحيث تعتقد أنه حين أُكّد على أن التفكير والوعي هما واحد بالمطلق، إنّما أُكّد بذلك على أن موضوع الوعي وموضوع الفكر هما واحد في كل البشر. لأن المحتوى والموضوع بحد ذاتيهما يجب أن يتضمنا في ذاتيهما تعددية، تمايزاً، وتعارضاً. يمكن لموضوعات تذكرك أن تكون معينة كليّاً، يمكن أن تُفصل عن موضوعات تذكّر الآخرين، أو حتى معارضة لها. لكن بوصفهم متذكّرين، بوصفهم عموميين، بوصفهم غير قابلين للتقسيم، بصرف النظر عن الخصوصيّة التي لا لزوم لها لمضمونهم، نتيجة لذلك، بوصفهم تذكّراً، فهم متحدون مع تذكّر الآخر. التذكّر واحد؛ وحده ذلك الذي هو مُتذكّر متمايز. فعندما أتذكر، أتذكر شيئاً ما، شيء، نتيجة لذلك، محدّد؛ فالتحدّدية غير قابلة للفصل عن التمايز. لكن تمايز التحديدية لا يقسم الجوهر بحيث أن هنالك فيك جوهراً مختلفاً للتذكّر عمّا في شخص آخر. إن فهمه كفعالية عمومية للروح، وعدم تخيّله كقدرة ذاتية، التذكّر، في أرضيته وجوهره المطلقين، غير قابل لأن يُفصل عن الموت والزمن. فالتذكّر هو الفعالية التمثليّة للروح التي من خلالها تحوّل الروح إلى ذاتها ما هو حسي، موجود، مستقلّ خارجياً. وينبغي أن يُسمّى التذكّر عملية الهضم التي للروح، إذا ما أخذنا هذا المصطلح في أكثر معانيه شمولية.

على الرغم من أن الزمن يختلف عن تذكّراتك وهو مستقلّ عنها، فإنه ليس متمايزاً عن التذكّر ذاته بقدر ما يتمايز التذكّر عن تذكراتك ويكون مستقلاً عنها

ويكون فعالية عمومية، ضرورية للروح ذاتها. الزمن، كزوال المفرد، المعيّن، والفردي، كالفعالية العمومية لنفي كينونة، هو تذكّر الروح، هو فعاليتها التمثليّة. الزمن يجعل الأمور داخليّة؛ إنه يؤدي بها من الكينونة إلى الجوهر. الزمن ذاته هو الانتقال أو العبور جيئة وذهاباً من الكينونة إلى الجوهر، من الحسيّ إلى الروحي، شيء يتغيّر من موضوع حسيّ إلى موضوع روحي، موضوع تذكّر. يُنقل الأحياء إلى عالم الظلال، العالم السفلي، على نهر ستيكس[1] الذي للزمن. لكن في الوقت نفسه، العالم السفلي، بوصفه عالم الجوهر، هو «العالم ـ الفوق» الحقيقي. الزمن فقط يأتي بالعالم إلى الجوهر، إلى الفهم والتفكير. وأنت تمتلك في ذاتك الشهادة على حقيقة هذه الفكرة. وفي الزوال بالزمن وفيه، تصبح الكينونة فيك كينونة روحية، موضوع تذكّر، موضوع تمثيل. لكن بهذا الزوال تحديداً، الذي تصبح به الكينونة الحسيّة كينونة تذكّر، تصل إلى التأمل والتفكير؛ فأنت تعود إلى ذاتك وجوهرك. التذكّر، كفعالية حيّة، فعالة، عمومية للروح، الذي تنفي فيه الروح الوجود المفرد أو المستقّل على نحو محسوس، التذكّر، في هذا النفي للشكل المستقلّ والحسي، يتمثّل ويجمع ذاته في وعيه ـ الذاتي. نتيجة لذلك، فالتذكّر، كشيء متطابق مع الزمن ذاته، هو أيضاً أرضية موتك؛ ففي التذكّر، تُمجّد كينونتك وتُحوّل إلى كينونة مثالية، إلى كينونة تمثيل.

الأنا والآخر:

الحدّ بينك وبين الآخرين هو وجودك الشخصي، الذي هو مناسب لك ومتطابق آنياً معك كشخص معين. لكن حين يُفهم التذكّر كفعالية عمومية للروح (كما هو في الجوهر والحقيقة)، ليس هناك حدّ بين التذكّر فيك والتذكّر في الآخر. إنه بالأحرى، كما أن كينونتك الشخصية (التي يمكنك أن تعزو إليها، على سبيل المثال، الأفعال، الخبرات، المعاناة، حيث أنه في تلك الحقائق وحدها تمتلك كينونتك الشخصية وجوداً وفعالية) تزول وتتحول، تؤخذ في الروح، وكما أن ذلك الذي هو

---

(1) في الميثولوجيا الإغريقية، إله ونهر يشكّل الحد بين الأرض والعالم السفلي، أو هاديس. ـ مترجم عربي!

شخصي يصبح غير منقسم وعمومياً، كذلك يتم إلغاء الحدود بينك وبين الآخرين. وبالقدر الذي تكون فيه، إذا جاز التعبير، تذكّراً، فإلى ذلك الحد لا تكون شخصاً، لا تكون كينونة ـ في ـ الذات مستبعدة، غير قابلة للانقسام. وبقدر ولغاية ما تكون كينونتك تذكّراً، تكون روحية، ممثلة، غير قابلة للانقسام، غير قابلة للانفصال عنك، ولا تعود الكينونة الشخصية المتطابقة معك. حين تكون غير قابل للانقسام، لا تكون شخصاً، وحين تتواصل بالفعل، على الرغم من أن جاذبية كلامك قد تثير احتراماً عظيماً لشخصيتك، فبقدر ما تتواصل، تلغي شخصينك. فشخصيتك متعالية إلى درجة أنه لا يمكنك حتى الكلام كشخص. أنت تتكلّم فقط من الروح، وفيها، وبها. إذا لم يكن فيك غير الشخص، إذا لم يكن يتواجد فيك روح عمومية والتي تتمايز عنك، فإنك لن تكون قادراً على تمييز نفسك أو فصلها عن نفسك؛ أنت لا تستطيع أن تتخلى عن شخصيتك، لا يمكنك التواصل، لا تستطيع الكلام. فشخصيتك، بسبب وجود ملائم تبني منه عالماً سليماً، تهرب إلى الريح مع كل كلمة تصدر منك. وهكذا فحياتك، كصيرورة مستمرة من التذكّر والروحنة، هي صيرورة غير منقطة من إزالة الحدود بينك وبين الآخرين، ومن ثمّ إلغاء كينونتك الشخصية ومعها شخصيتك. في الموت، النتيجة لهذه الصيرورة، تختفي تماماً تلك الحدود للإلغاء التي عملت عليها في الروح وبوساطتها طوال حياتك كلّها. الكلمة الأخيرة التي تقولها هي الموت، التي فيها تعبّر عن نفسك تماماً وتمنح بها نفسك للآخرين. الموت هو الفعل النهائي للتواصل. فأنت تعيش فقط طالما لديك شيء تتواصل به، فقط طالما لا يزال هناك فيك شيء لم تتواصل به بعد، ومن ثم، فقط طالما يوجد ثمة حدّ بينك وبين الآخرين والذي لا يزال يتعين إلغاؤه. حين تكون قد أبلغت كل شيء، حين لا يبقى شيء غير القشرة الجافة الأخيرة لشخصيتك، أنت عندئذٍ تسلّم ذاتك. وهذا الاستسلام هو الموت. لكن اسمح لي أن أقاطع صيرورة الحجج من خلال الانزلاق إلى الجوهر الأخلاقي، الروحاني للإنسانية، وذلك في محاولة لأن أظهر لك أن الموت يأتي من الجوهر الأخلاقي، من أعماق القلب، من الحب. وفي الواقع، فالموت لا يأتي فقط من حبك لآخر، بل من الحب بشكل عام.

السلوك البشري ودافع الحب:

يمكن اشتقاق كل تصرفات البشر من الحب؛ فالحب، يمكن أن يوجد ويقرّ به فيها كلّها. فمن المستحيل على الإنسان أن يتواجد لنفسه بشكل محض. وإذا كان الإنسان قادراً على تحمّل الكينونة ـ لأجل ـ الذات المجرّدة، غير المنجزة، لكان سيبدو قادراً على تحمّل ذلك الذي هو الأقل إمكانية لأن يُتحمّل، العدم. ويجب أن تكون قادراً على التمييز بين الكينونة ـ لأجل ـ الذات المجرّدة والعدم. الكينونة هي الوفرة التي هي غنية بالعلاقات؛ إنها اتحاد مليء بالمعاني، رحم لا ينضب من التواصلات الأكثر تعددية. وذلك الذي يتواجد يجب أن يتواجد مع الآخر، فيه، ولأجله. الكينونة جماعة، في حين أنّ الكينونة ـ لأجل ـ الذات عزلة، عدم قدرة على الشراكة. لكن العدم هو على وجه التحديد القدرة الأقل على الشراكة، العزلة الأكثر، التوافقية الأقل، الحقيقة الأقل مجتمعية في العالم (هذا يعني، أنه إذا قدّر للعدم التواجد فإنه كما تتواجد الأسماك والأشجار). الإنسان يحب، ويجب أن يحب. لكن الحب البشري لديه مجموعة متنوعة كبيرة، وتُقاس حقيقته وقيمته بمحتوى ومدى ذلك الذي يُحب. الإنسان يحب إما ذلك الذي هو مفرد، محسوس (المال، أشياء محدّدة)، أو الشرف، الشهرة، أو، مرة أخرى، ذلك الذي هو جوهري، عمومي، حي؛ إنه يحب إما أشخاصاً مفردين، كينونات معينة (الحب الحسي)، أو الإنسانية بصفة عامة، الإنسانية في البشر، الخير في البشر، أو الخير العام على نحو صرف، اللّه، أو الحقيقة النقية. وكلما تعمّق محتوى موضوع الحب، كلما تعاظم مداه. ويمكن تحديد قيمة الحب بمدى الموضوع المحبوب بالطريقة التالية: كلما تضحي بنفسك أكثر، كلما كان حبّك أعظم وأكثر صدقية. لأن المرء لا يمكنه أن يحب دون تضحية ذاتية. في الحب، أحب نفسي في الآخر، أموضع نفسي، جوهري، ليس في نفسي، بل في الموضوع الذي أحب. فأنا ألزم كينونتي بكينونة الآخر؛ وأنا أتواجد فقط في الآخر، معه، ولأجله. وحين لا أكون عاشقاً، أتواجد لأجل ذاتي فحسب. لكن عندما أكون عاشقاً، أفترض نفسي لأجل آخر؛ فأنا لا أعود أمتلك كينونتي الخاصة، كينونتي ـ لأجل ـ الذات؛ فكينونة الآخر هي كينونتي. والإنسان، عندما لا يحب، عندما

يتواجد لأجل ذاته فحسب، يظل فقط جوهراً طبيعياً؛ فكينونته مستقلّة بحكم طبيعتها، ليس لها وسائط. لكن أخلاقية، إنسانية الجوهر الإنساني، إنما تتكوّن على وجه التحديد من تضحية المرء بكينونته ـ الذاتية الطبيعية الصرفة، من جعل أرضيّة كينونة المرء تتواجد من خلال الآخر، من امتلاك أرضية كينونة المرء في كينونة الآخر. وهكذا فالحبيب يجعل المحبوب في أرضية كينونته. فعندما يحب، فإنه يكون قد جعل كينونته تمتلك أرضية، أو اتكالية؛ فقد وجد الآن أساساً حياته ولحياته. كلّ حب، كل أشكال الحب، إنما تشترك بحقيقة أنها تسليم ـ للذات وتضحية ـ بالذات. يحرق الحبيب (لأن هذا هو الأوضح في حب البشر للبشر) ذاته وأنانيته الجردائين، الجافتين مثل صوفان في نار الحب. لكن هذا التسليم ـ الذاتي يكون أكثر صدقاً أو أقل، أعظم أو أصغر، وفقاً لمدى الموضوع. وتعتمد حقيقة التسليم ـ الذاتي على ما إذا كان الموضوع هو من ذلك المدى الذي يستغرق ويتضمن في ذاته الذات البشريّة كلّها، أو ما إذا كان محدّداً بحيث أنّ الذات لا تمتلك حيزاً فيه، أن الذات مقفل عليها خارجه، أنّ (التقسيم غير القابل للقسمة) جزءاً من الذات يتواجد ضمن الموضوع، في حين يبقى جزء خارجاً وغير مستسلم. الشرف، الجشع، وما إلى ذلك إنما هي عواطف، هي الظروف المدمرة بشكل رهيب التي تحدّ الجنون، هي أمراض، تحديداً لأن الإنسان لا يسلّم في الواقع نفسه، بل يفعل ذلك للأشياء التي لا يمكن أن تشمل الذات الإنسانية. لأن النفس البشرية لا متناهية وبمدى عظيم للغاية كي تكون قادرة على الدخول في أشياء بمثل ذلك الفضاء المقيّد والمقتصر. وهكذا، على سبيل المثال، يتواجد البخيل في ماله، وفي الوقت نفسه خارجه؛ إنه يعتمد عليه وفي الوقت نفسه مستقل عنه؛ إنه يسلّم ذاته لموضوع والذي لا يستطيع تسليم الذات له والذي، نتيجة لذلك، يقوم على الدوام باستعادة وعكس ذاته غير المستسلمة، غير المنجزة، إليه. ومن هنا فإنه ينشأ هناك فيه التناقض الرهيب بأنه فقيرٌ في الثروة، فارغٌ في الوفرة. وبهذه الطريقة تُحرف العاطفة، كوضعية تفتقد التنظيم، إلى الرغبة بالتهام الموضوع بدل الرغبة بأن يُسمح للذات بأن تُستهلك وتُلتهم من قبل الموضوع.

لكن الإنسان الحقيقي، الإنسان الذي يتصرف بشكل أخلاقي، كمفكر، ككينونة متدينة، إنما يضع جوهره، ليس في الموضوعات التي هي تحته، بل في الموضوعات التي هي فوق الذات. إنه يتأمل جوهره ويمتلكه ليس في نفسه ولا في الأشياء التي هي تحته، لكن أناه هي موضوع فوق أناه؛ إنها آخر والذي هو لا متناه، الذي يستغرق ويقبض داخل ذاته على ذاته بأكملها. الكينونة وحياة الإنسان الأخلاقي هما عيد أضحية مستمر. فنبض الحياة لذات المرء الخاصّة يُحرق، نور الذات يُطفأ. لقد تحرّرت ذات المرء الخاصّة؛ أنا المرء، أعمق حقائق المرء، هي الآن آخر المرء، هي الموضوع اللامتناهي الذي ارتقى فيه المرء. الطبيعة الآن محدّدة في ذاتها ولأجل ذاتها، هي الآن معيّنة ومُحرّكة من قبل الروح الحرة، بالإرادة ذاتها وليس بإرادة المرء المعينة. والموت ليس سوى النفي الطبيعي للإنسان الذي هو محدّد في ذاته ولأجل ذاته ومؤسس عبر الإرادة كي يمكن للطبيعة أن تذعن لإرادة المرء الحقيقية وتتوافق معها. الإرادة ذاتها التي تثير الدوافع فيك وتحرّكك لأن تسلّم نفسك في الأخلاق، في التفكير، والتي في الوقت نفسه تربط الإنسان مع الآخرين في العاطفة، الإرادة ذاتها تضغط بالموت خارج كينونة الطبيعة. وهكذا يمكن القول عن الموت إن أباه هو الروح القدس وإن الطبيعة هي فقط أمه الأرضية، التقبلية، السلبية. أنت تُحدث الموت مع وفي الإرادة ذاتها والتي معها وفيها ترغب بالدين والحقيقة. أنها واحدة مع الإرادة وهي الإرادة ذاتها التي تؤدّي إلى الموت في الطبيعة وموت الذات التي هي فضيلة، دين، وتفكير. حين تحب وترغب بالخير والحقيقة، فأنت تفعل ذلك فقط عن طريق الخير والحقيقة نفسيهما، في الإرادة العمومية التي تسكن في داخلك، في داخل الإرادة *خاصتك*. إذا كنت تمتلك فقط إرادتك المعينة الخاصة، فأنت لا يمكنك أبداً تسليم ذاتك، لا يمكنك أبداً أن تحب وترغب بالحق والخير، وفي الواقع، لا يمكنك أن ترغب أو تحب أي شيء على الإطلاق، لأن هذا الأي شيء هو دائما شيء ما آخر غيرك أنت، موضوع مستقل عنك. لكن إذا كان لديك فقط إرادتك الخاصة، فأنت لن يكون بإمكانك أن ترغب أبداً بشيء ما آخر والذي هو منفصل ومستقل عنك. مع إرادتك الخاصة وبها، أنت

كامل كينونتك الطبيعية، في حياتك. ولا يمكن تنفيذ حكم الموت هذا إذا لم تظهر المحدودية التي تعبّر عنها بالرباط مع الموضوع في الحب في حد ذاتها، إذا لم تصبح كينونتك ـ لأجل ـ الذات ظاهرة تحديداً كشيء انفرادي ومعوز بالكامل، إذا لم تمت. فالموت هو مجرد مظهر لكينونتك ـ من ـ أجل ـ الذات الانفرادية والمعوزة. إن لانهائية وجوهرية موضوع حبك، الذي بالارتباط معه والتأسيس عليه وحده تتواجد وتمتلك حياة، ضرورة الحب وعدمية وجودك المجرّد، كينونتك ـ لأجل ـ الذات، إنما تُظهر فقط من خلال حقيقة أن افتراضك ـ لذاتك، ذاتك، حين تتواجد لذاتها، حين يتمّ تجريدها وفصلها عن الجوهر والحياة في أية عملية موضعة، وخاصة في موضوع الحب، في لحظة ظهورها لذاتها وحدها وإنكارها الاتحاد مع عملية الموضعة ومضمون حبها (الذي، أثناء الحياة، هو إما اتحاد مستمر أو اتحاد تقطعه فقط علاقات من نوع آخر)، فإن ذاتك عندئذٍ ليست شيئاً ولن تصبح شيئاً. أنت تتواجد كأنا نقية، كذات نقية، أنت تتواجد فقط لذاتك وإن لمرة واحدة، وهذه اللحظة هي لحظة اللا ـ كينونة، الموت. ونتيجة لذلك فالموت، تحديداً لأنه مظهر لكينونتك ـ لأجل ـ الذات، هو في آن مظهر للحب. في الموت تخطو كينونتك ـ لأجل ـ الذات على أرضها الخاصة. لكن العدم، موت الذات في لحظة العزلة، في اللحظة التي ترغب فيها بالتواجد دون الموضوع، هي وحي الحب، هي الوحي بأنك تستطيع أن تتواجد فقط مع الموضوع وفيه.

علاقة الأزلية بالأخلاق:

وهكذا فأخلاقك هي الأكثر لا أخلاقية، الأكثر إثارة للشفقة، الأكثر عبثية، الأخلاق الأكثر عقماً في العالم حين تكون مستمدة من الاعتقاد بالأزلية، حين لا تتغلّب على الطبيعة، حين لا تعترف بالموت بحرية هي الأكثر ترفعاً، حين تسمح لهذا الاعتقاد بأن يسقط على جمهرة من الأفراد الأخلاقيين كي يلتهمهم مثل ذئب مفترس ومن ثم يسعى لتعويض الإصابة عبر أعطية ناعمة ورحيمة من أزلية مملة، حين ترغب بالتغلّب على الموت فقط بعد الموت، فقط بعد وصوله. لأن الموت

يمكن أن يُقهر فقط قبل الموت. لكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الاستسلام التام والكامل للذات، إلا من خلال الاعتراف بالإرادة العمومية، إرادة اللّه، إلا من خلال اعتماد إرادته ومعرفة الحقيقة الأساسية للموت وفهمها والتي يجب أن تكون مرتبطة بهذا الاعتماد. يتغلّب الشخص الذي يفكر والذي لديه رؤيا عميقة على الموت لأنه يعرف الموت على ما هو عليه، كفعل مرتبط آنياً بالحرية الأخلاقية. فهو يرى نفسه في الموت، يعترف بإرادته الخاصة في الموت، يقرّ في الموت بفعل حبّه وحريته الخاصين. إنه يدرك أن الموت لا يبدأ، بل ينتهي ويُختتم، بالموت الطبيعي، أن الموت الطبيعي ليس إلا زفير الموت الداخلي والمخبّأ، أن الموت الذي هو محجوز ومقيّد (لأنّ الإلزام، القيد، الموت المقيّد للذات هو الحب) هو فقط متحرّر، معزول، وغير مقيّد بموت خارجي، حسيّ، تماماً كما يزفر النبات ويستبعد المادة التي استنشقها وأدمجها. وما هو مصدر الموت إذا لم يكن حقيقتك الأعمق؟ هل يأتي من المقبرة، هل يظهر من الأرض ويخرج عليك مثل لص في الليل؟ هل هو هيكل عظمي أو إنسان له وجود مستقل؟ إنه ليس أياً من هذه؛ أنه ليس سوى مظهر لفعل ما هو داخلي من البتر، الانفصال، القطع، والتحقق من حبك، الإعلان أنك قرّرت بصمت أنك في طول مجمل حياتك وعرضها أنك لا شيء دون موضوع حبك وخارجه.

«لكن من ثم هل الانفصال فعل حب؟» كيف يمكنك أن تسأل مثل هذا السؤال؟ إنه فعل الحب النهائي، الأكثر تطرفاً، والأعلى؛ فقط إذا لم يكن الانفصال لا ـ كينونة، لم يكن موتاً، لم يكن ليكون حبّاً. أي أم لديها حبّ أكثر: التي لا تستطيع أن تتواجد إلا قرب أولادها، أو التي تفصل نفسها عن أولادها، من أجل تأكيد حبّها؟

موت الإنسان وموت غير الإنسان:

«لكن من ثم كيف تموت الحيوانات والنباتات، كيف يدخل الموت إليهم؟» إنهم يموتون فقط لأن البشر يموتون؛ فموت الإنسان هو الأرضية لموت النباتات والحيوانات، تماماً مثلما أن موت الشخص الذي يحب حقاً وهو أخلاقي هو الأساس

لموت الشخص الذي حبه أقل، الذي حبّه متناه ومحدود؛ فموته يسحب معه موت الحبيب الأقل. فذلك الذي هو أكثر علّواً يكون دائماً الأرضية لذلك الذي هو أدنى منه؛ والإرادة الأخلاقية فعلياً هي إرادة عمومية، لا متناهية، تؤثّر بكلّ شيء، حاضرة بكلّ شيء. يجوّف الإنسان الدنيوي موضعاً للموت من العلي، من اللّه، ويسكبه في الخلق. وهذا هو الحب الذي يخطو، في الإنسانية، داخل اليوم المشرق للوعي؛ وهذا هو الإرادة الإلهية، الإنسان النقي، الذي لا يزال موجوداً في الإرادة الأنانية (وإلا فإن الإنسان لم يكن باستطاعته أن يرغب بشيء) والذي يكمل فعل الموت في الطبيعة والإنسانية. الإنسان الأول جاء بالموت وما يزال يأتي به يومياً إلى العالم. الإنسان الأول، أو الروحي، الإنسان الذي وصل بالكامل إلى اللّه والحقيقة، الإنسان البدئي، يموت أولاً، يقود الطريق إلى الموت؛ فموته هو موت بدئي، أصلي، مؤثر بكلّ شيء. كلّ الكينونات الأخرى، النباتات، الحيوانات، البشر الأنانيون، إنما فقط يموتون بعده وفقط يظهرونه. حين يكون لكل شيء أنموذجه الأولي، جوهره الروحي، أصله الإلهي الأكثر رفعة، ألا يجب أن يكون للموت أيضاً أنموذجه الأولي، أرضيته، في الأرضية النهائية للأشياء والجواهر؟ هل يجب أن يكون الموت وحده مستقلاً، لأجل ذاته، بذاته ومن ذاته؟ لا بد أن يكون هناك موت بدئي وما قبل دنيوي. ابحث وسوف تجده.

الذاكرة البشرية:

لكن، كي نواصل الموضوع الرئيس بعد هذا الانقطاع الطويلة، فالتذكّر، بمعناه المقدّم سابقاً، هو المبدأ، الأساس، والإمكانية للتاريخ. التاريخ هو الدليل الواقعي ليس فقط على أن النفوس الفردية، أو الأشخاص والأفراد، يتواجدون، بل أيضاً على أن الروح ذاتها تتواجد؛ التاريخ هو الدليل الواقعي على أنّ التذكّر، كما هو الوعي، هو نشاط عمومي للروح. تتمايز الأحداث الفعلية عن التذكّر عموماً، فالتذكّر يعتبر عادة على أنه مجرّد حدث لاحق، هبة للنسل التي خصصتها صدفة والتي تدين بوجودها فقط للأوراق والحجارة. وهذا صحيح تماماً وفقاً للتمثيلات المتصلة

بالتاريخ والذكريات. ولأن التذكّر متصوّر فقط كقدرة ذاتية، فمن الطبيعي جداً أن وجود التاريخ، بالنسبة لنا في الأقل، يعتمد على وجود جمهور متعلّم محترم للغاية، وأننا نفصل التذكّر عن التاريخ الماضي، معتبرين أنه التاريخ الحقيقي، من خلال تمثيله على أنه التذكّر اللاحق فقط الذي يمتلكه الأشخاص عن التاريخ. ومن الصحيح تماماً أن روما كانت ستبدو على ما كانت عليه، كانت ستفعل ما فعلته، أنه كان سيوجد ثمة تاريخ لروما، حتى لو أن الجمهور المتعلّم المحترم لم يكن يعرف عنه شيئاً، وأنه، بالنسبة لهذا الجمهور، يعتمد وجود روما على الورق، لأنه يعرف فقط تاريخ ورق، وليس التاريخ الروحي والفعلي للعالم. مع ذلك، فالورقة والحجر هما في الواقع مجرد الوسيلة الخارجية للتذكّر؛ إنهما يجعلان من الممكن فقط تذكر أفراد معينين؛ إنهما ذاتاهما يمتلكان أرضيتهما في التذكّر ذاته. وبالنسبة للأفراد المعينين، الذين يتواجدون بشكل منفصل، أحدهما خارج الآخر وبعده في المكان والزمان، يجب أن يكون تذكّر التاريخي واسطة أو فعالية توسطية. لكن لأن الأفراد ليسوا الجوهر، الحقيقي، الروح، هذه الوساطة ليست سوى مظهر لوحدة التذكّر وعموميته، تماماً مثل ضرورة أني أكون واعياً فقط من خلال الآخر، أن وعيي يتواجد كوساطة ووعي توسطي، هي مجرّد دليل ومظهر من مظاهر وحدة الوعي وعموميته. يقوم التاريخ على الوحدة المطلقة للوعي والتذكر، على وحدة الروح مع ذاتها. هذه الوحدة في الجوهر هي وساطة في الوجود، وساطة بالنسبة للأفراد المشروطين الذين يتواجدون بشكل منفصل. لكن الوسائل الخارجية والوساطة لا تكون ممكنة إلا بافتراض وحدة آنية لروح عمومية وتذكّر عمومي وعلى أساس منهما. فالتاريخ، بوصفه الحياة لكينونات فردية، هو صيرورة تذكّر مستمرة، التي تحوّل الروح في ذاتها الأفراد، وجودات مستقلّة؛ ففي التاريخ يُدرك ذلك الذي كانه الأفراد لتوهم في ذواتهم ـ موضوعات لوعي الروح. وهكذا، فدون الموت لا يوجد تاريخ، وليس هناك تاريخ من دون الموت. التاريخ هو وعي، روح، الجوهر ذاته كصيرورة، الجوهر في الفعل أو الوعي كتذكّر.

يموت الفرد لأنه فقط لحظة متعاقبة في صيرورة التذكّر عند الروح؛ ويموت

الفرد ضمن التاريخ لأنه مجرّد عضو واحد من كليّة تاريخية. ولأن مبدأها روح واحدة، وعي واحد، الإنسانية هي كليّة أو وحدة مثل قطيع من الأغنام، والذي يتكون فقط من شاة واحدة والتي هي فعلية فقط في شاة واحدة، كلّ منها يتواجد فقط في وحدته لأجل ذاته، فقط كشاة مفردة، التي تلبّي احتياجاتها الخاصة فقط لنفسها، والتي لا تعاني من أي خسارة، ضرر، أو نفي بهذه الوحدة. الإنسانية هي كليّة والتي تمتلك استقلالاً ككليّة، التي لديها فعليّة ككليّة في أفرادها، هي وحدة والتي هي شاملة ومخترقة، التي هي حية، ملتهمة، التي تمتص الأفراد في ذاتها. تتواجد الأغنام في وحدتها لأنها تتضمن وحدة على نحو خارجي، وحدة غير مستقلة في ذاتها لكنها مسامية، بلا ذات، بلا روح، لأنها لا شيء غير قطيع؛ فوحدة الأغنام هي فقط تقاربها مكانياً. لكنهم لأنهم على وجه التحديد ليسوا أغناماً أو إوزاً، على وجه التحديد لأنهم متمايزون عن هذه الحيوانات فقط لأن وحدتهم لديها الاستقلال لأجل ذاتها، هي جوهر فعلي، يتواجد البشر في التاريخ، في تسلسل زمني.

تمتلك الوحدة الأساسية، المتشابكة، والشاملة لبّها ومذاقها في ذاتها، فهي كثيفة مثل الماس، حادة مثل حامض النتريك، مستهلكة مثل الحماسة، كليّة القوة مثل شعاع الشمس، محرقة مثل الألم، مؤلمة كالإثم، مخيفة كالانتقام، واضحة كالسماء، عميقة ومظلمة كالجحيم. الوحدة الأساسية هي النفي الأساسي الداخلي للأفراد. والتاريخ هو تحقيق الوعي، مظهر للوحدة في الزمن، التفعيلية للنفي الأساسي، ونتيجة لذلك، فهي تفعيليته في الوجود. يتواجد الأفراد الواحد بالنسبة للآخر بشكل خارجي كأفراد. وهكذا فإن تفعيلية الجوهر في وجودهم هي النهوض غير المنفصل عن زوالهم، هي كينونتهم ـ في ـ تعاقب؛ ونتيجته أن وجود الأفراد هو تعاقب متواصل، هو تاريخ. والزمن ليس سوى الروح في الحماسة والغضب، الجوهر في الغضب، *الغضب الإلهي furor divinus*، الروح التي تجرف العالم وتلهمه في مجرى إلهامها.

لكن أولئك الذين لا يحافظون على شيء غير لمسة ندم أخلاقي من ندوة

التاريخ (والذي هو متبل بخفة الدم العلية)، أولئك الذين هم غير قادرين على قبول ومقاربة اللهب المقدس للإلهام ومع ذلك ربما لا يزالون يتوقعون حياة أخرى كي يشفوا فيها من ندمهم وحقارتهم الخاصة عبر المخللات والأسماك المالحة للحياة الحاضرة (لأن الحياة الأخرى تتلقى تحديدها، مادتها ومحتواها، طعمها وملحها، من الحياة الحاضرة فحسب). وربما أنهم لا يزالون يتجولون على جبال ألب التاريخ العالية، باحثين عنِ أعشاب مفردة من أجل دوسها وسحقها ومن ثم يحضّروا منها المادة الغذائية لحياة مستقبلية. فحياتهم الأخروية تذوب مثل الزبدة في شمس الوعي. والخلود ذاته هو أرضية التاريخ، هو أساسه الداخلي وقاعدته التي تتخللّه. ومثل الجسد العضوي، فالإنسانية محتواة في حركة مستمرة، تجديد مستمر، خلق، وتحوّل للأفراد الذين هم أعضاؤها. لكن الكليّة التي هي الوعي ذاته إنما تكمن خارج الزمن.

الزمن بين الفرد والكليّة:

يقع الزمن، إذا صح القول، في المنتصف بين الكليّة والأفراد؛ فالزمن هو فقط العلاقة، الرابط بين الكليّة والأعضاء، رابط وحدة الأفراد. والوعي حاضر مستمر والذي هو ثابت دونما عرضة لتبدّل في التبدّل التاريخي وما وراءه؛ بالنسبة للوعي، يرفق زمن بزمن آخر، آنياً، باستمرار، وعلى نحو أزلي. فمن العصور التاريخية الأكثر بعداً حتى تلك التي يمكن لرؤية الباحث التاريخية، الزمنية اختراقها، وحيث يضيع التاريخ ذاته في الظلام، في أبديته التي ما تزال مع ذلك بداية حاضرة للجوهر (الذي هو، نتيجة لذلك، ليس ممكناً بعد أن يكون بوساطة تاريخياً أو زمنياً)، من كل تلك الأزمنة إلى زمننا الخاص، الوعي حاضر واحد، وحدة واحدة والتي لا يقطعها مسار زمن أو انقسام زمني. ولو أن الإنسانية ككليّة، لو لأن الوعي ذاته، كانا منقسمين ومقطوعين بفترات مستقطعة زمنية، كان سيبدو مستحيلاً ليس فقط التاريخ بل أيضاً وجود كل عصر متمايز. وبالمثل، كان سيبدو مستحيلاً بالنسبة لي كفرد أن أمتلك تاريخاً لو أن فرديتي، ونتيجة لذلك الوعي فيّ، كانا خاضعين للزمن، حين

تُفصل المسائل، مثل تصوراتي، مشاعري، خبراتي، بالزمن، تكون زمنية، وكان الوعي في قد انقسم كذلك عن ذاته، كان انقطع بالزمن. فخلف تناوبات الأزمنة والأفراد خلف تذبذب الظهور والزوال، الوعي حاضر أي أنه حاضر لذاته في هوية ـ ذاتية سلمية، في وحدة غير مجزأة، وفي راحة مستمرة. والإنسانية تتواجد في نشاط حركة، وتطور مستمرين فقط ضمن هذه الوحدة للوعي، التي تنير، توحد، وتحتضن جميع الشعوب، الأزمنة، والأفراد.

لكن التاريخ، بوصفه التفعيل ـ الذاتي للجوهر الواعي ـ ذاتيا، المفكّر، العقلاني، للروح، ليس مجرد تدفّق مثل تدفّق المياه، التي فيها يتبع الشيء ذاته الشيء ذاته دائماً، لكنه مسار والذي هو متمايز نحو الداخل بحدود، بغرض وتقرير عقلاني. وهكذا، فإن الوجود التاريخي للأفراد هو وجود يحدّده الغرض. فالفرد هو عضو محدّد في الكليّة التاريخية وله مصيره في هذا التصميم. وهكذا فإن أرضية الموت الفردي ليست مجرّد الأرضية غير المحدّدة بأن الفرد عضو في كليّة، بل هي الأرضيّة التي هي محدّدة بحقيقة أنه عضو محدّد من كليّة. لكلّ إنسان قسمة، غرض وتصميم عقلاني لوجوده. ويتجلى هذا بصورة مبدأية في الفرد كباعث، رغبة، موهبة، ميل؛ وتحديدية غرض حياة الفرد هي في حد ذاتها قوته، قدرته، موهبته. ومصير الفرد هو جوهره المقدس، غير القابل لأن ينتهك، هو باعث كل البواعث، نفس نفسه، مبدأ حياته، روحه الحارسة التي تحميه وتدافع عنه، الضرورة الداخلية، القدر الحكيم لوجوده. «عليك أن تكون، يجب أن تكون». هكذا يتحدث القدر. لكن هذه الـ«عليك» والـ«يجب» إنما هما لطيفتان ومعتدلتان؛ فالقسمة ليست إكراهاً لكنها متحدة مع الميل؛ إنها نفس الفرد، جوهره. وبالنسبة للشخص الذي جوهره يكون، الجوهر ليس إكراهاً أو ضرورة خارجية. الإنسان يعيش طالما أنّ مصيره لا يزال مصيره، طالما أنه لا يزال موجوداً فيه ومتحداً معه. فكينونة الفرد، ككينونة العضو، هي كينونة محدّدة تماماً، مفترضة تماماً بالمعيار والهدف. وهكذا، فحين يصبح القدر المحدّد للفرد المحدّد حقيقة، حين يصبح منفصلاً عن الفرد، حين يخطو داخل العالم الفعلي كموضوع، فإن نفسه عندئذٍ، مبدأ حياته،

تصبح مموضعة. لكن حين تصبح حياة المرء موضوعاً، فإن الكينونة ـ لأجل ـ و ـ في ـ ذاتها التي للمرء، كينونة المرء المناسبة، تتوقف عندئذٍ؛ فالمرء يموت. وعندما يصبح المصير موضوعاً للواقع والتمثيل، يصبح موضوعاً للتمثيل لا نفس له. فقدرة الفرد على شيء ما هي القدرة التي منها يعيش. وهكذا، فحين تُنفق هذه القدرة، تُستخدم حتى النفاذ، تخطو في الوجود كموضوع، فإن القدرة على الحياة هي أيضا تُستنفذ. والهدف الداخلي للإنسان هو أيضاً هدف حياته؛ والمقياس الداخلي هو أيضاً مقياس لوجوده. التحديدية هي بداية وجودك ونهايته. وهكذا فمن غير المنطقي أن نفصل كينونة الفرد عن مقياسه الداخلي، أن نفترض أن الفرد لديه استمرارية لا تقدّر ولا تحصى، وأن نلتمس الحياة الحقيقية في الحياة الآخرة، التي هي الحياة دون هدف وتصميم. الكينونة الحقيقة للإنسان هي تحديده، غرضه، لكن الغرض حدّ وقيد. وهكذا فكينونة الفرد، بقدر ما تمتلك غرضاً أو تكون غرضاً، تكون بالضرورة محدّدة. فكينونة بلا حدود هي كينونة غير مقررة ولا هدف لها. الغرض يجمع ويحضر إلى الذهن. والموت هو النتيجة الضرورية لهذا التجميع والإحضار إلى الذهن، لهذا التعيين للحدود.

وهكذا، فتلك الحياة التي يتواجد فيها الأفراد إلى الأبد، ونتيجة لذلك يتواجدون دون تحديد، معيار، أو هدف ـ لأنه إذا امتلكوا باتجاه الداخل مصيراً ما، إذا امتلكوا حدّاً وتحديداً داخل جوهرهم، فإن وجودهم كان سيبدو عندئذٍ وجوداً والذي هو مقرّر، محدّد، ومتناه ـ تلك الحياة في الآخرة هي حياة دون تجميع وإحضار إلى الذهن، دون سبب وجدية، حياة للعب والمظهر. فقط حين لا شيء يفترض قبل موت الفرد لا بدّ أنّ شيئاً يظلّ يُفترض بعده (من الواضح أنه مفترض فقط بالنسبة للفرد). لكن لابدّ أن يظهر عندئذٍ السؤال الهزلي، «هل ثمة شيء ما أو لا شيء بعد الموت؟» فقط حين يكون التاريخ لا شيء، فقط حين يكون الشخص العاري، الفرد المجرّد من كل العناصر التاريخية، من كل مصير، تقرير، غرض، تدبير، وهدف، فقط حين يكون الفرد الذي لا جدوى منه، المجرّد، الذي لا معنى له، الفارغ شيئاً، ونتيجة لذلك فقط حين يكون اللاشيء شيئاً، وفقط حين يكون الشيء، الحياة المقرّرة

والمقرَّرة فعلياً، التاريخ، لا شيء، فقط عندئذٍ يكون ثمة لا شيء بعد الموت، فقط حين لا يكون اللاشيء بعد الموت شيئاً أيضاً. وهكذا فتلك الكائنات المستَغرَبة والذوات الغريبة التي تعتقد أنها تعيش فقط بعد الحياة لا تفكّر أنها لا تحرز ولا تصنع شيئاً على الإطلاق بحياتهم الأخروية، أنها كما تفترض حياة مستقبلية، فإنها تنفي الحياة الفعلية. لأنه إذا كان هناك حياة بعد الموت، لا يمكن أن تكون هناك حياة قبل الموت؛ فإحداهما تستبعد الأخرى؛ والحياة الحاضرة تلغي الحياة المستقبلية، والحياة المستقبلية تلغي الحياة الحاضرة. في الحياة الحاضرة (التي قد تكون حياة عابرة فقط لأن كل ما هو معقول يحدث فيها)، هناك عادة حميدة، قديمة العهد بأن الخيّاط لا يخيط الثقوب في المعطف مع الثقوب الأخرى، أن الناس لا تعوض بالأضرار، لا تجازى بالديون، لا تعطى بالسطو. مثل هذه القوانين العامة، التجريبية، الأرضية لا تعود صالحة في وبما يتعلق بالآخرة. فالآخرة ـ وهذه هي أولويتها الوحيدة والتمايز الوحيد الذي تعهد به للحياة لحاضرة ـ تخيط الثقوب مع ثقوب أخرى، تملأ من قبل الخواء، تُحيا من قبل التدمير، تستبدل بافتراض لا شيء، تُشبع من قبل الجوع، تثري من قبل الحرمان. من الذي سيتفاجأ من حقيقة أن الآخرة هي الحياة الحاضرة المجنونة والمعتوهة؟ لأية غاية تتواجد الآخرة حين لا يكون شيء والذي هو ليس مختلفاً بالكامل عن أحداث الحاضر الذي تجري فيه، حين لا يعيش المرء متحرّراً من الخطايا التي ارتكبها في الحياة الفعلية، حين لا يقتات المرء على عدم الحاضر؟ لأية غاية تتواجد الآخرة إذا لم يوجد هناك فيها شيء والذي هو لا شيء في الحياة الحاضرة؟

من الآخرة إلى السماء:

الآخرة الحقيقية، السماء التي سيكون الفرد فيها جزءاً من التقرير والتحديد لفرديته، ونتيجة لذلك، من فرديته ذاتها، هي الحب، التأمل، المعرفة. فقط في هذه يمكنك أن تتواجد في اللامتناهي، وإن ليس في وبوساطة كينونتك الفردية، الشخصية. لكن كينونتك الفردية، الكينونة التي هي حرّة من عبء الفعلية وحدّ

فرديتك، هي كينونتك كما تتمثل، كموضوع للتذكّر. فالتذكّر وحده هو عالم الموتى، أرض الأنفس التي غادرت. ويعتمد مدى وأهمية المكان الذي يحتفظ به الفرد في التذكّر على محتوى ومدى تقريرية الفرد. إذا كانت تقريرية الفرد محدودة، إذا كان مدى الأنشطة التي أدركت هذه التقريرية محصورة، فإن بوصلة التذكّر تكون أيضاً صغيرة ومختفية. لكن إذا كانت التقريرية عمومية، إذا احتوت مضموناً لا متناهياً، وإذا كانت الفعاليات التي أدركت هذه التقريرية نتيجة لذلك ذات محتوى ومدى عموميين، فالتذكّر عندئذٍ هو أيضاً تذكّر عمومي، تذكّر هو تاريخي بالفعل. وهكذا، تعتمد شخصيّة التذكّر، سواء أكان دينونة ولعنة أو سواء أكان بركة وإقراراً شاكراً، على الشخصية الأخلاقية للفعاليات، على ما إذا كانت خيّرة أم شريرة. لا تمتلك السماء وجهنم وجودهما الحقيقي وأرضيتهما إلا في التاريخ، في التاريخ كما يفصّل ذاته في وحدات الشعوب وتواريخها.

السماء، بمعناها الأقدم، هي عملية موضعة وتجسيد ماديّ لتذكّر بوصفه نعمة، امتناناً، حبّاً، وإعجاباً. أصل السماء والجحيم يجب أن يبحث عنه فقط في الحياة التاريخية للشعوب القديمة التي حافظت على الحاضر في اتصال مستمر، داخلي مع الماضي، الشعوب التي التاريخ بالنسبة لها لم يكن بعد وصفاً لما كان قد حدث، بل كان حياة فعلية، الذين بالنسبة لهم كان الماضي الركيزة الأساسية وأساس الحياة الحاضرة، ونتيجة لذلك، فالأفراد، ضمنهم، لم يكونوا منقطعين عن الحياة التاريخية المجتمعية الفعلية، والذين لا يمثلون فرديتهم المعزولة على أنها واقع أساسي في عري نافٍ ـ لكل ـ شيء، كما يفعل الأفراد في العالم المعاصر. إن الحياة العليا للفرد الذي لم ينفِ التاريخ والحقيقة بل الذي عاش وكان واعياً لذاته فقط في الوحدة مع شعبه وجنباً إلى جنب مع التاريخ كانت أن يعيش في الأفئدة التي تغص بالشكر للذرية، المحتفى بها في أغاني شعبه. وكان أقسى حكم بالنسبة للفرد هو لعنة الذرية وإدانتها. وقد مثّل الشعراء الشعبيون والشعب ذاته التذكّر على أنه عالم حقيقي، موجود. وللسبب ذاته القائل إن جزاء التذكّر الشاكر أو الذي يلعن هو جزاء حقيقي، إنّ التذكّر بوصفه تذكّراً للناس عموماً، غير قابل للتغيير هو عالم

حقيقي، كان من الضروري، بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى، أن يُمثّل ويصوّر كعالم متواجد بشكل محسوس. وحتى عندما تمّ تدمير وحدات شعوب العالم القديم، وحتى عندما تمّ توسيع، مع هذا الدمار، المفهوم الضيق لشعب واحد بوصفه الإنسانية ذاتها إلى مفهوم الإنسانية التي دمرت الفروق بين الشعوب، حتى في المسيحية، وإن حتماً في المسيحية القديمة، الأصيلة، الجوهرية ليس إلا، فإن الاعتقاد بالسماء والجحيم لم يُقطع عن الحياة التاريخية الفعلية أو عن مفاهيم الوحدة والجماعة. لأن السماء كان قسمة فقط أولئك الذين عاشوا في وحدة مع الكنيسة، الشعب وأمة اللّه؛ فالآخرون يلقون في الجحيم.

من المؤكد أن جزاء التاريخ لا يرضي الذوات الحديثة، التي تعتبر أن معيار الواقع هو فقط تجاربهم، معارفهم الخاصة. وحين يكون ذلك الذي يأتي بعد الموت وفرديتهم ليس متضمناً في معارفهم وتجاربهم الخاصة، عندئذٍ ليس ثمة شيء بعد الموت، وفقاً لهم. وحين لا يختبرون الجزاء على الأفعال الخيرة، فسوف يصرخون عندئذٍ أن ليس ثمة ثواب، ليس ثمة إله. فبالنسبة لهم، يعتمد كل شيء على تمايزهم عن الآخرين، ولا شيء يعتمد على حقيقة الخير في ذاته ولأجل ذاته، أو على الجوهر، الحقيقة، أو الحب، الذي هو الاتحاد بين الجوهر والآخر الذي يلغي التمايز. وحين يظلون غير قادرين على تمييز أنفسهم بعد الموت، سيقولون عندئذٍ إنه لا يوجد شيء بعد الموت.

الذوات الحديثة تعرف فقط الأفعال الأخلاقية الذاتية. فبالنسبة لهم، الخاصية الأخلاقية الذاتية هي الخاصية الوحيدة والأساسية بالمطلق للفعل. وفي الواقع، فبالنسبة لهم، الخاصية الأخلاقية الذاتية هي التي بها وحدها يكون فعلٌ فعلاً. إنهم لا يعرفون شيئاً عن الفعل اللامتناهي، العمومي، فعل الروح، مثل التاريخ والأفعال العالمية ـ التاريخية. والذوات الحديثة تعتبر أنه من الهراء أن يكون فعلاً كينونة في ذاتها، ليس في السلوك الأخلاقي، بل في ذاتها. وبالنسبة لهم، التاريخ هو فقط تاريخ ما هو ذاتي أخلاقي من أفعال، ظروف، أحداث، حالات. الكينونة،

الجوهر، والروح ليست موضوعهم في التاريخ. إنهم يرون في التاريخ فقط سرباً من الأفعال التي يلف أحدها الآخر ويشتبك به على نحو لا نهائي. وهكذا، فبالنسبة لهم، الكينونة في الحاضر والماضي مقررة فقط لأجل كينونة في المستقبل، وفيما يتعلق بأخلاقية الأفعال، فقط لأجل الأرض حيث الجزاء موجود بشكل منفصل من تلقاء نفسه، كما تتواجد الأفعال فرضياً من تلقاء نفسها في الحياة الحاضرة. ومع ذلك، مرة أخرى، فالذوات الحديثة، المريضة في العين والروح، لا تلاحظ أنه بهذه الطريقة أنها تدخل اللاشيء في محتوى كل من الآخرة والحياة الحاضرة، وأنها تدمر الاثنتين في الوقت ذاته. فالوجود المستقل للجزاء يلغي جوهر الجزاء؛ والوجود المستقل للفعل يلغي جوهر الفعل. والمكافآت المستقبلية لا تحلّ أبداً محلّ معاناتي وآلامي الحاضرة. إن جزاء يتواجد على نحو منفصل، الذي هو منقطع عن حياة الفعل، لا يمكن الاستمرار في النظر إليه على أنه جزاء حين يأتي لاحقاً، حين أتلقاه بعد أن تنتهي معاناتي، حين لا تعود بي حاجة نتيجة لذلك لاختبار الجزاء. لكن مثلما أن الجزاء المنفصل لا معنى له ولا جدوى منه، كذلك أيضاً فالفعل الذي يتواجد على نحو منفصل عن جوهره ويكون منقطعاً عنه لا معنى له ولا جدوى منه، لأن الجزاء الحقيقي على فعل ما هو جوهره الخاص.

الأزلية الحقيقية:

الاعتقاد الحقيقي بالأزلية هو الاعتقاد بالروح ذاتها وبالوعي، بجوهريتهما المطلقة وحقيقتهما اللامتناهية. وبقدر ما تكون الروح المبدأ للتاريخ، بقدر ما يتم إلغاء الماضي، الحاضر والمستقبل وتطابقهم في الروح والوعي، يكون الاعتقاد الحقيقي بالأزلية اعتقاداً بحقيقة الماضي، بحقيقة المستقبل والحاضر (طالما أن الحاضر لا ينظر إليه في العزلة، بل في جوهره، في علاقته الأساسية مع المستقبل والماضي). وكون اتحاد الماضي والمستقبل مع الحاضر يجب أن يقدّم جنباً إلى جنب مع الوعي، فالاعتقاد بالأزلية يمكن أن نجده عند الشعوب كلها تقريباً. وذلك الذي هو حقيقي في الاعتقاد العمومي بالأزلية (وكذلك أيضاً

في الاعتقاد الحديث، على الرغم من أن أولئك الذين يؤكّدون عليه لا يدركون هذه الحقيقة، بل، على العكس من ذلك، يربطونه بمعتقدات وآراء خاطئة)، أن ما هو حقيقي في هذا الاعتقاد يتكون فقط من حقيقة أنه تمثيل محسوس لطبيعة الوعي، أنه في هذه الاعتقاد، فإن الأساس، العنصر، والشرط لكلّ تاريخ ـ أي، وحدة الماضي، الحاضر، والمستقبل، كحقيقة جوهرية واحدة ـ تثبّت وترتقي إلى سوية موضوع، إن لم يكن للمعرفة والوعي، فللتمثيل والاعتقاد المظلمين إذن. وهكذا، فاعتقادك بالأزلية هو اعتقاد صحيح فقط عندما يكون اعتقاداً بلانهائية وبالشباب الأزلي للإنسانية، بالحب الذي لا ينضب وبالطاقة الإبداعية للروح، بكشفها الأزلي عن ذاتها في أفراد جدد من رحم وفرتها ومنح كينونات جديدة من أجل تمجيد ذاتها، التمتع بها، والتأمل بها. إنه اعتقاد صحيح فقط حين يكون الاعتقاد أن الحقيقي، الجوهر، الروح إنما تمتلك وجوداً والذي هو مستقلّ عن وجود كل الأفراد وأن البشرية تمتلك وجوداً والذي هو مستقل عن هؤلاء الأفراد المعينين، الحاضرين، وحين، نتيجة لذلك، يكون الاعتقاد أنّ هؤلاء الأفراد الحاضرين، المعينين ليسوا خالدين وأبديين، هم حقاً ليسوا آخر الأفراد، الذين بهم سيستنفذ جوهر البشرية ويسير إلى نهايته.

على العكس من ذلك، فاعتقادك ليس اعتقاداً بجوهرية وحقيقة ذلك الذي هو جوهري، بل اعتقادك بجوهرية وحقيقة ذلك الذي هو متناه، واعتقادك بالحياة الأزلية هو اعتقاد بأكثر الحياة زمنية بين الجميع. الزمن هو ابنة الحقيقة؛ إنه لا يظهر غير الطبيعة؛ إنه مرآة للجوهر. الزمن لا يسيء ولا يضر بشيء. وحده ذلك الذي هو عابر في الجوهر يزول في الزمن. الزمن يرفع فقط الحجاب في معبد إيزيس؛ ففعاليته كلها مكونة من رفع الحجاب. وهكذا فحين يكون على الأفراد الحاضرين، العابرين أن يكونوا خالدين، فإن تلك الحياة إذاً التي يكون فيها الحاضر المعزول، الأفراد الحاضرون، حقيقة نهائية ومثبتة بالمطلق، التي فيها، نتيجة لذلك، يمتلك الزمني وجوداً وديمومة أبديين، يمتلك العابر وجوداً وديمومة أبديين، فإن هذه التي تدعى بالحياة الأزلية إذاً ليست مجرّد زمنية بل هي الأكثر زمنية، الزمنية

بالمطلق، الأكثر زمنية بين الجميع، الحياة الأقل حقيقية والأكثر انتهائية، *صيغة التفضيل* *superlatives* لكلّ ما هو زمني ومحدود. لكن هذه الحياة الحاضرة، التي تسميها «فقط» هذه الحياة، كما لو أنها كانت فقط حياة مفردة واحدة، إنما هي حياة مطلقة، أبدية، لا متناهية، لأن المتناهي يزول فيها، والزمني ليس أزلياً فيها. تتواجد الزوالية في هذه الحياة فقط لأن اللامتناهي ذاته يتواجد فيها. فالزوالية تتواجد فقط داخل اللاانتاهي. والموت والزمان هما ذاتاهما حضور الأزل، هما الروح اللامتناهية في الفعل. واعتقادك بالأزلية يكون حقيقياً فقط حين يكون اعتقاداً بهذه الحياة، بزوالية ما هو زائل، وبأزلية ما هو أزلي، بوجود اللّه.

أنا متجرّجر من هذه الحياة الدنيوية
كي يمكنني أن أستكين للعدم.
من المؤكد، تُعلّم الحكاية القديمة
أني سأجرّ قرب الجمع الملائكي؛
لكن وحدهم اللاهوتيون، الذين خدعوا أنفسهم لمدة طويلة
بشأن الحقيقة، يعتقدون بأشياء من هذا القبيل.
وجودي الممل مثلي،
تتوقف هويتي
مع صرختي الأخيرة.
الموت ليس دعابة جوفاء،
الطبيعة لا تلعب مزحة عملية؛
إنها تحمل الموت الحقيقي على ختمها.
الكينونة تعيش عالة على الكينونة
وهي مرصرصة من العدم:
الكينونة لا يمكن تقسيمها،
وهكذا وحده العدم يمكن أن يشفي الكينونة.
أنا أكون أنا، طبيعة واحدة فقط،

كينونة واحدة فقط، ضوء واحد، كليّة واحدة؛
أنا فقط وحدة واحدة، مركز واحد،
ومستدير جيداً على جميع الأطراف.
لا يمكنني أن أعبث بوجودي؛
لا يمكنني طرح شيء منه، ولا إضافة شيء له.
آلام، أفراح، شوق، وفتنة،
آثام، خطيئة، تعذيب، وعذاب،
كل هذه وحدة واحدة،
هي الجوهر نفسه، الكينونة، والتفرد.
أنت لا يمكنك حتّي
أو أخذ مقتطفات مني كما تشاء:
الأنا تتبخّر، الأنا تنطفئ
حين تستخرج ألمي وتعذيبي مني.
وحتى لو كانت الحكاية حقيقية،
وحتى لو كان هناك حقاً حشد ملائكي،
أفضّل أن أكون في المنزل مع ألمي
على أن أكون مع الملائكة في الوهج السماوي.[1]
يمكنك أن تصطنع ألف ملاك من إنسان واحد،
لكن الأمر يحتاج إلى تبجح حقيقي بالشجاعة كي تصنع منه مقتطفاً.
وهكذا فحتى لو كانت الحكاية حقيقية،
وكان هنالك حقاً حشد ملائكي،
يظل أنني لن أجد نفسي فوق هناك،

(1) *Himmelschein*: يستخدم فويرباخ غالباً الكلمة الملتبسة *Schein*، التي يمكن أن تعني الضوء المادي، ظهور حقيقة، ومظهر أو وهم حقيقة. وهكذا فمصطلح *Himmelschein* يمكن أن يعني «المجد السماوي» أو «وهم السماء».

لأن مقتطفاً مني لم يعد أنا.
وأن أكون الأمر ذاته كلياً في الآخرة
لا معنى له بالنسبة لي على الإطلاق،
لأن مثل هذه التكرارات
لم توجد قط في الطبيعة.
وهكذا وداعاً، يا عزيزتي الأنا، وداعاً!
إلى الأبد، للأسف، للأسف!
عزيزتي النفس، لا تحزني
حتى لو كنت أنا أنهار:
ما الخير الذي يرتجى من التحليق في الحجرات السماوية
كنفس مقتطفة
بملامح ناضبة؟
أي نوع من الوجود يكون هناك حين يكون المرء وحيداً
ما كانه المرء وما يكونه لم يعد؟
ما الذي ترغب به لملء ليل العدم
ولإرواء عطشه للضوء
بالتواجد مثل جذوة تحتضر
مقهورة في النار، اللون، والجوهر،
كمجرّد هوية
دون تنوع أو خاصية؟
أن تستمر كلا شيء
سوى شبح باهت للذات،
هذا لا أجيزه، هذا لا أريده!
لا تحزن عندما تنهار الأنا.
أنا لن أقابل الظلال،

أقارب سقراط وأوغسطين.
أنا متجرجر إلى العدم
بلهيب حياة جديدة:
أنا مدفوع للمغادرة إلى أولئك
الذين لا يكونون ولم يكونوا بعد،
إلى المستقبل الذي يصبح حياة،
إلى العدم الذي يأتي بالكينونة،
إلى كينونات بعيدة غير معروفة
التي تجمع ثمار موتي،
والتي العدم لا يزال بهدوء
يختفي في صدرها المظلم،
إلى الأطفال الصغار الأعزاء
الذين يأخذون مكاننا
ويتنفسون هواءهم الحيوي
من جلود موتنا الجافة.
إن حياة جديدة في برعم غض بالتأكيد
ستنبع من الموت.
لكن أنا، أنا لن أقوم مرة أخرى؛
فالموت ينهي مسار حياتي.
يجب أن أزول إلى العدم
إذا كان لأنا جديدة أن تقوم.
فأناي الخاصة تصبح أنا جديدة
التي هي متمايزة تماماً عني.
أناي الخاصة، ممزقة بالموت،
أُطلق سراحها إلى ذات حرة

التي تتواجد في ذاتها
مفصولة عني.
الكينونة الأخرى التي تحمل المستقبل في ذاتها،
لا تشملني.
يا طفلي الحبيب العزيز،
كينونتي *أنا* تصبح الآن كينونتك.
عزيزتي الطبيعة الأخرى،
أنا متحوّل إليك؛
أنت أناي القائمة من بين الأموات
حين تلاشت كينونتي طويلاً في العدم.
الموت يعكس كينونتي وكينونتك؛
إنه يطوق الواحدة في الأخرى.
أنت تعيش هنا في هوية ـ ذاتية
مرة واحدة فقط ضمن الزمن.
تتوقف الهوية.
الموت ليس دعابة جوفاء.

أيتها الحياة القاسية، أيتها الكينونة المرة!
أيتها الكينونة المليئة بالنضال والألم الصرفين!
أيها الإله الصارم! أيها القلب المكسور!
في النهاية لا شيء، موت أبدي!
ومع ذلك، يا عزيزتي النفس، فأنت تحملين
بشجاعة نير الحقيقة الخفيف؛
لن تعودي تئنين عندئذٍ
وتعطشين لكينونتك الخاصة.

الأنا الأفضل لبشرية أخرى
التي قبلها تفنى أناي في اللاشيء،
هذه هي مملكة السموات الحقيقية
التي أصعد إليها بعد الموت.
أنت تصرخ في كربك،
«أعطوني عزاء للموت»؛
بعد ها هو الوجه اللطيف للحقيقة
والضوء الحلو لعزاء جديد:
الحقيقة لا تعطيك صدأ الحكايات القديمة؛
إنها تعزيك *بالبشر*،
بطبائع غالية، أفضل، أخرى،
التي تكون لأنك أنت تكون،
بالأرواح الملائكية للأطفال الغاليين،
السادة المستقبليون للسادة الحاليين؛
هؤلاء يدعونكم بعيداً عن الحياة
ويهمسون لكم في قبر سلمي؛
هؤلاء يهدهدون لكم لنومكم النهائي
ويحيكون كينونتكم داخل العدم.
طفلك الخاص، دمك الخاص
يسحب نفس الحياة منك؛
طالما أن أناك غير محطمة
يظل بإمكانك أن تلقي بنورك على صغارك.
يسافر الأب في طريق الموت
ليرفع الطفل نحو السماء؛
إنه يلقي بنفسه في جثته

ليصنع السلّم السماوي لولده.
ليجعل الفتاة الشاحبة تتوهج
حارة ملتهبة بالحب؟
لماذا يتوهج وجه الصبي
بلون قرمزي كالنار؟
لماذا، يا عزيزتي العذراء الشابّة، تتألّق عيناك
بمثل هذا الوضوح والنقاء؟
أعزائي الشباب، أنتم تسحرون بنظافة
كما تضرب النار من الأعين!
الأزلي يأتي، الأزلي يزول،
لا أنا ـ بعد، لا أكون ـ بعد،
إنهم يغسلون الأعين بنظافة شديدة،
ويأتون بالنار، النور، واللون.
الأرض منيرة، العدم مشرق.
لا شيء يخفت مسار حياتك:
إنه لا يومض في الوعي
مثل نور سهر ضعيف؛
إنه لا يضفي عليك بخاراً شبحياً
من فن الحياة والفكر.
الحياة ليست متسامحة،
الموت ليس كوميدياً.
ومن هنا يأتي البصيص في عينيك،
ومن هنا يأتي الحريق داخلك.
موت آبائنا الأزلي
يولّد الخدود الحمراء النارية؛

آخر الحمّى لأمهاتنا العزيزات
تولد البصيص العذراوي الساخن حتى اللهيب.
الأرض هي العدم، العدم هو الليل؛
هذا هو السبب في أننا نُحرق بمثل هذه الروعة النارية.
ظلام اللاشيء، ظلمة الأرض
تحدّد الألوان على نحو تام.
قوة الفكر والحياة لا تتمدّد
فتأثيرها بلا حدود
على طول الطريق إلى غرفة الموت المظلمة،
هنالك من يومض نفسه موهناً،
لكنه يكبس ذاته فيك.
هذا هو السبب في أنه يستطيع أن يحرق بشدّة هنا.
الأزلي يأتي، الأزلي يزول
يعطي مثل هذه الشجاعة، ويعطي مثل هذا المعنى؛
النور *الواحد*، الحياة *الواحدة*،
وحده الواحد يمكنه أن يُخرج مثل تلك النار.

يمكنك أن تتواجد مرة واحدة فقط؛
أخضع إرادتك لهذا.
كل حقيقة، روح، طبيعة
تتواجد مرة واحدة فقط.
الحياة هي الحياة فحسب
لأنه لا يمكن أن تكون هناك حياة ثانية.
وحدها المرة الواحدة تخلق جوهراً، قوّة،
فعلاً حيّاً، وممتلكات.

المرة الواحدة تنير، تدفئ، تشعل،
وتهذب، تضغط، تقود، تربط.
المرتان مظهر ضعيف فحسب،
جوهر دون عظم أو نخاع.
المرة الواحدة هي البطل الحقيقي،
النواة، الروح، القوة للعالم.
هذه هي مَخْدَدَة الكينونة،
هذه هي المطبعة العظيمة للكون.
كل الروح تحتوي لتوها على نحو مضغوط
ذلك الذي يمكن أو يُعدّ أو يقسّم.
المتعب، المتلاشي، المترخرخ،
النوم، الموت، الشحوب المهلك،
الفحم المُعاد إشعاله، اللهيدة،
الرتابة التي بلا طعم،
الخبز غير المملّح، الفطير،
المشي أثناء النوم، التجهم العاطفي،
التشاؤم، التوق العاجز،
الوقفة التقوية، الانفغار المزعج،
الحساء المائي، الحمار الرمادي،
التصوف، الشحوب والتسطّح،
التورّم، التقيؤ، الضجر،
المرض، والنجيج المتقيح،
هذه جواهر دون باعث ولا قوة،
دون طبيعة، لون، حياة، أو نسغ،
هذه الجواهر من بخار ولهيدة

تأتي فقط من المرتين، من المرّة ـ الواحدة ـ تكون ـ اثنتين.
العدد هو فقط أرضيّة الموت؛
المرة الواحدة حياة، عافية.
الروح لا يمكن أن تتكرر،
لا تُعدّ ولا تتكرر.
الحياة نفسها هي الروح بالفعل،
لذلك فهي ترفض كل عدد.
الزمن والعدد ينتهيان في الواحدة؛
وهكذا فالمرّة الواحدة هي الأزلية.

المرة الواحدة هي قوة الحب،
نبضة القلب، ودافع الدوافع؛
وحدها المرّة الواحدة تأتي بالألم والفرح
والحب في الثدي البشري.
الحب له خصائص صارمة،
لديه قوته في التناقضات؛
هذه، شخصيته الدقيقة،
لا تتسامح مع الأزلية.
ماذا هو الحب غير ألم واحد مفرد
الذي يملأ قلبك بالكامل؟
أنه ليس سوى ضغط النفس،
إكراه حلو، حرّ،
النقطة حيث الروح كلها
تركّز على كنزها المحبوب.
آه أيها العبء اللطيف! آه أيتها الشدّة الحنونة!

أيها الضغط الناعم، الإكراه الحلو!
ولكن كيف يمكنك أن تكون قادراً على إدراك
قوة الحب وفنه الرفيعين؟
كيف ينشأ فيك ضغط الحب،
حين يلغط زمن الحياة
على طول الطريق إلى بحر الخلود
دون حدود، إكراه، أو دافع؟
فقط في حقبة الحياة القصيرة
ينكشف القلب في الحب.
فقط في قوة الحياة، فقط في الدافع إلى الموت
يُضغط الحب في حركة؛
فقط على أعلى قمة للحياة
يضرب برق الحب؛
وحدها دفقة القلب الأخيرة
تدفع بنتش الحب.
حين تكمن الأزلية في الانتظار
بالنسبة لك خلف هذا الزمن،
يجب أن تكون عجوزاً حتى كطفل؛
كان على قلبك أن يزحف في شبق بال.
فأنت كنت ستتلاشى لتوك هنا على الأرض،
قلبك لب بلا طعم؛
طوفان من الأعمار بلا نهاية،
دون حدود الموت وعقبته،
كان سيغسل كل قوتك،
كان سيآكل كل صفة لك.

مرة واحدة في السماء، هذه الأرض
كانت ستصبح بالنسبة لك آخرة جميلة.
كنت ستتخلّى بسعادة عن الأزلية
لأجل هذه المرة الواحدة،
وفي أرض الموت، أنت
كنت ستتوق لمغادرة الحالة الملائكية المملة
لتصبح إنساناً محبّاً
مرة أخرى على هذه الأرض.
من أجل الأرض الأجمل، الأفضل حالة
لأن تكون إنساناً هو هنا؛
فقط حيث ثمة صراع ومعاناة،
حيث الألم يكّدر صفاء النفس،
هناك فقط وطني الحقيقي؛
الألم هو عهد الروح.
دع رجال الدين الجبناء
يقعون في حب الآخرة!
وحده ألمي يُترك لي،
وحده قلبي العاشق، المحترق.
وإذا كان العالم كله يرغب بأن يكون إلهياً،
ويذهب إلى السماء ـ
وهو ما لا أستطيع الاعتقاد به،
لأنه لا يزال هنالك بعض الرجال الشجعان ـ
كنت سأبقى في الخارج،
لم أكن لأدخل،
وعائداً إلى بيتي الخاص،

أتسول الآلام القديمة
كي تحترق مرّة أخرى فيّ؛
لا أستطيع فصل نفسي عنها.
لأنّ الألم ليس جزءاً منفرداً
منقطعاً عن صحة النفس؛
أنا كلّي ضغط، كلّي ألم،
ولن أحفر تحت أو أطير فوق.
الألم يوحد السماء والجحيم
في السطوع المعمي لأرضيته.
يا نيوبي! يا نيوبي!
حَجَر إلى الأبد! واحسرتاه! واحسرتاه![1]
حقاً حجر والذي يبكي إلى الأبد،
الذي فيه يتواجد حقاً الخطيئة والألم،
يوحّد في حد ذاته من الإنسانية
أكثر من الجمع الضبابي لكلّ الملائكة.
لذلك أود أن أكون مثل هذا الحجر
على أن أكون مع الملائكة في الوهج السماوي.

كعصارة مرّة
تسكن في الحمضيات،
كذلك يجلس الموت في حبلك الشوكي
كما لو كان في حديقته الخاصة.

---

(1) في الميثولوجيا الإغريقية، نيوبي، ملكة ثيبز، التي كانت ابنة تانتالوس وزوجة الملك أمفيون؛ وعقاباً لها لرغبتها في التساوي مع الآلهة، تم إجبارها على أن تشهد مقتل أولادها الاثني عشر على يد أبولو وأرتيميس، اللذين كانا ابنين لمنافسها، التيتان ليتو. و«الحجر الناحب» الذي حولها إليه زيوس يقال إنه موجود على جبل سيبيلوس.

إنه نبيذ الكون
الذي يتحرّك ويخلق؛
لقد سكب في الروح رطوبته الملينة
في الجزء القاسي من الأشياء،
وهكذا جعل الجلد القديم للمادة
محتملاً روحياً.
لأنه فقط في ما هو عابر
يخلق نوعية في المادة.
وحده الخوف، الرعب من الموت
يجعل المادة تتحرّك.
الموت أجفل المادة
ووضع الطبيعة في مسارها
بحيث أنها ستركض دائماً
من مكان لآخر.
الموت وحده يدير رقصة النجوم
وموسيقى العوالم.
العالم كله، حقيبة وأمتعة،
رقصات فقط لمزمار زق الموت؛
آه! وأوه! وداعاً! واحسرتاه!
هي الأبجدية الوحيدة
التي تشكّل كتاب العالم
الذي تُكتب فيه الخليقة؛
هذه هي الأحرف الوحيدة
التي تنقش رموزاً حادة
في هريسة المادة التي لا طعم لها،

في الرتابة المملة للكتلة.
حتى العندليب الحلو
يغني فقط عند مشهد مصدر الحياة.
يُنقل القلب إلى الأغنية
حين تدقّ ساعة نهائية.
الماس يبرق
فقط عند غسله بموجات الموت.
فقط بعد علو صوت الساعة الأخيرة،
محدّدة بانحسار النبرة،
فالطبيعة، بسرعة معيّرة،
تشكّل الكريستال الممتاز.
حقاً العالم كله يُرتّب في نهاية المطاف
فقط بعد ساعة الموت.
رمال المادة الفضفاضة
تحصل على رابط الشكل،
تحصل على الحركة، الجوهر، والهيئة
فقط بعد أن دقّت الساعة الأخيرة.
هدير الأمواج، حفيف أوراق الشجر،
انجراف الغيوم، قشعريرة الرياح،
غضب الغضب، سهم البرق،
وهج الحب، سرعة الرعد،
هذه الحقائق تظهر من نضالها
فقط بعد الساعة الأخيرة.
لا يسمع المرء أبداً حقيقة لاهوتية
من الكرسي الأكاديمي؛

لذلك لم انتظر الأكاديمية
مثل بقرة على حوض صغير.
بالنسبة لي، الأفضل بين كل الأساتذة،
أطبائي، قساوستي، قندلفتي ـ
لو لم يكن الأمر كذلك، كنت سأقول ذلك بصوت عال وواضح ـ
كانت النجوم، الأرض، النباتات،
كانت الطبيعة، المسيطر عليها فقط من قبل ذاتها،
المقيدة ضمن حدود غير مقيدة.
كنت دائماً شيطاناً مسكيناً فحسب،
ممتلئاً بالأوجاع والآلام والشك.
عشت مع جنيات لطيفات كأشعة الشمس،
مع حوريات الماء، وRübezahl [1]
الجدة الجديّة للضفدع؛
ثم سمعت محاضرات أكاديمية
وكافحت عبر مستنقع وسبخة،
حتى ظهر غصن صلب لي.
نقيق الصراصير، نعيب الضفادع
يحررني من الخطأ، أسوأ الآثام.
أرى ليلة الموت
مضيئة بنعومة في موجات متدحرجة؛
أرى الحافة البعيدة للأعمار،
حدّ الذات في كل شجرة؛
في كل بذرة تفاح،

(1) *Rübezahl*: روح الجبل، الغول، أو عفريت الجبل، والمدى يمتد على طول الحدود السليزيانية ـ البوهيمية.

إني أحدّق في النأي المظلم لموتي،
وقد سمعت حتى أمر موتي
يتلفظ به شلال.

آه، يا لها من معجزة، يا للوفرة الغنية!
ضغط الحياة، صمت الراحة،
ليلة الألم، سطوع السلام
لها منبعها في الموت.
قرأت هذا في الكتاب العظيم عن العالم:
الموت هو المقياس لكل شيء.
الموت هو العطالة الصامتة
في كل قوة واختلاف.
كان العالم سينفجر إلى قطع صغيرة منذ فترة طويلة
لو أن الحياة والموت لم يُجعلا منفصلين.
إنه في الموت ينفصل الموت عن الحياة؛
لذلك ندعى مثل هذه الحياة المنفصلة حياة ميتة.
شعلة الحياة
كانت ستنفجر عبر ألف ثقب في جسدك
لو أن الموت لم يجلس بهدوء شديد
في أعمق أعماقك،
وباستمرار يشرشر قطرات جليد ذائب
عبر الفتحة السفلية لجسدك.
كان ضغط دمك سيبدو مرتفعاً للغاية،
مساره البرّي مقيد جداً،
وهكذا فإن اندفاع قوته

كان سيكسر قفل جسدك،

لو أنّ الموت لم يكبح التدفق

في تقدمه الجوفي،

ومثل جرّاح،

يدميك باستمرار،

ويهدّئ إلى الأبد

الفترة العاصفة من صراعات الحياة.

أكثر نعومة حتى من أغنية أورفيوس

يغني الموت لحن السلام

الذي يضغط كلّ شيء في تناغم،

الذي يخترق حتى الحجر والقرمة.[1]

في النوم خرجت المرأة من الرجل.

في النوم انقسم جسده اثنين.

لو كان العالم مجرّد جلف خام واحد،[2]

غير لدن، قاس، متعنت،

فالموت عندئذٍ لن يحني الذات أبداً

ويهدّئ الطغيان إلى الرحمة،

وأثناء النوم، يستخرج الغلّ الضاري

من الجلف الخام.[3]

الموت فقط يسبل جفون

(1) في الميثولوجيا الإغريقية، كانت موسيقا أورفيوس قادرة على سحر حتى الأشياء التي تفتقد إلى الحياة. والكلمة التي يستخدمها فويرباخ هنا، *Klotz*، يمكن ترجمتها ب»قرمة«، إضافة إلى أنها تشير إلى قطعة خشب كبيرة، يمكن أن تعني «الجاهل» أو «كل ما هو أرضي وحقير». وفويرباخ يستخدم *Klotz* بالمعنى الثاني هذا مرتين في الأسطر التالية.

(2) أنظر الهامش السابق.

(3) أنظر الهامش السابق.

الذات لتنال النوم
بحيث يأتي آخر من المرء،
بحيث يفيد المرء الآخر.
لم يكن باستطاعتك تحمّل الضوء،
لم يكن باستطاعتك أن تجرؤ على تحمل الحياة،
لو أن الموت ليس معصوب العينين
بحيث يهزم النور والحياة؛
وإلا فإن كل شعاع شمس كان سيبدو
طعنة خنجر في القلب.
اللّه ينظر أولاً إلى النور
بحيث لما فتحت عينيك لم تكن لتموت.
عندما نظر اللّه إلى النور
صنع ظهره ظلاً؛
تركه على الأرض
كشمسية لرؤيتك.
الموت هو ظل اللّه،
الذي هو ضروري للعين البشرية؛
لفّ اللّه الموت فوق رأسك
مثل قوس قزح،
نشره فوقك مثل مظلة،
وإلا لكنت ستحترق لتصبح هشاً منذ فترة طويلة.
لكن لماذا أن ذلك الذي يسمى إنساناً
منقسم إلى قبل وخلف؟
كيف يحدث أن عيوناً وآذاناً
لا تزيّن الظهر أيضاً؟

لماذا لا تكون مليئاً بالغضب
لعدم كينونتك قبل وخلف في آن؟
لماذا لا يغضبك أنك تستطيع أن ترى وتفكّر
فقط على أسوار الجسد الأمامية؟
مع ذلك تحافظ على رؤيتك واضحة
كي تنظر إلى الأرضية العميقة للجوهر!
كي تنظر كيف كل شيء متشابك،
كيف يعيش الأعلى في الأدنى!
كيف أن الجهة الخلفية
موضوعة لحمد اللّه!
إذا كنت ترغب في ذلك، يمكنك اكتشاف الحقيقة
حتى في الجهة الخلفية، وحتى في الخلف.
أنظر فقط إلى الوراء
لترى كيف تحترق شمعة الموت إلى الأبد،
يغذيها دهن نفسك،
تحرقك مثل قطران صنوبر،
تذيب عظامك ونخاعك،
مثل زبدة في الشمس.
لا تسمح لنفسك بأن تُخدع!
الموت هو فقط جهتك الخلفية؛
الموت هو فقط ما يأتي بعدك.
العين في ظهرك مغلقة الآن.
الفكر والإرادة الواعية
ينامان الآن هناك في راحة أبدية.
كنت مرة طفلاً؛

وهكذا فأنت أعمى حالياً حيال الخلف:
ما كنته ذات مرة
لا يزال موجوداً في جوهرك؛
فقط ما كنته ذات مرة بمعزل عنك وعني
يقع الآن خلفك.
مع ذلك، فالأرض التي هجرتها، باعتبارك أنا
لا تزال تحملك.
أنت لست حراً أبداً من المصدر؛
أنت تبقى دائماً في رحم أمك.

للأسف، فقط الجانب من المرآة الذي يواجهك
يعرضك أنت والموضوعات الأخرى.
رعاع الحواس خفيف الروح، مكدّس في
حزمة واحدة، هو أيضاً في الجزء الأمامي:
فقط على طرف غصنها الأعلى
تدفع بك شجرة الحياة
إلى نور الشمس الحلو،
إلى فاكهة الوعي المرة، الناضجة.
وحدها النقطة الأعلى تسكب
شغب الذات.
الشخص فقط طرف الشجرة،
الغاية النهائية لخيط الحياة.
وحده الجزء الأمامي من السكين حاد
ومفيد لاحتياجات منزلك.
شعلة الغضب تطلق

فقط على عرف الديك.
بريشة حادة ونترات فضة لاذعة،
قلم ستيلو الروح العظيمة
يحفر جوهره النقي على كتلة من الطبيعة
حتى يتسنى لجميع الجسد أن يقطر دماً.
فقط في الجروح وجدت الطبيعة
أرضيّة الروح.
راية الحرية ترفرف
فقط في طرف قطب الطبيعة.
الروح، التي تمسك ذاتها في الوعي،
تجلس فقط على أعلى سارية للكون.
الروح تستولي على الطبيعة
فقط من قمة رأسها،
وتهكمياً تنظر أسفل أنفها
إلى ابن عمها العزيز؛
ثم تدفع الطبيعة بإطراءاتها
وتستدير بذاتها برشاقة،
تأخذ إجازة من معاليه؛
عند هذه النقطة، ينتهي وجودك.
للأسف، إطراء مجرد
يأخذك إلى نهاية الحياة!
لو لم تكن الطبيعة بمثل هذا الحمق
لعشنا إلى الأبد دون فشل.
مع ذلك لو نكن مخطئين في الفهم،
لنرى العمق العظيم للطبيعة!

حيث عظمتها، ذاتك،
تُنتفخ بمعرفة الذات،
والعرض الزهري لحواسك
تلاشى في ليلة الموت،
هناك يكمن كنز الحقيقة الغني،
هناك يمتلك الجوهر مكانه.
في مقر الموت، أنت تعيش
في امتلاك ثروات كل جوهر.
أنت لست في الجوهر شخصاً
ذات مرّة طرت إلى اللّه.
الشخص هو فقط هيئة وشكل،
لكن الجوهر وفرة ومحتوى.
فقط في جهته الخلفية يكون الإنسان ذاته إلهاً ـ
أقول هذا لإغاظة الورعين.
الورع ضعيف الشخصية يعرف
فقط تكشيرة الوجه من الأمام؛
فقط في عضوه المولّد،
حيث يُطلق الإنسان من الإنسان،
حيث تمسك الأنانية بذاتها
في التظاهر بكونها طبيعية،
هل يمتلك الورع مرساة،
دعامة الأمل القوية،
خرطوم حريق الحياة الأبدية.

في رضاه بأثناسيوس، [1]
فهو لا يفعل شيئاً سوى ممارسة الإستمناء باليد.
هذه الطبيعة التقية الغاشمة
قرأت مرّة في الكتاب المقدّس
أنه عندما امرأة عبرانية قديمة
نظرت إلى الوراء،
بسرعة البرق
تحولت إلى عمود حجري من الملح.
وهكذا فاليوم، لا يزال هناك قول مأثور:
«لا تثق بنفسك بأن تنظر إلى الوراء».
وهكذا فالورع لا يعرف سوى غيض من الإنسان،
فقط القمة الساطعة كالبرق للقبة.
مذهولاً بالألوان الزاهية للببغاوات،
وممسكاً بذيل الطاووس،
يسند نفسه على عضوه التناسلي،
على الذات في تميزها.

كما تنسكب الدموع من العيون،
كذلك ينصب الموت من الروح؛
لهذا السبب، الموت إعجازي،
برّاق على نحو رائع كالماس.

(1) إضافة إلى كونه أحد آباء الكنيسة والذي يتناغم اسمه على نحو مريح مع *أنونانيزم* [من يونان، الذي عرف عنه في التوراة ممارسة العادة السرية] (*أثانازي، أوناني*)، فإن أثناسيوس (293 ـ 373) عارض الاعتقاد الآريوسي بأن المسيح لم يكن إلهاً كاملاً بالقول إن جوهر الله اخترق بالكامل الطبيعة البشرية للمسيح، أو شخصيته، وصاغ عقيدة الثالوث التي فيها الأقانيم الثلاثة يمتلكون القدر ذاته من الوزن كجوهر إلهي. وهكذا، فحين تعمد فويرباخ الإشارة التاريخية، فهو يضمّن ذلك أن التقي يعزو خطأ الكثير إلى الشخصية.

عندما بدأ الإنسان الأول يعرف نفسه
أحرق الألم الشديد نفسه،
وعندئذٍ فانطلاق الموت
سكب من خلال مداخل عينيه المحترقتين.
في الطبيعة، المياه دائماً
تتبع مسار الحرارة.
وهكذا فالقلب يحترق عند الموت
لأن الإنسان يكسب معرفة ـ الذات
حيث يغادر البشري من البشري،
حيث يُقسم البشري إلى أنا وموضوع.
وهكذا فالناس تبكي عادة عند الموت،
لأن الدموع تخفض حرارة الألم.

عندما فتح آدم عينيه
وتخلّى أولاً عن أول حالة البراءة السلمية،
في ذروة حادة من أناه
لم يكن الربح أو الخسارة بعد قضية.
فقد امتص في قناة النفس،
سلطة على كل نور،
وهكذا فد قضي على النباتات والحيوانات تقريباً
هلكوا تقريباً لعدم وجود الضوء.
فقط الآن، فقط عندما تجمع في حظيرة تخزين الذات،
أصبح النور ناراً.
لكن عندئذٍ احترق وجه آدم
بالنور الحار للذات.

فتوهج بلون أحمر كالخزامى،
كديك بريش أحمر.
الآن فإنّ العصر الذهبي بالفعل
كان قد ضاع إلى الأبد بالنسبة له.
مع ذلك كان لا يزال ثمة بصيص منه
في نظرته الآسية بعمق؛
وقفت بصمت وهدوء،
حلم جميل أمام نفسه،
وارتفع مثل رائحة حلوة
عبر البرعم الزاهي لذاته؛
بالتأكيد هناك عطر
فقط حين تُحرق الأجزاء في الهواء.
كان آدم قد نُقل تماماً عبر
الرؤية لهذا بصيص.
وعندما أدرك آدم هذه الرائحة
جعلته الرائحة جيداً بالفعل.
أغلقت عيناه،
وغرق في راحة أبدية.
كنت ستبدو بالفعل بلا طعم،
متعاقداً بالروح والجسد،
حين جزء من أناك
لم تستقر باستمرار في العدم.
يمكن أن يكون هناك طعم ورائحة
فقط حيث يكون هناك أكل وتحلل.
الموت المسكين دائماً جائع،

وهو يتغذى دائماً على الحياة.

القلب يمكن أن يستمر في الضخ

فقط طالما لديك شيء لإطعام الموت؛

تتوقف الدورة الدموية

عندما لا يكون لديك المزيد لتضعه على طاولة الموت.

الحياة تتغير أبداً

ومقايضة الكينونة بالمظهر؛

قطعة منك دائماً مبتورة،

وفقط قطعة منه متروكة.

كينونتك ليست سوى لحظة؛

نحو العمق، هناك مظهر فقط؛

مظهر يضغط أكثر دائماً،

مظهر يصبح أعرض دائماً،

حتى يصبح مظهراً بالكامل

وفقط وهج النار يبقى.

أرضية الأشياء واضحة ونقية

كحجر كريم.

من المؤكد، أن الروح ولدت العالم؛

لكن الموت وحده ينير الطبيعة.

تصبح الكينونة للمرة الأولى واضحة في الموت.

وهكذا فالكينونة تتواجد بالكامل في الموت.

الحياة بذاتها لديها فجاجة فحسب؛

وحدها، تكون مجرّد صوّان؛

الموت وحده يأتي ببريق الماس

لحجر الصوان الخام هذا.

يمكن للإنسانية أن ترى نفسها في المرآة
فقط في الزوال.
فقط في الدموع النهائية للروح،
منعكس في مرآة العالم
وملهم بتدفق مفجع،
هو العالم المنار بجمال نقي.
وحدها ضرورة الموت
تغطي الأحمر ببصيص من الأبيض.
الكينونة مجرّد مادة؛
إنها مظلمة، لا شكل لها كالمادة؛
مادة وصلت للمرة الأولى إلى الغليان
فقط مع طوفان الدموع عند وفاة آدم.
الملح من هذه الدموع طهّر الأرض
بحيث أنها أشرقت الآن بالجمال والسطوع
شفافة كجلد رقيق،
شفافة إلى أعماقها.
كم هو مشرق الموت!
ما من ربيع يبرق بذلك الوضوح.
إنه الأكثر جمالاً بين الماس؛
إنه يشع بالنور في يد اللّه.
ما من صفة تكدّره،
لا فرق ولا تنوع.
إنه لا يزال العصر الذهبي
الذي لم يتواجد فيه تمايز بعد.
لا أشكال تقبضه؛

المظهر ممتد إلى ما لا نهاية.
وهكذا فكل كينونة تتواجد هناك مرة فقط
لأنها تصبح للمرة الأولى واضحة في الموت.

أقول لك، أيها الورِع غليظ الذهن،
إنك لا تمتلك حقيقة فيك،
إنه مهما كنت تقياً،
فأنت لا تفي بالالتزام الأعلى.
عليك أن تتشكّر الموت باحترام،
تكرّس له مشاعرك، رغباتك، وأفكارك؛
يمكنك أن تنهض بنفسك للأغنية والصلاة
فقط لأن الموت يقف إلى جانبك.
حتى قدرتك على تخيّل نفسك ميتاً،
حتى خيال الموت هذا ـ
لأن موتك الروحي ليس غير نشاط معلّق ـ
إنما يُعطى لك فقط بالموت الحقيقي.
أنت تفكّر بإلهك على أنه خيّر وعادل
فقط هكذا يصبح طعم الخبز أفضل بالنسبة لك؛
حيث لا يوجد سوى هذا الخير والعدالة،
تزدهر الأنانية.
اللّه بالنسبة لك هو شحم الخنزير
والحد الأدنى المطلق من الملح
اللذان بهما تتبّل هريسة فرديتك
لإعطائها طعم لائق.
اللّه هو فقط أناك الخاصة

وقد ارتدت الثياب وتزينت بحرص.
أجهد نفسك أولاً بعرق مناسب،
ومن ثم تحصل على قليل من الدفء لقلبك الصغير الغالي؛
الذات تُفرز في عملية التعرّق
وتُفصل عن ذاتها،
وهذه الأنا المفرزة
تُعرّف على أنها اللّه بالنسبة للذات.
إنها تتحوّل إلى أنا في موضوعها الخاص -
أنت الآن تفهم مسألتي كلها.
إذا كنت ترغب أن تغالي بالوطن
يجب أن تبعد نفسك عنه.
على المرء أن يصبح أولاً منفصلاً عن ذاته
حين يرغب المرء بمعرفة قيمته الخاصة؛
لأن الذات تحب أن تدلّل ذاتها،
أن تفصل ذاتها عن ذاتها.
إنها تدعو هذه الأنا التي تفوح منها رائحة العرق
غير مفهومة على نحو مفهوم.
والواقع أن هذه الأنا أخفت ذاتها،
أعطتها شكل موضوع، وغطتها.
إنها لا تجرؤ الآن
أن تفتح عينيها.
واحدنا أقفل على جوهرة في صندوق
بحيث لا يمكن للسارق سرقتها.
الآنسة الرقيقة تحجب وجهها
من أشعة الشمس.
الذات لا تقدر بثمن بالنسبة لذاتها،

لذلك تلف ذاتها بحجاب.
الذات لا تجرؤ على النظر في الأعماق
بسبب الخوف والرهبة من الموت؛
الخوف من الموت يجعل المرء بجانب ذاته،
وهكذا تصبح الأنا موضوعاً لذاتها.
تهرب الذات تحت جنح الظلام
والورِع يشهر سيفه،
بحيث أن تفوقه، الذات،
لا تتنازل عن الوجود؛
الآن هو بيأس
يمسك بالجهل من ذيله،
وقد ألصق ذاته بقوة على البوابات السماوية
بحيث أن الموت لا يحرجه.
إنه يمتص اعتقاده الثمين
كما لو أنه عنب حلو.
فالمرء الذي يضغط نفسه في بذرة
ويفترض شكل شخص في قبة السماء،
بالنسبة له الشخص هو كل ما يهم،
الآن يأخذ راحته في السماء
ويراقب مسار العالم بابتسامة،
يمتع نفسه، حرّاً من الصراع المميت
في الأبخرة ذاته الفردية.
أنت ترى الشخص فقط في اللّه؛
وهكذا فأنت تضع ذاتك على العرش.
أنت لا تعرف الجوهر والطبيعة؛
أنت لا تعرف إلا أقرب نقطة إلى اللّه،

لأن النظر في الأحشاء
لا يقدّم رؤية مرحب بها.
حتى الموت هو جوهر؛
يمكنك أن تقرأه في كل مكان؛
حتى الموت هو حقيقة
تنقش على درع الله.
أنا أنصحك بجدية،
لا تأخذ متعتك الآن؛
أسقط أمام الموت،
لأن الموت ذاته يتواجد في الله.
دع الموت أولاً، بكل قواه الساحقة،
يتحكّم فيك.
دع ذاتك تهتز وتنتفض بالموت،
كن مخترقاً برعبه؛
وعندئذٍ فإن الدفء اللطيف للسلام المعتدل
سوف يدخل على الفور إلى أمعائك.
دع الموت أولاً يقوم بقطعٍ نظيف من ذاتك؛
وسوف تأتي التسوية للحال.

القسم النثري الثاني:

اسمح لي الآن[1] مرّة أخرى، أيها الحب الإلهي، بعد أن أمضيت ما يكفي من الوقت ألقي نظرة مؤلمة على الظواهر القاتمة للحاضر، في معارضة لما يمكن

(1) الترقيم على الطبعة الأصليّة يتبدل في الترجمة [الإنكليزية] لأن هذا الجزء من المقطع النثري طُبع بعد *الحِكَم* خطأ، في حين أن هذه المقاطع النثرية أعقبت مباشرة القسم الشعري من *أفكار حول الموت والأبديّة*. في الطبعة الأصلية، يحمل النثر العنوان «خاتمة ترجع إلى الصفحة 171»، آخر صفحة من المقطع الشعري.
ملاحظة من المترجم العربي: في النص العربي، التزمنا بوضع القسم النثري الثاني قبل *الحكم*، لكننا أغفلنا عن قصد الترقيم الأصلي الألماني الذي هو بحوزتنا في نسخته الأصلية، لكنه بلا فائدة ترتجى للقارئ العربي.

للحقيقة ذاتها أن تظهر كحقيقة، بل فقط كمعارضة، اسمح لي مرة أخرى أن أغرق ذاتي في الأفكار اللذيذة والملهمة لجوهرك الخاص، الذي يُتضمن فيه ويوحد كل حقيقة معينة! أنت إله، جوهر، جوهر كل شيء. أنت الوعي الذي ينير كل شيء؛ أنت الفكرة ذاتها، الروح ذاتها، الزمان الذي ينفي كل شيء، المكان الذي يحفظ كل شيء. اللّه، أنت تتواجد كالحب ذاته، ككل جوهر، ككل وعي، ككل روح، كل زمان، كل مكان، كل طبيعة، ككل شيء، في وحدته وتمايزه على حدّ سواء، كتوثيق لي ونفي، أرضية حياتي وموتي في واقع واحد. كزمان، أنت زوالي؛ كمكان، أنت استمراريتي؛ كجوهر، نهايتي؛ كوعي، بدايتي. ككلّ شيء، كروح وطبيعة، كوعي وجوهر، كزمان ومكان، أنت لست فقط وحدة ذلك الذي هو متميز، بل أنت تمايز الذي هو متمايز، استقلال ذلك الذي هو مستقل، تعددية الكثرة، وجود ذلك الذي هو يتواجد، حدّ ذلك الذي هو محدّد، تقريرية المقرّر، فردية المفرد. كيف لك أن تكون كل شيء، كيف يمكنك أن تكون حباً، لو كنت فقط الوحدة في ذلك الذي هو واحد وليس أيضاً التمايز في ما هو مميز، لو كنت فقط العام وليس أيضاً الخاص والمفرد، لو كنت فقط غير المحدود وليس أيضاً المحدود والمعيّن؟ أنت كل شيء؛ هذا مؤكد، وهو في ذاته كل حقيقة. ولكن ما هذا الكل شيء، كيف يتواجد؟ هذا الكل شيء، هل هو كله كواحد، أم أن أيضاً هذا الواحد متفرّق، كما التميز؟ كيف يمكنك أن تكون كل شيء إذا كنت كلّ شيء في وحدته الملزمة لكن ليس أيضاً في تمايزه المفرّق؟ ألن تكون فقط شيئاً ما لو كنت فقط كلّ شيء في وحدته ونتيجة لذلك فقط في التمايز عن تمايزه؟ إذا كنت فقط نفياً لذلك الذي هو متمايز وخاص، كنفي فقط لذلك الذي هو متمايز، فأنت ستكون حقيقة والتي هي متمايزة فقط عن التميز؛ كنفي مجرّد، ونتيجة لذلك، كمعارضة مجرّدة لذلك الذي هو متمايز، وكتضمّن تحت مفهوم التمايز، أنت لن تكون كل شيء. أنت كل شيء فقط بوصفك أنت ذاتك المفهوم لكل شيء؛ الكلّ شيء مستوعب فيك أنت وحدك، لكنك لا تستوعب في شيء غير أنت ذاتك.

عودة إلى اللامتناهي والمتناهي:

اللامتناهي يؤكد كما ينفي وينفي كما يؤكد. فاللامتناهي يتواجد على نحو كلّي وبطريقة لا متناهية، لكنه لم يكن ليتواجد بتلك الطريقة لو كان نفيه حقيقة والتي تتواجد بشكل منفصل وبمعزل عن ذاتها، لو أن انقساماً، حدّاً، وجد بين نفيه وتأكيده، إذا كان النفي، نتيجة لذلك، متناهياً، إذا انتهى عند التأكيد والتأكيد انتهى عنده. فالمتناهي لا يتواجد بشكل لا متناه في المتناهي، كشكل للتفكير بلا روح ولا إله يقصده ويرغب به؛ المتناهي يتواجد على نحو لا متناه فقط في اللامتناهي. لكن اللاتناهي هو على وجه الدقة لا تناهي المتناهي في اللامتناهي، هو نفي المتناهي. في اللاتناهي، يتواجد المتناهي في نهايته، ليس في ذاته ولأجل ذاته؛ ونتيجة لذلك، فهو يتواجد في نفيه؛ مع ذلك فهذا النفي هو في الوقت عينه تأكيده. المتناهي يتواجد في نهاية المتناهي، في حدّ حدّه، في محدودية المحدودية، في نفي نفيه، فقط عند هذه النقطة يتواجد في تأكيده.

حين لا يمكنك، يا عزيزي الإنسان، أن تفهم طبيعة اللامتناهي، أنّ نفيه تأكيد وتأكيده نفي، ومن ثم على الأقل أن تفهم في التشبيه والاستعارة كيف أن النفي يمكن أيضاً أن يكون تأكيداً. أليس الغضب العقابي لأحد الآباء، الذي هو، كغضب وعقاب، إنما هو إنكار للطفل، حب للطفل، الرغبة بالأفضل للطفل، ونتيجة لذلك، تأكيدٌ للطفل؟ علاقة الأب بالطفل هي مثل علاقة اللامتناهي بالمتناهي. الطفل هو الإنسان في مرحلة نهائيته ومظهره؛ الأب هو الإنسان في المرحلة الأخيرة واللامتناهية، في مرحلة الجوهر، ونتيجة لذلك، في المرحلة التي لم يعد بإمكان الأب، كفرد معين، أن يتقدّم، لكن يتراجع فقط، ليس في النمو، بل فقط في الانهيار، لأنه يتواجد في المرحلة العليا والأخيرة، اللامتناهية، التي لا تمتلك مرحلة أخرى كحدّ لها، بغض النظر عن مرحلة أعلى، لأنه، ككينونة مفردة محددة، وصل إلى نهاية حياته. بالمقابل، فالغضب الذي يؤذي به طفل طفلاً آخر هو نفي فقط، لأن طفلاً يرتبط بطفل آخر كمحدودية لمحدودية. أليس النفي تأكيداً أيضاً في

الحب؟ عندما يلتهب قلبك بالحب لكينونة ما، فأنت تجرح وتحرم تلك الكينونة، أنت تحرمها من وحدتها اللامبالية والراضية مع ذاتها، أنت تأخذ منها وجودها المنفصل، استقلاليتها. أنت تريد وترغب وتطالب بدقة أنها يجب أن تتواجد فقط معك ولأجلك، أن تكون واحداً معك، لكن لا يجب أن تتواجد على نحو منفصل، أي، حرّة ومستقلّة عنك. وهكذا، حين ترغب الكينونة المحبوبة أن تنفصل عنك، أن تسترجع أو حتى أن لا تسلّم وجودها المستقل، فإنّ قوّة الحبّ عندئذٍ وفعالية النفي تخطوان إلى الأمام وحدهما وعلى نحو مستقل بالنسبة لذاتيهما؛ ولأن النفي يخطو إلى الأمام ضمن وجود منفصل، يصبح الحب كراهية مدمرة، غضباً، انتقاماً، عدائية. لكن الآن، أليس الحب أيضاً تأكيداً في نفيه للوجود المستقل؟ أليس النفي الذي هو حب إنما هو التوكيد الممكن الأعلى، الأكثر عمقاً، الأكثر يقينية، الأكثر حقيقية؟ كيف يمكنك أن تقدّر وتقرّ، أن تؤكّد وتثبت كينونة بأكثر من أن تحبها؟ لكن هل يمكنك فصل نفي هذه الكينونة عن هذا التحقق والتأكيد لها؟ عندما يتحول الحب إلى كراهية وعداء، فهذان لا ينشآن من أي مكان آخر في النفس إلا من الحب. العداوة والكراهية نفي نقي؛ لكن كيف باستطاعة الحب التحوّل إلى عداوة، كيف باستطاعة العداوة أن تنشأ من الحب، إذا لم يكن الحب في ذاته نفياً؟ ما هي العدائية غير النفي الذي هو لا متناه في الحب، الذي لا يمتلك حدّه عند التأكيد بوصفه حقيقة منفصلة عن النفي، الذي هو النفي ذاته الذي تمّ عرضه على أنه نفي متناه، على أنه نفي نقي، على أنه نفي مستقلّ؟ أليس الموت ذاته (لإظهار مثال لك على الحقيقة، حتى في حالة الحب)، على الرغم من أن نفي الفرد، هو في الوقت نفسه تأكيد له؟

الموت والحد:

الموت هو مظهر للحقيقة القائلة إنك لست كينونة بلا تحديد، بلا هدف، ونتيجة لذلك، بلا حدّ. وحالما ينفيك الموت، فإنه يكون المظهر، التوثيق، التأكيد على حدّك، ونتيجة لذلك، على هدفك وتحديدك. لكن لأنه على وجه الدقّة كان

هذا الحد التحديد لفرديتك، ذلك الذي جعل هذه الفردية على ما كانت عليه، فالموت، كشهادة، إثبات واقعي، وتأكيد على حدّك، هو توثيق فرديتك. أو الموت، في نفي فرديتك، هو في الوقت نفسه الدليل على حقيقتها. الهدف يحدِّد. ولأنه يحدِّد، فإنه يحدّ. ولأنه يحدّ، فهو يأخذ، فهو يسرق، فهو ينفي. لكن الهدف يعطي كما يأخذ، لأنه يجعل الحقيقة التي هو هدفها تكون على ما هي عليه. فدون هدف، ليس ثمة فرد؛ دون حدّ، ليس ثمة هدف ولا موت. وهكذا فالموت، كإظهار للهدف، إنما هو في آن تأكيد ونفي. ونتيجة لذلك، فإن هدف الفرد، وفعلياً فرديته ذاتها، لا يلغى ولا يُقطع مع نفي وجوده، بل يستمر من دون انقطاع. حتى هدف الفرد، بوصفه الهدف لوجود الفرد، له استمرارية غير منقطعة في وجود فرد جديد والذي تحديده هو الهدف ذاته.

الآن، إذا كان صحيحاً القول إن اللامتناهي يؤكِّد كما ينفي، إذا كان اللامتناهي في وحدته النافية هو أيضاً تمايز والذي يمنح الوجود والبقائية، يمكن عكس هذا الاقتراح إذاً لإظهار أن الحد ذاته يكون في اللامتناهي، أن الفردانية هي حقيقة في اللامتناهي، أن التحديدية، الوجود ذاته جوهر، أن الحياة ذاتها أزلية، أن الزمن أبدية، أن لحظة ما هي لا تناه، أن نقطة ما هي غير قابلة لأن تُقاس. اسمح لي من جديد، الحب، حلّ بالنسبة لي سر ولغز الجوهر! عندما تصبح نفسي حبّاً، فهي تجمع وتركّز ذاتها في نقطة واحدة؛ إنها تحدِّد وتحدّ ذاتها. ونفسي تحصل على خاصية وطابع فقط في هذا التجميع والتركيز. لكن أليس هذا الظلم، هذا القلق للنفس في حدّ الحب وطابعه، هو أيضاً أعلى المتع، النعيم، الحرية؟ هل تستبعد الكينونة النقية القيد والتقريرية؟ أليس قيد الحب هذا هو اللامتناه ذاته، الكينونة النقية؟ وما هي أعلى متعة خالصة غير الكينونة النقية ذاتها بوصفها موضوعاً للتجربة، كما تتواجد في التجربة؟ لكن الحب هو المتعة الأعلى، ومع ذلك فهو تحديدية، خاصية للنفس. نتيجة لذلك، ألا تستبعد الكينونة النقية الحدّ أو الحد يستبعد الكينونة النقية؟ الحب هو الشعور باللامتناهي. الحب ليس اختباراً لذلك الذي هو مقرّر ومحدِّد، وإلا لكان سيكون ما لا يكونه، تجربة مقرَّرة ومحدَّدة. إنه

تجربة الجوهر. وعلى الرغم من أن جوهراً مقرّراً يمكن أن يكون موضوعاً خارجياً لتجربتك، يظل هذا الموضوع مجرّد فرصة لك لتجربة جوهر نقي. لكن في تجربة الحب، وحده الجوهر النقي في ومن الجوهر المقرّر هو موضوعك. لكن الجوهر النقي هو أيضاً كينونة نقية، وتجربة الجوهر النقي والكينونة النقية هي ذاتها جوهر وكينونة نقيان. ونتيجة لذلك، فالحب حدّ، لكنه مع ذلك يقبض على اللامتناه.

مع ذلك، حين يكون الحد أو أي تعبير آخر عن الحد هو اللاتناهي ذاته في اللامتناهي، فإنّ نهاية الفرد عندئذٍ أمام وفي اللامتناهي ليست نهاية. ولأن الكينونة الماضية للأفراد في وأمام اللامتناهي ليست شيئاً متروكاً في الخلف، منفصلاً عن كينونتهم الحاضرة، وهكذا، في وأمام اللامتناهي، كينونة الأفراد الموتى ليست منفصلة عن كينونتهم الماضية. الأفراد الذين لا يعودون يتواجدون بالنسبة لأنفسهم، في علاقة متناهية بأنفسهم، الذين لا يعودون يتواجدون بالنسبة لنا، في علاقة متناهية بنا، إنما لا يزالون يتواجدون في وأمام اللامتناهي. إنهم أموات فقط بالنسبة لأنفسهم كأفراد مقرّرين وأموات بالنسبة لنا كأفراد مقرّرين، لكنهم ليسوا موتى بالنسبة للجوهر ذاته وللامتناهي. إلى هذا الحد يموت البشر فقط من العلاقات، يموت واحدهم فقط قبل ولأجل الآخر، فالموت ذاته يقوم على المقارنة.

الموت بين المقارنة والعلاقة:

يمتلك الموت من الحقيقة بقدر ما يمتلك من المقارنة والعلاقة. فالمرء يمكنه التحدّث عن حقيقة الموت أو الأزلية فقط عبر افتراض مسبق لحقيقة منظور المقارنة والعلاقة، وضمن هذا المنظور. فأنت تدعو شيئاً ما ميتاً فقط لأنك تقارنه مع ما كان عليه سابقاً وما أنت عليه في الوقت الحاضر. وتتواجد نهاية فرد فقط بالنسبة لك، وعلى الأكثر، بالنسبة لذلك الفرد فقط بقدر ما يشعر باقتراب النهاية. لكن طالما أن الفرد يشعر فقط باقتراب نهاية، فالنهاية ليست تتواجد بعد. فوجود النهاية يستبعد وجود الفرد. وهكذا فوجود النهاية، النهاية ذاتها، النهاية الفعلية، لا تتواجد بالنسبة للفرد. لكن لأن نهاية الفرد لا تتواجد بالنسبة له، النهاية هي نهاية

فقط بالنسبة لك، لا بالنسبة للفرد الذي هو في نهايته. يمكن للنهاية أن تكون نهاية بالنسبة للفرد فقط إذا كان الفرد لا ينتهي في نهايته، فقط إذا كان الفرد يظلّ حيّاً أيضاً في الموت بطريقة لا يمكن تفسيرها. وكان الفرد سيمتلك الشعور بلا ـ كينونته فقط إذا كان سيتواجد في اللا ـ كينونة في الوقت ذاته كما لا يزال موجوداً في الكينونة. الموت موت وهو مؤلم فقط قبل الموت، لكن ليس في الموت. الموت هو ذلك الجوهر الشبحي الذي يتواجد فقط حين لا يكون ولا يتواجد حين يكون. ونفي الحياة الذي هو فقط نهاية الحياة ليس عيشاً، ليس نفياً فعلياً للحياة. ومن ثم فنهاية الفرد، كونها لا تتواجد بالنسبة لهذا الفرد، لا تمتلك حقيقة بالنسبة له، لأنه فقط ذلك الذي هو موضوع لتجربة الفرد، الذي يتواجد بالنسبة للفرد، يمتلك حقيقة بالنسبة للفرد. الفرد يتوقف عن الوجود بالنسبة للآخرين، وليس لذاته. فالموت موت فقط بالنسبة للأحياء، وليس بالنسبة للموتى. الموت يتواجد بالنسبة لمن يحتضر، والموت يروعه طالما أنه لم يمت بعد. لكن الآن، كون الموت يتواجد فقط بالنسبة لهؤلاء الذين نهايتهم لا تكون، يتواجد بالنسبة لهؤلاء طالما ومادامو أحياء، يتواجد فقط طالما ومادام الموت موضوعاً لهم ومن ثم يمتلك حقيقة بالنسبة لهم، فإن حقيقة الموت إذاً هي علاقة على نحو مجرّد. أنت تقارن الكينونة الميتة بالكينونة الحيّة كما تبقى في تمثيلك؛ فقط في المقارنة أنت تثبّت الموت وتعارضه كشيء منفصل عن الحياة. وهكذا فالبشر يموتون فقط في المظهر؛ فالموت ذاته مجرّد مظهر، تمثيل؛ الموت ليس حقيقة.

نفي النفي والموت:

ليس الموت نفياً إيجابياً، لكنه نفي ينفي ذاته، نفي هو ذاته فارغ وليس بشيء. الموت هو ذاته موت الموت. فكما ينهي الحياة، ينهي ذاته؛ إنه يموت بسبب لا قيميته ولا معنويته الخاصتين. إن نفياً فعلياً هو ذاك الذي هو نفي يأخذ الحقيقي بعيداً في حين يسمح للحقيقة أن تستمر وتنقله، نفي والذي هو جزئي فقط وليس كليّاً، الذي يسرق الحقيقة نتيجة لذلك فقط من حقيقة مقرّرة وليس من الحقيقة

ذاتها، الذي يلغي صفات ومحمولات بعينها للحقيقي، لكنه لا يلغي مجال الحقيقي. وحده النفي الذي يأخذ شيئاً ما هو وحده حقيقي. وتعتمد تقريرية حقيقته أو لا ـ حقيقته على مضمون ومدى ذلك الذي يأخذه. فالنفي الذي يأخذ كلّ شيء هو ذاته ليس بشيء. ولأنه يأخذ كلّ شيء، لا يعود يمتلك تقريرية ومحتوى. ولأنه يلغي كل حقيقة، فإنه يلغي حقيقته الخاصة. وهكذا فوحده الذي ينفي شيئاً مقرراً أو فعلياً هو نفي أو تدمير فعليان. والمصيبة هي مثل هذا النفي، لأنها نفي لحقيقي ضمن دائرة الحقيقة التي تبقى غير منفية؛ إنها نفي للحقيقي عبر الحقيقي. وعلى سبيل المثال، لو نُقلت من امتلاك زيادة في كلّ الحاجيات إلى حالة فقر مدقع، فهذا النفي لحظي الطيب كان سيمتلك وجوداً فعلياً؛ وكان فقري سيبدو حالة مقرّرة معارضة لوضعيتي السابقة. وهكذا فالموت، كنفي كلّي، هو نفي ناف ـ للذات، نفي لا يأخذ شيئاً، لأنه يأخذ كلّ شيء. على نحو مناسب أكثر، الموت هو تدمير الذي هو نفيه وتدميره الخاصّان، الذي هو ليس بشيء، الذي هو نفي بلا معنى ولا جدوى منه. كان سيمتلك جدوى فقط لو أنه نفى شيئاً، كما، على سبيل المثال، أنّ النفي لحاجياتي، في التقريرية أنه نفي لوجود مقرّر، نفي لحقيقة ثروة صافية، يمتلك مغزاه ويعني شيئاً فقط لأنه يعني شيئاً فحسب. فذلك الذي ينفي وجوده ذاته لا يمتلك وجوداً. لأنه حين ينفي الوجود ذاته، فإنه ينفي ذلك الذي يمكنه التواجد فيه، منه، وبه. وهكذا فالموت، لأنه ينفي ذاته في نفي الوجود، لأنه ليس بشيء في تدمير ما هو إيجابي، من الحياة ذاتها، إنما هو نتيجة لذلك التوثيق للوجود، هو التأكيد والتحقق الأكثر عصمة وقوة للحقيقة المطلقة للوجود والحياة. لا يمتلك الموت قيمة، لا يمتلك أهمية، لا يمتلك حقيقة، لا يمتلك تقريرية، ومع ذلك فإن عوزه للقيمة والفحوى، لا حقيقته وعوزه للشخصية، هي الشهادة والتحقق الأوضح للقيمة، الفحوى، والجوهرية في شخصية الحياة.

يجب أن تظهر هذه الفكرة بالنسبة لك حتماً على أنها غير قابلة للفهم أو حتى لا عقلانية حين تقيس حقيقة الموت بالألم الذي يسببه موت شخص محبوب بالنسبة لك، أنت الحي، ولا تدرك في الوقت ذاته في هذا الألم عدميّة الموت

وحقيقة الحياة. إن موت كينونة مقرّرة، بالنسبة لك، الكينونة المقرّرة التي كانت على علاقة وثيقة بالشخص الذي رحل، هو أيضاً نفي مقرّر، أو أنه يمتلك نفيات مقررة كنتيجة له. لكن هل يمكنك إذن أنت، الكينونة المقرّرة، الكينونة الحية بمشاغلها وتجاربها، أن تجعل من نفسك المعيار لحقيقة الموت؟ لكن ما الذي تعنيه واقعة أنّ الموت لا يمتلك وجوداً غير العلاقة والمظهر؛ ما الذي يعنيه أن الموت هو التدمير المدمِّر ـ ذاتياً، غير أن الوجود وحده ملائم للوجود، أن الحياة وحدها ملائمة للحياة؟ ومرة أخرى، ما الذي يمكن لهذا التدمير ـ الذاتي الذي للموت أن يعني غير أن الوجود، الحياة، الفرد ـ لأن الفردية هي الصيغة الوحيدة التي تكون فيها الحياة، أو الوجود، حقيقية ـ هي حقيقة غير مشروطة، لا زمن لها، وفعلية دونما نفي، أن الحياة هي التوكيد ـ الذاتي الأكثر يقينية وضمانة، الكلي ـ القدرة، الحاضر ـأبداً، هي الحقيقة المطلقة، الجوهرية، اللاتناهي؟ الحياة متناهية؟ الموت هو حدّ الحياة، نهايتها؟ فقط شيء ما يحدّ شيئاً ما. فقط تلك الكينونة تكون متناهية والتي تمتلك جوهرها الحقيقي في أو عند ما تنتهي عنده. وهكذا فالعالم متناه لأن حدّ العالم ونهايته هما الله، جوهره الحقيقي. وهكذا فالطفل متناه، لأن حده ونهايته هما جوهره الحقيقي، الإنسان الناضج، الذي وجوده هو مثل جوهر البشرية. الأشياء المقرّرة متناهية لأن ذلك الذي تنتهي فيه إنما هو غير متناه، لأنه بالنسبة لها هنالك مستوى أعلى من الحقيقة. وهكذا، إذن، الموت هو حدّ الحياة ونهايتها؟ إذا كان هذا، فالموت كان سيتوجب عليه أن يكون ليس فقط حقيقة موجودة، بل أيضاً حقيقة أعلى، أكثر حقيقة من الحياة ذاتها. لكن الموت تقييد للحياة التي لا تمتلك وجوداً أو حقيقة. وهكذا فالحياة لا متناهية، لأن حدها هو اللا ـ شيء.

إن كلّ ما يفقد وجوده في حدّه، كلّ ما يتوقف عن أنْ يكون ما يكون وجوداً في حدّه، مثلما تتوقف الحياة عن أن تكون حياة في الموت، هو لا متناه، مثل أنّ حقيقة تتوقف عن أن تكون ما تكون عليه حين تُقسّم هي بسيطة وغير قابلة للتقسيم. إن حقيقة والتي تمتلك حدوداً والتي هي نفي مجرّد، غير مقرّر، بلا

شخصية، نفي هو، بسبب هذا العوز، الغياب لكلّ ما هو مادي، مقرّر، فعلي، هو نفي ملغٍ ـ للذات، هذه الحقيقة ليست توكيداً مقرراً، حقيقة مقرّرة، بل حقيقة لا متناهية، مطلقة. ويعتمد معيار اللا ـ كينونة على معيار الكينونة؛ وتعتمد سوية النفي على سوية الحقيقة. لكن ذلك الذي هو ليس نفياً صافياً، كلّياً، بل هو مجرّد مستوى، معيار معيّن للنفي، لأنه، كنفي معاير، ليس هو نفياً لكل كينونة بل لمعيار بعينه من الكينونة، هو مستوى من الحقيقة، هو معيار معين من الكينونة، وجود مادي، شيء ما مقرّر، عالم حقيقة مكوّن بأية طريقة، جوهر يمتلك تعيينه وتشخيصه. وهكذا فإن لم تكن الحياة حقيقة صافية، لا متناهية، فإن نفيها كان سيبدو ليس نفياً صافياً، بل نفي مقرّر، يتواجد كشيء أو كجوهر حقيقيين؛ وإن نفي الحياة لم يكن ليكون الموت. ومع أن الحياة تمتلك فعليتها الأكثر حسماً، الأكثر قوة، والأكثر تعبيراً فقط في التجربة، تظل الحياة تثبت نفيها النافي ـ لكلّ شيء، فعليتها اللامتناهية، في مراحلها الأدنى. وحتى حياة نبتة ما هي حياة لا متناهية. فهذه النبتة، بالفعل، التي تأسر الآن نظراتك بشكل عجيب، تتوقف عن التواجد، لكن هل بإمكانك أن تأخذ هذا التوقف على أنه معيار لنهائيتها؟ هل تعبّر عن أي شيء حول حياة هذه النبتة حين تسميها حياة متناهية؟ هل التناهي صفة والتي هي تقرر؟ فالنبتة تكون على ما تكون عليه في التقريرات والصفات المقرّرة لعضويتها؛ وهذه التقريرات إنما تعبّر عن ذواتها فحسب، لكنها لا تعبّر عن قابلية للانتهاء بلا شخصية، وغير مقرّرة. وهكذا، فحين تقول إن هذه النبتة متناهية، فأنت إنما تشطب تقريرية التقريرات، صفات الصفة؛ لأنك تثبّت الصفة المجرّدة، الفارغة التي لم تعد تؤثّر بالنبتة أو تعبّر عنها، أنت تسمح لحياتها المليئة بالمعاني أن تختفي في محمول قابلية التناهي الذي لا طعم له، لا رائحة، ولا لون. وحين تنتهي هذه الكينونة التي تدعوها نبتة أمام ناظريك، حين، نتيجة لذلك، يحدث انقطاع، أذى، في النبتة، فهل هذه النهاية حدّ؟ النبتة تنتهي لأن حياتها معيارها. لكن هذا المعيار هو حياتها وجوهرها بالذات، هو توكيدها. النبتة لا تقابل حقيقة أخرى، غريبة، في نهايتها؛ إنها لا تصل إلى حد. إنها تتواجد في نهاية حياتها، في

كلّ من مبدأ حياتها وأثناء حياتها؛ فجوهرها الخاص هو نهايتها وبدايتها أيضاً. لا تخرج النبتة من ذاتها أبداً، لا تبعد عن ذاتها أبداً، بل تبقى دائماً ضمن ذاتها؛ إنها لا تضيع حياتها أبداً. فأنت من جديد تقف عند نهاية النبتة حيث بدأت حين تلاحق بوصلة حياتها بمنح ـ ذاتي للتفكير. أنت لا تصل إلى نهاية؛ أنت دائماً في الوسط. لا تعطي نهاية النبتة شيئاً ولا تأخذ شيئاً. وحتى معيار الحياة لا يلغي التوكيد ـ الذاتي اللامتناهي الذي هو الحياة. فاللاتناهي يتواجد حتى في الحد. وحين يكون تقريرية وصفة فعليين، يكون الحدّ التصوّر وكذلك الحياة لشيء ما، يكون أساسه وكذلك جوهره. وهكذا، كون جوهره محتوى في الحدّ لشيء ما، كذلك أيضاً فإن إلغاء الحد، اللاتناهي، يتواجد في الشيء.

لكن الآن، حين يكون الموت نفياً نافياً ـ ذاتياً، تكون الأزليّة عندئذٍ، بمعناها العادي كنقيض كلّي للعدم، غير حقيقية، توكيداً غير مقرّر للفرد، الحياة، والوجود. وحين أقول عنك إنك كينونة حية، مجرّبة، عاشقة، ذات إرادة، عارفة، فأنا أعبّر عن شيء والذي هو أكثر حقيقة وتقريرية على نحو لا متناه فيما يخصّك مما لو قول عنك إنك كينونة أزلية. كلّ فعل خيّر، كلّ معرفة وفكر، كلّ خبرة، حتى لو نها حسيّة، هي أكثر من الأزلية. فهناك يتواجد جوهر أكثر، حقيقة أكثر، فعلية كثر في كلّ فعل، تجربة، ومعرفة أكثر مما في الأزلية. الموت والأزلية يختفيان كمظهرين مجرّدين أمام المحتوى، الجوهر، المفهوم المقرّر والمقرَّر. فالتقريرية والملكية ليستا مجرّد أزلية بل هما أكثر من الأزلية، لأن الأزلية لا تقرّر، لا تولّد مفهوماً، ليس حتى بالمحمول. وبالقدر الضئيل ذاته الذي أعبّر به عن شيء حقيقي حين أقول عن النبتة إنها عابرة، بالقدر الضئيل ذاته أحدّد زهرة حين أؤكدّ إنها زول، بالقدر الضئيل ذاته الذي تؤثّر فيه حوامل الزوالية والأزلية، تفهم، وتمسّ كينونة ما، بالقدر الضئيل ذاته الذي تؤثّر فيه حوامل اللافنائية والأزلية وتمس لنفس أو الفرد. لكن المحمول الذي لا يؤثر، الذي لا يترك انطباعاً، ليس محمولاً، لأن المحمول يضرب، يلهم، ينقل حقيقة إلى هوى. المحمول تعريف وتخصيص، وكل تحديد يجب أن يضع حقيقة في الحالة العاطفية. وحدها تقريريات شيء ما

هي توكيدات، لكن التقريريات لشيء ما إذا ما أخذت مع بعضها وموحدة تكون محتواه. وهكذا فمحتوى شيء هو توكيده، جوهريته، وفعليته. لكن محتوى شيء متعال على الموت والأزلية على حدّ سواء، لأن الشيء مقرّر وقابل للتقرير فقط بذاته، لديه معيار لحقيقته فقط بذاته. وكما أنّ الموت أو الزوالية لا يأخذان شيئاً من شيء، كذلك فالأزلية لا تعطي شيئاً لشيء. إن مفهوم المحتوى وحقيقة ما إنما هو مفهوم مستقل عن كل من الموت والأزلية.

من الموت إلى الأزلية من جديد:

إنّ أهمية محتوى ما وقيمته هما المحتوى ذاته. فالموت لا يقلّل من الأهمية، والأزلية لا تزيد عليها أو تعليها. وكما أن الموت مجرّد نفي والذي هو مظهر، فعلى المنوال نفسه، الأزلية مجرّد توكيد والذي هو مظهر. هؤلاء الناس الذين قالوا إن ما يهم، ليس كم كانت المدة، بل كيف عشت كانوا حكماء حقاً. الطول، الدوامية، ونتيجة لذلك، الأزلية ـ لأنه حين تدخل في جوهرها، حين لا تسمح لنفسك بأن تُنخدع بوهم الكلام المجرّد، الأزلية ليست غير تمثيل تجريدي للدوامية ـ لا تقرّر، لكن ال«كيف» تقرّر. وأن تكون جوهراً أزلياً فذلك يعني فقط أنك جوهر ذو قيمة وأهمية. إنّ جوهراً بشرياً هو جوهر غير مبال؛ فكينونته بلا عاقبة. إنه يمكنه أن يكون موجوداً أو غير موجود، ولا يهم ما إذا كان موجوداً أم لا. لكن جوهراً أزلياً هو جوهر يمتلك كينونة جوهرية، ضرورية؛ فكينونته مرتبطة بالمشاغل غير القابلة للتحويل أو المصادرة، اللامتناهية. لكن ال«كيف»، المحتوى لكينونة ما هو فقط ضرورتها وجوهريتها. وتعتمد اللامبالاة أو عدم اللامبالاة بشيء ما فقط على افتقاره للأهمية أو محتواه. فشيء غير مبال هو شيء بلا معنى أو تحديدية. فتحديدية الجوهر هي الهم الجوهري، المصلحة لوجوده. وهكذا فأن تكون أزلياً هو أن تكون شيئاً ما، لأن عوز الأهمية يُلغى حين يكون ثمة شيء ما، وإضافة إلى عوز الأهمية تُلغى اللامبالاة والصدفة غير المتوقعة، ومع هذه تُلغى قابلية الموت. وحدها الخاصية تدل على شيء. فالنهاية واللانهائية لا أهمية لهما؛ فهما بلا معنى

ولا فحوى بالنسبة للخاصية. كن شيئاً، لتكون كلّ شيء. وفي الوقت نفسه، النهاية هي نفي لا روح فيه ولا عقلاني؛ واللانهائية هي توكيد لا روح فيه ولا عقلاني. لكن الحياة، في ذاتها ولأجل ذاتها وبمعزل عن كل تقريراتها الأخلاقية والفكرية، إنما هي كينونة والتي تمتلك داخل ذاتها أهمية لانهائية، وككينونة هامة، ذات مغزى، مقرّرة بالمطلق، الحياة أبدية وخالدة.

ذلك أزلي الذي هو غرض في ذاته. فغرض شيء هو فحواه؛ وفحواه هي قيمته وجدارته؛ وجدارته هي مضمونه؛ ومضمونه هو تقريرياته. لكن الحياة هي الكينونة التي، في ذاتها ولأجل ذاتها ككينونة، تمتلك للتو جدارتها، قيمتها، وأهميتها في ذاتها. نتيجة لذلك، في هذه الوحدة مع فحواها، تكون الحياة غرضاً في ذاتها ومن ثم خالدة. كل لحظة هي كينونة محققة، هي بفحوى لا متناهية، تتواجد لأجل ذاتها، تُقدّم بذاتها، راضية ـ بذاتها، كاملة، ووفرة مشبعة بالحقيقة، هي توكيد ذاتي غير مقيد. كل لحظة هي شراب يستنزف كأس الخلود حتى الثمالة، الكأس التي، مثل كأس أوبيرون[1] السحرية، تعيد ملئ ذاتها من تلقاء ذاتها. الحياة هي الموسيقى السماوية التي يستحضرها الفنان العلي من آلة الطبيعة. يقول الحمقى إن الحياة صوت مجرّد، فارغ، والذي يزول مثل النفس، الذي ينتثر مثل ريح. لكن الحياة موسيقى. كل لحظة هي لحن أو نغمة مستوفاة، حانية، ملهمة. الرياح تندفع متجاوزة أذنيّ دون قيمة وأهمية. فجوهرها زوالية غير جوهرية ولا فحوى لها، هبوب وانجراف لا مباليان، دونما فائدة. لكن النغمة موسيقى، وفرة، كينونة ممتلئة، أرضيتها الخاصة، غرضها، محتوى يتواجد في ذاته. النغمات الموسيقية تزول أيضاً، لكن كلّ نغمة هي كينونة ممتلئة، لها فحوى كنغمة. تختفي الزوالية كحقيقة لا معنى لها بلا فحوى بالمقارنة مع الفحوى والنفس الداخليتين للنغمة الموسيقية. الصوت المجرّد مفهوم فقط في تدفق الزوال، لأنه في الصوت لا تتمايز اللحظة الحاضرة عن اللحظة الماضية أو اللحظة المستقبلية؛ وبسبب هذا التماثل

(1) أوبيرون هو ملك الجنيات في أدب العصور الوسطى وأدب زمن النهضة.

دونما تمايز، بسبب هذا التكرار الذي لا قيمة لأمر واحد هو الأمر ذاته، الصوت زوالية وتناه لا مباليين. لكن النغمة كلحظة موفى بها، إنما هي لحظة من الزمن مقرّرة، متمايزة. هذا الإيفاء، هذا المحتوى، هو غرضها وفحواها. وتختفي اللامبالاة بوجودها بسبب تمايزها، خاصيتها، محتواها. ومع اللامبالاة تختفي زمنيتها المجرّدة، لأن لا مبالاة الكينونة هي زمنيتها المجرّدة. إنّ كينونة لا مبالية ليست بشيء بالفعل غير كينونة زمنية فحسب. إن كينونة زمنية على نحو مجرّد التي لا تتمايز فيها كينونة الحاضر، المستقبل، والماضي الواحدة عن الأخرى، لأنه ليس ثمة تمايز ضمن الزمن بحدّ ذاته. إن لحظة الزمن الحاضرة، كلحظة من الزمن فحسب، ليست متمايزة ومنفصلة عن اللحظة الماضية. وحده المحتوى، لكن ليس الزمن، يميّز الزمن. فقط بسبب خاصيتها تكون اللحظة الحاضرة لحظة مقرّرة ومن ثم متمايزة. وهكذا فكلّ شيء ما، كل محتوى، هو غير زمني وما فوق زمني؛ كلّ حدّ في الزمن هو حد، نفي، للزمن ذاته، هو كلّ لحظة موفى بها كخلود ولاتناه موفى بهما.

الخلود... الله!

الخلود ليس سوى الوفاء بالزمن، خاصيته، وتقريريته. كنفي فاعل، فعلي للزمن في الزمن، الأبدية على وجه التحديد هي الوفاء، التقريرية للزمن. الخلود هو القوة، الطاقة، الفعل النشط، النصر الظافر. لكن الخلود هو فعل نشط فقط عندما يتواجد في الزمن بمعزل عن الزمن، فقط عندما ينفي الزمن في الزمن. إنه المنتصر الذي يعلو فوق المصيبة، الذي ينفي وينتصر على المصيبة في المصيبة، لكن ليس الذي ينام بمعزل عن المصيبة في حضن فورتونا[1] الناعم. النغمة هي نغمة فقط لأنها نفي للزوال في الزوال، فقط لأنها ليست مجرّد زمنية، بل هي، في زمنيتها، نغمة مقرّرة، ذات مغزى، نافية ـ للزمن. وفي الواقع، تكون النغمة قصيرة أو طويلة. لكن هل هو شيء أكثر من طوله؟ هذه السوناتا، التي تكون فيها النغمات الفردية قصيرة أو طويلة، تزول؛ فسوف لن تُعزف إلى الأبد. لكني، أسألك، ما الذي يمكن

---

(1) إلهة الثروة وتشخيص الحظ في الديانة الرومانية القديمة. مترجم عربي!

أن تدعو به أحداً ما، الذي لم يكن ينصت حين كانت السوناتا تؤدّى، بل فقط كان يعدّ، وهو الذي فصل طول النغمة عن محتواها، الذي، في هذا الفصل، اعتبر الزمنية على أنها موضوعه، وعندما انتهت السوناتا، جعل من الدقائق الخمس عشرة التي احتاجتها السوناتا لأن تُعزف محمولاً لحكمه بشأن السوناتا، والذي نشد الإمساك بفحواها في كلمات دقيقة، مميزة للسوناتا كسوناتا من ربع ساعة، في حين أن الناس الآخرين، يغلبهم الإعجاب بمحتواها؟ ألن تجد بالتأكيد المحمول مغفَلاً على نحو توكيدي للغاية لتحديد مثل هذا الشخص! ثم كيف ينبغي للمرء أن يدعو هؤلاء الذين يعتبرون الانتقالية على أنها محمول لهذه الحياة، الذين يعتقدون أنهم يقولون شيئاً، الذين يطلقون حكماً على هذه الحياة، عندما يقولون إنها زمنية، إنها عابرة؟ فذلك الذي لا يقول به المرء شيئاً، لا يفكّر به بشيء، لا يحدّد شيئاً، هو ذاته ليس بشيء. كيف ينبغي للمرء أن يسمي أولئك الذين يعتبرون غرضهم ذلك الذي هو لا شيء، والذين يعطون للاشيء مثل تلك الفحوى والحقيقة بحيث يدمّرون الشيء ما، الحقيقي بالفعل، أو على الأقل يغفلون عن رؤيته، لأنهم يعتبرون اللاشيء غرضاً لهم؟ إنهم يسمّون أنفسهم بالمتقين، العقلانيين، بل حتى الفلاسفة. دع الموتى بين الموتى!

اللّه هو الحياة، الحب، الوعي، الروح، الطبيعة، الزمان، المكان، كلّ شيء، في كلّ من وحدته وتمايزه. ككينونة حية، أنت موجود في حب اللّه؛ ككينونة واعية، أنت موجود في وعي اللّه؛ ككينونة مفكّرة، أنت موجود في روح اللّه؛ ككينونة حية، أنت موجود في الحياة اللانهائية ذاتها؛ في الزمان، أنت موجود بمعزل عن كلّ زمان؛ في المكان، أنت موجود خارج كلّ مكان. اللّه أزلي؛ فقط ذلك الذي هو أزلي يتواجد في الأزلي. ومن أجل فهم الحقيقة والتعبير عنها في الحقيقة وكحقيقة، ليس في التعارض وكتعارض، أنت تتواجد في اللّه، ونتيجة لذلك مع الأزلية. اللّه هو الوعي، الحياة، الجوهر، لكنه الحب بوصفه حباً لا متناهياً، أبدياً للكينونة الواعية، بوصفه حبّاً أبدياً للجوهر ولذلك الذي يعيش بلا نهاية. فما هو أبدي إنما هو فقط موضوع للأبدي.

حِكَم

تحذيرات وردود تصديرية[1]

الهجاء ـ إنه مجهر ـ يضخم الأمور كثيراً،

لكنه لا يغيرها؛ إنه فقط يعرضها بالمزيد منالوضوح.

أبياتي الشعرية الثنائية هي تحضيرات تشريحية

للهوام الذي يؤذي بذورنا وأزهارنا.

العين المجردة ليست كافية لتقصّي الهوام؛

وحده الهجاء يخترق واقعهم الداخلي.

أؤكّد أن أبياتي الشعرية الثنائية التي أقدمها هنا ساخرة بمرارة؛

لكن الروح تشهد لي أنها صادقة وتصيب الهدف.

حين لا ترغب بالتحدث بكلام فارغ، عاير إذن الرامي المصيببهدفه؛

فكل حيوان خاص يتطلب نوعاً معيناً من الصيادين.

(1) من أجل ترقيم النسخة الأصلية، أنظر الهامش 51 السابق.

إنه أيضاً هجاء لاذع، حين جراح
يبتر ساق أحدهم؛ لكن هل تنتقده بسبب ذلك؟

إنما أنا جرّاح، جرّاح تجريبي تماماً؛
لذلك لا تستاء من لدغة الجراح.

حتى السيدة تكشف للجراح عن ذلك الذي عن غيره تخفيه؛
حيثما يبدأ الجراح، تغادر الجماليات.

وهكذا، أيضاً، حين أتصرّف كجرّاح له، يكشف اللاهوت الحالي لي
أموراً كثيرة بشأنه كنت أحب لو أنها متواضعة.

مفرداتي الجراحية تتضمن حتماً كلمات والتي هي غير مقبولة
في دوائر الشاي المسائية، سيداتي وسادتي.

من هو الساخر اللاذع؟ الذي يدرس المصادر
التي ينبثق منها الشر ثم يعرضها على العامّة.

بالتأكيد هجاؤك ليس قارساً؛ إنه فقط يحرق الشعر على الرأس
في حين يترك اللحم المتعفن سليماً.

كل من يفهم الشرّ من جذوره يكون قارساً.

فعلاً! أنت إذا عريت الورق، أنت لا تؤذي الشجرة.

لكن هجاؤك حقاً يعري الشجرة فقط من تلك الأوراق

التي هي عبء عليه وتعيق نموها.[1]

أورفيوس المسيحي

استمد الإغريق معنىً بشرياً حتى من الصخور؛

علم أساليب تعليمنا يحوّل حتى البشر إلى كتل من طين.[2]

وقاحة لا حدود لها

في الوقت الحاضر يضرّ التنامي الطفيلي ببستانك المقدس،

البالاس *Pallas* الإلهية ـ تقوى بلا حياة، نفاقية.[3]

تناسل نبيل

القديسين كيرلس والقبرصي ينامان مع بالاس والزهرة؛

صديقي العزيز، لا تتفاجأ من التفريخ النادر.

ترتيب حكيم

آه، هذه الأوقات الرائعة! حمير أحد الشعانين ترعى الآن في

(1) من أجل المؤلف المحتمل للحكم التي هي غير قويّة، أنظر مقدمة المترجم الإنكليزي!

(2) من أجل علاقة أورفيوس بالحجارة والمعنى المزدوج لكلمة Koltz؛ أنظر الهامش 47.

(3) يستحضر فويرباخ هنا بالاس أثينا في دورها في منح الثقافة الإغريقية وحمايتها؛ في اليونان الأتيكية كان أيضاً مصدر شجر الزيتون. وبالاس أثينا هي إلهة الحقيقة في الميثولوجيا الإغريقية.

بارناسوس[1]

وهي معينة لحراسة الحدائق والمراعي اليونانية.

بؤس الورِع

لسقاية جنة أردنت *Ardnt*، لبلبلة قطعة أرضه الصغيرة الجافة بالماء،

استنزف هؤلاء السادة نبع كاستاليا *Castalia*[2] الآن حتى الجفاف.

Ad vocem النشرة التعليمية [3]

ممتاز! التدفق المقدس للتيار النقي من الإلهام

الذي حمله القدماء بشجاعة ذات مرّة إلى الفعل والأغنية

يجب الآن يعدّل بالعرق البارد للحزن المتضرر،

يجب أن يوسّخ بالمستنقع الآسن للقوة المضمحلة طويلاً،

يجب أن يُلوّث ويصاب بجرب الأغنام الصوفية ـ

بسرعة، شراب منعش! أطفئ عطش الشباب!

---

(1) بارناسوس هو جبل في جنوب اليونان والذي كان الحرم المقدّس لأبولو وشعراء الشعر الإغريقي. ومصطلح *Palmesel* تُرجم هنا «بحمير أحد الشعانين»، كانت تماثيل بالحجم الطبيعي، من الخشب المحفور، للمسيح يركب أتاناً، والتي منذ العصور الوسطى كانت تحمل أو تسحب في يوم أحد الشعانين.

(2) إرنست موريتس آردنت (1769 ـ 1860) عُرف للمرّة الأولى بسبب الكتابات التي تحثّ الشعب الألماني على التخلص من السيطرة الفرنسية خلال سنوات الإمبراطورية النابليونية. والشعر الذي كتبه أثناء الاحتلال الفرنسي يظهر تأثير كلاً من المذهب التقوي والحركة الرومنطيقية؛ وأحج موضوعاته الرئيسة كان التوق للجنة التي تحتوي العقلانية والدين باستعارات مستمدة من أدب اليونان والرومان القديم الكلاسيكي. وكوخ صغير في الجنة إنما هو رمز شائع للرغبة بالعودة إلى الحرية والبراءة الألمانيتين. نماذج من أسلوبه منها "غنية نبيذ الجنة" (1807) و"رؤية ـ حياة للمستقبل، مرسومة في راينباخ في الصيف، 1813"، في أعمال آردنت *Ardnts Werke*، تحرير أوغست ليفسون ووليم ستيفنس، 12 قطعة في 4 مجلدات. (Berlin: Bong & Co., n. d.), I, 36 ـ 37، 150 ـ 154. نبع كاستاليا، الذي كان يقع في بارناسوس، كان واحداً من النبوءات الإغريقية ورمزاً للحماسة الشعرية.

(3) *Ad vocem*: "ملاحظة تتعلّق بـ". هذه ترجمة المترجم الإنكليزي؛ لأكن vocem تعني «صوت» باللاتينية؛ والمصطلح يمكن أن يعني أيضاً «ضجيج». ـ مترجم عربي!

آخر مفتشي محاكم التفتيش السكولاستيين

كمفسّرين للعصور القديمة الكلاسيكية

إنهم الآن يربون ببغاوات؛ يعلّمون التقليد الأعمى فقط،

لكن ليس الحس الروماني، ليس الروح اليونانية.

كي يعرضوا صورة للبطولة لنفوس الشباب

فهم يغسلون ألوانها، يمحون الشكل البطولي،

إنهم لا يفعلون شيئاً سوى تبييض القماش وتمزيق نسيج اللغة

خنق الروح الكلاسيكية بنتف من الكلمات.

لا يتغذّى فقه اللغة لا على توت باخوس ولا

على ذرة سيريس المرمّلة.

ولا حتى على القشور والقش؛

إنه يقف متردداً بين الروح الكلاسيكية وسذاجة الورع

مثل حمار بوريدان Buridan الصغير.[1]

تهتك

ذات مرة كان المسيح نور العالم، معطي الروح والمعرفة؛

لكنه الآن ليس سوى حارس ليلي للصوفي.

(1) كما هو معروف جيداً، فهذا الحمار المشهور، الذي عُذّب إن بالجوع أو بالعطش والوقوف على مسافة واحدة من الماء والتبن، لم يكن قادراً على الحركة إلى أي من الجانبين وبسبب وضعية تلكؤ تامة ومات في بؤس مريع. ملاحظة للمترجم الإنكليزي.

سؤال

ألم تصبح الإنسانية أقدم منذ ولادة المسيح،

ومع السنوات، تقدّمت في الفهم؟

هل على البشر أن يظلّوا يرضعون من المصاصة الكتابية

وبعد أن نضجوا تماماً، يرتشفون فقط طعام الأطفال المنقط في الفم؟

نتاج كئيب

لعدة قرون كانوا يرضعون من ضرع الكتاب المقدس

وهكذا فهو الآن فارغ مرة وإلى الأبد ـ حتى البقرة ماتت!

استفسار ثان

ألا تعتقدون أن كل النسغ المغذي

قد امتص من الكتاب المقدس قبل عصر المسيحية

بزمن طويل؟

ألم تصبح الكلمة الأصلية في وقت لاحق العالم المسيحي؟

وألم يتخثّر النسغ منذ زمن طويل في لحمنا ودمنا؟

جزاء بروح الدعابة

ذات مرة حمل المسيح الخروف على كتفيه القويين؛

كي أجزيه، لن أحمل الآن الخروف إلى المخلص.

معنى تاريخي للتقوى وقدرها

تعرف هذا! في مسارها التاريخي، تجتاز الإنسانية
الصيرورة ذاتها التي يجتازها الجسم العضوي.
عند الجوع، يأخذ الجسم المادة ويستهلكها.
وما أن يتمثلها، حتى يطرح الزائد منها.
التقوى الأخيرة هي نفايات مزالة
من الطعام الذي هضمته الإنسانية منذ فترة طويلة.
وكما هو الحال في طبيعة الذباب الأزرق، باتباع نزعة الحكمة،
يستهلك القذارة بشهية قلبية،
وهكذا تتمتع الجماهير بفضلات البشرية
من أجل أن تطهّر العالم مرة وإلى الأبد من هذا الروث
الموسّخ.

حماقة التقوى

تصبح الحبوب البسيطة ذرة؛ من خلال صيرورة معقدة
تُغيّر إلى طعام، وأخيراً إلى دم عضوية ما.
لاحظ! الصيرورة ذاتها توجد في التاريخ البشري:
الروح تحوّل بفعالية المادة التي تتمثّلها.
وهكذا فالديانة المسيحية هي من أصل إلهي
لأنها كانت تتضمن للتو بذور تطورها في بدايتها.

تاريخها كشف فقط عن ذاته

في الوحدة مع الروح البشرية، ومع الحرية الإنسانية والعفوية.

ما أن نمت، حتى أعطيت المسيحية كمادة لتغذية

البشر اللاحقين

الذين حوّلوا الكلمة المكتوبة عندئذٍ إلى جوهر للروح.[1]

نتيجة لذلك فالأركان العالية التي عليها معبد أرثوذكسيتنا الحاضرة

يعتمد هي فقط أشلاء من القش.

هناك عالياً في الحَرَم، رأسه منحنٍ، المشعل يوشك أن ينطفئ،

يرقد اللاهوت حزيناً بركون على قبر الماضي.[2]

لكن الآن يأتي الورِع، الذي يريد أن يخبز خبزاً مغذيّاً،

ليس بالحبوب والفهم، بل من القشر المرمي؛

إنه يريد أن يسدّ جدول روح الأزمنة،

ليربط جروح العالم بورقة مستعملة وخرق مرميّة؛

يريد الغبي حتى أن يقيس الإنسان لأجل نعال الوليد

التي أبلاها الصبي منذ فترة طويلة،

لتنوير العالم بقناديل من الشمع، لتخفيف جوع الإنسان

بمكسرات مطلية بالذهب، لتخويفه بـ«grrr» و«bowwow».

(1) يستخدم فويرباخ هنا اللفظ Essenz بدل اللفظ Wesen الأكثر عمومية للإشارة إلى «جوهر»؛ والسياق يوحي أنه كان يضع في ذهنه هنا أيضاً «تركيز الروح».

(2) لقد ترجمت كلمة Grabmahl بمعنى «قبر»، مع أن التهجئة المناسبة لهذه الكلمة هي Grambal؛ لكن فويرباخ يدخل الحرف h ليجعل الكلمة تعني، حرفياً، «وجبة المقبرة».

مساهمة في علم الحفريات السيكولوجي، جنباً إلى جنب مع نبوءة

شيلر وغوته، العبقريان العظيمان من ألمانيا، غنّيا كما
لم يغنيا من قبل؛
مفكرون مثل العظيم أفلاطون خلقوا عالم الأفكار؛
الروح الأبدية، من ملء الإلهام النقي،
فاضت في جدول التطوّر.
لكن الطين يجب أن يتبع مسار الجدول النقي ـ
أنظر! التصوف هو حالياً الراسب من الروح التي للأزمنة،[1]
والأتقياء هم الحفريات، البشر الأثريون
الذين تمّ تحجيرهم في فرضيات في الجدول الروحاني؛[2]
لكن الجدول سيستمر في التدفق على طين القاع الصوفي،
باحثاً عن قناة جديدة، متخلياً عن الفرضيات.[3]

نوم التصوف

الروح ترتفع بذاتها على أجنحة الشعر ذي التقطيعات الست؛
إنها تنسحب داخل ذاتها للتأمل في التقطيعات الخمس؛
حتى شعر ألمانيا حلّق في التقطيعات الست،
وتبعت فلسفة ألمانيا في التقطيعات الخماس،

(1) في هذا السطر والسطر التالي، يستخدم فويرباخ الكلمة satz ليعني «رواسب» و«فرضية» في آن.
(2) أنظر الهامش 64.
(3) أنظر الهامش 64.

والنغمات الساحرة لهذه الأشعار الهارمونية ـ

التي فيها الروح الإلهية التي تخترق العالم

غنّت لذاتها الترتيلة العظيمة للتاريخ الحديث ـ

دحرجت الجماهير الكسولة نحو نوم صوفي.

الأصل النفسي للتصوّف

حرارة الحمى تملأ حجرات القلب الصغير الغالي،

في حين يستولي برد سيبيريا على الفهم المهجور.

لكن رطوبة العاطفة تختلط مع جليدية العقل،

والآن فإن النافذة الصغيرة التي تفتح على عالمنا تغبشت.

في حين يضطجع الناس نائمين في الليل، النافذة تتجمد تماماً.

عند الفجر، هي ذي الزخارف الزهورية للتصوف قارس البرودة.

الموضوع ذاته

القليب متخم بالأهداف الأنانية؛

سُكْرها يجلب الوعكة إلى الرأس.

لا الماء، ولا الخمر، ولا حتى الخل يمكنه علاج الحالة،

لكن دوار الخمر يخلق آفاقاً ممتازة للأكاديمية.

وجود محفوف بالمخاطر

لماذا تفزع التقوى النور الإلهي للفكر؟

لأن نظامه بأكمله طري مثل الزبدة.

الدعوات المرفوضة من الورع

«اتبعني بثبات! وسوف أحفظك من الخطر
وأقودك بأمن وسلام غبر جبال ألب العالم».
وحده الحمار راسخ القدم أكثر من جواد البطولات،
وهكذا فانتصارك هو انتصار حمار ليس إلا. أنا أفضّل السقوط كبطل.

حوار

«قل لي، لماذا تعذبني في الشعر؟
أحياناً تستخدم الصيغة القصيرة للورع، أحياناً القصيرة، حينما يحلو لك».
لأن منظومتك كلها تناسب العالم الحالي بالقدر القليل ذاته
الذي تناسب فيه الكلمة تقوي الشعر اللحني.

فقه اللغة غير الطاهر

ذات مرة منذ زمن عتيق، عذراء بتول دعيت فقه اللغة
حمت النقاء والمعنى الواضح للنار المقدسة
للعالم القديم،
لكن سرعان ما استُنْشق اللهب من تنهيدة موقرة،
لأن التقوي سرق منها من عذريتها.

الأتقياء

تعرف هذا! الأتقياء ليسوا غير سوى الديدان الكريهة
التي بها الجسد التالف للقديس بطرس أخيراً يتحلّل.

المنافق في رداء الكاهن

بطلّة مدعية، يضلّل بمكر القطيع الساذج

وهكذا فالخروف الراغب يبحث فقط عن قطيعه.[1]

الجبان في المنبر

لا يمكن إنكار ذلك: إنه يظهر حماساً غامراً.

لكن هل هو مستعدّ لأن يئزّ على حاجز حديدي ملتهب؟

لاعقلانية بعض الدعاة

تتطلّب الحياة الفروق الحادة

لكن المعرفة والفن لا يصالحان العالم مع ذاته.

مع ذلك، فبدلاً عن أن يكونوا معطين، بدلاً عن منح

معرفة وبصيرة مُحرزين

لهؤلاء الناس الذين هم غير قادرين على الحصول عليهما لوحدهم،

بدلاً من نشر العقل، الذي يخفف من عبء الحياة

بقوته التوفيقية،

يصرخون من المنبر ضده.

عقلانية هؤلاء السادة

ما يسمونه العقل ليس سوى غبائهم الخاص؛

وهكذا فحين تصدّق صرخاتهم، فأنت حتماً ستعود إلى رشدك.

(1) أي، كرسي الاعتراف الخاص به.

الصحف الثلاث لعالم التصوف[1]

يا للسماء! لقد أوشكوا على الاختناق في أبخرتهم الخاصة!

الآن، لحسن الحظ، ثلاث مداخن تحمل الدخان بعيداً.

ما الذي ما يزال بالإمكان تحقيقه؟

يمكنهم حتماً أن يطووا الصحف، لكن التقي يكتب فقط

مادة مملّة؛

إنهم لا ينجزون أعمالاً هامة، لأن الروح غادرت

منذ فترة طويلة.

كيف يفعلون ذلك؟

يحتاج الأمر إلى حشد كبير من هؤلاء الناس الفقراء الذين يعملون معاً

لدفع قلم واحد ـ

كم هم عصبيون في يومنا الحاضر!

(1) رأت السنوات بعد كونغرس فيينا أول ازدهار كبير لأدب الدوريات الشعبية في ألمانيا، التي كان ملهم كثير فيها البعث الديني التقوي والصوفي. وكان باستطاعة فويرباخ الإشارة إلى أي عدد من الجرائد في الحكم الأربع التالية: التلميح الوحيد الذي يعطيه، في "تشكيلة هامة"، هي أن اثنتين منها من بروسيا، وواحدة من بافاريا. وكانت أشهرها، التي كانت كلّها تبريرية في نبرتها: في بروسيا، *Evangelische Kirchenzeitung (1827 ـ 1869)*، التي كان يحرّرها التقوي واللاهوتي المحترف الدقيق في جامعة برلين، إرنست فيلهلم هنغستنبرغ (1802 ـ 1869)، الذي كان ينتمي إلى الدائرة القوية الرجعية لولي العهد (الذي حكم باسم فريدريش فيلهلم الرابع من 1840 إلى 1861)، و*Literarische Anzeiger für christlische theologie und wissenschaft* (1830 ـ 1849)، التي كان محرّرها أحد قادة الصحوة الألمانية، المفسّر للكتاب المقدّس واللاهوتي الكاهن التقوي في جامعة هاله، فريدريش أوغست غوترو تولوك (1799 ـ 1848)؛ وفي بافاريا، Eos (1828 ـ 1832)، التي كان محرّرها الإصلاحي الكاثوليكي يوزف فون غويرس (1776 ـ 1848)، الذي استدعي من الملك لودفيغ الأول البافاري إلى جامعة ميونيخ.

مع ذلك كيف يمكن للأتقياء أن يجبروا أنفسهم على الكتابة

لصحف معاصرة،

كيف يمكنهم أن يسكبوا الروح القدس في وعاء دنس؟

حسناً، هؤلاء السادة لم يعودوا يمسكون بمائهم،

وهكذا فأوعية حجرات ثلاثة تجمع مساهماتهم الصغيرة.

تشكيلة مهمة

الأتقياء البروسيون يهدلون مثل يمائم صغيرة مستأنسة؛

الكديش البافاري يثرثرة مثل إوزة مسعورة.

جمعيات الكتاب المقدس

لو أنهم أعطوها دونما مقابل، فربما استطاعوا الحصول

على بعض المنفعة؛

لقد قاموا بالتأكيد بكل ما باستطاعتهم من عمل

مع نصّ مقدّس كهذا.

أبطال Campeadores يومنا

كما حارب أحد فرسان لا مانشا مرة أذرع طاحونة الهواء،

يتصارع أبطال عصرنا مع سراب الشيطان.

فرسان الحاضر التائهون

حقاً، لا يزال هناك الكثير منهم يتجول! لكنهم

لم يعودوا يطاردون الوثني أو التنين،

فمحبوبتهم الملكية هي الآن اليمامة الصغيرة بالهالة
المقدّسة. [1]

مطارنة كنيستنا

أنت مندهش من أنه، وفقاً للمرسوم الأخير،
وحدهم الأرثوذكس سيحصلون على رعايا في الأرض؟[2]
مع ذلك فإذا كانوا منذ زمن طويل قد ناسبوا بوابات السماء مع
قفل يفتح وفقاً لدستور خاص
والذي بالإمكان صنعه من خلال فن الصوفي فحسب، فقد كان باستطاعتهم
إغلاق ذلك، أيضاً.

علامات الأزمنة

مرة أخرى يحتل المهرج تدريجياً خشبة المسرح المعاصر،
بينما يحافظ الحزن على استحياء على حريق البيت مشتعلاً.
وفي الوقت نفسه، ترفع الأنانية المخيفة رأسها القبيح
وتقوم بعملها المقدّس في أردية المتقين المنافقين.

(1) Schein تُرجم هنا إلى «هالة»، لكنها يمكن أن تعني «وهم».

(2) كان مطران أبرشية ميونيخ ـ فرايسينغ هو لوتار أنسيلم فرايهر فون غيبساتل (1761 ـ 1846)، الذي بدأ سلسلة من الزيارات للرعايا في المناطق الريفية عام 1822 وذلك بقصد جعل كهنته متوافقين مع قرارات مجمع ترانت. وربما أن فويرباخ يشير هنا إما إلى إحدى رسائله الرعوية التي أدت إلى هذه الزيارات أو إلى تصريحاته حول السمينارات الجديدة التي أوجدها غيبساتل (سمينار رئيس عام 1826، وسيمنار صغير عام 1828).

استبصار محمود

يجد بعضهم أنه من الظلم أن لا يهتم الزعيم التقي أبداً
بتطوير شعبنا. أنا لست كذلك، لأن لديه
واجبات أرفع:
أن يؤمّن لنفسه بمرور الوقت ملاذاً آمناً
في القاعات، الحدائق الفردوسية، والمروج السماوية،
وذلك لإراحة نفسه مريحة وسط ملايين الملائكة
الذين يخبرون روايات طويلة كل مرّة يفتحون فيها أفواههم.

مآثر الورع

ليس قدرهم أبداً أنهم بشجاعة وقوة
أن يمسكوا بعجلة الأزمنة بأيدٍ رجولية قوية،
لكنهم يقيدون الحركة التي لا تنتهي للحياة
بمحاولاتهم غير المبالية لفقس وجود من
بيضٍ فاسدٍ بالتمام ـ
البيض ليس ملقحاً من قبل ديك الزمن القوي، المتحرّك ـ ذاتياً
ولا مولوداً من وفرة السيرس المغذي للكلّ،
لكنه وضع دون خجل من قبل طير من نوع خطأ ـ
وعند خط النهاية، يتوقعون نخلة الانتصار على هذا.

أرمادا الورعة

نفخ اللّه، فتفرّقوا afflabit deus، et dissipabuntu

حقاً جيشٌ رهيب! لأنّ المنافقين يشكّلون الطليعة

وجيش من السرافيم يكمن بفخر في الاحتياط.

يقودهم حرّاس السماء، قبضاتهم مشدودة بإحكام

تحت عباءة البساطة، بقدر ما تستطيع العين أن ترى

أفواج من المتعصبين الأغبياء تُنشر للمعركة دون هوادة،

لأن أي خصم يقع يكون ملعوناً فوراً إلى الأبد.

حلفاؤهم التعصب والشقاق؛

حثالة من البشر تشكّل أتباع معسكرهم الذين لا يعدّون ولا يحصون.

الروح المتعصّبة للأتقياء

لقد احترقت النار لفترة طويلة على نحو منخفض، فليس ثمة مزيد من الوقود لإحيائها؛

من أجل تحمّل البرد، ينضغطون على أنفسهم.

أصل التصوف

الاستدقاقات الرقيقة للروح المخصصة لهؤلاء السادة ستحترق حالاً؛

ومن ثم لا يبقى شيء غير الغاز الصوفي في رؤوسهم.

العالَم المنحرف

كيف يمكن لورعنا المعاصر أن يكون محامياً دون أن يكون

مسيحياً مرتدّاً؟

في رأيه، المجموعة القانونية *Corpus Juris* هي فقط جسد المخلص.

هل يمكنه أن يكون طبيباً؟ الطبيعة الوحيدة التي سوف يلحظها في

الكتاب المقدس،

حيث كل شيء هو نفسه كما في أي موضع آخر، ليست غير مشوّهة ومختلة.

عمومية المسيحية المعاصرة

ليس فقط أنّ المسيحية تشمل في وحدتها التي تضمّ الجميع

الشيروكي، الهوتنتوت، الأسكيمو، والزنوج،

لكن الآن فالعالم الورع يحسب ضمن الحظيرة

حتى التاريخ الطبيعي، الكيمياء، الفيزياء، وعلم النبات.

الحمار في جلد الأسد

حتى عندما الروح، التي تغيّر باستمرار الأشكال في شبابها،

تكون قد غادرت منذ فترة طويلة،

فالأشكال التي تلقيها تمتلك وجوداً دائماً مثل النصب التذكارية

في العالم.

وهكذا فالأعداد الكبيرة من المعابد الوثنية لا تزال قائمة

لكن روحها غادرت؛ فاللّه لم يعد يسكن فيها.

أنظر! يتبختر الآن الصوفي مهدداً

متنكراً بشكل أسد افترضه ذات مرّة.

لكنه لا يخيفنا؛ نحن نعرف بالفعل من التاريخ

أنه الآن فقط حمار في جلد أسد.

كيف تتغير الأمور

ما كان مرّة هو الأكثر ندرة يصبح لاحقاً الأكثر شيوعاً.
إنه يسقط من على العرش في الغبار. وهكذا، أيضاً، الكلمة كلمة.
لقد دلّت الصوفية مرة على سرّ معرفة أكثر عمقاً،
لكنها اليوم ترمز لأقاويل امرأة عجوز.

البخيل

البخيل الذي يدخُر مشاركة الحياة فقط لعالم المستقبل
يموت جوعاً في خضم الثروات الحالية.

ما لدي هو أفضل مما قد يكون لدي

كما في الحكاية، فالكلب الذي، طامعاً بقطعة لحم وهمية
فقد الحقيقية التي امسكها للتو في فمه،
كذلك فالمغفّل الصوفي الذي يخدع نفسه خارج حياة حقيقية،
يلطخ بالطمع العقيم مظهرها المجرّد.

الورع، أو الثعلب والعنب

لأنه ضعيف جداً كي يصل إلى عنب الحياة،
ابتعد معزّياً نفسه: «حسن، حتى الآن
لم يصر عنباً بعد».

كلام فارغ

هناك ظلال فقط مع الضوء، لكن الحمقى الصوفيين يلاحظون
فقط ظلال العالم، وليس نوره السماوي.

نبوءة

اندفعت الروح إلى الآفاق العاصفة في نهر التاريخ الحديث
فالتصوف في الوقت الحاضر هو زبد الفيضان المضطرب.
لكن كما خرجت أفروديت ذات مرّة من زبد البحر،
ستنشأ الروح المجيدة الآن من رغوة الزمن.

استخدام الصوفي للعقل

حين يبقى قريباً من الاعتقاد يكون أنه على الأقل عقلانياً إلى حدٍ ما،
لكنه حين يجازف بالعقل، ستكون النتيجة أحمقاً.

إيمان أعزل

لقد أعطت الطبيعة أسلحة لكل شيء من أجل الحماية،
وهكذا، القرون للثور، الشعر للقنفذ والخنزير.
للنوع الإنساني النبيل أعطت العقل؛ وحده الإيمان
تركته أعزلاً، لأنه مخالف لها.
لذلك، على الرغم من أنّ الصوفيين استخدموا العقل في الدفاع عن الإيمان،
العقل يكون عقلاً حقاً فقط عندما يدافع عن العقل.
وهكذا فالصوفي يثبت لنا، يورد كأساس
فقط شعر الخنزير، آذان الحمار، والقرون.

أهداف غير محققة

عندما يدافع الأتقياء عن الإيمان بالعقل،
العقل ينمّي فقط قروناً على الإيمان.[1]

(1) عبارة ينمّي *قروناً* يمكن أن تعني أيضاً «يقوم بفعل الدياثة».

سفسطة ورعة

حين لا يكفي الإيمان، على العقل من ثم أن يساعد؛
لكن حين لا يستطيع الفهم أن يأتي بإجابات، لا حاجة للإيمان به.

فُضْلَة الخلاص

بالمعنى التقوي
أنا لا أحتاج إلى خلاص من خطاياي الماضية؛
لم تكن غير مراحل من حياتي طُمست
منذ فترة طويلة.
من الآن فصاعداً، سوف أحترس من الذنوب في المستقبل،
والحاضر لديه تعويضه الخاص.

إلى جميع تجار الكتاب المقدس

الإثم ليس نتيجة الخطيئة؛ إنه معاناة إنسانية رهيبة
لأنه في غضبه، يسلب الروح السعادة.
قولوا لي الآن، أنتم أيها الأتقياء يا من تروجون لتجارة الكتاب المقدس،
أليس حتى الكتاب المقدس يجعلنا أحراراً من الإثم؟

الدجالون الأتقياء

الشر نوعي وتعامل مع أساليب محددة:
هكذا يتحدث الدواء، ولكن ليس الدجل.
في الوقت الحاضر، تعتقد جمعيات الكتاب المقدس أنها تعالج العالم كله
بالكتاب المقدس وحده! يا للدجل!

الهدف الخفي للجماعة التقية

جمعوا الضرائب سابقاً لبنيان الكنيسة؛

الآن يجمعون المال لهدم البناء.

الشك واليقين

ذات مرة، ربما، كانت كلمات الكتاب المقدس علاجات؛

أعرف الكثير على وجه اليقين: الكلمة لم تعد تشفي.

ذات مرة ليس الآن

من المؤكد أن الدين كان ذات مرة الداعم للدولة؛

لكن الآن الدولة هي الداعم للدين.

قوة الإيمان

«الإيمان ينقل الجبال!» بالتأكيد! الإيمان لا يحلّ

المشاكل الصعبة؛ إنه فقط يدفع بها جانباً.

سقوط آدم

هل تعرف لماذا عض آدم التفاحة؟

ليؤدي معروفاً للاهوت.

تقدّم

الإيمان بالتأكيد على وشك أن يُجعل قانوناً؛

قريباً ستكون الشرطة أرضية اللاهوت.

الإيمان الأسي

في الوقت الحاضر، يتم الارتقاء بإيمان المتقين إلى أعلى سلطة
لأن الآن حتى الإيمان هو الموضوع للإيمان.

اقتراح

«اغفر لنا ذنوبنا!» أنا سعيد بالاحتفاظ بخطاياي:
الخطايا ليست سوى الحدود القصوى التي تُساق إليها نزعة الخير.

كبرياء مجنون

ما هو التواضع؟ إنه الكبرياء وقد جُن،
لأنه يعتمد على مزايا الآخر ويفتخر بها بوقاحة.

كلاب الرب *Canes Domini*

من أجل تمجيد الرب، تبصق هذه الوحوش في كافة الأنحاء
حتى الفعل الأنبل حين لم يُفعل «في الرب».

الإجهادات الورعة[1]

ما يزال أتقياء يومنا الحالي يبحثون عن الأوساخ تحت

(1) إن موضوع الحكم الخمس التالية هو عمل حرّره المؤرّخ الرومانطيقي والتقوي للمسيحية في جامعة برلين، يوهان أوغوست فيلهلم نيأندر (1825 ـ 1850): *Denkwürdigkeiten aus der Geschichte des Christenthums und des christlichen lebens; 2d rev. ed., 3 vols. (Berlin: Ferdinand Dümmler, 1825 ـ 1827)*. إن الهدف الرئيس لهذا العمل، الذي نُشر أصلاً من عام 1822 إلى عام 1824، كان مقارنة الاعتقادات والحياة الأخلاقية للمسيحية الأولى مع مثيلاتها في البيئة الإغريقية والرومانية. المقالة الأولى، التي كتبها تولوك («*Das Wesen und die sittlichen einflüsse des Heidenthums besonders unter Griechen und Römern, von dem standpunkte des Christenthums aus*

أظافر الوثني

من أجل بلسمة جراح الرب.

الأتقياء في روما وأثينا

من أجل أن يعرضوا لنا العالم الوثني بكلّ عريه

يجلسون على مراحيض روما وأثينا

ليظهروا كان الوثني القذر يخر ـ

وكيف أن الإيمان يحررنا من كل احتياجات الطبيعة.

إلى ت.

أنت تلعن سقراط لأنه أراح الطبيعة؟

ألا يزال المسيحيون يذهبون إلى المرحاض؟

التمييز بين الطبيعة والنعمة

في الواقع، كان للعالم الوثني حركات أمعاء ممتازة،

لأنه، في تلك الأيام، كان مجرى الطبيعة غير مقيد.

لكن الإيمان يسدّ ويوقف الأمعاء الدنيا ـ

العالم المسيحي يعاني من الوسواس.

---

1 ،*I.*، *ibid.*، « *betrachtet*، *233 ـ*) تعربد في إثبات لا أخلاقية الأعراف الدينية الوثنية، و"لـ ت"موجهة له بوضوح (مع أنه ليس سقراط بل الفلاسفة الكلبيون يعتبرون آثمين لتخفيف أحمال الطبيعة علناً [المرجع السابق، ص 112]. بالنسبة لتولوك، أنظر الهامش 69؛ من أجل رأي فويرباخ بنيأندر، أنظر مقدمة الترجمة الإنكليزية.

البوابات السماوية للأتقياء

المتعلمين المعاصرين

من أجل أن يجعل لنفسه مكاناً في السماء، على المنافق

أن يقوم بحملة تطهير

من أجل التسلل بأفلاطون وسقراط إلى هـ

سقوط لوسيفر

ما الذي ألقى بإبليس من على عرش السماء؟

لا تعرف؟ لا شيء سوى الخديعة الاكليروسية.

إله اللاهوتيين

الخبز من أجل الأكل، ما يزال[1] قادراً على إعطائنا في حالة الطوارئ،

لكن هل لا يزال يقدّم لنا مادة للفكر؟

تخفيض

حكم الدين مرّة كربٌ للرأس.

لكن عالمه الآن يقتصر على حفرة المعدة.

لاهوت الشعور

عندما تنتهي اللعبة ويتم إغلاق المسرح

يظلّ ثمة شعور وجداني.

---

(1) الله ـ مترجم عربي!

بتر

في الآونة الأخيرة فقد أساتذة اللاهوت عندنا كلّاً من رؤوسهم

وعيونهم؛

الملمح الوحيد من الضوء الذي تُرك لهم هو في الشعور.

إلى أي مدىً سقطوا!

ليس باستطاعة هذا الحشد الخجول بعد أن يقيم معابد أو كاتدرائيات،

وهكذا فالمعبد الوحيد الذي بقي للّه الآن هو حجرة القلب.

سؤال الضمير

لماذا تم وضع الدين في القلب؟

لتحسين التنفس.

«إنه بالضبط هذا الطريق، فقط مختلف تماماً»

كيف يمكن للأتقياء أن يكون لهم أطفال؟

الروح القدس يلقح زوجاتهم.

استنتاج هام للعقلانيين

بعد طول انتظار، بوسيلة منظور نقدي ـ تاريخي

أثبتوا فعلياً للعالم أنّ الماء لن

يصبح أبداً خمراً.

عقل العقلانيين

ما يسمونه العقل ليس سوى البخار

الذي تم جمعه من الروث الاقتصادي للفلسفة الكانطية.

الأهمية التاريخية للمذهب العقلاني

الروح المفكِّرة هي مصدر الحياة الذي لا يهدأ، الدافع لها؛

إنها تتحرك أبدياً، تطوِّير ـ للذات أبدي.

لكن فقط قلة مختارة تواصل غزل الخيوط الداخلية

لتنمية الروح، وقلة تعرف الروح.

عندما ارتفعت الروح قبل زمن طويل إلى عوالم أعلى

تُركت الجماهير وراءها، لأن لديهم مشكلة في تصوّر الروح.

كانت فلسفة كانط فقط الحليب الذي يُغذّي

الروح الناضجة لعالم أكثر نبلاً.

لكن هذا الحليب تم تخثيره الآن ليصبح جبناً بين الناس؛

هذا المنتج ذو الرائحة يسمى عقلنة.

نظرة إلى التاريخ

الفلسفة شابة أبداً، ولا تعوزها الوسيلة أبداً،

وهكذا تذكّروا أنها تمتلك دائماً مجموعة جديدة من الملابس.

حين ترمي بثوب، يلبسه اللاهوت مباشرة،

كما تزيّن أثواب الأميرة الخادمة في وقت لاحق.

مؤخراً غطّى المتسوّلون العري في رؤوسهم
بالثياب التي رماها كانط،
وقد غسلوها من العدد القليل من البقع التي تركه عليها؛
الخرق القديمة تبدو الآن جيدة، مثل ثوب جديد تقريباً.

ابتذال مفاهيم العقلانيين

هذا الشعب الأحمق، الذي يحلم بأن يكون عقلانياً،
يصطاد الجواهر الإلهية للعوالم الأعلى
في الشِبَاك التي تستخدم للزرازير
وأشياء أخرى من الطبيعة.
إنهم يخوزقون الشهداء، حتى المخلص ورسله،
على عوكشات لها استعمالها المناسب
فقط في الحياة البائسة لاقتصادنا الجماعي،
وفي نهاية المطاف يحوّلون الله والروح إلى روث!

هل لدى العقلانيين حواس حادّة؟

لا على الإطلاق، لا في الواقع! فهؤلاء السادة يمتلكون بالأحرى أسناناً حادّة،
لأنهم بسعادة يمضغون إلى قطع النواة والمحتوى.

نصيحة لهؤلاء الناس بالذات

في الحزبة، ربما يمكن لحكمتكم أن ترضي الإوز،
لكن ليس البشر أبداً؛ إنهم يطلبون أكثر من ذلك بكثير

أقرب إلى الرصيف، أكثر أماناً

لم يغامر العقلانيون قط بالصعود عالياً؛
إنهم يأخذون سكناً لهم بجوار كانط وفقط في
الطابق الأرضي.

بسيط جداً

لماذا أنت مندهش من قيل وقال العقلانيين؟
هل أبقى هؤلاء السادة يوماً سرّاً في رؤوسهم؟

تنوير

بكل الوسائل، العالم يزداد إشراقاً
عندما يعرّي الناس الغابات تماماً ويسوون
الجبال بالسهل.

خصائص غريبة

للنور العقلاني:
(1) يمكن أن يوزن.
«كيف يمكن للمرء أن يجمع النور في أكياس؟»
يسوّق العقلاني الآن النور مثل الذرة.
(2) وهو أعمى مثل منجل.
نور العقلانيين ينير فقط بقدر ما يوضح
الجواهر، المادّة، الأشياء التي اختفت عنالرؤية.

(3) لا يسافر بعيداً.

وحده النور الإلهي يضيء العالم كله؛ لكن نورك

يملأ فقط الحظائر والاسطبلات؛ لا يصل إلى أبعد من ذلك.

(4) إنه عابر.

بالنسبة لك، الفهم نقد، الذي يعني مصباحاً أرضيّاً صغيراً

الذي يستهلك ذاته جنباً إلى جنب مع وقوده.

لذلك فوجهة النظر العقلانية هي حقاً في مرحلة حرجة؛

فمادتها ازدردت كليّاً، وهي في الطريق إلى الخارج.

(5) يمكن أن يُطفأ.

التصوف عناء هائل له

لأن ضوء مصباح الليل يمكن خنقه بالدخان.

(6) ليس مستقلاً.

النور يعيش فقط على ذاته، لكن مصباح العقلاني

يعيش فقط على الظلام، فيقف أو يسقط معه.

(7) في الواقع، لم يُحسم

ما إذا كان نوراً بالفعل

حكمك العقلاني هو مرحلة متوسطة افتراضية

والتي تقوم على تلك الكلمة الكريهة لو.

وحده اعتقاد لو وهم، وحده كل تاريخ لو هراء،

وحدهم آخرو لو أغبياء، وعندها فقط أنت تخاف.

لكن، للأسف، المرحلة المتوسطة لا تزال موضع شك،

وهكذا يبقى حكمك العقلاني افتراضياً.

الصيرورة الطبيعية

الأخلاق تأتي فقط بعد النقد ـ الصيرورة طبيعية؛

لكن ألست آثماً حين أكون أخلاقياً دون تحفظ؟

الطاولة الأنيقة

لقد حشو بطونهم بالأخلاق؛

ثم بعد ذلك، فبالنسبة للحلوى، لا يزالون يخدمون الله.

نقد عقلاني

هذا سخيف! حتى قبل أن يتذوق الطعام،

على النقد أن يتحقق من نكهته ورائحته.

الناقد ذكي

«هل أستطيع أن أرى؟» يسأل الناقد بنبرات من الحكمة، قبل أن يتطلّع؛

لكن في حين يطرح السؤال، يبقي عينيه مغلقتين.

النقد البطيء

في حين يحاول النقد التأكد مما إذا كان النبيذ قابلاً للشرب،

كان قد تحوّل بالفعل إلى خل، وليس ثمة من هو عطشان بعد.

تتمخض الجبال *parturiunt montes*، وهكذا دواليك[1]

أيا كانت تشير طبيعته ففي النهاية فقط بعد أنّ النقد

لحسه وشم حوله، يكون مبتذلاً مثل كلب.

الماس يُعرف فقط في ذاته

أنت تتعلّم أن تفكّر فقط من خلال التفكير، تتعرف على الحقيقة فقط في ذلك

الذي هو حقيقي،

أنت تعرف الحب فقط عندما تحب حقاً، لكن لا تعرف شيئاً

بالنقد الصرف.

فقط كم يكون النقد نقديّاً؟

يجب أن يقف النقد للحراسة على باب الروح النقدية،

التي ليس لديها شعور آمن للحقيقة أو للّه.

كل من يدخل الباب يجب أن يستدعى أولاً بالقول، «صديق جيد».

بخلاف ذلك على المرء أن يترك الأرض، حتى لو كان اللّه بشخصه.

الموقف والدعوة للنقد

النقد هو خادمة البيت في مملكة المعرفة ـ إنه

يكنس الأشياء.

وحين تستمرّ الخادمة سوف نخسر كل شيء.

---

(1) الشاهد بكامله هو: "Parturiunt montes، nascetur ridiculus mus"، الذي يعني حرفياً، "تمخض الجبل فولد فأراً سخيفاً"، من Ars Poetica لهوراس.

شهية طيبة bon appétit!

الأخلاق هي مثل الخبز المنزلي البائت؛ لصنعه انزل بسهولة أكثر،

إنهم ينشرون اللّه والدين مثل الزبدة عليه كلّه.

الدين بدافع الامتنان

لأنهم يعتقدون أنهم خالدون، فهم يعتقدون أنه

يتعين عليهم العودة لشكر

الربّ الغالي فقط بدافع شعور الأخلاق.

ما هو اللّه والدين في الوقت الحاضر؟

بالنسبة لهؤلاء السادة، الدين هو شركة تأمين على الحياة؛

حتى التضحية ترتبط فقط بخير المرء الخاص؛

واللّه بالنسبة لهم هو الشحم على عربة الحياة التي تصدر أصواتاً

الذي يجعل العجلات تدور بسهولة أكبر.

شعار تاريخ الكنيسة

«Pectus facit theologum»[1] [الشعور يصنع اللاهوتي].

حتماً! حتى حين يكون المرء غبياً مثل الحمار،

ورأس المرء

---

(1) «Pectus facit theologum:» كان هذا شعار المجلّد الأول (1826) من عمل نيأندر Allgemeine der christlichen religion und kirche، الذي وصل حتى خمس مجلدات عام 1845. الشعار كلّه هو Pectus est، quod theogum facit، الذي يعني، «إنه القلب الذي يصنع اللاهوتي». أنظر الهوامش السابقة.

ميتاً كحجر.

وهكذا تكونون مسيحيين فقط ليلاً؛ في النهار أنتم ملحدون؛

فالشبح الضعيف لا يزال يقيم فقط في ليل الشعور.

حقيقة تاريخية

ذات مرة كانت المسيحية الجوهر والروح العالمية الحاكمة؛

لكن ما هي عليه الآن؟ تأثير للشعور.

مساهمة في المورفولوجيا

كما تتفتح النباتات، ومن ثم تتراجع إلى داخل ذواتها،

كذلك الدين يتطور.

يكون في البداية خيراً مفرداً؛ يعيش مخبأ بصمت في القلب،

حيث يكون حتى الآن بذرة بسيطة، متحدة مع الفرد؛

لكن سرعان ما يفجر دار القلب المقيدة

ويضغط في الفضاء مثل شجرة ناضجة.

بقوة لاحتضان العالم، إنه يجمع

جميع الشعوب والأعراق تحت ظله المقبب.

بمجرد أن يؤتي ثماراً ويحقق القسمة

بأن روحاً أكثر تسامياً تسكن في كل شيء،

ينسحب ثانية عائداً إلى حجرة القلب الوحيدة

هناك حتى يُضغط إلى شعور ليلي،

حتى أن ما اشتعل ذات مرة كمادة للعالم

يزداد قتامة الآن في غرفة نوم القلب المظلمة.

حكم قابلة لأن يثنى عليها

كما يؤجّل الشاب درسه عبر مواساة نفسه

بفكرة الغد،

كذلك يعزّي الورع نفسه بذلك الذي هو ما وراء هذا العالم.

كلّ من قد يرغب في أن يوبخه كان سيبدو غير عادل،

لأن هنالك العديد من القصور في البيت الواسع.

شرح طبيعي لكسوف
الشمس في اللاهوت

«جوهر اللّه مظلم». بالطبع! انه وحده الدخان

الباقي حين فجّر هؤلاء السادة كل مسحوقهم.

من الطبيعي أيضاً أن وجود اللّه هو حالياً في

الظلام:

وحده القلب المتعاطف لديه متسع له.

لو أنّ الثقوب في رأسه فقط نمت أكثر!

لما كان وحشنا التقي

بحاجة إلى علف الآخرة.

«قل لي، أين تتواجد الآخرة التي يُحتفل بها للغاية؟»

فقط في الثقوب في رؤوسهم.

تصفيق

الآخرة هي بالتأكيد مؤسسة ممتازة،

ملجأ مرحب به لرغبة جبانة وروحية.

الطائر الحر يشاهد كل شيء بشكل مختلف

عن الطائر الذي في قفص

تجد الألغاز فقط في قفص الألوهية؛

أخرج إلى الهواء الطلق، وسوف يُحلّ كل شيء لك.

«هناك حالات يكون فيها اليأس واجب»

كيف سيكون اللاهوت حرّاً من شر الفتنة؟

عندما أخيراً، بدافع من اليأس، يستسلم.

وغالباً ضربة مثل ضربة الاسكندر ليست دون ثوابها.

كيف ستحلّ عقد الألوهية المرهقة؟

تخلّص منها بسرعة: بشجاعة اقطعها إلى قطعتين.

ومع ذلك وحده الموت

يخلّص نهائياً من الحاجة.

لا يمكنك علاج معاناتك في اللاهوت؛

وحده موتك هو الشفاء التام.

الشيطان، حتى حين لا يكون شافياً للنفوس،

يكون طبيب عيون

يا للمنحة اللاهوتية ألفقيرة! وحده الشيطان لا يزال باستطاعته أن يشفيك.

لذلك اذهب للشيطان! ربما ستُشفى إلى الأبد.

الإيجاز هو روح الطرافة

الحياة على الأرض وجيزة. لكن لاحظ، يا عزيزي الصوفي، وجيزة فقط في الزمن، أما بقيمتها فهي لانهائية مثل اللّه.

حول الحياة والموت

ما هي الحياة؟ فقط تشنج الروح المولدة.
وهكذا فالحدث وجيز، لكن التمتع الحلو.

إلى الشخص الذكي، الحياة هي نهايتها الخاصة؛
لهذا السبب بالذات، هي تحضير للاشيء.

وحده ذاك الشخص حكيم الذي يجد كل شيء في الحياة
لكنه أيضاً لا يجد شيئاً في الموت غير الموت.

وحدها الزوالية تضفي سحراً يخلب الألباب
على حياة الإنسان، لأنها ملكة العالم.

لا تطلب الحياة من الموت؛ ثُقْ واسْعَ لشيء واحد فقط:
أن النبيل ذات يوم سوف يتذكرك بحب.

الروح والمادة

التعليم اللاهوتي خامل كالمادة؛ وحدها الكتل
المدارة من قبل الحكمة الدنيوية تجعل الأخرق يتحرك.

أوقات سيئة

ليست الأفضل، لكنها الأرخص تباع مثل كعك ساخن.
هذا هو السبب في أنّ الإيمان حالياً مسألة ساخنة.

حيرة!

ما هي المسيحية الآن؟ لمساعدة العيون الضعيفة،
أحد الهواة رسم عاكس ضوء على ولادة المسيح.

تأثير معاكس

حين أفكّر بالمسيح بمفردي، فإنه يقف أمامي كاللّه نفسه؛
وحين يعظ به الإكليروسي الورع، فإنه يصبح مجرد إنسان بالنسبة لي.

Tempora mutantur، nos et mutamur in illis
[الأزمنة تتغيّر ونحن نتغيّر معها]

لو قام المسيح الآن ونظر إلى أتقيائنا،
لكان قد يصبح حتى المسيح الدجال.

الخوخ على الأرض أحلى
من التين في السماء

آلام الأرض أسوأ من المعاناة في الجحيم
فالأرض تغلّ متعاً أكثر مما يمكن لأي سماء أن تعطيه.
التمييز بين
الهنا والآخرة
كل ما تأكله على الأرض تحصل عليه في الآخرة؛
الطعام هو نفسه في المكانين، أنت فقط تحصل عليه
بوسائل مختلفة.
على الأرض، اليمامة تُشوى بفن الطبخ؛
في الآخرة، تطير إلى داخل فمك مشوية لتوها
بطبيعتها السماوية.
الشوكة، السكين، والأيدي هي الأدوات الدنيوية للأكل؛
في جلب الطعام لك، تبدّل جوعك.
لكنك في الآخرة لا تحتاج أبداً لمثل هذه الأدوات المرهقة؛
هناك أنت تأكل بفمك فقط، مثل خنزير محظوظ.

خاطِر!

خطر الموت يعلّمنا كيفية السباحة. وهكذا ارم نفسك
بشجاعة في البحر؛
عندئذٍ لن تحتاج قربة خنزير، الوسائد الهوائية للعالم
الصوفية، لتبقى عائماً.

مأمول مبهج

هنالك ستة أيام عمل هنا على الأرض، يليها يوم أحد

مفرد؛

لكن في الآخرة، سيكون لدينا يوم مقدّس دائم.

يا هلا!

عيد الحصاد

كم يجب أن يكون جميلاً في *Lirumlarum* الآخرة[1]

أن لا تفعل شيئاً سوى أن تولم على الفاكهة التي نضجت على الأرض.

حيث يزرع المزارع، يجني

هنا على الأرض لدينا كل من فصلي الربيع والخريف،

وقت للزرع ووقت للجني؛

البذور والفواكه لا تعيش أبداً في نوعين من الأرض.

بسبب واقعيتها التي لا يرقى إليها الشك

تواصل المعدة في كونها مسيحاً دجالاً.

وهكذا كان يجب أن تُحظر المعدة

من كل أرض مسيحية قبل سنوات.

الآخرة تساعدني بقدر التفكير بشواء في يوم أحد مستقبلي

في يوم الاثنين، عندما أكون جائعاً حقاً.

(1) Lirumlarum: كلمة لا معنى لها تستخدم أساساً في الأشعار للأطفال.

قبل كل شيء، يا سيدي الورع،

يا من يأكل دائماً أحلى الكرز،

آمل أن تتمكن من هضم

هذه المقاطع.

الكرز الذي يلتقطه عصفور الدوري هو الأحلى من كل شيء؛

لكن الطير الصوفي ينقر لحمه هو لأنه يمتلك

مزيداً من الشهية له.

نقطة التعسف ليست رياضياتية

غالباً ما يحملق الناس على نقاط معينة كي لا يفقدوا السيطرة؛

المسيح حالياً ليس غير مثل تلك النقطة: لا يمكن للعالَم

أن يسمح لنفسه أن يغفل عنه.

القديم والجديد

الجديد في الأمر حقاً هو أنّ الروح مع جوهر الحقيقة السابقة

أطلقت الآن من الزنزانة التي أسرت فيها.

لكن الغوغاء يعتقدون أنّ الروح تتقدّم في الحرية

الحقيقة السابقة، التي لا تزال موجودة في الجوهر، تصبح لا شيء.

أذواق الغوغاء

أكثر الأشياء بغضاً تصبح مقدسة بمجرد الإلفة:

الثآليل والحول

عند الحبيب غالباً ما تكون جميلة لمن هو عاشق بجنون.

وهكذا فالمسنّون معززون حتى لو أن الجرب أفنى؛

«الجحيم مع الخدوش»، تصرخ الجماهير بغضب.

«إنه يرتدي حذاءً بطرفين مطويين إلى الأسفل وسروال

مجعد إلى نهاية ذيليه».

وهكذا فإن عامة الناس تعرّف الرجل، بالاعتماد على ملابسه.

بالطريقة ذاتها، يعتمد الصوفيون على الملابس التي ارتداها المسيح؛

إنهم يفقدون صوابهم حين يأخذ أحدهم الملابس منهم.

حقيقة وقورة

المسيح نفسه هو الآن عباءة؛ إنه لم يعد موجوداً في الكتاب المقدس،

لقد مات كشخص؛ فمنذ زمن طويل أصبح روحاً.

سرطانات الناسك الورع، أو التطفلي Parasitici

(«برناردوسBernhardus *[باغوروس [Pagurus]*، الناسك». أنظر، كتاب بلومنباخ، *التاريخ الطبيعي*، ص. 424.)[1]

ذات مرة فإنّ الجوهر الذي خلق الهيكل وسكنه هجره

يزحف إلى داخله سرطان بحري؛ والسرطان البحري يسمّى صوفياً.

(1) يوهان فريدريش بلومنباخ (1752 ـ 1840)، كان واحداً من أوائل علماء الطبيعة العظماء في ألمانيا؛ والعمل الذي يستشهد به فويرباخ هنا هو Handbuch der Naturgeschichte، الذي طُبع لأول مرّة عام 1779 ووصلت طبعاته إلى ثلاث عشرة طبعة حتى عام 1830.

تذييل

أنت تقطن فقط في صومعات نسكية هجرها الخالق؛

وهكذا، أيها الصوفي العزيز، أنت سرطان بحر طفيلي.

البرهان

لو لم تكن سرطان بحر طفيلياً، كنت ستعرف

أن الطبيعة وحدها تخلق، أن الطبيعة وحدها تنشئ.

تأمل

سرطانات البحر والقواقع مثيرة للشفقة بما فيه الكفاية،

لكن سرطان البحر الناسك! يا للتركيبة!

دود الخل العقلاني، *Aceti* [1]

(«وهكذا فهذه هي الأنواع من الحيوانات التي تم خلقها لاحقاً postcreated،

إذا صح القول، أي بعد زمن طويل من الخلق الشامل الأول. لأنه، كما هو معروف جيداً، فهي موجودة فقط في الخل وكحول الصمغ، وكلاهما منتج مصنع متأخر للإنسانية الثقافية». بلومنباخ، التاريخ الطبيعي، ص. 504، ملاحظة). وهكذا فأنت تولّدت فقط في اللاصق الذي يضم الكتاب إلى بعضه، الذي هو

فقط يربط ويدعم منظومتك برمتها!

لكنك لا تولد في فصل الربيع الإلهي للحياة الأصلية،

(1) دود الخل أو جريث الخل، هو دود دقيق خيطي غالباً ما نجده في الخل، المعاجين الحامضة، والمواد المتخمرة الحامضية الأخرى من الخضراوات.

الأبدية ـ

أيها العقلاني المسكين! أنت مجرّد منتج للثقافة.

القوة والضعف

وحدها الطبائع القوية يمكنها أن تخيّم في العراء؛ فمن الأفضل للصوفي أن يبقى في السرير تحت سقف من القش.

بالتأكيد جميل جداً!

آه، كم يجب أن يكون جميلاً، حين تعصف في الخارج، أن ترتاح بنعاس في مذود بيت لحم على قش مدروس تماماً.

علم نبات ضيق الأفق

الأمر يحتاج إلى عقل ضيق كي يفكّر أن الإلهة الوفيرة

تُقصر الطبيعة على زهور فلسطين!

اللماذا غير المعروفة

تدفق التاريخ يتيح للصوفيين

ما يكفي من الماء فقط لغسل الكتان القذر،

لكن، بالنسبة للعقلانيين، فإنه يعطي فقط مرآة للتفتيش عن خجلهم.

نتيجة لذلك، ليس لدى الأنا أي فكرة عما يعنيه التاريخ لهم.

والرمز المناسب

ركب فيشنو عُقَاباً.[1] بالتأكيد فإنّ رساماً مسيحياً معاصراً
لم يكن باستطاعته أن يختار غير زرزور كحامل للرب.

كلية حضور اللّه

ليست القدس النُزل الوحيد الذي يقدم الطعام
والسكن، لأن اللّه يمد ذراعه في كل مكان.

كيف يعود الصوفي إلى الوطن من أرض أجنبية

تطير الإوزة الصوفية فوق الأردن إلى أرض أجنبية
لكنها تعود بالصياح القديم ذاته.

شيء للمختارين

على الرغم من أن كل شيء بالنسبة لهم يصنع نعمة،
ما يزال طعامهم يأخذ مجراه الطبيعي إلى الأمعاء.
وهكذا فهم سحرة والذين النعمة بالنسبة لهم ليست سوى كلام،
لأن كل حدث في حياتهم يأتي ليعبر بشكل طبيعي.

المختلف ليس متميزاً

ما الذي يميز المسيحي عن الشرفاء الآخرين؟
على الأغلب وجه تقي وشعر مفروق.

(1) الكائن الذي امتطاه الإله الهندوسي فشنو كان غارودا، وغالباً ما يمثّل كصقر صغير.

ما قام بالعمل ذات مرة بشكل جيد

يُثلم الآن بسبب كثرة الاستعمال

لقرون كانوا يبشرون بالنعمة والخلاص

حتى تبخر الملح من الهريس تفه المذاق.

وهكذا فهم الآن يسكبون كلّ أنواع الأشياء في الهريس،

لكن الخلطة الجديدة تثير اشمئزاز الطبائع السليمة حتى أكثر

من الهريس غير المملّح.

مسار العالم

ما ارتقى بهوميروس وفيدياس إلى الإلهام العالي

ينحدر إلى السخرية عند لوقيانوس.[1]

ففي مجرى الزمن، حتى الأسرار العميقة

تفقد أسرارها، تصبح تافهة وعادية.

لكن الروح عندئذٍ، في توقها إلى المزيد من الأسرار،

تخرج معجزات جديدة من الأعماق.

لماذا يصل الصوفيون إلى الهمج؟

بالنسبة للهمجي، فإن صراخ البطة يرمز إلى صوت الروح.

(1) كان لوقيانوس خطيباً بلاغياً، ناشراً لكتيبات صغيرة، وأديباً ساخراً إغريقياً من القرن الثاني للميلاد (120 ـ 180؟). عبارة فويرباخ القائلة إن الإلهام الإغريقي انحدر إلى السخرية عند لوقيانوس يمكن أن تكون تهكمية، لأن لوقيانوس اشتهر بسبب حواراته التي تسخر من فراغ وسخافة المعتقدات الدينية والحياة الثقافية لزمنه؛ وعمله حوارات الآلهة وحوارات الموتى كُتب في أواخر العقد السادس من القرن الميلادي الثاني.

لا عجب أن يعطي أذناً صاغية للصوفي.

النحل الصغير التقي الذكر

«الصوفيون هم ذكور نحل الدولة»[1]. بالتأكيد!

لأنهم يظهرون عبقرية فقط في عملية

التناسل.

الداعمون Sustentatores، أو المنعظونErectores، قضيب

النحل الذكر التقي الصغير

لكن الطبيعة ليست قضيبهم المنتصب ـ

لا! حتى لو أن هذا يدعمه الإيمان وحده.

نداء من أجل الغفران ـ

تبرير لأن يتبع مباشرة

كم أنت خبيث! ما أخذته أولاً من الإنسان كروح،

تعيده له من ثم بسخاء كوحش.

دحض التبرير

«أنتم أيها الناس المدنسون لا تفهموننا؛ ففي فعل

التناسل

تدخل النعمة والطبيعة في الرباط الأكثر حميمية».

(1) الكلمات لعالم طبيعي تقي.

تنهيدة حسودة لخاسر نادم

وهكذا فقد تضاعفت عندئذٍ متعتكم، أنتم أيها الناس المحظوظين!

كم يبدو طعم الطبيعة جميلاً عندما تحصّنها النعمة!

الكلمة السرمدية

وحده الصالح إلى الأبد للبشرية هو كتاب مقدّس؛

هذه الكلمة الإلهية هي تاريخ العالم.

الحلقة الطويلة

ضمن العصر البشري، كتابنا المقدّس هو فقط حلقة واحدة

والتي نسيت فيها الروح الإبداعية تقريباً موضوعها.

الفكرة المستحوذة على الذهن

بالنسبة لصوفيينا، بطرس الرسول ليس روحاً حيّة،

بل فقط فكرة مستحوذة على الذهن وغير قابلة للشفاء.

في الواقع، إنهم يتمسّكون بهذه الفكرة كما يمسك المخبول ماءه

خوفاً من أنه إذا تركه سيجلب الطوفان للعالم.

الوحدة الأساسية *Unitas essentialis* بين العقلانيين والصوفيين

الصوفي ليس سوى عقلاني ثمل؛

حين يصبح رصيناً ويقظاً، يصبح عقلانياً.

وحدتهم في المبدأ،
اختلافهم في الطريقة

كلاهما يحرم الإنسانية من جوهرها،

لكن كليهما يملأ خواءه المخبأ بطرق مختلفة.

عملية حسابية تقريبية لبعدهم عن الإنسان حقاً

كلاهما مُطَلّق من الإنسانية الحقيقية

مثلما أن الطائر المحنط مطلّق من الطائر الحي.

المضمون الرفيع لنفوسهم

الخرق، القش، التبن ـ لا أحد منها يولّد جوهراً

ولا الحياة، القلوب الخافقة توجد في هؤلاء السادة.

أنواعهم

كلاهما ينتمي إلى نوع الحيوانات المجترّة،

لكن فقط من نوعية مختلفة ـ على أية حال، يمكن للدولة أن تستخدمهم.

الأرضية الكوميدية لاختلافهم:
قصة قصيرة ذات مغزى

كلاهما يلتقط الثمرة ذاتها من الشجرة ذاتها

لكن العقلاني يتسلق

في حين يتم رفع الصوفي إلى الفروع على الأكتاف الأجنبية،

وهكذا يولمان على الثمرة الثمينة من دون جهد.

لكن، لأن كلاً منهما التقط الفاكهة بأسلوب مختلف،

يعتقد كل منهما أن الثمرة نفسها مختلفة ـ هذا هو الأساس

الوحيد لخلافهما.

أثناء ذلك، يسعدني أن أعترف، أنّ العقلاني

إلى حد ما أكثر معقولية وأكثر نزاهة بكثير،

لأنه يختار الفاكهة التي هي محلية

ولأسباب داخلية بحتة؛ ومن ثم، يجد التغذية

في الأرض بكلّ نزاهة.

مع ذلك، على الرغم من أن الصوفي يأكل الفاكهة نفسها،

فقد تمّ الحصول عليها من فلسطين.

إنه يضفي الصبغة السرانيّة على هذه الفاكهة اليومية بالكامل، ويقدمها للبيع

كمنتج مستورد، ونتيجة لذلك يرتكب جريمة غشّ ورع.

خلاصة

أنت عقلاني شكلاني، يا عزيزي الصوفي ـ

تماماً مثل عفونة، فقط باحتفالية أكثر.

الوجهة نفسها، لكن المسارات مختلفة

كلاهما ينحدر إلى بحر التفاهة الميت،

لكن كلاًّ منهما يتدفق نحوه عبر طريق مختلف.

أنظر! الصوفي يتلّوى وينعطف بخط متعرج يشبه المتاهة،

يتغضّن مثل دودة إلى هدفه المنشود،

في حين أن العقلاني يتدفق مستقيماً كوتر؛

إنه يحرز الهدف بسرعة أكبر، ومن ثم فهو أكثر انسحاباً.

ملاحظة ختامية

أنت عقلاني والذي تمت عرقلته في مسار

التطوّر،

عزيزي الصوفي؛ ربما أنت سقط.

مخطوط آخر يقرأ:

عزيزي الصوفي، أنت فقط عقلاني مشلول؛

لديك الذاتية نفسها بالذات، لكنها ملتوية ومشوهة.

الأخوة المختلفون

الصوفيون وكذلك العقلانيون ينتمون إلى محاضراتنا حول التاريخ

الطبيعي.

اسمع، إذن، كيف يوصفون:

كلاهما طائران من الريش ذاته ـ هكذا تعلّمنا التجربة ـ

بل أن كليهما سقط من العش نفسه.

لكن، بعد أن غادر والداهما، فإن أحدهما، الذي كان فرخ طائر

لزمن طويل،

أمسك بثقة غذاءه،

في حين أن شقيقه المثير للشفقة، الذي كان قد ترك والديه يصبّان الطعام فيه،

فقد بقي على مقربة من العش خوفاً من العالم.

لذلك، سأشرح لكم مرة أخرى بشكل واضح:

لا تفصل تربية ولا حمية هذين الزوجين اللطيفين؛

الخلاف ينشأ فقط لأن أحدهما لا يزال خارج النعمة

ويتلقى كعطية ما يحصل عليه الآخر من تلقاء نفسه.

جزء من كل *Pars pro toto*

اسمع كيف أنّ الصوفيين والعقلانيين أيضاً

يفهمون علم التشريح:

كلاهما يقص قطعة واحدة من اللحم من البشر ـ

إنها تقع تحت الرأس، ليست بعيدة عن البطن

على الجانب الأيسر (من الواضح أنه الأضعف في الإنسان)،

قريبm كفاية إلى الذراع بحيث يمكن للمرء حمايته إذا لزم الأمر؛

هذا هو المكان الأكثر ضعفاً، ومركز حياة المرء،

لكن فقط فيما يتصل بالذات، ليس للعالم الخارجي ـ

فإنهم يذهبون إلى السوق ويطرحونها للبيع، كما لو كانت الجسد كله،

هذا الجزء الواحد، خزانة الآنية المقدسة في الفناء المقدّس للجسد،

يعلن أن البشر يمكن ويجب أن يعيشوا ويفكّروا

عن طريق هذا الجهاز وحده،

وأنهم هم أنفسهم لا يجرون أعمالهم أبداً

بالعقول أو الأعضاء الجنسية، بل فقط بهذا العضو الواحد.

لكن حين يأتي أحدهم ويظهر أن الإنسان حقاً

لديه عقل ـ

جهاز يرقى به إلى الآلهة،

الذي هو ليس مخصّصاً لخدمة حياة موجهة ـ ذاتياً،

بل يصعد عالياً إلى الحقيقة وحدها ـ

ويظهر لهم أن الدماغ هو جهاز يصل إلى

السرّ العظيم للطبيعة المنتجة، حتى على أرض الإبداع،

أنه يغرق الإنسانية في أعماق الوحدة الأبدية،

حتى إلى الضياع المنتشي للذات بائسة،

فإنهم يهينونه على أنه مؤمن ـ بوحدة ـ الوجود، مسيح دجّال، ومفسد لكل أخلاق، لمجرد أنه يظهر حقيقة واقعة.

علم النفس التجريبي

إذا كنت تريد أن تعرف البشر، خذ بالاعتبار ما يكرهون؛

الكره يصل دائماً إلى قعر البشر أكثر من الحب.

أولئك الذين يجتمعون على كراهية الموضوع ذاته،

بغض النظر عن مدى اختلافهم في نواح أخرى، هم

واحد في القعر.

النهاية

مثل الصوفي، لا يمكن للعقلاني أن يتحمل

فلسفة تذهب أعمق من فلسفته. لذلك، مرة أخرى، إنهما يقفان معاً.

تذييل للعقول *البطيئة Ingenia tarda*

كلاهما يتشبث فقط بسطح الجوهر،

الذي لا يرون فيه إلا أنفسهم.

وحدها الحقيقة الأعمق، التي تطمس صورتهم،

تظهر الجوهر والمضمون؛ نتيجة لذلك فالذات تخشى الأعماق.

الوسطاء بين العقلانيين والصوفيين

الوسطاء هم حتى أسوأ من أي من الطرفين!

لأن السيء يقترن بالسيء ودائماً لديهم الأسوأ كنتاج لهم.

دليل من الطب

إنه لأمر جيد أن تجمع ما هو جيد، لكن حين تخلط مرضين مختلفين

يصل المرض إلى نسبة لا تعود معها الصحة أبداً.

من حالة الزواج المقدس

زواج العجائز من النساء والرجال غير مثمر:

حتى حين ينجبون طفلاً، يكون مخلوقاً يؤسف له.

من مهنة الخياطة الشريفة

يمكنك أن ترقع الخرق القديمة بقدر ما يحلو لك،

لكنك لن تصل أبداً إلى معطف قابل للبقاء.

من منطق قديم حسن

إذا كنت ترغب في الجمع بين النقائض، أن تأخذ المهمة

على محمل الجد

عليك أولاً إلغاء المجالات المشتركة فيما بينها.

لكن أنتم يا معشر الفلسطينيين القدماء جبناء جداً لأجل هذا، ألستم كذلك؟

لأنه، إذا كنتم ترغبون في إلغاء النقائض في التعليم المقدس،

إذن، يا أصدقائي، عليكم أولاً إلغاء اللاهوت بشجاعة.

منظور متعال

المنظور الذي تصعد إليه، أيها الوسيط العزيز، عالٍ،

لكن الهواء هناك رقيق جداً بحيث لا فرصة للحياة.

الدوغماتية Dogmatics الفلسفية من برلين [1]

هي ذي الدوغماتية الوقحة. كنا نظن أنها ذهبت إلى

(1) العديد من الحكم التالية موجهة إلى فيليب كونراد مارهاينكه (1780 ـ 1846)، أستاذ اللاهوت في برلين وقائد أولئك من أتباع هيغل الذين اعتقدوا أنه من الممكن مصالحة فلسفة هيغل مع عقائد المسيحية. أما العمل الذي يهاجمه فويرباخ فهو(Grundlehren der Dogmatic als Wissenschaft 1827)،

الشيطان منذ فترة طويلة،

لكن انظر كيف أنها لا تزال تحافظ على نفسها، كم هو ثابت صدرها!

مع ذلك انتظر! فصدرها محشو فقط بهلب الفرس

الملتقط من مؤخرة الفلسفة!

ليس لحمها الخاص! يا للعار! كم هو رهيب ومثير للاشمئزاز!

ابتعد عن جسدها! يا لمحاولة لإغراء المسكينة!

Haec fabula monet [1]

أيها الشباب! عيّدوا على صدور العذارى الأبديات، النقيّات

للفلسفة والفن، لكن فرّوا من القحاب والفاسقات.

أعظم فريسيي زمننا

أوه، يا م ـــــــ ، *دوغماتيتك* هي فقط منديل جيب

والذي اعتاد البروفيسور ـــــــــ أن يمخط فيه.[2]

إلى الشخص نفسه

لوّح لنا! لكن، حقاً، فإنّ منديل *دوغمائيتك*

لن يعطينا نسيماً نقياً، منعشاً أبداً.

الذي نُشر أول مرة عام 1819 تحت عنوان Grundlehren der christlichen Dogmatic، الذي يقول إنه من الممكن وضع الإيمان المسيحي بتعابير فلسفية عبر إزالة الشخصية التمثيلية من العقيدة، أو، بكلمات أخرى، تلك الصيغة التي يعبّر فيها الإيمان والتي هي ليست جوهرية لمضمونه. ويرد فويرباخ على هذه الحجة بسؤال "هل بإمكانك أن تحيد عن هذا أيها السفسطائي؟"

(1) « Haec fabula monet»: هذه القصة تنصح.

(2) م هو مارهاينكه (أنظر الهامش 83)؛ أما الفراغات فترمز قطعاً إلى هيغل.

رحلة سعيدة Bon voyage!

لحاء الألوهة القليل مغروز الآن بعمق عند الحاجة؛

مسار حياته انتهى، فهو لا يمكنه أبداً التحرك مرة أخرى.

لكن م ـــــ يصل، إنه العظيم، ويفرد منديله ـ

كشراعه! حظاً سعيداً، أيها اللاهوت![1]

الدوغمائية Dogmatics الكاملة

دوغمائيتك لا ينقصها شيء، دعني أقولها مرة أخرى؛

حتى أنت لا ينقصك شيء، ربما باستثناء المسيحية.

هل بإمكانك أن تحيد عن هذا التوجه، أيها السفسطائي؟[2]

الشكل هو ذاته جوهر؛ ومن ثم يمكنك إلغاء محتوى الإيمان

حين يمكنك إلغاء التمثيل الذي هو شكله الصحيح.

مواد لكتاب

ازدهرت الفلسفة المسيحية مع آباء الكنيسة؛

ما يسمى الآن فلسفة مسيحية هو هكذا بالاسم فقط.

للاأحد غيرك

هل تتوقع أن تثير الطبيعة من أعماقها الخفية

(1) م هو مارهاينكه.

(2) أنظر الهامش 83.

عندما لم تكن قط موضوعاً للفكر المسيحي؟

كيف يمكنك أن تتحدّث عن الفلسفة المسيحية؟ أية أزمنة بائسة!

كل فضيلة استخدمت لتزيين الإنسانية مضت!

كلمة للأزمنة

المسيحي الآن مجرّد اسم؛ فمحتواه غير مادي بالكامل؛

اليوم حتى الشيطان يمكنه أن يَعْبُر كمسيحي مؤمن.

والمسيحية الآن تعبر في أرض الفلسطينيين،

حيث يمكن للمرء أن يأكل بشكل آمن خبز واحدنا في الطاعة للسلطة.

المدعي:

«الممارسات نفسها تنتشر في العالم الروحي المعاصر

كما هو الحال في التجارة:

يضع الناس الختم المسيحي على معظم السلع الوثنية».

المحامي:

«تلك هي المضاربة؛ شركة هاوزر،[1] «

مع سمعة طويلة الأمد بالصلابة، توصي

بهذه البضائع».

(1) Auf ihn kannst du Haüser bauen (تعني حرفياً: «يمكنك بناء منازل عليه») وهو تعبير يعني، «يمكنك أن تثبك إيمانك به».

المؤرخ ذو الضمير يتحدّث إلى الضمير:[1]

ميزّت المسيحية بدقة الروح والطبيعة؛

وبذلك فالروح المسيحية كان بإمكانها أن تمتلك فهماً واضحاً للروح

في ذاتها.

لكن واجب العصور الحديثة كان أن تحضّر

لتسوية نهائية للروح مع الطبيعة.

كان برونو ويعقوب بومه وسبينوزا الرجال النبلاء[2]

الذين وضعوا الأساس بطريقة نبوئية لعيد التسوية هذا.

وهكذا قل لي، أيها الفلسطيني، حين تعلن ما أعلنه

هؤلاء الأنبياء النبلاء لنا، هل تعلّم المسيحية الحقيقية؟

إلى المفهوم:

«وحده المفهوم جوهر». وهذا يعني أن الهيكل العظمي البشري

يمتلك حقيقة أكثر من الإنسان الحي،

أن اللحم والدم ليسا سوى ملحقات لا لزوم لها،

وأن الحياة نفسها ليست سوى ملحق للعظام.

(1) الحكم الست التالية موجهة إلى مارهاينكه ودوغمائيته (أنظر الهامش 83). الهجوم على "العظام الجافة" يأتي من "إطار الهيكل العظمي" الذي ينظم هذا العمل، في حين أن الاسم المستعار، "جوبيتر اللاهوتي" فقد كان نتيجة ربما لأسلوب مارهاينكه الفخم في التبشير: وقد دعي أيضا بالكاردينال.

(2) برونو هو جيوردانو برونو (1548 ـ 1600)، الفيلسوف، عالم الفلك، وعالم الرياضيات، الذي واجه الفلسفة الأرسطوية بمفهوم مونوي moist (القول بأن الحقيقة كلّ عضوي واحد) للعالم. بالنسبة باكوب بومه، أنظر الهامش 26 من النص.

برهان *أبوستريوري وأبريوري*

وهكذا فالمفهوم لن يصبح أبداً لحماً ودماً في شبابنا،

لأن ما يدخل كعظم يخرج كعظم.

الدوغمائي الفلسفي

الآن يريد أن يخرج العالم من سباته بالضرب

على إهاب حمار العقائد بعظام المفاهيم

الذاوية.

تصحيح

لماذا تُدعى هذه الدوغمائية بفخر الحكمة الهيغلية؟

مثل الضبع، إنها قانعة بمجرد العظام.

إلى كوكب المشتري اللاهوتي

«كل شيء موضوع في إطار هيكل عظمي». يلاحظ المرء

هذا في دوغمائيتك،

لأن الفلسفة كسرت ساقها مؤخراً فيها.

العمارة الحديثة الأقدم والأحدث منها

صديقي العزيز، هل تريد أن تعرف سيماء المسيحية الحالية

وتقيس الفجوة التي تفصلها عن شكلها السابق؟

اذهب فقط إلى برلين العظيمة لرؤية

ذلك الصرح الساحر المسمّى بالكاتدرائية،[1]
التي، على الرغم من أنها مكرّسة لله، فإنها تشبه فيلا واسعة،
نزلاً أنيقاً، أو حتى مشتل برتقال.
إذا كنت تشمئز كفاية من هذا التأنق في الحجر،
هذا الشكل الغاضب، هذا المؤشر الممتاز إلى الأزمنة،
فاذهب عندئذٍ إلى كاتدرائية كولونيا، إلى كنيسة ستراسبورغ،
وتعجّب من الروح التي خلقت هكذا تمجيد،
مع ذلك لا تفهم أن المسيحية اليوم هي رجلٌ مطوّس،
غندور، مقلّد لغيره، فأنت عندئذٍ غندور أيضاً.

مساهمة في مذهب الأرواح والملائكة
نيابة عن المعتقدين بتعددية الأرواح Polyspiritualists

كما أنّ برلين لا تمتلك بيرة بل كل أنواع النعوش،
كذلك لا تمتلك السماء روحاً بل كل أنواع المشروبات الروحية.

تعددية الآلهة وتعددية الأرواح

آلهة عديدة لكن روح واحدة: كان هذا جوهر الدين الوثني.
ليس لدى المسيحي غير إله واحد، لكن الكثير من الأرواح.

(1) يشير فويرباخ هنا إلى دوم برلين، الواقعة مقابل القصر الملكي في جزيرة المتحف على نهر شبري، التي بنيت أصلاً بين الأعوام 1747 ـ 175، ثم أعيد بناؤها بين الأعوام 1816 ـ 1821 بطريقة كلاسيكية ـ جديدة من قبل مهندس المعمار العظيم، كارل فريدريش شنكل (1781 ـ 1841).

الحاضر المقتضب والآخرة الطويلة

معرباً عن محتوى عميق بشكل مقتضب، اللّه، مؤلف الكون،

كتب على الأرض بأسلوب مختصر.

لكنه في الآخرة يكتب بوضوح، على نطاق واسع، ممل، سطحي ـ

أظن تقريباً مثل كروغ هنا في لايبتسغ.[1]

ملاحظة مثيرة للاهتمام

ما هي الثرثرة الأكثر بؤساً التي يمكن للمرء سماعها؟

رجل الألوهية المهذّب يتحدث عن الفلسفة.

ما لا أرغب في أن أكونه

ثلاثة أشياء لا أحب أن أكونها: شيطان عجوز، كاتب فاشل

في الأكاديمية، وأخيراً تقي.

المظهر ليس كينونة

حتى بعد أن تغرب الشمس، تظل تظهر في السماء.

استخلص استنتاجاتك، أيها الصوفي العزيز.

(1) كان فيلهلم تراوغوت كروغ (1770 ـ 1842) أستاذاً للفلسفة في جامعة لايبتسغ، ثم أصبح رئيس الجامعة عام 1830. وفويرباخ يهاجم هنا قسريته الظاهرية على الكتابة عملياً عند كلّ حدث معاصر له أو موضوع للنقاش، والمثال الأكثر لفتاً للنظر بينها كان System der Kriegwissenschaft [منظومة علم الحرب]، التي لم يكن لديه أية أرضية له بجانب بضع سنوات من الواجب في حرب التحرير.

مقاطع من دون اسم أو عنوان

كل الأبقار سوداء في الليل، لذلك يجب أن تعتبره نوعاً من الإيمان
أنّ ما هو بشري الإنسان بالنسبة لك في النهار يصبح فينوسك في الليل.

«هذه الفلسفة سوف تَعْبُر». لذلك فأنت لا تحبّ أية فلسفة
على الإطلاق.
وفقاً لذلك، لأنك أنت، أيضاً، سوف تزول، كنت ستفضّل كثيراً
أن لا تعيش.

في الواقع إن مذهبك يقوم بعجائب للمرضى.
لكن، على المنوال نفسه، لن أصفه للأصحاء.

الحياة الحقيقية قصيرة. لكن إيجازها ليس إيجاز المقطع الشعري،
الذي يخفي قيمة أبدية في شكله العابر.

وهكذا فالحياة، مثل المقطع الشعري، ليست قصيرة ولا طويلة؛
الإيجاز والطول يزولان أمام فحواها المنجز.
يسأل الصوفيون، «كم من الأقدام والآيات تمتلك الحياة؟»
لكن لا، «ما هو معناها؟» بالنسبة لهم، واضح أن الحياة قصيرة جدّاً.

المبدأ الأكثر أساسية في علم جمال السادة
أتباع الألوهة
هو أنّ أي كوميديا لا تجعلنا نضحك إلى الأبد سيئة.

لو عرف علماء اللاهوت المتعلّمون معنى الإيجاز والطول
لكان اللاهوت أكثر معقولية للحال.

حتى مقطع واحد يمكنه حلّ الألغاز غير المفهومة
للاهوتنا، على الرغم من أنه وحي.

ما هي الآخرة؟ مجرد إعادة صياغة للغة هذا العالم؛
كلّ من يفهم اللغة الأصلية لا يحتاج إلى ترجمة.

كثير من الغموض يحيط بمؤلّف عالمنا؛ مثل مترجمه،
الآخرة تسكب الكلمات، لكنها لا توضّح شيئاً على الإطلاق

الروح الإلهية بعيدة عن هؤلاء السادة في الوجودِ الفعلي.
قبولهم بهذا هو شبح الآخرة.

الإنسانية هي صورة اللّه؛ نتيجة لذلك فالطبيعة تنتمي
إلى اللّه وكذلك إلى البشر ـ لاحظوا جيداً، أيها القساوسة.

حين تجعل من نفسك صديقاً للطبيعة، فأنت تدرك الروح فيها.
عندئذٍ سوف تهدأ في نهاية المطاف في داخل الأرض بسلام.

الروح الإلهية، روح الطبيعة، وعالم روح التاريخ ـ
هذا الثالوث المقدس هو أصل الكينونة.

النور السماوي يصبح نار الحياة
فقط عندما يتركّز على الأرض بواسطة عدسة الزمن.

البشر الذين لا يمضون كثيراً من حياتهم في الهواء الطلق
يكونون عرضة لضربات الشمس، كما هو موضّح في حالة الصوفيين.

لكن الكمادات المسحوبة من نبع الحياة
والمخلوطة بالهجاء تشفي من هذا المرض.

ما أن تصحو إلى النور، تكون وجهتك أن تغفو؛
الأرض لا تطلق أحداً من مجالها.

لا تخف من الموت؛ فسوف تبقى إلى الأبد في الوطن،
على أرض مألوفة، والتي تحتضنك بحنان.

Brachybiotik [1]

حياة الفنان قصيرة. لكن تذكّر أن جميع البشر فنانون،

حتى رجل الدين الذي لا معنى له؛ لذلك، فالحياة ذاتها قصيرة.

إله اللاهوت

إله المعرفة الواسعة المقدسة لا يتواجد

في أعماق الطبيعة، بل فقط يحيط بها من الخارج،

بعيداً عن لبّها الداخلي، ينشر هالة حولها،

يجعل قشرتها الخارجية تبرق مبهرجة.

لا يتواجد هذا الإله في نعمة الإنجاز الفني

ولا في عالم الأفكار، العدد والرقم.

حقاً هذا إله صغير متميّز تماماً، والذي يتواجد ـ

هل يمكنك أن تشك أين؟ ـ فقط في اللاهوت.

العطش أفضل صانع للبيرة

كأسان من البيرة القديمة العادية في المساء

يحيوننا نحن العمال المياومين الأرضيين، يهدآن عطشنا القوي.

لكن في الآخرة، يترفه الناس في متعة أبدية

دون توق أو عطش يدفعان بهم إلى الإشباع.

(1) Brachybiotik: «قِصرَ الحياة».

والجوع أفضل طاه

الأرض الحبيبة، ترسلين لنا التوق

لغرض وحيد هو تحلية الشعور والتمتع بالحياة،

فقط لإضفاء نكهة على الطعام والشراب، لجعلهما لذيذين

وهكذا لينفخ الجوهر والروح في الهريسة الناشفة،

في حين أن سراج الغولة المتراقص الذي للآخرة

الذي لا يدفئ ولا يحرق، الذي لا ينفث روح الحياة أبداً ولا

يخلق، يتلاشى في نهاية المطاف أمامك.

هذا النمو للمستنقع، هذا الشيء الذي يحاكي النور،

الذي يعطي نوراً لكنه ليس لديه تأثير نور،[1]

يمنح فقط تلك المتع التي لا تُستحضر بالليل، الرغبة، أو الحاجة،

وليس الجوع طاه، للأرض، مثلما هو طاه لك.

De gustibus non et disputandum[2]

يمكن لمعدتي أن تخضع خبز أرضنا وماءها،

لكن ليس الخمر والحلويات المنتجة في الآخرة.

ذهول

غالباً ما أذهب للبحث عن شيء موجود بالفعل في جيبي؛

(1) "يعطي نوراً": الفعل هو scheinen والذي يمكن أن يعني «يشع» أو «يظهر».

(2) عبارة لاتينية تعني "في مسائل الذوق، ليس ثمة تنازع"

هكذا تبحث أنت دائماً، أيضاً، يا عزيزي التقي، عن شيء

والذي هو بالفعل تحت إبهامك.

البيرة الناقصة المصيرية

يحتاج التقي إلى كوب صغير من الحياة فحسب،

لكنه يمسحه بالكامل.[1]

مشهد الحانة

«كوب من النبيذ!» يأمر الزبون؛

«بخدمتكم!» يجيب النادل.

المشهد ذاته يؤدّى في المعرفة المقدسة،

فقط اللّه هو النادل، في حين أن الصوفي هو الزبون.

المخلّص الطبيعي

أنتم معشر الصوفيين تسألون دائماً بقلق كيف يتمّ التحرّر من الآثام.

أنتم يا معشر الكسالى! شغّلوا ذيلكم! الشغل يحرّر من الآثام.

الحب المسيحي

لمنع حشرات الخطيئة عن قرصنا،

يعاملنا التقي ضربة قاتلة ـ إنها تخيف الشيطان من بيننا.

---

(1) الكوب هو الذي يمسح التقي. ـ مترجم عربي.

ترنيمة

الروح الإلهي الكريم، الذي تشبك الكلّ إلى ذاتك في الحب،

أنت في آن روح وطبيعة، كلٌّ وواحد،

مع ذلك فأنت لا تستنكف عن أن تسكن في أدنى الأشياء،

أنت لا تخشى حتى أن تفقد الوعي في الحجر الخامل؛

سلطتك في الكون تمتد إلى الكلّ وتشمل الكلّ.

أنت تمدّ المساحة الأدق إلى اللاتناهي ذاته.

أنت الذي نسيت نفسك في التضحية عندما أصبحت الكون،

علّم هؤلاء البشر الذين يقبعون في زنزانة

البحث ـ عن ـ الذات

أن يقلّدوك؛ علّمهم أن لا يعودوا يخجلون من الموت،

من تلك الفعالية التي تكون بها أنت كلّ شيء، تكونَ الروح المحب.

Sublatis vestimentis ostendunt id»

«quod reconditum vult natura[1]

كما تطرد النساء الأسد حالما

تظهر له ما كانت الطبيعة قد أخفته،

(1) أنظر عمل كانط، Physical Geography، المجلّد II، القسم 1، ص 313. [ملاحظة من قبل المترجم الإنكليزي: «Sublatis vestimentis ostendunt id quod reconditum vult natura»: من خلال خلعهم لثيابهم، فإنهم يظهرون ذلك الذي تنوي الطبيعة أن يكون مخفياً». وهذا ليس بشاهد مباشر من كانط؛ فالإشارة إلى نادرة في الـGeography Physical حيث يروى كيف يقال إن الهيئة الجسدية الأنثوية تعيق هجوم الأسود. أنظر Gesammlte Schriften، تحرير أكاديمية العلوم البروسية الملكية، 28 مجلداً. (برلين، فالتر دي غرويتر وشركاه، 1910 ـ 1972، 336 ،IX).]

كذاك يكشف التقي عن عريّ قلبه عندما يُهدّد،
على أمل تخويف الروح المنتصرة بالشعور العاري.
في الواقع، تُجبر الروح على إغلاق عينيها المستاءتين من العار،
لكن في النهاية تقف الروح وحدها منتصرة.

إلى دوغمائيين معينين

إنهم بحاجة الآن إلى صفات خاصة كي يدركوا المخلّص،
لأنّ السطحية علت منذ زمن طويل طبيعته الجوهرية.

«ما هو مناسب للمسيحية»

اليوم يرى كل توم، ديك، وهاري شيئاً واحداً بوصفه جوهرياً
بالنسبة للمخلّص؛
لكن يبقى أن ذلك الذي ينتمي حصرياً يستبعد أحدهم عن الآخر.

أنظر إلى المدى البعيد الذي وصلت إليه الأمور

منذ أن أُجبر المخلّص من قبل هؤلاء السادة على التخلّي عن عرشه،
عاش بهدوء كإنسان ذي ثروة خاصّة.

الرابط بين اليهودية والمسيحية[1]

شيء ما من الروح اليهودية ما يزال عالقاً بالمسيحيين؛
إنهم إلى حد ما عنيدون، استخصاصيون[2]، وضيقون.

(1) في هذه الحكمة وفي الحكمة التي تليها، يكرّر فويرباخ الأمور المألوفة التي يطرحها أعداء السامية الخطرون في زمنه.
(2) المقصود هنا هو أنهم يخصون بالرعاية والاهتمام أبناء ملتهم فحسب. ـ مترجم عربي.

لكن إذا لم يستمروا في تقييد الإله بالأرض المقدّسة،

هل يعتقدون أن اللّه سيظهر نفسه في مكان آخر؟

حين يعتقدون أن إلههم يجب أن يكون إله الوثنيين والأتراك

ألن يكون ضيّقاً بضيق إله اليهود؟

مبدأ تعددية الآلهة ومبدأ أحادية الإله

الاعتقاد بأن أموراً عديدة إنما هي إلهية يولّد حياة جميلة،

لكن وحده «الأحد والأحد فقط» الناضب مقبول بالنسبة

للطبيعة اليهودية.

اللباس المسيحي واللباس الوثني

الوثنيون حافظوا على رؤوسهم عارية؛ بين المسيحيين، غطاء

الليل يمنع

جريان هواء الطبيعة العذب. كان العرف الوثني

أكثر صحية.

خصوصية غريبة

مثلما سببت نغمات البربط ذات مرّة تخلية

بول المفجوع فحسب، لكن ليس نهوض روحه،

كذلك فإن الموسيقى الحلوة لفلسفتنا تعمل

فقط على مثانة الصوفي.

الإثم النهائي

ارتكاب الآثام ظاهرة عامة، لكن التفكير الآثم والتكلّم الآثم لأتقيائنا هما إثم ضد الروح القدس.

نرسيس الحديث

أيها اليوناني! لقد هلكت وأنت تنظر إلى جمالك الخاص.

نرسيس الحديث! لقد هلكت حينما كنت منسحراً

بقذارة خطاياك.

إنس ليس فقط آثام الآخرين،

بل أيضاً آثامك أنت

كل ما تجعل منه موضوعاً يأخذ له وجوداً؛ لذلك إنسَ

آثامك

ولا تركّز عليها. إنها لم تعد آثاماً.

التعميد الأكثر فعالية

كلّ ما تأتي به الحياة تطمسه أيضاً؛

وهكذا فالحياة تقدّم لنا في آن الخطيئة والمصالحة.

آثار النعمة والطبيعة

كان الوثني يمتلك عيوباً

فالطبيعة تنتج عيوباً، والنعمة تنتج آثاماً.

الطبيعة والطبيب

ما كان عيباً بالنسبة للوثني أصبح خطيئة بالنسبة للمسيحي؛
الطبيعة تشفي الوثني، في حين أن الوسائل الاصطناعية
لطبيب ما تشفي المسيحي.

الشفاء العالمي

كان زيوس آثماً كبيراً، لكن إله المسيحية كان فقط يعاني؛
حين تعترف أن هنالك خطايا في اللّه، سوف تكون خالياً منها.

«لا، ذلك شرير جدا!»
لكنه، لسوء الحظ، صحيح

إذا كنت ترغب في التخلّص من الخطيئة، أيها التقي،
ما عليك إلا أن تصبح وثنياً؛
جاءت الخطيئة إلى العالم مع المسيحية.

ما أكون عليه أنا

أنت تسأل ما أنا؟ وثني قائم من بين الأموات
والذي عاد إلى الحياة من خلال موت المخلص.

علاج منزلي

ما الذي يخلّصنا من الخطيئة؟ الذنب: هذه النار الجهنمية
التي أوقدها الإثم تلتهمه أيضاً.

وصفات للحمية

حافظ على الخير في عقلك، لكن ليس على الخطايا أو الأخطاء؛
لا تسمح للروح بأن تعرف ما قامت به النفس المسكينة.

أنت ترتكب خطيئة مزدوجة، حين تفكّر بالروح في الخطايا،
لأنك تدنّس الروح، التي لا تعرف شيئاً عن الخطايا.

إنه الإثم الأسوأ من بين كلّ الآثام بأن تصنع شيئاً من الآثام؛
فكلّ من يصنع لا شيء من شيء يصنع شيئاً
من لا شيء.

أساس التقى

يؤسس التقي إيمانه على الضعف البشري.
كم يجب أن يكون شيء ما ضعيفاً والذي يعتمد على الضعف!

النتيجة الضرورية

كل ما بني على الخطيئة والضعف هو حقاً
أكثر إثارة للشفقة من الخطيئة نفسها.

خبرة

في الواقع، بنى الصوفيون على الضعف البشري أكثر
مما بنوه على قوة المخلص، التي تستند على الضعف وحده.

البداية المطلقة

الخير يقوم على الخير؛ إنه ينشأ منه وحده

وليس من الذنوب أو آدم الذي سقط في الخطيئة، مبادئ إيمان الصوفي.

المبدأ الصحيح للدين

يستند الدين الصحيح على الحقيقة الأبدية

في الطبيعة البشرية، وليس على مستنقع الخطيئة.

الاستعدادات اللازمة للنجاة

من أجل اختبار مدى الإفادة من الإيمان المسيحي،

يجعل التقي ذاته مريضة، يصوم تقريباً حتى الموت من الجوع،

ويسجن نفسه في سجن وعي الخطيئة الخانق،

بعيداً عن الهواء الصحي ونور الطبيعة.

إنه حقاً لا عجب أن الخلاص، الذي يفتقر إلى معظم السلع الثمينة

التي تمنحها الطبيعة، له مذاق من ثم جيد جدّاً.

شخص مختلف، الذي يعيش دائما في الهواء الطلق، لا

يحتاج الخلاص؛

إنه يأكل الأطعمة الطبيعية وفي الوقت المناسب، ويشرب

في حدود المعقول.

أتوسل إليك!

صديقي العزيز، لا تستاء من السهوان الصوفي

حتى لو كان يعلن دائماً أننا مذنبون وضعفاء،

لأن نظامه كلّه يعتمد على الخطيئة وحدها،

فالعديد من بيوت الحجر تُبنى فقط بالديون.

الصوفيون القدامى والصوفيون المعاصرون

الصوفيون القدامى، الذين من أعماق الروح الخاصة بك

أعطوا حياة جديدة للكلمة المخبأة في أعماق نفسك،

فقدمّتَ أعمالاً ليس فقط من الإيمان والشعور،

ليست مستندة إلى الكلمة المكتوبة ومعتمدة عليها،

بل من العقل والفكرة،

أعمال من أعمق حيازة للروح، من الكمال اللانهائي للحياة،

أعمال هي، نتيجة لذلك، شاهد على الروح المستقلة ذاتها.

اسمح لي أن أعبر لك عن إعجابي العميق، لأني أحبك

من أعماق كينونتي.

لكن البقجة الجلدية التي تدعو نفسها حالياً بالصوفية،

التي، لعوزها الروح، مجرّدة من التأكيد الداخلي،

بدعم فقط من النقد والنحو، ترمي نفسها سوياً

بفارغ الصبر

من مقاطع الكتاب المقدس التي يجب أن تكون المعنى الأكثر داخلية

لكن الذي يتم ضخه من مصادر خارجية في قلوبهم الفارغة

حيث ما من نبع حي ينبثق من الأرض،

الذين يتصرفون فقط بتبرير كتابي لكنهم لا يفعلون شيئاً،

ولا حتى الفعل الأنبل، حين لا يلبس الهالة الكتابية،[1]

الذين يستشيرون فقط الكتاب المقدس لاكتشاف

ما إذا كان شيء ما يجب

أن يُعتقد به، لماذا، إلى أية درجة،

الذين يتوسلون بطرس وبولس لمعرفة ما إذا قلوبهم

لا تزال تخفق،

ما إذا كانوا لا يزالون يمتلكون السلطة والفهم أو

ما إذا قدراتهم

لا تستطيع من ذواتها فعل الخير دون دفع من النعمة ـ

هذا الرعاع المبتذل، باعتقاده الصحيح نحوياً،

المدعوم فقط بالورق، وليس بعد بالروح الحية،

الذين هم، طوال حياتهم المملة بمجملها، لم يفعلوا شيئاً

غير البكاء بشكل تافه من أجل سماح بالعيش أمام بوابات الرسل،

أنا أكرههم، أنا أحتقرهم، أنا أشمئز منهم.

قد يكون حتى نَفَسي الأخير سماً قاتلاً لهم.

(1) "هالة": Schein تعني في آن «نور» و«سمة».

ضرورة الحاضر

ما تعاني منه هنا لن يُتَكوّن في السماء أبداً؛

وحده خير اليوم يشفي الألم الحالي.

وليمة من الموسم

إذا فقدت مهماز الجوع، فحتى الوجبة الأكثر لذة

لا تساوي عندك أكثر من اللاشيء.

هريسة الكمأة الزائدة

أفضّل أن أمتلك قطعة من الخبز البائت هنا على الأرض ـ

إنه ما يزال الجوع هو الذي ينخر فيّ ـ

على ألذ ما تم تحضيره أبداً من هريسة الكمأة اللذيذة

في الآخرة الرائعة، حيث غادر الجوع منذ زمن طويل.

مستحضرات تجميل تجريبية

الآخرة جميلة فقط في الأمل، لا في ذاتها؛

إنها تبدو جيدة لنا فقط من مسافة بعيدة.

مثال نوعي بالكامل

وهكذا فالأمل بالآخرة له قيمة أكبر من الآخرة ذاتها،

لذلك عليه العمل مع الألم المعاش.

عزاء

لذلك، أيها الأخرق الصوفي، سآخذ الآخرة منك

لكني لن أتحدّى أمَلَكَ بها أبداً.

مثالية

لا تأخذ الأمل بكينونة أزلية من الإنسانية أبداً،

لأن هذا الأمل قد يكون مِلْكها الحقيقي الوحيد.

O Sancta Simplicitas! يا للبساطة المقدّسة!

يريد الصوفي سكب بحر العقل العميق

في آنية الحجرة الهشة التي للاعتقاد! يا للصيرورة الدقيقة!

تعذيب الاعتقاد

لماذا يأخذ الاعتقاد الكثير من التوتر والجهد؟

لأنه يمزق أنبل القدرات من نفوسنا.

الذات نفسها

من السهل أن تضحي بشيء رخيص، لكن من الصعب أن تضحي

بشيء ثمين.

هذا يفسّر لماذا يجتاز التقي كثيراً من التعذيب حتى

يمسك بالاعتقاد.

المحتوى حاسم

إنه لأمر جيد التخلي عن السيء، لكنه سيء التخلي عن الجيد.

لذلك فأنت سيئ، أيها الصوفي؛ أنت تتخلّى فقط عن الجيّد.

تلميح لضعيف ـ الذهن

الصوفي لا يتخلى عن الذات ـ هذه هي لبّ

منظومته ـ في مرضه، إنه فقط يتخلّى عن الروح.

شيء من الترفيه لك

ما هم الصوفيون؟ مجرّد دمى خشبية، ألعاب

تحركها روح أجنبية، ليست موجودة في الداخل أبداً.

تأمل تاريخي

ما أن لم يُفرض الاعتقاد بالإكراه، بل خرج من داخل الإنسان؛

كان روح العالم، ونتيجة لذلك، الحقيقة والعقل.

في تلك الأوقات كان الاعتقاد هو المستقبل، ما يزال محجوزاً في البذور؛

لكن من ثم نضج المستقبل إلى زهر وفواكه.

حتى الزمان والمكان ليسا بعيدين عن الحقيقة،

لأن الله نفسه يطيع قوانينهما بحرية:

فقط في الزمان والمكان المناسبين

في مجرى التاريخ يكون شيء منطقياً وصحيحاً.

لذلك فاعتقاد الحاضر ليس غير إكراهاً

وقمعاً للروح،

إنه ضغط لا عقلاني، كاذب، مرهق، وبائس،

لأن الاعتقاد أنجز وجهته الرفيعة منذ فترة طويلة

وهكذا فإن روح الإنسان لم تعد بحاجة له.

التذكرة بالموت العقلانية الوحيدة

لا تكن أرستقراطياً؛ بل أخفض نفسك إلى منزلة حجر

واشعر بنفسك على أنك متحد مع ذلك الذي لا يوجد لديه شعور؛

أشرك حياتك مع ذلك الذي يعيش الموت الأبدي،

والموت سيكون حتماً سهلاً بالنسبة لك كالحب.

لا تعتبره سرقة
انتحال شكل عبد

ما هو الموت؟ إنه ليس في المقام الأول كينونتك ميتاً، لكنه فقط الفعل الذي به تخلع عنك التاج والصولجان اللذين

حملتهما في الحياة.

الموت الحي والموت الميت

في الحياة، الروح تستهلكك؛ في الموت، الطبيعة تستهلكك.

الروح تستهلك لبّك؛ الطبيعة تستهلك قشرتك الخارجيّة.

شك نقدي ـ تفسيري ـ دوغمائي ـ فلسفي

يلقي آدم بلائمة الخروج من الجنة عليك؛ لكن أليس ممكناً

أن الثمرة سقطت من الشجرة لوحدها؟

تأكيد الشك

على الأقل يمكن القول إن الفاكهة كانت ناضجة تقريباً، وكما

معروف جيداً،

فالثمرة الناضجة تسقط من الشجرة لوحدها.

تأهيل

وأثناء ذلك، حتى لو أنّ الثمرة لم تسقط من الشجرة لوحدها ـ

وهو أمر مشكوك فيه للغاية، كما سبق ولاحظت ـ

فقد آن الأوان عندئذٍ لآدم أن يمتلك معرفة

ضعف البراءة البسيطة

وجَمَع فاكهة أكثر نبلاً.

أنا واثق تماماً، يمكنني أن أؤكد لكم

إذا كان باستطاعة الإيمان[1] أن يجعلني حرّاً من الاستهلاك، فأنا عندئذٍ،

(1) حين يتحدّث المؤلّف عن الإيمان والمسيحية، فهو لا يفهم بهذين ـ كما سيفهم القارئ المتلقي لوحده ـ الإيمان والمسيحية بحد ذاتيهما، بل الشكل المحدّد للإيمان المعاصر له، المسيحية الخاصة بحاضره. كذلك، أيضاً، حين يتحدّث عن النعمة، العناية، وما شابه، فهو إنما يشير فقط إلى التمثيلات اللاهوتية السابقة لهذه المفاهيم، وليس إلى الوقائع التي تشير إليها. أخيراً، حين يتحدث عن ذاته كأحد أتباع المبدأ الطبيعي، كوثني، وما شابه، فهو لا يستخدم تلك التعابير بمعناها المناسب، بل فقط على نحو استعاري وتهكمي.

مجرد أحد أتباع المبدأ الطبيعي في هذه النقطة، وكنت سأصبح بالفعل مسيحياً مؤمناً أيضاً.

الفرق بين أحد أتباع المذهب الطبيعي والمسيحي

عبر متابعة الطبيعة وحدها، عبر تعلّم الدستور الداخلي للأشياء

عبر رائحتها الخاصة، يكتشف من يتبع المذهب الطبيعي

ما هو نافع، ويضع الطعام بشكل صحيح في معدته

من خلال فمه بدافع الغريزة، لا بدافع الإلهام.

لكن المسيحي، الذي لا يجد فمه إلا بنورالنعمة،

يحتاج الروح القدس ليعلمه أن لا يدفع

بالطعام في مؤخرته، يحتاج إلى إرشاد من الكتاب المقدس ليتعلّم

أن يميّز المياه من النبيذ والسوائل الصحية من السم.

رغبة متواضعة

هل علينا أن نكون مسيحيين؟ سيكون من الأفضل أن نكون صحيين.

وحدهما الطب والكيمياء لا يزال بإمكانهما إعطاءنا الصحة.

التحالف بين الطب واللاهوت

حقاً فإن أطباءنا وكهنتنا فريق مفيد:

رجل الدين يقوم بالتعويض عن أخطاء الطب.

فكّر بهذا مراراً وتكرارا

إذا كان الطب قادراً على منع الوفاة المبكرة

والسماح للإنسان بأن يموت في الوقت الذي عينته الطبيعة،

فالإنسانية عندئذٍ لن تطالب بحياة بعد الحياة،

والأرضية التي يقف عليها رجل الدين الآن سوف تختفي.

الرب! الرب!

نتيجة لذلك، فوحدها الأخطاء التي ارتكبها أطباء منذ زمن سحيق

هي الدواعم ـ يا للحزن! ـ لقادتنا الروحيين.

إلى الشعب الزائد عن الحاجة

اسمعوا هذا، أنتم يا من تعتنون بالنفوس: نحن بحاجة إلى أشخاص

فقط والذين يعتنون بأجسادنا.

النفس تساعد ذاتها؛ وحده الجسد يحتاج إلى الأطباء.

الوقت المناسب والوقت الخطأ

الموت مقبول حين يصل في الوقت المناسب،

لكن حين يصل في وقت مبكر جداً، يكون ضيفاً ثقيلاً.

فلا عجب: حتى الزائر الأعز هو ألم

حين يأتي قبل أن يكون العشاء جاهزاً.

المخلِّص الوحيد

بقدر ما أغطس إلى أذني في المتاعب،

المخلِّص الوحيد الذي أجده كان الشجاعة الرجولية.

الندم الطاحن

النفس الجافة ليس لها طعم، فقط عندما يسحقها الندم

تصبح البذور الجافة شراباً لذيذاً بالنسبة لك.

نور النعمة

ما هو نور النعمة؟ الفانوس الذي يضيء فقط ليلاً

بحيث لا تكسر ساقك عندما يكون عليك المشي في الشارع.

التمييز بين نور النعمة ونور الطبيعة

النور الطبيعي يوقظ الأزهار من الأرض الباردة، القاسية

ويحرّض على أغاني الفرح المجيدة حتى من

صدور الحيوانات.

ويرتقي بالإنسان خارج سجن الذات

إلى الشعور النقي بالجمال والحب اللامتناهيين،

ويضع أمامه الكنوز الرائعة لكون بلا حدود

إلى درجة أنه ينسى نفسه.

لكن نور النعمة المسيحية ليس سوى مصباح ليل

للإبقاء على نور خافت في مرقد الشخص الضعيف الفقير

حتى يتمكن من الراحة بأمان أكثر، وهكذا بحيث، في حال وقوع حادث

له، يمكنه أن يشقّ طريقه إلى باب الصحة، إذا جاز القول.

وهكذا فحتى الشخص الضعيف يشعل مصباح ليله فقط عند النوم؛

لكنه في النهار، وكلّنا جميعاً، يحتاج فقط نور الطبيعة.

الوسيط

اللّه والطبيعة حدّان أقصيان تماماً؛ وحد اللّه نفسه أولاً

مع الطبيعة في الإنسانية؛ ونتيجة لذلك فإن الوسيط هو الإنسانية.

السر الواضح كضوء النهار

هل تدعوه سرّاً بأن اللّه صار إنساناً، أيها الأحمق؟

كانت ستبدو معجزة لو أنه لم يصبح إنساناً أبداً.

أفضل المفسرين للكتاب المقدّس

لقد كان المفسّرون المؤمنون المستمرون للكتاب المقدس من

سحيق الزمن

من الرؤيويين الذين لا معنى لهم.

لذلك

إذا كنت ترغب في شرح الكتاب المقدّس بدقة، إخلاص،

وأمانة،

بالحقائق وليس بالكلام الفارغ، يجب أن تصبح إذن رؤيوياً.

لعب على حكاية شهيرة

الاثنان اللذان فسّرا الكتاب المقدس بالهجوم عليه

قدّما بالفعل تفسيراً لطيفاً.

التواضع المسيحي

العِرَق الوثني المدان يعزو دائماً

أعماله الخيرة والشريرة لنفسه فقط.

لكن المسيحي ذا العقل المتواضع يعزو الأعمال الخيرة

للمخلّص

والأعمال الشريرة للشيطان وحده.

إنه بديهي

كان الوثني يعزو الأعمال البطولية لنفسه. أيها الصوفي العزيز،

من الطبيعي بالنسبة لك أن لا تنسب أي أفعال لنفسك، لأنك

لا تنجز شيئاً.

لو كنت فقط أعرف هذا!

قل لي، أيها التقي، ما هو الخاص جداً بشأنك؟

ماذا لديك والذي لم يعط لك؟

لك

إني أعترف: المسيحية التي تعلنها نقية.

لكن لهذا السبب بالذات فهي عديمة اللون، الرائحة، والطعم.

فلسفة الطبيعة

حيثما تتحد أنواع كثيرة من القوة والجودة

تصبح العناصر مكفهرة؛ لكنها تحصل أيضاً على مزيد من الروح.

المقومات اللازمة

كل رأس من الخس يحتاج خلاً وزيتاً، ملحاً، فلفلاً، وحتى

البصل والكرّاث؛

بخلاف ذلك، حتى المذاقات الطازجة بأكثر ما يمكن تصبح بلا طعم.

النية النبيلة للمتنطس

«أيها الخس المسكين، من الآن فصاعداً أريد أن أمتعك

مثلما جئت عارياً على نحو نقي من الرحم.

كم شوهك على نحو رهيب التتبيل البشري،

كم أوسختك وشوهتك على نحو فظيع الفطنة والذكاء البشريان؛

لقد ابتلاك العقل بكل أنواع الأشياء، والخل والزيت،

الملح، الفلفل،

حتى البصل والكرّاث، حتى الطعم ذاته.

لكني الآن أود أن أعيدك إلى بساطتك السابقة

عندما كنت خساً نقياً دون طعم».

السلطة تبدّلت إلى المفهوم

كانت الكاثوليكية القديمة الخس الذي

شوهه الخل والزيت، الفلفل، البصل، والكرّاث.

لكن، لحسن الحظ، نقّت البروتستانتية الخس أخيراً

من مظاهر الأبهة المرهقة في ماء الكتاب المقدس.

حول المسيحية النقيّة والملطخة

كلّ ما تأخذه، تخلطه مع عصائرك الخاصة؛

وإلا فإنه سيمكث في معدتك غير قابل لأن يُهضم مثل حجر ثقيل.

عندما كانت المسيحية لا تزال ملطخة ومصابة بعصائر الإنسان،

كانت أيضاً خيراً داخلياً.

النفوس الصوفية في الوقت الحاضر إنما هي نوافذ عادية جداً

التي من خلالها يمكنك أن تقرأ كل شيء كما هو في

الكتاب المقدس.

التصوف السابق كان يرسم على الزجاج؛ لقد احترق في مادته

قصة المسيحية، تقتم النور باللون.

النور يصبح لوناً على الأرض. مثلما أصبحت المسيحية روح العالم،

كان من الطبيعي أن النور أصبح مكفهراً في الألوان.

الغذاء ساء

مسيحيتك الكتابية تخلط جيداً جداً مع الكتاب المقدس؛

لكنها تستقر مثل حجر ثقيل في بطوننا.

تاريخ برغوث: جزء من حياتي

من الغريب أن أخبر، ومع ذلك فهي الحقيقة النقية

أن الأمر لم يحتج إلا لبرغوث لجعلي وثنياً.

ذات يوم، حين كنت أرفع يدي المطويتين إلى السماء ـ

في ذلك الوقت، كنت ما أزال ورعاً ـ وكنت أصلّي بورع عظيم،

لقد قرصني! فكّر بالأمر! تماماً في نقطة فيضي الأكثر ورعاً،

تماماً وسط تيار الصلاة أخذ البرغوث

قرصة صحية من ذراعي،

مما تسبب لي بأن أسحب يدي المطوية بأسرع ما يمكن،

لأفقد خيط صلاتي الورع،

ولألحق المدمّر سيئ السمعة لتقواي

حتى أمسكته وسحقته بغضب عارم.

الآن كان البرغوث ميتاً، لكن الجرح المؤلم الذي آذاني به المجدف

لا يزال يحترق في قلبي.

«يا مدمّر التقوى»! هكذا تحدثت إلى البرغوث في غضبي،

«من أولدك؟ ما هو غرضك في العالم؟

أيها الطفيلي، أيها المسخ المتعطش للدماء،
هل أن سلطاناً حكيماً، أباً محبّاً والذي يرتّب
كل ما في قصره لغرض ذكي،
يخلقك فقط كي تسبّب للآخرين عذاباً مرهقاً؟
إذا كان حقاً خلقك، فأنا إذن جريمة هي الأكثر مخالفة
عندما أوفدتك، أيها البرغوث، لأنك مخلوق من الله
الذي عززه في فهمه؛ عندما وجد أنك تستحق
أن تكون ضيفنا هنا على الأرض، فأرسلك في العالم
بدافع من الحب».
لكن بعد ذلك قلت لنفسي: «كان علي قتل ذلك البرغوث
إلا إذا أردت أن أضحي بحياتي لأجله».
الاعتراض قذفني نحو الأسفل
إلى الهاوية المظلمة للطبيعية العملاقة.
الآن، للمرة الأولى في حياتي، أرى حقاً الطبيعة،
أرى كيف تنتج من ذاتها من قوتها الخاصة،
كيف تكون أرضها ومصدرها الخاصّين لحياة تكافح إلى الأبد،
كيف لا تعرف قوانين بجانب قوانين كينونتها الخاصة.
وهكذا فهناك! فإنه من خلال برغوث سقطت من الإيمان،
كنت سأبقى مسيحياً مؤمناً لو يكن ثمة براغيث في العالم.

الذيل غير المفهوم للشيطان

لاهوت يومنا ـ الحاضر له معرفة بذيل الشيطان

فقط حتى بضع بوصات قبل نهايته. وهكذا، كيف أن ذيلاً

مستقلاً

الذي لم يكتشفه الجسم قط

أتى إلى الخليقة يبقى سرّاً بالنسبة له.

التخمينات المتعلقة بذيل الشيطان

للعقلانيين رأي مفاده أن البظر

لامرأة وحشية، هو الذي يثير نوازع حسية؛

يعتقد الصوفيون أن صوت خشخشة ثعبان خطير

هو الذي يجذب فريسته إلى حنجرته القاتلة،

أو أن من أحد أنواع الوحوش آكلة اللحوم،

هو الذي، مثل الأسد الرهيب، يتجرّع حتى البشر.

لكن أنا من الرأي أن من الأفضل للجميع

أن لا تضيعوا كلمة على الشيء الكئيب.

توصية لدراسة المصادر

اكمش الشيطان من الرأس، لا من الذيل؛

وبعد ذلك سوف تعرف على وجه اليقين أنه يناسب العالم تماماً.

يافطة توجيهية

حين تمسك بالشيطان فقط وهو بين البشر، ستحصل فقط

على ذيله؛

يجب أن تذهب أعلى إذا كنت تريد محاربته وجهاً لوجه.

التطبيقات العملية لذيل الشيطان في اللاهوت

بالنسبة للعقلانيين، هو بمثابة شارب عسكري

من أجل الحفاظ على احترام التنشئة الأخلاقية،

وإظهار أن الشيطان هو تصريف للسوائل

التي تخرج من الجسد في مرحلة البلوغ.

وأنه من المؤكد كان سيبدو أكثر جمالاً لو أن وجه المرء

بقي أملساً

إلا أن الجوهر لا يشوّه باللحية،

وأنه نتيجة لذلك فإنه من السهل جداً حلاقتها من الشيطان

إلا أن وجهه سرعان ما يصبح ممتلئاً بالشعر حتى في ليلة واحدة.

بالمقابل، فهذا الذيل هو جزء لا يتجزأ من الصوفي،

الذي يجلس عليه من الولادة ـ لا يتخلّص منه أبداً.

الإرث البدني منذ آدم وما بعد،

هذا الذيل معلّق به تماماً.

مع ذلك، دعونا نقول، إنه ليس استطالة للعصعص،

وهكذا فإنه، كما هو الحال عند الحيوانات، ينمو من جذر داخلي،
لكنه يشبه خصلة ريش على قبعة زيّ عسكري،
التي تُعلّق بالضغط في ثقب خفي
التي يكشفها الصوفي لمجموعات من الأطفال من أجل أنه
سيتلقى الذيل الذي يؤول إليه أباً بعد أب.
مع ذلك، التذييل لا يزداد إرفاقاً به إلى حد
أنه يمكنه القيام به حتى بحيل ذكية به،
لأنه يتعلّق بهذا الذيل الموروث بشكل آمن كقرد،
حتى استخدامه لتسلق شجرة الخلاص.

حول الموت والأزلية

يعيش الإنسان إلى الأبد؛ لذلك فالبشر يموتون،
لأن الأبدية ليست سوى موت كل ما هو زمني.

حقاً، سوف تتحول إلى تراب في يوم من الأيام؛ لكن كلّ الأفكار النبيلة التي ملكتها،
كل ما أحببته بعمق لا يزول أبداً.

الموضوع الوحيد الذي يحبّه الإنسان هو الجوهر الإنساني؛
فحين يحبّ الإنسان موضوعاً يكون فارغاً مثل قشّة
لا شخصيتك ولا لحمك يعيشان إلى الأبد؛
فقط في الحب تعيش بعد الموت.

تفسير

هذه العلامة حاسمة. لكن، يا عزيزي، لن يُعرف أبداً
ما إذا هي فضلة ذبابة أو من إملاء اللّه.

الشيء نفسه كما في حالة حمار بورديان[1]

الواقع أن الكتاب المقدس هو القفل على بوابات الخلاص،
لكن الوثنية، للأسف، هي المفتاح الوحيد الذي يناسبه.

إلهام

«الكتاب المقدس موحى به». بالتأكيد! لكن الأرض التي سكبت
الروح عليها ذاتها كانت جافة؛ فبالكاد تنمو زهرة واحدة هناك.

اعذرني! كل مقعد محجوز

وبطبيعة الحال. هنا تجلس السيدة تاريخ على دولاب الغزل
مبللة خيط الغزل الجاف بقطارة الرطوبة الركيكة.
هذا الكرسي يخص الآنسة أخلاقية، وعلى ذلك الكرسي
يعلّم السيد تطبيق عملي حكمة مناسبة جداً لرعاية المنزل.
هنا يجلس يعقوب الكبير، هناك بطرس، هنا لوقا وبولس:
جميع الأماكن محجوزة. أرجوك غادر، أيها الروح القدس!

أنا:

«هل سلب الروح القدس الفردية
من الانجيليين المختلفين الذين انسكب عليهم؟»

(1) أنظر الهامش التعلّق بالموضوع آنفاً.

التقوي المتعلّم من برلين:[1]

«ليس على حياتك! ذلك من شأنه أن يكون بربرياً؛

إنه يحثّ الأتباع فقط بقطرات خفيفة من ندى

سماوي، إذا جاز القول».

السيد المحترم مرة أخرى، يتنهد بعمق
في وهج صفاته البشرية المشعة،
المثيرة للاهتمام:

«الإلهام لطيف؛ إنه يضيء فقط أزهار الإنسانية

وهكذا بحيث يمكن للمرء أن يرى على نحو أفضل الألوان المتناقضة

في التوهج السماوي».

صديقه العزيز يدعمه:[2]

«كان الانجيليون مجرّد أدوات، على الرغم من أنهم ظلّوا أحراراً».

(حر؟ ربما لعبوا بعض الحيل الصغيرة الخاصة بهم).

1) هذه ربما تكون إشارة إلى نيأندر (أنظر الهامش الذي يشير إليه آنفاً)، بسبب الإشارة في الحكمة التالية "الخصائص المشعّة، الهامة البشرية" للتقوي. كانت شخصية نيأندر خارقة للمعتاد في دوائر برلين الثقافية بسبب لباسه غير التقليدي وطريقته الموحية في إلقاء المحاضرات.

2) ظلّ نيأندر قريباً من الدائرة التقوية حول هنغستنبرغ حتى اعترض، عامَ 1830، على دعوة هنغستنبرغ إلى رقابة على الآراء اللاهوتية الأكثر ليبرالية؛ أكثر من ذلك، فقد علّم تولوك في برلين حتى عام 1860 لكن الأكثر ترجيحاً هو أن الإشارة هي إنما إلى صديقه القديم، اللاهوتي التقوي الحساس، غيرهارد فريدريش أبراهام شتراوس (1786 ـ 1863)، الذي خدم كواعظ في البلاط والكاتدرائية وعمل في جامعة برلين كأستاذ للاهوت العملي.

العقلاني السعيد المثير للسخرية:

«أية حداثة أرضية صغيرة تُركت للروح القدس كي يعيش عليها!

قريباً سيتم بيع حتى هذه المؤامرة الصغيرة».

أنا:

«لا عجب إذن حين لا تنمو على الأرض الصغيرة

لسادة الألوهية اليوم غير البطاطا».

الفلسطيني:

«هل أن ما يفيدنا هو الأنعام، عباد الشمس، أو الورود؟

دعونا نزرع البطاطا! وحدها هذه تبقينا على قيد الحياة. «

التقي من برلين:

«الزهور تخص السماء، وحين لا ننظر إليها

على الرغم من أنها تتفتح هنا على الأرض، بصرنا سيُستبقى للآخرة».

المسيحية العملية:

«على الأرض، نحن بحاجة البطاطا فقط لنكون قادرين على العيش؛

لذلك، كل من يزرع البطاطا وحدها ليس مسيحياً معتقداً».

حكمة نبيلة

العمّال المياومون المترحلون يدخرون نفودهم خلال الأسبوع؛ إنهم يشربون

الماء فقط

وهكذا بحيث يمكنهم أن يشربوا يوم الأحد البيرة حتى يكونون طينة.

البورتريه غير المحجّب

في حين لا يشرب التقي على الأرض غير الماء ويكنز

ماله بحيث أنه في السماء

يمكنه أن يَسْكَر ويبدد مدخراته.

المواطن العادي يتنهد:

«واحسرتاه! الروح القدس لا يمكنه أن يكتب إلا بالعبرية واليونانية!

الويل لنا نحن الناس العاديين، الذين لا يفهمون إلا الألمانية!»

الفيلسوف:

«الكتاب المقدس المكتوب بلغة معينة

لا يمكن أن يكون الكلمة الإلهية».

الفيلسوف ذاته:

«وحدها روح معينة، لا الروح العمومية، الإلهية،

تستخدم لغة معينة كأداة لها».

مؤرخ:

«إن حقبة الارتباك البابلي

لم تُغلق بعد، والكتاب المقدس ينتمي إلى هذا الزمن».

اعتراف عام لمفسّر مكرّم،
الذي وافته المنية تحت عبء
الدراسة اللاهوتية:

«واحسرتاه! في الوقت الذي يصل الروح القدس إلينا،

يكون مستنفذاً لتوه حتى مرحلة الموت بسبب الرحلةالشاقة».

العقلاني:

«الروح القدس، من أجل أن يهاجر من آسيا إلى أوروبا،

يأخذ طريقاً عبر أمريكا».

«علاوة على ذلك، فإنه معقد إلى درجة أنه يكتب مجلدات من طلحيات،

كمقدمات لأصغر النشرات».

«إنه يريد إرواء عطشنا، ليس بنبع العقل،

بل فقط بترك القطرات الصغيرة تتسرب من خلال ريش الإوز».

التقي الماكر يردّ بسرعة:

«كون صيرورة شهيق نزفاً بطيناً

هو على وجه التحديد دليل على الحكمة الإلهية».

«ألست تعلم أن أصغر جرعة تصنع أعظم تأثير،

وأنه حتى القهوة تجعلك ثملاً حين تشربها بالملعقة؟»

«وألا تعلم أن الروح القدس نفسه يختار
فقط ريش الإوز كأداة له؟
هل تعرف أداة أكثر ملاءمة له؟»

«أنت تثبت عدم الكفاءة عقلية لأن تدعوه معقداً؛
إنه يثير الشهية من خلال إغاظتنا بقطعة صغيرة من الخبز
قبل أن يعطيها لنا».

أنا:

«هي ذي العناية الإلهية! بدلاً من فلت العقدة
فإنها تجعل كبة خيوط الطبيعة متشابكة عشر مرات أكثر
مما هي عليه بالفعل».

المتاهة المسيحية

كان باستطاعة ثيسيوس أن يشق طريقه بسهولة عبر متاهة الطبيعة
لكن ليس عبر متاهة العناية الإلهية.

شبكة عنكبوت السفسطة اللاهوتية

كلّ من يضيع نفسه ويعربسها في شبكة
العناية الإلهية
لا يخرج؛ إنه يعلق هناك إلى الأبد.

Malheur بلية

الطبيعة عمياء والعناية الإلهية عرجاء؛

قل لي إلى أي مدى يمكن لهذا الزوج من المقعدين أن يقودنا؟

بورتريه

أنظر! هنالك تقي، يعدّ بعناية كم من الذنوب عنده

في حقيبة ظهر ذاكرته.

لاحظ كيف، بعد أن قام بالحساب الصحيح،

يجرّ الكيس الثقيل فوق التلة!

«ماذا يضع هذا الرجل في ذهنه؟» إنه يذهب للتسوق في السماء

لشراء لوازم الخطايا التي ادخرها بدأب.

محادثة بين اثنين من التجار

«لذلك هناك كثير من الأرباح في تجارة الخطيئة هذه الأيام؟»

«إنه يفسّر، نعم، أني أكسب العيش من هذه المادة وحدها».

«هل الخطايا جاهزة أم مصنّعة؟»

«المصنع يخرج بالعدد الكبير الذي تخرجه الطبيعة».

«أين يمكنني التقاط الخطايا المصنعة؟

هل تستطيع أن تريني المصنع؟» « إنه هناك في اللاهوت».

«أيّ نوع هو الأفضل؟» «دون أدنى شك، الأنواع المصنعة؛

الخطايا الطبيعية ليست أبداً بالدوامية والسماكة:

فإنها تميل إلى أن تفقد ألوانها في الضوء. لكن الآثام المصنعة

تقاوم الضوء الأكثر لمعاناً».

مضاربات تجارية، جنباً إلى جنب مع شكاوى من الأوقات العصيبة للحاضر والمنتجات الفقيرة للأراضي المسيحية

صار الاعتقاد منذ ذلك الحين الشكل، الذي تبلّد عنده كل عمل تجاري،

حتى الأفكار في الرأس، حتى الدم في الأوردة.

أي أساس متين كان لدينا حين بنت فضيلة برجوازية

وشعور أكيد بما هو حق المدن!

في تلك الأيام، حين لم يكن قد حُظر على العامة بعد

الوصول إلى الفضيلة،

كانت هناك حالات إفلاس أقل كثيراً مما هي عليه اليوم!

هذه أوقات سيئة حقاً؛ البؤس الأكثر قمعية في الأرض

ومع ذلك فالمسيحيون لا يتركونا نستورد أي منتج أجنبي

لأنّ ضباط جمركنا الروحي يحظرون الدخول
حتى للمنتجات الجيدة إذا لم تحمل شارة الصليب عليها.

في تلك الأثناء، الأراضي المسيحية تغلّ فقط الذرة والبطاطا
لكن تربتها لا تقدّم شيئاً لمتعة الحياة.

بالتأكيد المواشي الزراعية، القطعان والأغنام الممتازة،
لكن الفسحة الواسعة من الطبيعة لا تزدهر في الأراضي المسيحية

لدينا الكثير من الخيول، أيضا، لكنها ملاءمة للحراثة أكثر،
من الركوب، لأنها بطيئة تقريباً مثل الحمير.

بالنسبة لأولئك الذين يحملون مظلة للدفاع عن جواد الإيمان،
الكديش المسيحي يصلح، في أحسن الأحوال، لمصنع الغراء.

رحلة

لكن مدافعنا الأوحد، بنار ما تزال تسري في عروقه،
بشجاعة يمتطي جواداً عربياً ويسافر في جميع أنحاء العالم.

شيء للحصان الفلسطيني اليومي

ربما سيكسر رقبته. حسن وجيد!
موت نبيل أفضل من الحياة التي تمضيها في معدات ركوب الخيل.

المدة لا تهم

سنة بعد سنة تخبّ على الكديش المسيحي،

ومع ذلك، أيها الجبان، فأنت لم تتعلّم بعد كيفية الركوب.

ركوب جدير بالاهتمام

ركوب نصف ساعة على جواد عربي له من القيمة أكثر

من عشر ساعات من الخب على كديش مسيحي.

الهرولة البطيئة المملّة في الآخرة

أعترف بذلك، فأنت لا تسقط عن الكديش العجوز؛ باستطاعتك أن تسير رويداً في خببك الناعس

حتى إلى السماء. لكني لا أحسدك.

ملاحظة هامة حول اللغة

فكّر فقط بهذه الحقيقة الهامة! في لغتنا، الاعتقاد مذكر

لكن العقل الغالي ليس سوى امرأة صغيرة.

مقدمة

يرجى الانتباه! سوف أصل إلى نتيجة لأفضل

مصالحكم؛

كانت حواء العقل، كان آدم الإيمان.

الستارة ترتفع عن
جنة الإيمان المفقودة

في البداية كان الإيمان وحده وفي حالة من البراءة،

لكن، للأسف، استمرت هذه البراءة لفترة قصيرة.

كان لآدم نمو طبيعي طالما كان وحده؛

وهكذا شعر بتوق قوي لرفيقة أنثى.

أشفق اللّه على محنته، فأخذ ضلعاً من جسد الإيمان،

وخلق له حواء، أي، العقل.

«أنت عظم من عظمي، لحم من لحمي،»

فقال للعقل (أفضل كلامه حقاً).

في البداية كانا عاريين لكنهما لم يخجلا واحدهما أمام الآخر؛

لأن آدم لم يكن قد عرف حواء بعد.

لكن، للأسف، حواء! حواء غير السعيدة!

لكن، للأسف، حواء! العقل الشبق!

لكن، للأسف، حواء! أغوت الإيمان المستقيم

كي يقطف الثمرة من شجرة المعرفة.

والإله الغاضب الآن قام بطرد الزوجين المثيرين للشفقة

من الجنة، أرض البراءة البسيطة.

وأحد الشيروبيم يحرس الآن بوابات عدن

بسيف ناري ولن يترك الزوجين الصغيرين يدخلان أبداً.

وهكذا فعدن الاعتقاد المحببة تضيع إلى الأبد!

اللّه ذاته رماكما؛ لا يمكنكما العودة أبداً

ربما ما يزال باستطاعتك أن تدبّس الفاكهة التي تم التقاطها من الشجرة

عودوا إليها، لكنها لن تنمو بعد أكثر.

يجب أن تعمل الآن، أن تولد بالألم؛ يجب عليك أن لا تعتقد

بعد فحسب،

لكن يجب أن تكسب بنفسك ما تحتاجه للحياة والخلاص.

استراحة وتغيير المشهد:
الطب الرعوي يُكشف
في عريّه التام

اسمع هذا، أيها الإكليروسي العادي تماماً، أيها الغندور التقي:

لو عانيت يوماً مما أعاني منه داخلياً،

لم تكن لتخب بالتأكيد في السماء

على حصان الإيمان الرمادي، الذي ذهب إلى التلقيح منذ فترة طويلة.

لو كنت قد اختبرت بالعمق الذي اختبر فيه قلبي

ماهية الخطيئة، كم هي رهيبة آلامها،

فأنت بالتأكيد لم يكن بإمكانك أن تقف مثل خادم

في حديقة الرب، في انتظار النباتات التي ذبلت

منذ زمن طويل،

ولم تكن لترغب بالحصول على العصير من عنب مداس

بالكامل

وترضع من الإيمان لتحصل على علاجك.

صدقوني، لقد عانيت الكثير

وسعيت باستمرار إلى الحقيقة بشعور نبالة،

مع ذلك وجدت أنه وحدها الطبيعة

يمكنها تقديم العلاج لمعاناة حقيقية.

من المؤكد أن الطبيب يمكنه أن يشفي من الزكام والرشح،

لكن وحدها روح المرء تشفي من الاستهلاك وأمراض خطيرة أخرى.

الأدوية هي مجرّد طرق لتحفيز الطبيعة

كي تساعد ذاتها؛ الشفاء يأتي من الداخل.

الأمراض الحقيقية، يا كاهني العزيز، مستعصية:

وحده الموت يشفي منها. هذا البيت من الشعر ليس خرافة.

الأمراض التي يشفي منها الطب هي فراشات

التي تمتص دون أذية الرحيق فقط من طرف الزهرة،

في حين أن الذي يستهلك النبتة يأتي من الأعماق تحتها؛

النبتة المريضة على نحو خطير تصبح صحيّة فقط حين لا تعود تتواجد.

هل يمكنك، يا صديقي الإكليروسي، أن تشفي الخس

عندما تستحوذ الدودة بالفعل على جذوره؟

وهكذا، أعتقد أن الأمراض التي تشفونها أنتم معشر الإكليروس ـ

لكن لو سمحتن لا تنزعجن مني، أيتها السيدات اللائي يلبسن

وفق الموضة ـ

هي النمش الذي، في أيام الصيف الحارة،

يظهر فقط على بشرتكم الحساسة.

لكن في صيدلياتكم لديكم فقط مستحضرات التجميل

ويمكنكم فقط إزالة البقع من البشاكير.

علاج الجمال يتطلب الكثير من النفقات والكثير من الإيمان،

لكن الطبيعة تشفي المرض الخطير بصمت.

بعد إذنكم، تذييل إضافي آخر

ما الذي أسميه الطبيعة، يا كاهني العزيز؟

أي شيء لا يمكنك أن تشعر به أو تراه.

طبيعة الله واضحة مثل نور ناعم، نقي.

وحدها الطبيعة لغز.

الطبيعة عبقرية غريبة في كل شيء

لذلك لن يفهمها الفلسطينيون والإكليروس أبداً.

المسرح مغلق

اخرجوا من هنا، أيها الفلسطينيون الضعفاء، أنتم رجال مملون!

لكن لكن، أيها الجنس اللطيف، أهدي الروح مع الحب.

إلى العذراء التقية

أيتها العذراء الشابة، عندما ضحيتي بالطبيعة لصالح الاعتقاد، أنت

اقترفت

خطيئتك الوحيدة؛ خلاف ذلك، سوف تظلين نقية.

السر واضح

أيها الفلسطيني، أنت تدعو وحدة الروح والطبيعة سرّاً.

مع ذلك ها هي ذا المرأة: الوحدة تكمن أمام عينيك بالذات.

شيء لأمراض النساء

يمكن للذكر أن يتحمّل كثيراً؛ فطبيعته قوية.

يمكنه حتى تحمل التقى في حَزْبة.

لكن امرأة تجيش بالتقوى تفقد جوهرها الأعمق.

طبيعتها الجميلة تفقد روح المصالحة عندها.

وظائف مختلفة من للرجل والمرأة

يحافظ الرجال على جوهر البشرية، والنساء على وجودها؛

وهكذا فالرجل يسعى للآخرة، لكن المرأة لا تحرز

شيئاً سوى الحقيقة.

تفوق المرأة

على الرجل أن يعرق لتحقيق ما ينبغي له أن يكون،

أما المرأة فهي تكون بالطبيعة لتوها ما يجب لها أن تكون.

Natura se potissimum prodit in minimis[1]

معظم الرجال لا يخرجون دون عصي المشي،

لكنني لم أر حتى الآن قط امرأة تمشي بعصا.

التقوي، على سبيل المثال

غالباً ما يستخدم الرجال عقدة من شجرة ميتة

من أجل الثبات حتى عندما يكون لديهم وسيلة أخرى للدعم.

المرأة الآمنة، السعيدة

طبيعتك وحدها، المتحدة مع قسمتك، تدعمك

يا عزيزتي المرأة.

إنها تطلب وتسعى فقط خلف ما يمليه عليك

واجبك أن تفعلي.

ما يقوم الرجل بتوحيده فقط عن طريق العمل

إنما هو متحد فيك بالطبيعة.

أيتها المرأة السعيدة! أنت نتيجة لذلك لست بحاجة إلى الإيمان.

عادة مشوشة

لا بأس أن يحمل التلميذ هراوة؛

عليه أن يجتاز كثيراً من البؤس الذي لن تساعده فيه إلا العصا.

لكن أن يتوجب أن تحمل عذارى اليوم هراوة

الإيمان! الإيمان! الله يعلم، هذا كثيرٌ جدّاً.

(1) Natura se potissimum prodit in minimis: «تنتج الطبيعة ذاتها مبدأياً في الحقائق الصغرى».

أمثلة على مآثر النساء
الأكثر مجداً ونبلاً:
(1) الخروج من الجنة

«أضلّت حواء آدم». أنا بالتأكيد لست مستاءً من حقيقة
إنها سحبت في نهاية المطاف القبعة الليلية من على رأس التقوي الأحمق.

حركة ليوم عيد جديد

يجب أن نحتفل بامتنان باليوم الذي
أضلّت فيه حواء آدم، لأنها فعلت ذلك فقط بدافع من حبها لنا.

(2) خلق العالم وفلسفة الطبيعة

ذات مرّة أبعدت مايا الكآبة عن براهما القديم[1]
وهكذا تم تحويل الشخص المكتئب إلى خالق للعالم.

(3) حرب طروادة والشعر

سحبت هيلين الإغريق من زواياهم وشقوقهم الصوفية
وهكذا فإنهم، بسببها، حطموا رؤوساً بشجاعة.

نداء إلى الجنس اللطيف

عزيزاتي العذراوات والنساء! خذن النبلاء القدامى
كمثال لكنّ
وأبعدن اللاهوت مرة أخرى.

---

1) في الميثولوجيا الهندوسية كانت مها مايا الأم العذراء لغوتاما بوذا، وهي تُعبد في بوذية المهايانا بوصفها التشخيص للحكمة الفائقة وأم كلّ بوذا. براهما هو أحد الآلهة الرئيسين في الحقبة الفيدية المتأخرة؛ وقد وصل إلى انتحال هوية الإله الخالق براجبتا. لكني لا أعرف إلى أية أسطورة بعينها يشير فويرباخ.

الفهرس

أفكار حول الموت والأزلية

أفكار حول الموت والأزليّة هو إنكار صريح للاعتقاد المسيحي بالخلود الشخصي، نداء من أجل الإقرار بالنوعية التي لا تنضب للحياة الوحيدة التي لدينا، وهجوم ساخر على مواقف ونفاقيات اللاهوتيين المحترفين في ألمانيا القرن التاسع عشر. لقد زعم محرر العمل أنه أمضى وقتاً صعباً لإقناع المؤلف بالسماح له بنشره؛ وكان لتحفّظ المؤلف مبرراته أيضاً، لأنه بسبب الغضب الذي تسبّب به، أصبح هذا الكتاب عقبة رئيسة أمام محاولات لودفيغ فويرباخ للحصول على الأستاذية من إحدى الجامعات الألمانية. وعلى الرغم من ذلك، لم يجد أنّ هذا الاستبعاد مأساوياً على نحو خاص. كان قد مضى عليه يدرّس كمحاضر لمدة سنتين في جامعة إيرلنغن في الوقت الذي ظهر فيه الكتاب، وأثناءها كان احتقاره موجهاً إلى عالم الباحث المحترف بقدر ما هو موجّه إلى عالم اللاهوتي: "ثلاثة أشياء لا أحب أن أكونها: عرّاف عجوز، كاتب هزيل/ في الأكاديمية، وأخيراً تقي"(ص 205) .

مع ذلك، فهذا الكتاب أكثر بكثير من إنكار لاعتقاد مسيحي بعينه، اعتقاد هاجمه التنوير الفرنسي لتوه خلال القرن الذي سبق. ومنشوراً عام 1830، فقد كان أول نتيجة تُطرح على الملأ لحوار داخلي كان على فويرباخ القيام به من خلال كثير من حياته المهنية مع ممثلين كبار لتقليد الفلسفة الغربية...